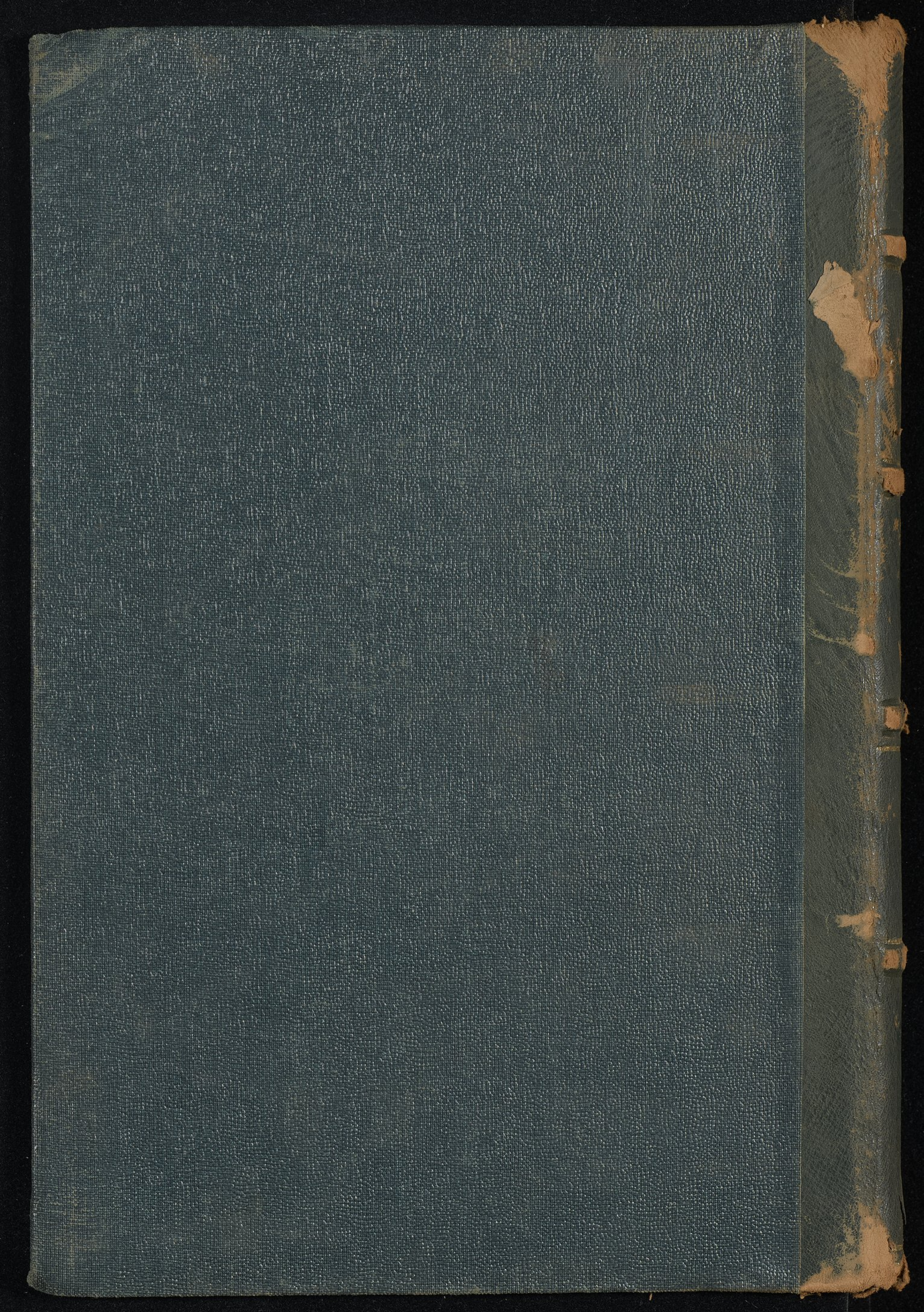
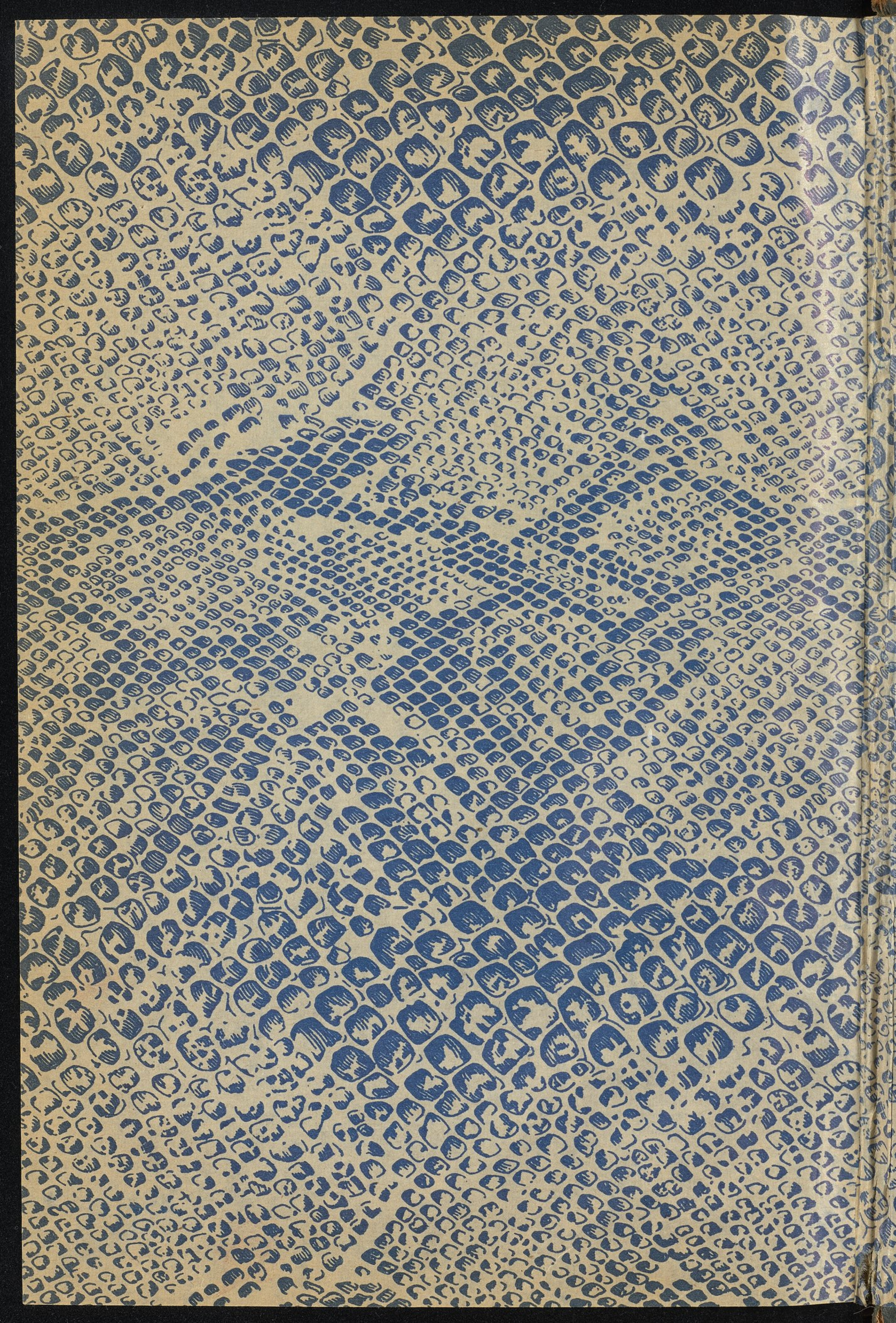
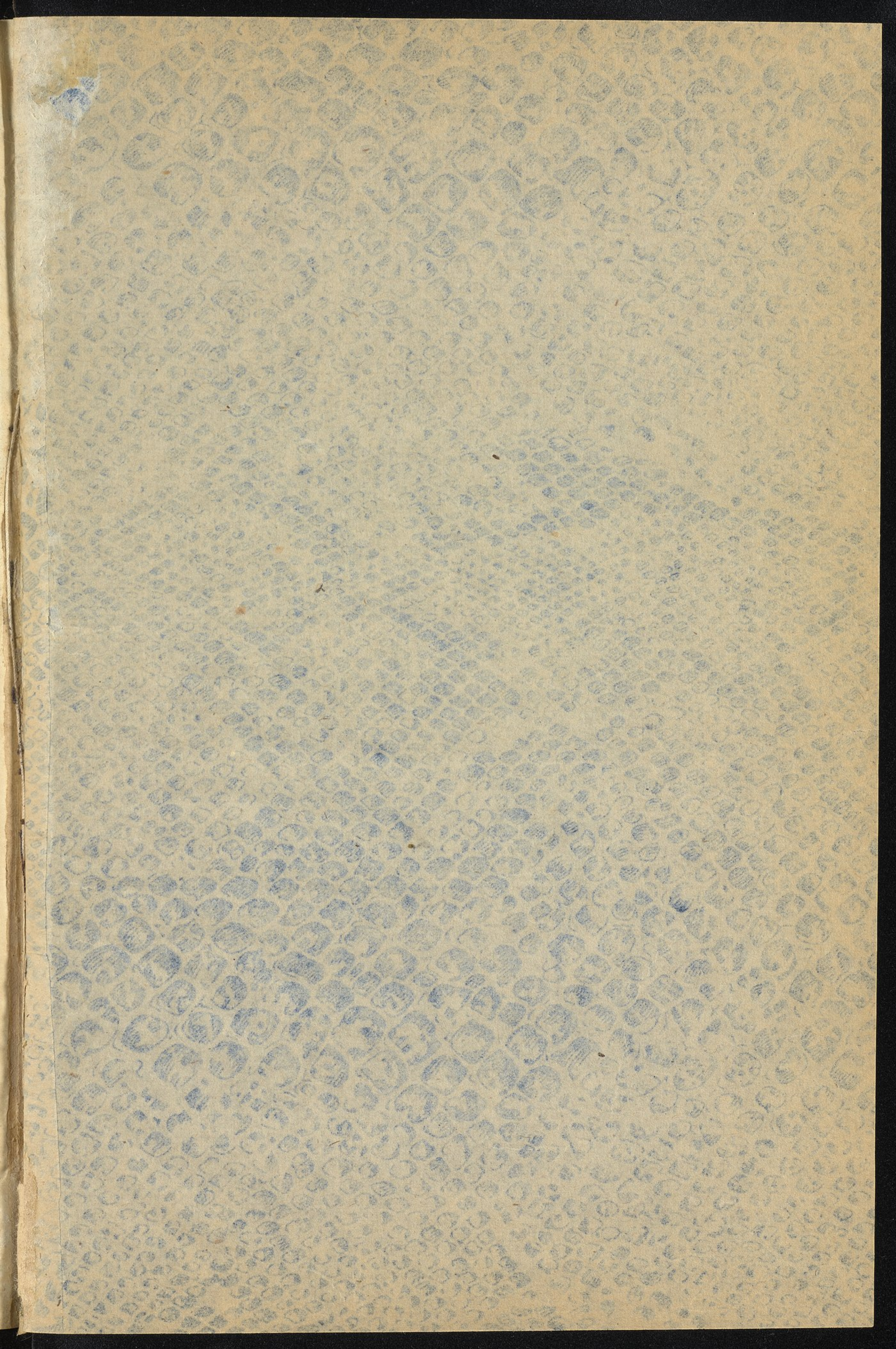






Col 800/39

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

فهـرس الجـزء الرابع

تفسـير سـورة «آل عمران»

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

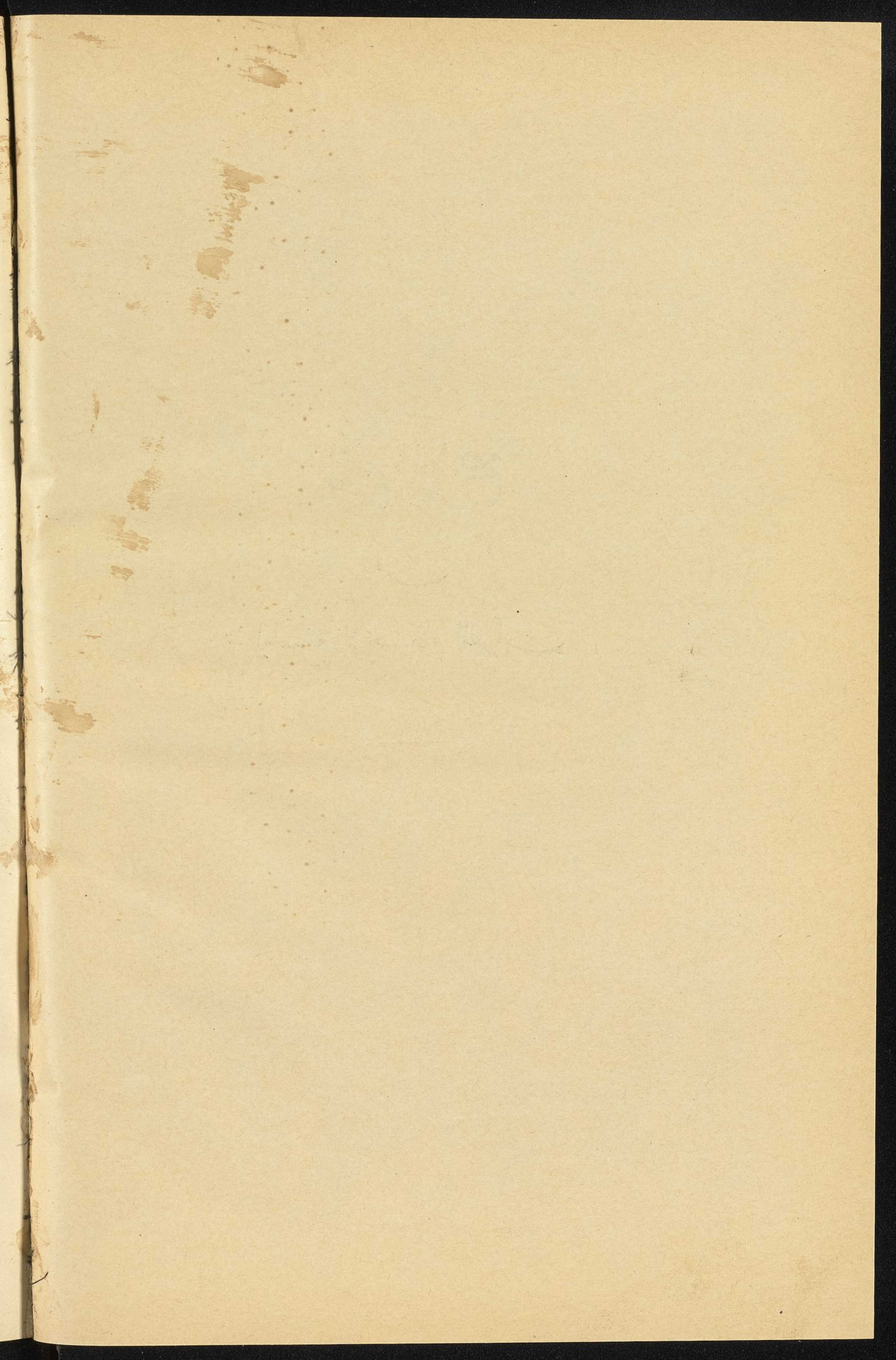
صفحة

صفحة

الجزء الرابع

من

الجامع لأحكام القرآن



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿ الٓمٓ . ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ هذه السورة مدنيّة بإجماع . وحكى النقّاش أن اسمها فى التوراة طَيْبة . وقرأ الحسن وعمرو بن عُبَيْد وعاصم بن أبى النُّجُود وأبو جعفر الرُّؤاسِىّ [1] « الٓمٓ . أللهُ » بقطع ألف الوصل، على تقدير الوقف على « الٓمٓ » كما يقدِّرون الوقف على أسماء الأعداد فى نحو واحد ، إثنان ، ثلاثة ، أربعة ، وهم واصلون . قال الأخفش سعيد : ويجوز « الٓمِ اللهُ » بكسر الميم لالتقاء الساكنين . قال الزجّاج : هذا خطأ ، ولا تقوله العرب لِثقَله . قال النحّاس : «القراءةُ [الأولى قراءة] [2] العامّة، وقد تكلّم فيها النحويّون القدماء، فمذهب سيبويه أنّ الميم فُتحت لالتقاء الساكنين، واختاروا لها الفتح لئلّا يجمعوا بين كسرة وياء وكسرة قبلها . وقال الكسائىّ : حروف التهجِّى إذا لحقتها ألف وصل فحُذفت ألف الوصل حرّكتها بحركة الألف فقلت : الٓمَ اللهُ، والٓمُ اُذكُر، والٓمِ اقتربت . وقال الفرّاء : الأصل «الٓمٓ أللهُ» كما قرأ الرُّؤاسىّ فألقيت حركة الهمزة على الميم . وقرأ عمر بن الخطّاب «الحىُّ القيَّامُ» . وقال خارجة : فى مصحف عبد الله «الحىّ القيِّمُ» . وقد تقدّم ما للعلماء [من آراء] [3] فى الحروف التى فى أوائل السور فى أوّل « البقرة » [4] . [و] [3] من حيث جاء فى هذه السورة «ٱللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ» جملة قائمة بنفسها فتتصوّر تلك الأقوال كلها .

---

(١) فى القاموس وشرحه (مادة رأس) : «و بنو رؤاس (بالضم) : حى من عامر بن صعصعة . قال الأزهرى : وكان أبو عمر الزاهد يقول فى أبى جعفر الرؤاسى أحد القرّاء والمحدّثين أنه الرواسى ، بفتح الراء و بالواو من غير همز، منسوب الى رواس قبيلة من سليم ، وكان ينكر أن يقول الرؤاسى بالهمزة كما يقوله المحدّثون وغيرهم . قلت : و يعنى بأبى جعفر هذا محمد بن سادة الرواسى . ذكر ثعلب أنه أوّل من وضع نحو الكوفيين ، وله تصانيف » .

(٢) التكملة عن إعراب القرآن للنحاس . (٣) زيادة يقتضيها السياق . (٤) راجع جـ ١ ص ١٥٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثانية — روى الكِسائيّ أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه صلّى العشاء فاستفتح «آل عمران» فقرأ «الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحىُّ القيّام» فقرأ فى الركعة الأولى بمائة آية، وفى الثانية بالمائة الباقية . قال علماؤنا : ولا يقرأ سورةً فى ركعتين ، فإن فعل أجزأه . وقال مالك فى المجموعة : لا بأس به، وما هو بالشأن .

قلت : الصحيح جواز ذلك . وقد قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأعراف فى المغرب فرّقها فى ركعتين . خرّجه النَّسائى أيضا، وصحّحه أبو محمد عبد الحق، وسيأتى .

الثالثة — هذه السورة ورد فى فضلها آثار وأخبار؛ فمن ذلك ما جاء أنّها أمانٌ من الحيّات، وكنزٌ للصُّعْلوك، وأنها تُحاجُّ عن قارئها فى الآخرة، ويُكْتَب لمن قرأ آخرها فى ليلةٍ كقيام ليلة ، إلى غير ذلك . ذكر الدّارِمِيّ أبو محمد فى مسنده حدّثنا أبو عُبَيد القاسم بن سلاّم قال حدّثنى عُبَيد الله الأشْجعى قال : حدّثنى مِسْعَر قال حدثنى جابر[1]، قبل أن يقع فيما وقع فيه، عن الشَّعْبيّ قال قال عبد الله : نِعم كنزُ الصُّعْلوك سورةُ «آل عمران» يقوم بها فى آخر الليل . حدّثنا محمد بن سعيد حدّثنا عبد السلام عن الجُرَيْرِيّ[2] عن أبى السَّلِيل[3] قال: أصاب رجل دماً قال : فأوى إلى وادى مَجَنَّة : وادٍ لا يمشى فيه أحدٌ إلا أصابته جِنَّةٌ ، وعلى شَفِير الوادى راهبان ؛ فلمّا أمسى قال أحدهما لصاحبه : هلَك والله الرجل ! قال : فافتتح سورةَ «آل عمران» قالا : فقرأ سورة طَيْبَة لعله سينجو . قال : فأصبح سليما . وأسند عن مَكْحُول قال : مَن قرأ سورة «آل عمران» يوم الجمعة صلّت عليه الملائكة إلى اللّيل . وأسند عن عثمان بن عَفّان قال : مَنْ قرأ آخر سورة «آل عمران» فى ليلةٍ كتب له قيامُ ليلة . فى طريقه ابنُ لَهِيعة . وخرّج مُسْلم عن النَّوّاس بن سِمْعان الكِلاَبِيّ قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "يُؤْتَى

---

(١) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجُعْفِيّ . توفى سنة ١٢٨ هـ . قال ابن سعد : كان يدلس وكان ضعيفا جدا فى رأيه وروايته . وقال العجلى : كان ضعيفا يغلو فى التشيّع . وقال أبو بدر : كان جابر يهيج به مرّة فى السنة مرّة فيهذى ويخلط فى الكلام . فلعل ما حكى عنه كان فى ذلك الوقت . وقال الأشجعى مبينا ما وقع فيه بأنه ما كان من تغير عقله . (عن تهذيب التهذيب) . (٢) الجريرى : بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، وهو سعيد بن إياس . ينسب الى جرير بن عباد . (عن تهذيب التهذيب) . (٣) أبو السليل (بفتح المهملة وكسر اللام) هو ضريب (بالتصغير) بن نقير ، ويقال نفير، ويقال نقيل . (عن تهذيب التهذيب) .

بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران — وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعدُ ، قال : — كأنهما غمامتان أو ظُلَّتان سَوْداوان بينهما شَرْقٌ[١] ، أو كأنهما حِزْقانِ[٢] من طير صَوَافَّ تُحَاجّان عن صاحبهما .

وخرّج أيضا عن أبي أُمامة الباهلي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزَّهْرَاوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيَايَتان أو كأنهما فِرْقانِ من طير صَوَافَّ تُحَاجّان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإنّ أَخْذَها بركةٌ وتَرْكَها حسرةٌ ولا يستطيعها البَطَلَة" . قال معاوية[٣] : بلغني أن البَطَلة السحرةُ .

الرابعة — للعلماء في تسمية « البقرة وآل عمران » بالزَّهْرَاوَين ثلاثة أقوال :

الأوّل — أنهما النَّيِّرتان، مأخوذ من الزَّهَر والزُّهْرَة؛ فإمّا لهدايتهما قارئهما بما يَزْهَر له من أنوارهما أي من معانيهما .

وإمّا لِما يترتب على قراءتهما من النُّور التامّ يوم القيامة، وهو القول الثاني .

الثالث — سمِّيتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمّنه اسم الله الأعظم؛ كما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اسمُ الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ والتي في آل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾" أخرجه ابن ماجه أيضا . والغمام : السحاب الملتفّ، وهو الغياية إذا كانت قريبا من الرأس ، وهي الظُّلة أيضا . والمعنى : أن قارئهما في ظِلّ ثوابهما؛ كما جاء "إن المؤمن في ظِلّ صدقته" . وقوله : "تُحَاجّان" أي يخلق الله من يجادل عنه بثوابهما ملائكةً كما جاء في بعض الحديث : "إن مَنْ قرأ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية خلق الله سبعين مَلَكا يستغفرون له إلى يوم القيامة" . وقوله : "بينهما شَرْق" قيِّد بسكون الراء وفتحها ،

---

(١) الشرق : الضوء . وسكون الراء فيه أشهر من فتحها .	(٢) في الأصول : « فرقان » بالفاء . والتصويب عن صحيح مسلم . والفرق : القطعة . والحزق والحزيقة : الجماعة من كل شيء .

(٣) هو معاوية بن سلام أحد رجال سند هذا الحديث .

وهو تنبيه على الضياء، لأنه لمّا قال : "سَوْداوان" قد يُتوهّم أنهما مُظْلمتـان، فنفى ذلك بقوله "بينهما شرق" . ويعنى بكونهما سـوداوان أى من كثافتهما التى من سببها حالتا بين مَنْ تحتهما و بين حرارة الشمس وشدّة اللهب . والله أعلم .

الخامســة — صَدْرُ هذه السورة نزل بسبب وفد نَجْران فيما ذكر محمد بن إسحاق عن محمد ابن جعفر بن الزُّبير، وكانوا نصارى وَفَدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى ستّين راكبا، فيهم من أشرافهم أربعةَ عشر رجلا، فى الأربعةَ عشر ثلاثةُ نفر اليهم يرجع أمرُهم : العـاقِبُ[1] أميرُ القوم وذو آرائهم وآسمه عبد المسيح، والسيِّد ثِمـالُهم[2] وصاحب مُجْتَمَعهم وآسمه الأَيْهَم، وأبو حارثة بن عَلْقَمة أحدُ بكر بن وائل أُسْـقُفُهم وعالمهم؛ فدخلوا على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أثر صلاة العصر، عليهم ثياب الحِبَرات[3] جُبَبٌ وأردية . فقال أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وسلم : ما رأينا وفدًا مثلهم جمالًا وجلالة . وحانت صلاتُهم فقاموا فصلَّوْا فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى المَشْرِق. فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "دَعُوهم" . ثم أقاموا بها أيّاما يُناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى و يزعمون أنه ابن الله، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة، و رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبصرون. ونزل فيهم صَدْرُ هذه السورة إلى نَيِّف وثمانين آية؛ الى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم إلى المباهلة[4]، حسب ما هو مذكور فى سيرة ابن إسحاق[5] وغيره .

قوله تعـالى : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾

(١) السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مراتبهم، والعاقب يتلو السيد . (٢) الثمال (بالكسر) : الملجأ والغياث والمطعم فى الشدّة . (٣) الحبرات (بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة) : ضرب من الثياب اليمانية .
(٤) باهل القوم بعضهم بعضا وتباهلوا وابتهلوا : تلاعنوا . ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم اذا اختلفوا فى شىء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا . (٥) راجع سيرة ابن هشام ص ٤٠١ طبع أوربا .

قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق، وقيل : بالحجة الغالبة . والقرآن نزل نجوما : شيئا بعد شيء؛ فلذلك قال « نَزَّل » والتنزيل مرّة بعد مرّة . والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة؛ فلذلك قال «أَنْزَلَ» . والباء فى قوله « بِالْحَقِّ» فى موضع الحال من الكتاب، والباء متعلقة بمحذوف، التقدير آتيا بالحق . ولا تتعلق بنزّل، لأنه قد تعدّى الى مفعولين أحدهما بحرف جر، ولا يتعدّى الى ثالث. و «مُصَدِّقًا» حال مؤكدة غير منتقلة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدّق ، أى غير موافق؛ هذا قول الجمهور . وقدّر فيه بعضهم الانتقال، على معنى أنه مصدِّق لنفسه ومصدِّق لغيره .

قوله تعالى : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى من الكتب المُنزلة . والتوراة معناها الضياء والنور؛ مشتقة من وَرَى الزّنْد ووَرِىَ لغتان إذا خرجت ناره . وأصلها تَوْرَيَةٌ على وزن تَفْعَلة، التاء زائدة، وتحركت الياء وقبلها فتحة فقلبت ألفا . ويجوز أن تكون تَفْعِلة فتنقل الراء من الكسر الى الفتح؛ كما قالوا فى جَارِيَةٍ : جَارَاة، وفى نَاصِيَةٍ[1] ناصاة؛ كلاهما عن الفرّاء . وقال الخليل : أصلها فَوْعَلة؛ فالأصل وَوْرَيَةٌ، قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت فى تَوْلَجَ[2]، والأصل وَوْلَجَ فَوْعَلٌ من وَلَجْت، وقُلبت الياء ألفا لحركتها وانفتاح ما قبلها . وبناء فَوْعَلةٍ أكثر من تَفْعَلة. وقيل : التوراة مأخوذة من التَّوْرِية، وهى التعريض بالشيء والكتمان لغيره؛ فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح ؛ هذا قول المُؤَرِّج . والجمهور على القول الأوّل لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ وضِيَاءً وَذِكْرَى لِلْمُتَّقِين » يعنى التوراة . والإنجيل إفْعِيلٌ من النَّجْلِ وهو الأصل ، ويجمع على أَنَاجِيل ، وتوراة على تَوَارٍ ؛ فالإنجيل أصلٌ لعلوم وحِكَم . ويقال : لعن الله نَاجِلَيْهْ، يعنى والديه ، إذ كانا أصلَه . وقيل : هو من نَجَلْتُ الشيء إذا استخرجته ؛ فالإنجيل مستخرج به علوم وحِكم ؛ ومنه سُمِّى الولد والنسل نَجْلًا لخروجه؛ كما قال :

إلى مَعْشَرٍ لم يُورِثِ اللؤمَ جَدُّهم * أصاغرَهم وكلُّ فَحْلٍ لهم نجلُ

---

(١) هى لهجة طائية ، يقولون فى مثل جارية جاراة وناصية ناصاة وكاسية كاساة .

(٢) التولج : كناس الظبي أو الوحش الذى يلج فيه .

والنَّجل المـاء الذى يخرج من النّز . واستنجلت الأرضُ ، وبها نِجَالٌ إذا خرج منها المـاء ، فسمِّى الإنجيلُ به ؛ لأن الله تعالى أخرج به دَارِساً من الحق عافياً . وقيل : هو من النَّجَل فى العين (بالتحريك) وهو سَعَتُها ؛ وطعنة نَجْلاء، أى واسعة؛ قال :

رُبَّمـا ضَرْبةٍ بسيفٍ صَقِيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نَجْلاء

فسمِّى الإنجيل بذلك؛ لأنه أصلٌ أخرجه لهم ووسّعه عليهم نُورًا وضياء . وقيل : التَّناجُل التنازُع؛ وسمِّى إنجيلًا لتنازُع الناس فيه . وحكى شَمِرٌ عن بعضهم : الإنجيلُ كلّ كتاب مكتوب وافر السطور . وقيل : نَجَل عَمِل وصنَع؛ قال :

* وأَنْجُلُ فى ذاك الصنيع كما نَجَلْ *

أى أَعْمَل وأَصْنَع . وقيـل : التوراة والإنجيل من اللغة السُّرْيانية . وقيـل : الإنجيل بالسُّرْيانية انكليون ؛ حكاه الثعلبىّ . قال الجوهرىّ : الإنجيـل كتاب عيسى عليه السـلام يذكَّر ويؤنَّث ؛ فمن أنَّث أراد الصحيفة، ومن ذَكَّر أراد الكتاب . قال غيره : وقد يسمَّى القرآنُ إنجيـلا أيضا؛ كما رُوى فى قصـّة مُناجاة موسى عليه السلام أنه قال : "يا ربِّ أرى فى الألواح أقوامًا أناجِيلُهم فى صدورهم فاجعلْهم أمّتى". فقال الله تعالى له : "تلك أمّة أحمد صلى الله عليه وسلم" وإنمـا أراد بالأناجيل القرآن . وقرأ الحسن «والأَنْجِيل» بفتح الهمزة، والباقون بالكسر مثـل الإكليل ، لغتان . ويحتمل أن يكون ممـا عربته العرب من الأسماء الأعجمية؛ ولا مثال له فى كلامها .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن فُورَك[1] : التقدير هُدًى للناس المتّقين . دليلُه فى البقرة «هُدًى لِلمتَّقِينَ» فردّ هذا العامَّ الى ذلك الخاصّ . و «هُدًى» فى موضع نصب على الحال . ﴿ والفُرْقَان ﴾ القرآن . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ ﴿٥﴾

(١) ابن فورك (بضم الفـاء وسكون الواو وفتح الراء) هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك، المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهانى، توفى سنة ست وأربعمائة . (عن ابن خلكان) .

هذا خبرٌ عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل؛ ومثله فى القرآن كثير. فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهًا أو ابن إله وهو تخفى عليه الأشياء!.

قوله تعالى: هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ أخبر تعالى عن تصويره للبشر فى أرحام الأمّهات. وأصل الرَّحِم من الرحمة، لأنها مما يُتَراحم به. واشتقاق الصُّورة من صَارَه الى كذا إذا أماله؛ فالصورة مائلة إلى شَبَهٍ وهيئة. وهذه الآية تعظيم لله تعالى، وفى ضمنها الردُّ على نصارى نَجْرَان، وأنّ عيسى من المصوَّرين، وذلك مما لا يُنكره عاقل. وأشار تعالى إلى شرح التصوير فى سورة «الحجّ»[1] و «المؤمنين»[2]. وكذلك شرحه النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن مسعود، على ما يأتى هناك إن شاء الله تعالى. وفيها الردّ على الطبائعيّين أيضا إذ يجعلونها فاعلةً مستبدّة. وقد مضى الردّ عليهم فى آية التوحيد[3]. وفى مُسْنَد ابن سَنْجَر — واسمه محمد بن سنجر — حديث" إنّ الله تعالى يخلق عِظام الجنين وغَضَاريفه[4] من منيّ الرجل وشحمَه ولحمَه من منيّ المرأة". وفى هذا أدلّ دليل على أن الولد يكون من ماء الرجل والمرأة، وهو صريح قوله تعالى: «يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى». وفى صحيح مسلم من حديث ثَوْبان وفيه: أنّ اليهودىّ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: وجئتُ أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبىٌّ أو رجلٌ أو رجلان. قال: "ينفعك إنْ حدّثتُك"؟.

---

(١) فى قوله تعالى: «يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث ...» آية ٥

(٢) فى قوله تعالى: «ولقد خلقنا الانسان من سلالة ...» الآيات ١٢، ١٣، ١٤

(٣) فى قوله تعالى: «هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا» جـ ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية وثالثة.

(٤) الغضاريف: جمع غضروف (بضم الغين) وهو كل عظم رخص يؤكل، وهو مارن الأنف، ونغض الكتف (العظم الرقيق على طرفها)، ورءوس الأضلاع، ورُهابة الصدر (عُظيم فى الصدر مشرف على البطن)، وداخل قوف الأذن.

قال : أسمع بأذنى"، جئت أسألك عن الولد . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ماءُ الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعَلَا مَنِىُّ الرجلِ مَنِىَّ المرأةِ أذْكَرَا بإذْن الله تعالى وإذا علَا مَنِىُّ المرأة مَنِى الرجلِ آنَثَا بإذن الله" الحديث(١). وسيأتى بيانه آخر «الشُّورَى» إن شاء الله تعالى .

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ يعنى من حُسْن وقُبْح وسَواد وبَيَاض وطُول وقِصَر وسَلامة وعاهة، إلى غير ذلك من الشقاء والسعادة . وذُكِر عن إبراهيم بن أدهم أنّ القرّاء اجتمعوا اليه ليسمعوا ما عنده من الأحاديث ، فقال لهم : إنى مشغولٌ عنكم بأربعة أشياء، فلا أتفرّغ لرواية الحديث . فقيل له : وما ذاك الشغل؟ قال : أحدها أنّى أتفكر فى يوم المِيثاق حيث قال : "هؤلاء فى الجنّة ولا أُبَالِى وهؤلاء فى النار ولا أُبَالى" . فلا أدرى من أىّ هؤلاء كنت فى ذلك الوقت . والثانى حيث صُوِّرتُ فى الرَّحِم فقال المَلَك الذى هو موكّل على الأرحام : "يا ربِّ شَقِىٌّ هو أم سعيد" فلا أدرى كيف كان الجواب فى ذلك الوقت . والثالث حين يقبِض ملَكُ الموت رُوحى فيقول : "يا ربِّ مع الكفر أم مع الإيمان" فلا أدرى كيف يخرج الجواب . والرابع حيث يقول : «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ» فلا أدرى فى أىّ الفريقين أكون. ثم قال تعالى : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا خالِقَ ولا مصوِّر ؛ وذلك دليل على وحدانيّته ، فكيف يكون عيسى إلَٰهًا مصوِّرا وهو مصوَّر . ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يُغالَب . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة أو المُحْكِم ، وهذا أخصّ بما ذكر من التصوير .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

---

(١) راجع الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٩٩ طبع بلاق .

فيه تسع مسائل :

الأولى — خرّج مُسْلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحْذَروهم " . وعن أبى غالب قال : كنت أمشى مع أبى أمَامة وهو على حمارٍ له ، حتى إذا انتهى إلى دَرَجِ مسجد دمشق فإذا رءوس منصوبة ؛ فقال : ما هذه الرءوس ؟ قيل : هذه رءوس خوارج يجاء بهم من العراق . فقال أبو أُمَامة : كِلَابُ النار كلابُ النار كلاب النار ! شرُّ قَتْلَى تحت ظلِّ السماء ، طُوبَى لمن قتلهم وقتلوه — يقولها ثلاثا — ثم بكى . فقلت : ما يُبكيك يا أبا أُمامة ؟ قال : رحمةً لهم ، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه ؛ ثم قرأ «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» إلى آخر الآيات . ثم قرأ «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» . فقلت : يا أبا أُمَامة ، هُمْ هؤلاء؟ قال نعم . قلت : أشىء تقوله برأيك أم شىء سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : إنى إذًا لجرىء إنى إذًا لجرىء ! بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرّة ولا مرتين ولا ثلاثٍ ولا أربع ولا خمسٍ ولا ستٍّ ولا سبع ، ووضع أصبعيه فى أذنيه ، قال : و إلّا فصُمَّتا — قالها ثلاثا — ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تفرّقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقةً واحدةٌ فى الجنّة وسائرُهم فى النار ولتزيدنّ عليهم هـذه الأمّة واحدةً واحدةٌ فى الجنّة وسائرُهم فى النار " .

الثانيـــة — اختلف العلماء فى المُحْكَمَات والمتشابهات على أقوال عديدة ؛ فقال جابر بن عبد الله ، وهو مقتضَى قول الشَّعبى وسُفْيان الثورى وغيرهما : المُحْكَمات فى آى القرآن ما عُرِف تأويله وفُهِم معناه وتفسيره . والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه

دون خلقه . قال بعضهم : وذلك مِثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج والدجّال وعيسى، ونحو الحروف المقطّعة فى أوائل السور .

قلت : هـذا أحسن ما قيل فى المتشابه . وقد قدّمنا فى أوائل سورة البقرة عن الربيع ابن خيثم أنّ الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، الحديث . وقال أبو عثمان : المُحْكَم فاتحة الكتاب التى لا تجزئ الصلاة إلا بها . وقال محمد بن الفضل : سورة الإخلاص، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط . وقيل : القرآن كله مُحْكَم؛ لقوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » . وقيل : كله متشابه ؛ لقوله : « كِتَاباً مُتَشَابِهاً » .

قلت : وليس هذا من معنى الآية فى شىء ؛ فإن قوله تعـالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » أى فى النظم والرصف وأنه حقٌّ من عند الله . ومعنى « كِتَاباً مُتَشَابِهاً » أى يشبه بعضه بعضا ويصدّق بعضُه بعضا . وليس المراد بقوله «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» هذا المعنى؛ وإنما المُتَشابِه فى هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه، من قوله «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا» أى التبس علينا، أى يحتمل أنواعا كثيرة من البقر . والمراد بالمُحْكَم ما فى مقابلة هـذا، وهو مالا التباسَ فيـه ولا يحتمل إلا وجها واحدا . وقيـل : إنّ المتشابه ما يحتمل وجوها، ثم إذا رُدَّت الوجوه إلى وجه واحد وأُبطل الباقى صار المُتَشابِه مُحْكَما . فالمُحْكَم أبدًا أصلٌ تُرَدّ اليه الفروع؛ والمتشابه هو الفرع . وقال ابن عبّاس : المُحْكَمَاتُ هو قوله فى سـورة الأنعام « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » إلى ثلاث آيات، وقـوله فى بنى إسرائيل : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » . قال ابن عطيّة : وهـذا عندى مثالٌ أعطاه فى المُحْكَمَات . وقال ابن عبّـاس أيضا : المُحْكَمَات ناسخـه وحرامه وفرائضـه وما يُؤْمَن به ويعمل به ، والمتشابهات المنسوخات ومقـدّمه ومؤخّره وأمثاله وأقسامه وما يُؤْمَن به ولا يُعْمَل به . وقال ابن مسعود وغيره : المحكمات الناسخات، والمتشابهات المنسوخات؛ وقاله قتادة والربيع والضّحاك . وقال محمـد بن جعفر بن الزبير : المحكمات هى التى فيها حُجّـة الربّ

وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه .
والمتشابهات لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهن العباد؛ وقاله مجاهد وابن إسحاق .
قال ابن عطيّة : وهذا أحسن الأقوال فى هذه الآية . قال النحّاس : أحسن ما قيل
فى المُحْكَمَات والمتشابهات أنّ المحكمات ما كان قائما بنفسه لا يحتاج أن يُرْجَع فيه إلى غيره ؛
نحو «لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» « وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ» . والمتشابهات نحو «إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
جَمِيعًا » يُرْجَع فيه إلى قوله جلّ وعلا : « وإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » وإلى قوله عزّ وجل :
« إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » .

قلت : ما قاله النحاس يبيّن ما اختاره ابن عطيّة ، وهو الجارى على وضع اللسان؛
وذلك أن المحكم اسم مفعول من أُحْكِمَ ، والإحكام الإتقان ؛ ولا شك فى أن ما كان واضح
المعنى لا إشكال فيه ولا تردُّد ، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته و إتقان تركيبها ؛
ومتى اختلّ أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . والله أعلم . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : للتشابه
وجوه ، والذى يتعلق به الحكم ما اختلف فيه العلماء أىّ الآيتين نسخت الأخرى ؛ كقول
علىّ وابن عباس فى الحامل المتوفَّى عنها زوجها تعتدّ أقصى الأجَلَين . فكان عمر وزيد بن ثابت
وابن مسعود وغيرهم يقولون وَضْع الحمل ، و يقولون : سورة النساء القُصْرَى [1] نسخت أربعَةَ أشهر
وعشرا . وكان علىّ وابن عباس يقولان لم تنسخ . وكاختلافهم فى الوصية للوارث هل
نُسِخَتْ أم لم تُنْسَخ . وكتعارض الآيتين أيّهما أَوْلَى أن تُقَدَّم إذا لم يُعْرَف النسخ ولم توجد
شرائطه ؛ كقوله تعالى : « وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ » يقتضى الجمع بين الأقارب من مِلْك اليمين ،
وقوله تعالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» يمنع ذلك . ومنه أيضا تعارُض
الأخبار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وتعارُض الأقيسة ، فذلك المتشابه . وليس من المتشابه
أن تقرأ الآية بقراءتين ويكون الاسم محتملا أو مجملا يحتاج الى تفسير ؛ لأن الواجب منه قدر
ما يتناوله الاسم أو جميعه . والقراءتان كالآيتين يجب العمل بموجبهما جميعا ؛ كما قُرِئَ :

---

(١) سورة النساء القصرى هى سورة الطلاق . ومراده منها «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن» آية ٤

« وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ » بالفتح والكسر ، على ما يأتى بيانه « فى المائدة »(١) إن شاء الله تعالى .

الثالثة — روى البخارى(٢) عن سعيد بن جُبَيْر قال قال رجل(٣) لابن عباس : إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ . قال : ما هو؟ قال : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » وقال : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » وقال : وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » وقال : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فقد كتموا فى هذه الاية . وفى النازعات « أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ... الى قوله : دَحَاهَا » فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال « أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... الى : طائعين » فذكر فى هذا خلق الأرض قبل خلق السماء . وقال : « وكان الله غفورا رحيما » . « وكان الله عزيزا حكيما » . «وكان الله سميعا بصيرا » فكأنه كان ثم مضى . فقال ابن عبّاس : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » فى النفخة الأولى، ثم يُنْفَخ فى الصور فصعِق مَنْ فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنسابَ بينهم عند ذلك ولا يتساءلون؛ ثم فى النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وأمّا قوله : « مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، وقال المشركون : تعالَوْا نقول : لم نكن مشركين ؛ فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم ؛ فعند ذلك عُرِف أن الله لا يُكْتَمُ حديثا ، وعنده يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين . وخلق الله الأرض فى يومين ، ثم استوى الى السماء فسوّاهنّ سبع سماوات فى يومين ، ثم دحا الأرض أى بَسَطها فأخرج منها الماء والمرعى ، وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينهما فى يومين آخرَيْن ؛ فذلك قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » . فخُلقت الأرضُ وما فيها فى أربعة أيام ، وخُلقت السماء فى يومين . وقوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » سمى نفسه(٤)

---

(١) فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة ... » آية ٦

(٢) ورد هذا الحديث فى صحيح البخارى فى كتاب التفسير (سورة السجدة) . وبين رواية صحيح البخارى وما ورد فى الأصول اختلاف فى بعض الكلمات .

(٣) هو نافع بن الأزرق الذى صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج . (عن شرح القسطلانى) .

(٤) هذه عبارة صحيح البخارى . وفى الأصول : « يعنى نفسه ذلك ... » .

ذلك، أى لم يزل ولا يزال كذلك ؛ فإن الله لم يُرِدْ شيئا إلا أصاب به الذى أراد . ويحك! فلا يَخْتَلِفْ عليك القرآن؛ فإن كلًّا من عند الله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ لم تصرف « أُخَر » لأنها عُدِلتْ عن الألف واللام ، لأن أصلها أن تكون صفةً بالألف واللام كالكُبَر والصُّغَر ؛ فلما عُدلت عن مجرى الألف واللام مُنعت الصرف. أبو عُبَيْد : لم يصرفوها لأنّ واحدها لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة . وأنكر ذلك المبرِّد وقال : يجب على هذا ألّا ينصرف غِضَابٌ وعِطَاش . الكسائىّ : لم تنصرف لأنها صفة . وأنكره المبرِّد أيضا وقال : إن لُبَدًا وحُطَما صفتان وهما منصرفان . سيبويه : لا يجوز أن تكون أُخَرُ معدولةً عن الألف واللام؛ لأنها لو كانت معدولة عن الألف واللام لكان معرفة، ألَا ترى أن سَحَرَ[1] معرفة فى جميع الأقاويل لما كانت معدولة [عن السحر]، وأمس فى قول من قال : ذهب أمسِ معدولًا عن الأمس ؛ فلوكان أخر معدولًا أيضا عن الألف واللام لكان معرفة، وقد وصفه الله بالنكرة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم زَيْغٌ ﴾ الذين رفع بالابتداء، والخبر « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ » . والزيغ الميل ؛ ومنه زاغت الشمس ، وزاغت الأبصار . ويقال : زاغ يزيغ زَيْغا إذا ترك القَصْد؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » . وهذه الآية تعمّ كل طائفة من كافر و زِنْدِيق وجاهل وصاحب بِدْعة، و إن كانت الإشارة بها فى ذلك الوقت الى نصارى نَجْران . وقال قَتَادة فى تفسير قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم زَيْغٌ » : إن لم يكونوا الحَرُورِيّة[2] وأنواعَ الخوارج فلا أدرى مَنْ هم .

قلت : قد مرّ هذا التفسير عن أبى أُمامة مرفوعا، وحَسْبُك .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ قال شيخنا أبو العبّاس رحمة الله عليه : مُتَّبِعو المتشابه لايخلو أن يتّبعوه ويجمعوه طلبًا للتشكيك

---

(١) أى إذا أردت به سحر ليلتك . فان نكرته صرفته .

(٢) راجع الهامشة ٢ حـ ٢ ص ٢٥١ طبعة ثانية .

فى القرآن و إضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة[1] الطاعنون فى القرآن ؛ أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه ، كما فعلته المجسّمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسّنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسّم وصورة مصوّرة ذات وجه وعين و يد وجنب ورجل وأصبع ، تعالى الله عن ذلك ! ؛ أو يتّبعوه على جهة ابداء تأويلاتها و إيضاح معانيها ، أو كما فعل صَبِيغ[2] حين أكثر على عُمَر فيه السؤال . فهذه أربعة أقسام :

الأوّل — لا شك فى كفرهم ، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة .

الثانى — القول بتكفيرهم ، إذ لا فرق بينهم و بين عُبّاد الأصنام والصُّوَر ، و يُستتابون فإن تابوا و إلا قُتلوا كما يفعل بمن ارتدّ .

الثالث — اختلفوا فى جواز ذلك بناء على الخلاف فى جواز تأويلها . وقد عُرف أنّ مذهب السلف تركُ التعرّض لتأويلها مع قطعهم باستحالة ظواهرها ، فيقولون أَمِرُّوها كما جاءت . وذهب بعضهم الى إبداء تأويلاتها وحملِها على ما يصحّ حمله فى اللسان عليها من غير قطع بتعيين مُجْمَل منها .

الرابـع — الحكم فيه الأدبُ البليغ ، كما فعـله عمر بصَبِيغ . وقال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمة من السلف يُعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف المُشْكلات فى القرآن ، لأن السائل إن كان يبغى بسؤاله تخليد البِدْعة و إثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير ، و إن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب بما آجترم من الذنب ، إذ أوجد للمنافقين الملحدين فى ذلك الوقت سبيلا إلى أن يقصدوا ضَعَفَة المسلمين بالتشكيك والتضليل فى تحريف القرآن عن مناهج التنزيل وحقائق التأويل . فمن ذلك ما حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن صَبِيغَ بن عِسْل

(١) القرامطة : فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقـدون نبوّة زرادشت ومزدك ومانى ؛ وكانوا يبيحون المحرّمات . (راجع عقد الجمان للعينى فى حوادث سنة ٢٧٨) .

(٢) صـبيغ (وزان أمير) بن شريك بن المنـذر بن قطن بن قشع بن عسل (بكسر العين) بن عمرو بن يربوع التميمى ، وقد ينسب الى جدّه الأعلى فيقال : صبيغ بن عِسل . راجع القاموس وشرحه مادة « صبغ وعسل » .

قدم المدينة فجعل يسأل عن مُتشابه القرآن وعن أشياء ؛ فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فبعث اليه عمر فأحضره وقد أعدّ له عَرَاجين من عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صَبِيغ . فقال عمر رضى الله عنه : وأنا عبد الله عمر ؛ ثم قام اليه فضرب رأسه بعُرْجون فشجّه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمُه على وجهه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ! فقد والله ذهب ما كنت أجد فى رأسى . وقد اختلفت الروايات فى أدبه ، وسيأتى ذكرها فى « الذاريات » . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها فى قلبه فتاب وحسُنت توبته . ومعنى « ابتغاءَ الفتنة » طلب الشبهات واللَّبْس على المؤمنين حتّى يُفسدوا ذات بينهم ، ويردّوا الناس الى زَيْغهم . وقال أبو إسحاق الزجّاج : معنى «ابتغاء تأويله» أنهم طلبوا تأويل بَعْثهم وإحيائهم ، فأعلم الله جلّ وعزّ أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ — أى يوم يرون ما يوعدون من البعث والنشور والعذاب — يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ — أى تركوه — قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ » أى قد رأينا تأويل ما أنبأتْنا به الرسل . قال : فالوقف على قوله : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » أى لا يعلم أحد متى البعث إلا الله .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ يقال : إن جماعة من اليهود منهم حُيَيّ بن أخْطَب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بلغنا أنه نزل عليك « الٓمٓ » ، فان كنتَ صادقًا فى مقالتك فإن مُلْك أمّتك يكون إحدى وسبعين سنة ؛ لأن الألِف فى حساب الجُمّل واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فنزل «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ» . والتأويل يكون بمعنى التفسير ، كقولك : تأويل هذه الكلمة على كذا . ويكون بمعنى ما يؤول الأمر اليه . واشتقاقه من آلَ الأمرُ إلى كذا يؤول اليه ، أى صار . وأوّلته تأويلا أى صيّرته . وقد حدّه بعض الفقهاء فقالوا : هو إبداء احتمالٍ فى اللّفظ مقصود بدليل خارج عنه . فالتفسير بيان اللّفظ ، كقوله « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لا شك . وأصله من الفَسْر وهو البيان ؛ يقال : فَسَرْتُ

الشىءَ (مخففا) أفسِرُه (بالكسر) فَسْرًا . والتأويل بيان المعنى ؛ كقوله لا شك فيه عند المؤمنين . أو لأنه حقٌّ فى نفسه فلا تقبل ذاتُه الشكّ ؛ وإنما الشكّ وصف الشاكّ . وكقول ٱبن عباس فى الجَدّ أبًا ؛ لأنه تأول قول الله عزّ وجلّ : « يَا بَنِى آدَمَ » .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ اختلف العلماء فى «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» هل هو ابتداء كلامٍ مقطوع مما قبله ، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع . فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع مما قبله ، وأنّ الكلام تمّ عند قوله « إِلَّا اللهُ » هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعُرْوة بن الزُّبَير وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو مذهب الكِسائىّ والأخفش والفَرّاء وأبى عُبَيْد . قال أبو نَهِيك الأسدىّ : إنكم تَصِلون هذه الآية وإنها مقطوعة . وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » . وقال مثلَ هذا عمر بن عبد العزيز ، وحكى الطبرىّ نحوه عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس . و « يَقُولُونَ » على هذا خبر الراسخين . قال الخَطّابىّ : وقد جعل الله تعالى آيات كتابه الذى أمرنا بالإيمان به والتصديق بما فيه قسمين : مُحْكَمًا ومُتَشابِهًا ؛ فقال عزّ من قائل : «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ... إلى قوله : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » فأعلم أنّ المتشابه من الكتاب قد استأثر الله بعلمه ، فلا يعلم تأويلَه أحد غيره ، ثم أثنى الله عزّ وجلّ على الراسخين فى العلم بأنهم يقولون آمنّا به . ولولا صحة الإيمان منهم لم يستحقّوا الثناء عليه . ومذهب أكثر العلماء أن الوقف التامّ فى هذه الآية إنما هو عند قوله تعالى : «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » وأن ما بعده استئناف كلامٍ آخر ، وهو قوله « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » . ورُوى ذلك عن ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وابن عبّاس وعائشة . وإنما رُوى عن مُجاهد أنه نَسَق « الراسخين » على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه . واحتجّ له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين آمنّا ، وزعم أن موضع « يَقُولُونَ » نصب على الحال . وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا ، ولا تذكر حالًا إلا مع ظهور الفعل ؛ فإذا لم يظهر فعل فلا يكون حال ؛ ولو جاز ذلك لجاز

أن يقال : عبد الله راكبا، بمعنى أقبل عبد الله راكبا؛ وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : عبد الله يتكلم يُصلح بين الناس؛ فكان « يُصلح » حالا له ؛ كقول الشاعر — أنشدنيه أبو عمر قال أنشدنا أبو العبّاس ثعلب — :

أرسلتُ فيها قَطِمًا لُكَالِكَا[1] * يَقْصُرُ يَمْشِي ويطول بارِكا

أي يقصر ماشيا . فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده . وأيضا فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئا عن الخلق ويُثبته لنفسه ثم يكون له في ذلك شريك . ألا ترى قوله عزّ وجلّ : «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ» وقوله : «لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ» وقوله : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »، فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه بعلمه لا يَشْرَكه فيه غيره . وكذلك قوله تبارك وتعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . ولو كانت الواو في قوله : «والرَّاسِخُونَ»[2] للنسق لم يكن لقوله : « كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » فائدة . والله أعلم .

قلت : ما حكاه الخطّابيّ من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد رُوِي عن ابن عبّاس أن الراسخين معطوف على اسم الله عزّ وجلّ، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنّا به؛ وقاله الرّبيع ومحمد بن جعفر بن الزُّبير والقاسم بن محمد وغيرهم . و «يقولون» على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين؛ كما قال :

الريح تبكي شجوها * والبرقُ يلمع في الغمامه

وهذا البيت يحتمل المعنيين؛ فيجوز أن يكون «والبرقُ» مبتدأ، والخبر «يلمع» على التأويل الأوّل، فيكون مقطوعا مما قبله . ويجوز أن يكون معطوفا على الريح، و«يلمع» في موضع الحال على التأويل الثاني أي لامِعا . واحتجّ قائلو هذه المقالة أيضا بأن الله سبحانه مدحهم

(١) في الأصول : «أرسلت فيها رجلا» والتصويب عن اللسان وشرح القاموس . والقطم : الغضبان ؛ وفحل قَطِمٌ وقَطِمٌ وقِطِيمٌ : صؤول . والقطم أيضا : المشتهي اللحم وغيره . واللكالك (بضم اللام الأولى وكسر الثانية) : الجمل الضخم المرمي باللحم . ومعنى الشطر الثاني كما قال أبو علي الفارسيّ : يقصر إذا مشى لانخفاض بطنه وضخمه وتقاربه من الأرض، فإذا برك رأيته طويلا لارتفاع سنامه؛ فهو باركا أطول منه قائما » . (عن لسان العرب مادة لكك) .

(٢) في الأصول : « والراسخون معا للنسق » بزيادة كلمة « معا » .

بالرسوخ فى العلم؛ فكيف يمدحهم وهم جهّال! وقد قال ابن عباس : أنا ممن يعلم تأويله .
وقرأ مجاهد هذه الآية وقال : أنا ممن يعلم تأويله؛ حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالى .

قلت — وقد ردّ بعض العلماء هذا القول إلى القول الأوّل فقال : وتقدير تمام الكلام «عِنْدِ اللهِ» أن معناه وما يعلم تأويلَه إلا الله يعنى تأويلَ المتشابهات، والراسخون فى العلم يعلمون بعضَه قائلين آمنّا به كُلٌّ من عند ربّنا بما نُصِب من الدلائل فى المُحْكَم ومكّن من ردّه إليه . فاذا علموا تأويلَ بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آمنّا بالجميع كُلٌّ من عند ربّنا، وما لم يُحِطْ به علمنا من الخفايا مما فى شرعه الصّالح فعلمُه عند ربّنا . فإن قال قائل : قد أشكل على الراسخين بعضُ تفسيره حتى قال ابن عباس : لا أدرى ما الأوّاه ولا ما غِسْلين، قيل له : هذا لا يلزم؛ لأن ابن عباس قد علم بعد ذلك ففسّر ما وقف عليه . وجوابٌ أقطع من هذا وهو أنه سبحانه لم يقل وكُلّ راسخ فيجب هذا، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر . ورجّح ابن فُورَك أنّ الراسخين يعلمون التأويل وأطنب فى ذلك؛ وفى قوله عليه السلام لابن عباس : "اللّهمّ فقّهْهُ فى الدِّين وعلِّمه التأويلَ" ما يُبَيِّن لك ذلك، أى علِّمه معانى كتابك . والوقف على هذا يكون عند قوله «والراسخون فى العلم» . قال شيخنا أبو العبّاس أحمد بن عمر : وهو الصحيح؛ فإن تسميتهم راسخين يقتضى أنهم يعلمون أكثر من المُحْكَم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب . وفى أىّ شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ! . لكن المتشابه يتنوّع، فمنه ما لا يُعْلَم البتّة كأمر الرُّوح والساعة مما استأثر الله بغيبه، وهذا لا يتعاطى عِلْمَه أحدٌ لا ابنُ عباس ولا غيره . فمن قال من العلماء الحُذَّاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع، وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة ومَنَاحٍ فى كلام العرب فيتأوّل ويُعْلَم تأويله المستقيم، ويزال ما فيه مما عسى أن يتعلق من تأويل غير مستقيم؛ كقوله فى عيسى : «وَرُوحٌ مِنْهُ» الى غير ذلك . فلا يسمّى أحدٌ راسخا إلا بأن يعلم من هذا النوع كثيرا بحسب ما قُدِّر له . وأمّا من يقول : إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخالُ الراسخين فى علم التأويل؛ لكنّ تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح .

والرسوخ : الثبوت فى الشيء ، وكل ثابت راسخ . وأصله فى الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر فى الأرض . وقال الشاعر :

لقد رَسَخَتْ فى الصدر منِّى مَوَدَّةٌ * لِلَيْلَى أبَتْ آياتها أن تَغَيَّرَا

ورسَخ الإيمان فى قلب فلان يَرْسَخ رسوخا . وحكى بعضهم : رسخ الغدير : نضب ماؤه؛ حكاه ابن فارس فهو من الأضداد . و رَسَخ و رَضَخ و رَصُن ورسَب كلُّه ثبت فيه . وسئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الراسخين فى العلم فقال : "هو مَنْ بَرَّت يمينه وصدَق لسانُه واستقام قلبه".

فإن قيل : كيف كان فى القرآن متشابه والله يقول : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » فكيف لم يُجْعَل كلُّه واضحا ؟ قيل له : الحكمة فى ذلك — والله أعلم — أن يظهر فضل العلماء؛ لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضلُ بَعْضِهم على بعض . وهكذا يفعل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا و بعضه مشكلا، و يترك للجثوة[(١)] موضعا ؛ لأن ما هان وجوده قلّ بهاؤه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى مُحْكَمِه ومتشابهه؛ والتقدير كلُّه من عند ربنا . وحذف الضمير لدلالة « كلّ » عليه ؛ إذ هى لفظة تقتضى الإضافة . ثم قال : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ أى ما يقول هذا ويؤمن و يقف حيث وقف و يدع اتّباع المتشابه إلا ذو لُبٍّ، وهو العقل . ولُبُّ كل شيء خالصه؛ فلذلك قيل للعقل لُبّ . و « أولو » جمع ذو .

قوله تعالى : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ فى الكلام حذف تقديره يقولون . وهذا حكاية عن الراسخين . ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد . و يقال : إزاغة القلب فسادُ

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى أكثر الأصول، وفى بعض الأصول وردت بهذا الرسم من غير إعجام .

وميل عن الدِّين، أفكانوا يخافون وقد هُدُوا أن ينقلهم الله الى الفساد ؟ فالجواب أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألا يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال فيعجزوا عنه؛ نحو «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ» . قال ابن كيسان : سألوا ألا يَزِيغوا فيزيغ الله قلوبهم؛ نحو «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» أى ثبّتنا على هدايتك إذ هديتنا وألّا نزيغ فنستحق أن تُزيغ قلوبنا . وقيل : هو منقطع مما قبلُ؛ وذلك أنه تعالى لمّا ذكر أهل الزيغ عقّب ذلك بأنْ علّم عباده الدعاء إليه فى ألا يكونوا من الطائفة الذميمة التى ذُكِرت وهى أهل الزيغ . وفى المُوَطَّأ عن أبى عبد الله الصُّنابِحِىّ أنه قال : قَدِمتُ المدينة فى خلافة أبى بكر الصدِّيق فصلّيت وراءه المغرب ، فقرأ فى الركعتين الأُولَيين بأمّ القرآن وسورة من قصار المُفَصَّل ، ثم قام فى الثالثة ، فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه ، فسمعته يقرأ بأمّ القرآن وهذه الآية «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا» الآية . قال العلماء : قراءته بهذه الآية ضربٌ من القُنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردّة . والقنوت جائز فى المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفى كل صلاة أيضا اذا دهِم المسلمين أمر عظيم يُفزعهم ويخافون منه على أنفسهم . وروى الترمِذِىّ من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال قلت لأمّ سَلَمة : يا أُمّ المؤمنين ، ما كان أكثر دُعَاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه "يا مُقَلِّب القلوب ثَبِّت قلبى على دِينك" . فقلت : يارسول الله ، ما أكثر دعائك يا مُقَلِّب القلوب ثَبِّت قلبى على دينك ؟ قال : "يا أمّ سَلَمة إنه ليس آدمىٌّ إلّا وقلبُه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ" . فتلا مُعاذ[1] «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا» . قال : حديث حسن . وهذه الآية حجّة على المعتزلة فى قولهم : إن الله لا يُضِلّ العباد . ولو لم تكن الإزاغة من قِبَله لما جاز أن يُدْعَى فى دفع ما لايجوز عليه فعلَه . وقرأ أبو واقد الجرّاح «لا تَزِغْ قُلُوبُنا» بإسناد الفعل إلى القلوب ، وهذه رغبة إلى الله تعالى . ومعنى الآية على القراءتين ألّا يكون منك خلق الزّيغ فيها فتزيغ .

---

(١) هو أحد رجال سند هذا الحديث .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أى من عندك ومن قِبلك تفضُّلا لا عن سبب مِنّا ولا عمل . وفى هذا استسلامٌ وتطارح . وفى «لَدُن» أربع لغات : لَدُنْ بفتح اللام وضم الدال وجزم النون، وهى أفصحها؛ وبفتح اللام وضم الدال وحذف النون؛ وبضم اللام وجزم الدال وفتح النون؛ وبفتح اللام وسكون الدال وفتح النون . ولعل جُهّال المتصوِّفة وزنادقة الباطنية يتشبثون بهذه الآية وأمثالها فيقولون : العلم ما وهبه الله ابتداء من غير كسب، والنظرُ فى الكتب والأوراق حجاب . وهـذا مردود على ما يأتى بيانه فى هـذا الموضع . ومعنى الآية : هب لنا نعيما صادرا عن الرحمة؛ لأن الرحمة راجعة الى صفة الذات فلا يتصوّر فيها الهبة . يقال : وَهَب يَهَبُ؛ والأصل يَوهِبُ بكسر الهاء . ومن قال : الأصل يَوْهَبُ بفتح الهاء فقد أخطأ؛ لأنه لو كان كما قال لم تحذف الواو، كما لم تحذف فى يَوْجَل . وإنما حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة؛ ثم فتح بعد حذفها لأن فيه حرفا من حروف الحلق .

قوله تعـالى : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

أى باعثهم ومحييهم بعد تفرّقهم . وفى هـذا إقرار بالبعث ليوم القيامة . قال الزجّاج : هذا هو التأويل الذى علمه الراسخون وأقرّوا به، وخالف الذين اتّبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه . والريب الشك، وقد تقدّمت محامله فى البقرة[1] . والميعاد مفعال من الوعد .

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

معناه بين . أى لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقرأ السُّلمى[2] «لَنْ يُغْنِيَ» بالياء لتقدّم الفعل ودخول الحائل بين الاسم والفعل . وقرأ الحسن «يُغْنِى» بالياء وسكون الياء الآخرة للتخفيف؛ كقول الشاعر :

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٩ طبعة ثانية أو ثالثة .	(٢) السلمى (بضم السين) هو أبو عبد الرحمن محمد ابن الحسين الصوفى الأزدى . (عن تذكرة الحفاظ وأنساب السمعانى) .

كَفَى باليأسِ من أسماء كَافِي * وليس لِسُقْمِها إذ طال شافى

وكان حقّه أن يقول كافيا، فأرسل الياء . وأنشد الفراء فى مثله :

كأنّ أيديهنّ بالقاعِ القَرِقْ * أيدى جَوَارٍ يَتعاطَيْنَ الوَرِقْ

القَرِقُ والقَرِقَةُ لغتان فى القاع (١) . و «من» فى قوله «منَ اللهِ» بمعنى عند، قاله أبو عبيدة . ﴿ أولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ والوَقود اسم للحطب ، وقد تقدّم (٢) فى «البقرة» . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف «وُقُود» بضم الواو على حذف مضاف تقديره حطب وُقُود النار . ويجوز فى العربيـة إذا ضم الواو أن تقول أُقُود مثل أُقِّتَتْ . والوُقود بضم الواو المصـدر ؛ وَقَدت النارُ تَقِـدُ إذا اشتعلت . وخرّج ابن المبارك من حديث العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يظهر هذا الدِّين حتى يُجاوز البحارَ وحتى تُخَاضَ البحارُ بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوامٌ يقرءون القرآن فاذا قرءوه قالوا مَنْ أقرأُ منّا مَنْ أعلَمُ منّا . ثم التفت الى أصحابه فقال : هل ترون فى أولئكم من خير"؟ قالوا لا . قال : "أولئك منكم وأُولئك من هذه الأُمّة وأُولئك هم وقود النار" .

قوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١١)

الدَّأْبُ العـادة والشأن . ودأب الرجلُ فى عمله يَدْأَبُ دَأْباً ودُءوبا إذا جدّ واجتهـد ، وأدْأبْتُه أنا . وأدأب بعيره إذا جهدَه فى السير . والدائبان الليل والنهـار . قال أبو حاتم : وسمعت يعقوب يذكر «كَدَأَب» بفتح الهمـزة، وقال لى وأنا غُلَيِّم : على أىّ شىء يجـوز «كَدَأَب» ؟ فقلت له : أظنّه من دَئِب يَدْأَب دَأَباً . فقبِل ذلك مِنى وتعجّب من جودة تقديرى على صِغرى؛ ولا أدرى أيقال أم لا . قال النحّاس : «وهذا القول خطأ، لا يقال

(١) كذا فى الأصول . والذى فى لسان العـرب وغيره من معجمات اللغة أنه القرق (بفتح القـاف وكسر الراء) والقرق (بفتح القاف والراء) والقرق (بكسر القاف وسكون الراء) . والقاع القرق : الطيب الذى لا حجارة فيه .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

البتّة دَئَب، وإنما يقال: دَأَب يَدْأَبُ دُءُوبا [وَدَأْبًا](١)؛ هكذا حكى النحويون، منهم الفراء حكاه فى كتاب المصادر؛ كما قال ٱمرؤ القيس:

كَدَأْبِك مِنْ أمّ الحُوَيْرِث قَبْلَهَا * وجارتِها أُمّ الرَّبَابِ بمَأْسَلِ(٢)

فأمّا الدَّأَبُ فانه يجوز؛ كما يقال: شَعْرٌ وشَعَرٌ ونَهْرٌ ونَهَرٌ؛ لأن فيه حرفا من حروف الحلق». واختلفوا فى الكاف؛ فقيل: هى فى موضع رفع تقديره دَأْبُهم كدأب آل فرعون، أى صنيع الكفّار معك كصنيع آل فرعون مع موسى. وزعم الفراء أن المعنى: كفرت العربُ ككفر آل فرعون. قال النحّاس: لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا، لأن كفروا داخلة فى الصلة. وقيل: هى متعلّقة بأخَذَهم الله، أى أخذهم أخذًا كما أخذ آل فرعون. وقيل: هى متعلِّقة بقوله «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ» أى لم تُغْنِ عنهم غَنَاءً كما لم تُغن الأموال والأولاد عن آل فرعون. وهذا جواب لمن تخلّف عن الجهاد وقال: شغلتنا أموالُنا وأهلونا. ويصح أن يعمل فيه فعلٌ مقدَّر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه فى نفس الاحتراق. ويؤيِّد هذا المعنى «... وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ». والقول الأول أرجح، واختاره غير واحد من العلماء. قال ابن عرفة: «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» أى كعادة آل فرعون. يقول: اعتاد هؤلاء الكفرة الإلحاد والإعنات للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما اعتاد آلُ فرعون من إعنات الأنبياء؛ وقال معناه الأزهرىّ. فأمّا قوله فى سورة (الأنفال) «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» فالمعنى جُوزِى هؤلاء بالقتل والأسر كما جُوزِى آلُ فرعون بالغرق والهلاك.

قوله تعالى: ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يحتمل أن يريد الايات المتلوة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدّلالة على الوحدانيّة. ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

---

(١) زيادة عن اعراب القرآن للنحاس. (٢) أم الحويرث: هى «هر» أم الحارث بن حصين ابن ضمضم الكلابى؛ وكان امرؤ القيس يشبب بها فى أشعاره. وأم الرباب من كلب أيضا. ومأسل: موضع. يقول: لقيت من وقوفك على هذه الديار وتذكرك أهلها كما لقيت من أم الحويرث وجارتها. (عن شرح المعلقات).

قوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾

يعنى اليهود . قال محمد بن إسحاق : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببَدْر وقدم المدينةَ جمع اليهودَ فقال : "يامَعْشَرَ اليهود احذروا من الله مثلَ ما نَزَل بقريش يوم بَدْرٍ قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنى نبىٌّ مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم"، فقالوا : يامحمد، لا يَغُرَّنَّك أنك قتلت أقواما أغمارا(١) لا عِلْمَ لهم بالحرب فأصبتَ فيهم فرصةً ! والله لو قاتلتنا لعرفتَ أنّا نحن الناس . فأنزل الله تعالى « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ » بالتاء يعنى اليهود، أى تُهزَمون « وَتُحْشَرُونَ إلى جهنم » فى الاخرة. فهذه رواية عِكْرِمة وسَعِيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس . وفى رواية أبى صالح عنه أن اليهود لمّا فرِحوا بما أصاب المسلمين يوم أُحُد نزلت . فالمعنى على هذا «سيغلبون» بالياء، يعنى قريشا، «ويحشرون» بالياء فيهما، وهى قراءة نافع .

قوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ يعنى جهنّم ؛ هذا ظاهر الآية . وقال مجاهد : المعنى بئس ما مَهَّدوا لأنفسهم، فكأنّ المعنى : بئس فعلُهم الذى أدّاهم إلى جهنم .

قوله تعالى : قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أى علامة . وقال « كان » ولم يقل « كانت » لأن « آية » تأنيثها غير حقيقى . وقيل : ردّها الى البيان، أى قد كان لكم بيان ؛ فذهب الى المعنى وترك اللفظ؛ كقول امرئ القيس :

(١) الأغمار : جمع غمر (بالضم) وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور .

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ * كَخُرْعوبة البانةِ المُنْفَطِر[1]

ولم يقل المنفطرة؛ لأنه ذهب الى القضيب . وقال الفرّاء : ذكّره لأنه فرّق بينهما بالصفة ، فلما حالت الصفة بين الاسم والفعل ذُكِّر الفعل . وقد مضى هذا المعنى فى البقرة فى قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ[2] » .

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يعنى المسلمين والمشركين يوم بَدْر ﴿فِئَةٌ﴾ قرأ الجمهور «فئة» بالرفع ، بمعنى إحداهما فئة . وقرأ الحسن ومجاهد « فِئَةٍ » بالخفض « وأُخْرَى كَافِرَةٍ » على البدل . وقرأ ابن أبى عَبْلَة بالنصب فيهما . قال أحمد بن يحيى : ويجوز النصب على الحال ، أى التقتا مختلفتين مؤمنةً وكافرةً . قال الزجاج : النصب بمعنى أعنى . وسُمِّيت الجماعة من الناس فئة لأنها يُفَاء اليها ، أى يرجع اليها فى وقت الشدّة . وقال الزّجاج : الفئة الفرقة ، مأخوذة من فَأَوْتُ رأسه بالسيف — ويقال : فأيته — إذا فلقته . ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هى الى يوم بَدْر . واختلف من المخاطب بها؛ فقيل : يحتمل أن يُخَاطَب بها المؤمنون ، ويحتمل أن يخاطَب بها جميع الكفار ، ويحتمل أن يخاطَب بها يهود المدينة ؛ وبكل احتمال منها قد قال قوم . وفائدة الخطاب للؤمنين تثبيتُ النفوس وتشجيعُها حتى يُقْدِمُوا على مثليهم وأمثالهم كما قد وقع .

قوله تعالى : ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ قال أبو علىّ : الرؤية فى هذه الاية رؤية عين ؛ ولذلك تعدّت الى مفعول واحد . قال مكّىّ والمهدوىّ : يدلّ عليه « رَأْيَ العَيْنِ » . وقرأ نافع «تَرَوْنَهُمْ» بالتاء والباقون بالياء[3] . ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ نصب على الحال من الهاء والميم فى « ترونهم » . والجمهور من الناس على أن الفاعل بترون هم المؤمنون ، والضمير المتصل هو للكفار . وأنكر أبو عمرو أن يُقْرأ

---

(١) البرهرهة : الرقيقة الجلد ، أو هى الملساء المترجرجة . والرؤدة والرءودة : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء . والرخصة : اللينة الخلق . والخرعوبة : القضيب الغض اللدن . والبانة : واحد شجر البان . والمنفطر : المتشقق . يقال : قد انفطر العود اذا انشق وأخرج ورقه . (عن شرح الديوان) . (٢) راجع آية ١٨٠ جـ ٢ ص ٢٥٧ ، وآية ١٨١ ص ٢٦٨ طبعة ثانية . (٣) الذى فى تفسير غرائب القرآن للنيسابورى : « ترونهم بتاء الخطاب أبو جعفر ونافع وسهل و يعقوب الباقون بالياء » .

« تَرَوْنَهُمْ » بالتاء؛ قال : ولو كان كذلك لكان مِثليكم . قال النحّاس : وذا لا يلزم، ولكن يجوز أن يكون مِثلَىْ أصحابكم . قال مكىّ : «ترونهم» بالتاء جرى على الخطاب فى « لكم » فيحسن أن يكون الخطاب للسلمين، والهاء والميم للشركين . وقد كان يلزم مَنْ قرأ بالتاء أن يقرأ مثليكم بالكاف ، وذلك لا يجوز لمخالفة الخط ؛ ولكن جرى الكلام على الخروج من الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم » ، وقوله تعالى : « وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ » نخاطب ثم قال : « فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ » فرجع إلى الغيبة . فالهاء والميم فى «مِثْلَيْهِمْ» يحتمل أن يكون للشركين، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلى ما هم عليه من العَدَد؛ وهو بعيد فى المعنى؛ لأن الله تعالى لم يُكثّر المشركين فى أعين المسلمين بل أعلمنا أنه قلّلهم فى أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المؤمنون المشركين مِثْلَيْكم فى العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلّل الله المشركين فى أعين المسلمين فأراهم إيّاهم مِثْلَىْ عِدّتهم لتقوى أنفسهم ويقع التجاسر، وقد كانوا أُعْلِموا أنّ المائة منهم تغلب المائتين من الكفّار، وقلّل المسلمين فى أعين المشركين ليجترئوا عليهم فينفُذ حكُم الله فيهم . ويحتمل أن يكون الضمير فى «مِثليهم» للسلمين، أى ترون أيها المسلمون المسلمين مِثْلَىْ ما أنتم عليه من العدد، أى ترون أنفسكم مِثْلَىْ عَدَدكم ؛ فعل الله ذلك بهم لتقوى أنفسهم على لقاء المشركين . والتأويل الأول أولى ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا » وقوله : « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا » . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : قلت لرجل إلى جَنْبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أظنّهم مائة . فلما أخذنا الأسارى أخبرونا أنهم كانوا ألفا . وحكى الطبرىّ عن قوم أنهم قالوا : بل كثّر الله عدد المؤمنين فى عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضِعْفيهم . وضعّف الطبرى هذا القول . قال ابن عطية : وكذلك هو مردود من جهات . بل قلّل الله المشركين فى أعين المؤمنين كما تقدّم . وعلى هذا التأويل كان يكون « ترون » للكافرين، أى ترون أيها الكافرون المؤمنين مثليهم ، ويحتمل مثليكم، على ما تقدّم . وزعم الفرّاء أنّ المعنى ترونهم مثليهم ثلاثة أمثالهم . وهو بعيدٌ غير معروف فى اللغة . قال الزجّاج : وهذا باب الغلط،

فيه غلطٌ فى جميع المقاييس؛ لأنّا إنما نعقل مثلَ الشىء مساويًا له ، ونعقل مثليه ما يساويه مرّتين . قال ابن كَيْسان : وقد بيّن الفرّاء قوله بأن قال : كما تقول وعندك عبد : أحتاج إلى مثله ، فأنت محتاج إليه وإلى مثله . وتقول : أحتاج إلى مثليه ، فأنت محتاج إلى ثلاثة . والمعنى على خلاف ما قال واللغة . والذى أوقع الفرّاء فى هذا أن المشركين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين يوم بَدْر؛ فتوهّم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عِدّتهم . وهذا بعيد وليس المعنى عليه . وإنما أراهم الله على غير عِدّتهم لجهتين : إحداهما أنه رأى الصلاح فى ذلك؛ لأن المؤمنين تقوَى قلوبهم بذلك . والأخرى أنه آية للنبيّ صلّى الله عليه وسلم . وسيأتى ذكر وقعة بدر[1] إن شاء الله تعالى . وأمّا قراءة الياء فقال ابن كيسان : الهاء والميم فى «يرونهم» عائدة على «وَأُخْرَى كَافِرَةٌ» والهاء والميم فى مثليهم عائدة على «فِئَةٌ تُقَاتِلُ فى سَبِيلِ اللهِ» وهذا من الاضمار الذى يدلّ عليه سياق الكلام، وهو قوله : «يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ» . فدلّ ذلك على أن الكافرين كانوا مِثْلَىِ المسلمين فى رأى العين وثلاثة أمثالهم فى العدد . قال : والرؤية هنا لليهود . وقال مكىّ : الرؤية للفئة المقاتلة فى سبيل الله ، والمرئيّة الفئة الكافرة؛ أى ترى الفئةُ المقاتلةُ فى سبيل الله الفئة الكافرة مثلى الفئة المؤمنة ، وقد كانت الفئة الكافرة ثلاثة أمثال المؤمنة ، فقلّلهم الله فى أعينهم على ما تقدّم . والخطاب فى « لكم » لليهود . وقرأ ابن عباس وطلحة « تُرَوْنَهُمْ » بِضم التاء ، والسُّلَمىّ بالتاء مضمومة على ما لم يسم فاعله .

﴿ واللهُ يؤيّد بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إنَّ فى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأبصَارِ ﴾ تقدّم معناه والحمد لله .

قوله تعالى : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

(١) فى قوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر ... » آية ١٢٣ من هذه السورة .

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ زينّ من التزيين . واختلف الناس مَنِ المزيِّن؛ فقالت فرقة : الله زيّن ذلك؛ وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ذكره البخارىّ . وفى التنزيل : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهَا »؛ ولمّا قال عمر : الآن يا ربِّ حين زيّنتها لنا نزلت «قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ» . وقالت فرقة : المزيِّن هو الشيطان؛ وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال : مَنْ زَيَّنَهَا ؟ ما أحدٌ أشدّ لها ذمًّا من خالقها . فتزيينُ الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع و إنشاء الجِبِلّة على الميل إلى هذه الأشياء . وتزيين الشيطان إنما هو بالوسوسة والخديعة وتحسين أَخْذها من غير وجوهها . والآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفى ضمن ذلك توبيخٌ لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم . وقرأ الجمهور «زُيِّنَ» على بناء الفعل للمفعول، ورفع «حُبُّ» . وقرأ الضحاك ومجاهد «زَيَّنَ» على بناء الفعل للفاعل ، ونصب «حُبَّ» . وحرّكت الهاء من «الشَّهَوَاتِ» فرقًا بين الاسم والنعت . والشهوات جمع شهوة، وهى معروفة. ورجل شهوان للشىء(١)، وشىء شهىٌّ أى مُشْتَهًى . واتّباع الشهوات مُرْدٍ وطاعتُها مهلكة . وفى صحيح مسلم : "حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكَارِهِ وحُفَّت النار بالشَّهَوَات" رواه أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره و بالصبر عليها، وأن النار لا يُنجى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها . وقد رُوى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "طريق الجنة حَزْنٌ بَرَبْوَة(٢) وطريقُ النار سهل بسَهْوة"؛ وهو معنى قوله : "حفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات" . أى طريق الجنة صعب المسلك فيه أعلى ما يكون من الروابِى، وطريقُ النار سهل لا غِلظ فيه ولا وُعورة، وهو معنى قوله "سهل بسهوة" وهو بالسين المهملة .

---

(١) هذه عبارة الصحاح الذى يعتمد عليه المؤلف كثيرا . وفى الأصول : « الشهوان للشىء » .

(٢) الحزن (بفتح فسكون) : المكان الغليظ الخشن . والربوة (بالضم والفتح) : ما ارتفع من الأرض . والسهوة : الأرض اللينة التربة .

الثانيــة ــ قوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهن لكثرة تشوف النفوس إليهن، لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما تركتُ بعدى فِتنةً أشدّ على الرجال من النساء" أخرجه البخاريّ ومسلم . ففتنة النساء أشدّ من جميع الأشياء . ويقال : فى النساء فتنتان ، وفى الأولاد فتنة واحدة . فأمّا اللتان فى النساء فإحداهما أن تؤدّى إلى قطع الرَّحِم، لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأُمّهات والأخوات . والثانيــة يُبْتَلَى بجمع المــال من الحلال والحرام . وأمّا البنون فإن الفتنة فيهم واحدة، وهو ما ٱبتُلِي بجمع المــال لأجلهم . وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُسْكِنوا نساءكم الغُرَفَ ولا تُعَلِّموهنّ الكِتاب" . حذّرهم صلى الله عليه وسلم؛ لأن فى إسكانهن الغرف تطلّعا إلى الرجال، وليس فى ذلك تحصين لهن ولا سترٌ؛ لأنهن قد يُشْرِفن على الرجال فتحدُث الفتنة والبلاء، ولأنهن قد خُلِقن من الرجل؛ فهِمّتها فى الرجل والرجلُ خُلِق فيه الشهوة وجُعِلَتْ سَكَناً له؛ فغيرُ مأمونٍ كل واحد منهما على صاحبـه . وفى تَعَلُّمهن الكتاب هـذا المعنى من الفتنة وأشـدّ . وفى كتاب الشِّهَاب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أَعْرُوا النساءَ يَلْزَمْنَ الحِجَالَ" . فعلى الإنسان اذا لم يصبر فى هذه الأزمان أن يبحث على ذات الدِّين ليسلَم له الدِّين . قال صلى الله عليـه وسلم : "عليكَ بذات الدِّين تَرِبَتْ[1] يداك" . أخرجه مسـلم عن أبى هريرة . وفى سُنَن ٱبن ماجه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَزَوَّجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يُرْدِيهن ولا تَزَوَّجوهنّ لأموالهن فعسى أموالهن أن تُطغِيهن ولكن تَزَوَّجوهن على الدِّين وَلَأَمَةٌ سَوْدَاء خَرْمَاء[2] ذَاتُ دِينٍ أفضلُ" .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ عطف على ما قبـله . وواحد البنين ٱبن . قال الله تعالى مخبرا عن نوح : "إنّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي . وتقول فى التصغير « بُنَيّ » كما قال لُقمان . وفى الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للأشعث بن قيس : "هَلْ لك من ٱبنة حمزةَ من

(١) ترب الرجل : افتقر ، أى لصق بالتراب؛ وأترب اذا استغنى . وهـذه الكلمة جارية على ألسنة العرب ، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر به؛ كما يقولون : قاتله الله فى مقام الثناء والمدح .

(٢) خرماء : مقطوعة بعض الأنف ومثقوبة الأذن .

ولد"؟ قال؟ نعم، لى منها غلام ولَوَدِدْتُ أنّ لى به جَفْنَةً من طعام أطعمها مَنْ بقِي من بنى جَبَلة. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لئن قلتَ ذلك إنهم لثمرةُ القلوب وقُرّة الأعين وإنهم مع ذلك لَمَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ"[1].

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ القناطير جمع قنطار، كما قال تعالى: «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا» وهو العُقدة الكبيرة من المـال، وقيـل: هو اسم للعيار الذى يوزن به؛ كما هو الرطل والربع. ويقال لِمَا بلَغ ذلك الوزنَ: هذا قنطار، أى يعدل القنطار. والعرب تقول: قَنْطَرَ الرجلُ اذا بلغ ماله [أن] يُوزَنَ بالقنطار. وقال الزجّاج: القِنْطار مأخوذ من عَقْد الشيء وإحكامه؛ تقول العرب: قَنْطَرتُ الشيء إذا أحكمته؛ ومنه سمِّيت القنطرةُ لإحكامها. قال طَرَفة:

كقنطرة الرُّومىِّ أقسم ربُّها * لَتُكْتَنَفَنْ حتّى تُشَادَ بقَرْمَدِ[2]

والقنطرة المعقودة؛ فكأنّ القنطار عَقْدُ مال. واختلف العلماء فى تحرير حدّه كم هو على أقوال عديدة؛ فروى أُبَيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال: "القنطار ألفُ أوقيّة ومائتا أُوقيّة"؛ وقال بذلك مُعاذ بن جَبَل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وجماعة من العلماء. قال ابن عطيّة: «وهو أصح الأقوال. لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد فى قدر الأوقيّة». وقيل: اثنا عشر ألف أُوقيّة؛ أسنده البُسْتِيّ فى مسنده الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "القِنْطارُ اثنا عشر ألف أُوقيّة الأُوقيّة خيرٌ مما بين السماء والأرض". وقال بهـذا القول أبو هريرة أيضا. وفى مسـند أبى محمد الدارمىّ عن أبى سَعِيد الخُدْرىّ قال: «من قرأ فى ليلة عشر آيات كُتِب من الذاكرين، ومن قرأ بمائة آية كُتب من القانتين، ومن قرأ بخمسمائة آية الى الألف أصبح وله قنطارٌ من الأجر. قيـل: وما القنطار؟ قال: ملء مَسْك ثَوْرٍ ذهبًا». موقوف؛ وقال به أبو نَضْرة العَبْدىّ. وذكر

---

(١) أى أن الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفا من الموت فيصيب أبناءهم اليتم والآلام، ويجعلونهم يبخلون فلا ينفقون فيما ينبغى أن ينفق فيه ايثارا لهم بالمال، ويجعلونهم يحزنون عليهم ان أصابهم مرض ونحوه.

(٢) القرمد: الآجر والحجارة.

ابن سِيدَه أنه هكذا بالسريانية . وقال النقّاش عن ابن الكلبى أنه هكذا بلغة الروم . وقال ابن عبّاس والضحّاك والحسن : ألف ومائتا مِثقالٍ من الفضّة ؛ ورفعه الحسن . وعن ابن عباس : اثنا عشر ألف درهم من الفضة ، ومن الذهب ألفُ دينار دِيَة الرجل المسلم ؛ ورُوى عن الحسن والضحّاك . وقال سَعيد بن المُسَيِّب : ثمانون ألفا . قَتادة : مائةُ رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضّة . وقال أبو حمزة الثُّمَالى[1] : القنطار بإفريقِيّة والأندلس ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة . السُّدِّى : أربعة آلاف مثقال . مجاهد : سبعون ألف مثقال ؛ وروى عن ابن عمر . وحكى مَكّى قولا أن القنطار أربعون أُوقية من ذهب أو فضة ؛ وقاله ابن سِيده فى المُحْكَم ، وقال : القنطار بلغة بَرْبَر ألفُ مثقال . وقال الربيع ابن أنس : القنطار المال الكثير بعضه على بعض ؛ وهذا هو المعروف عند العرب ، ومنه قوله : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا » أى مالا كثيرا . ومنه الحديث : "إنّ صَفْوَانَ بن أُمَيَّـة قَنْطَرَ فى الجاهليّة وقَنْطَرَ أبوه" أى صار له قنطار من المال . وعن الحَكَم : القنطار هو ما بين السماء والأرض . واختلفوا فى معنى «المُقَنْطَرَة» فقال الطَّبَرِى وغيره : معناه المُضَعَّفة ، وكأنّ القناطير ثلاثةٌ والمقنطرةُ تسعٌ . ورُوى عن الفرّاء أنه قال : القناطير جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع ، فيكون تسع قناطير . السُّدِّى : المقنطرة المضروبة حتى صارت دنانيرَ أو دراهم . مَكّى : المقنطرة المُكَمَّلة ؛ وحكاه الهروى ؛ كما يقال : بِدَرٌ مُبَدَّرَةٌ ، وآلافٌ مؤلَّفة . وقال بعضهم . ولهذا سمى البناء القنطرةَ لتكاثُف البناء بعضه على بعض . ابن كَيْسان والفرّاء : لا تكون المقنطرة أقلّ من تسعة قناطير . وقيل : المُقَنْطَرة إشارة إلى حضور المال وكونه عتيدا . وفى صحيح البُسْتِى عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ قام بعشر آيات لم يُكْتَبْ من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كُتِب من المُقَنْطِرِينَ" .

(١) الثمالى (بضم المثلثة وتخفيف الميم ولام) : نسبة الى ثمالة بطن من الأزد .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ﴾ الذهب مؤنثة[(١)] ؛ يقال : هى الذهب الحسنةُ ، جمعها ذهابٌ وذُهُوب[(٢)]. ويجوز أن يكون جمعَ ذهبة، ويجمع على الأذهاب . وذَهَب فلان مذهبًا حسنًا . والذهب : مكيالٌ لأهل اليمن . ورجلٌ ذَهِبٌ إذا رأى مَعْدِنَ الذَّهَب فدَهِش . والفضّة معروفة ، وجمعها فِضَضٌ . فالذَّهَبُ مأخوذةٌ من الذَّهَاب ، والفضّةُ مأخوذةٌ من انفضّ الشىءُ تفرّق؛ ومنه فَضَضْتُ القوم فانفضّوا، أى فرّقتهم فتفرّقوا. وهـذا الاشتقاق يُشعر بزوالها وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد فى الوجود . ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قولُ بعضهم :

النـارُ آخرُ دينـارٍ نطقتَ به * والهمّ آخرُ هذا الدِّرْهَمِ الجارى
والمرءُ بينهما إن كان ذا وَرَعٍ * مُعذَّبُ القلبِ بين الهمِّ والنار

السادســة — قوله تعالى : ﴿والخَيْلِ﴾ الخيلُ مؤنّثة . قال ابن كَيْسان : حُدِّثت عن أبى عُبيدة أنه قال : واحد الخيل خائل، مثل طائروطير، وضائن وضَيْن ؛ وسُمِّىَ الفرسُ بذلك لأنه يختال فى مشيه . وقال غيره : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، واحده فرس، كالقوم والرهط والنساء والإبل ونحـوها . وفى الخبر من حديث علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله خلق الفرسَ من الرِّيح ولذلك جعلها تطير بلا جَناح " . وَهْبُ بن مُنَبِّه : خلقها من رِيح الجَنُوب. قال وَهْب : فليس تسبيحةٌ ولا تكبيرةٌ ولا تهليلةٌ يكبِّرها صاحبها إلا وهو يسمعها فيجيبه بمثلها " . وسيأتى لذكر الخيل ووصفها فى سـورة «الأنفال» مافيه كفاية إن شاء الله تعالى . وفى الخبر : " إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدوابّ، فقيل له : اختر منها واحدا فاختار الفرس ؛ فقيل له : اخترتَ عِزَّك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه . وسمّيت خيلًا لأنها موسومة بالعِزِّ فمن ركبـه اعتزّ بنِحْلة الله له ويختال به على أعداء الله تعالى . وسمّى فرسًا

(١) هذا رأى المؤلف ، وقـد ذكره شارح القاموس (فى مادة ذهب) . والمشهور أن الذهب يذكر ويؤنث كما هو مفصل فى معجمات اللغة .

(٢) هذا ما ورد فى الأصول : والذى فى معجمات اللغة أن الذهب يجمع على أذهاب وذهوب وذهبان (بكسر أوله) كبرق وبرقان وذهبان (بضم أوله) كحمل وحملان . فلعل «ذهابا» التى وردت فى الأصول محرفة عن «ذهبان» .

لأنه يفترس مسافات الجو افتراسَ الأسد وثَبانًا ، ويقطعها كالالتهام بيديه على شيء خبطًا وتَناوُلًا . وسمِّي عربيًا لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت ، وإسماعيل عربيّ ، فصارت نِحْلَةً من الله فسمِّي عربيًا . وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل الشيطانُ دارا فيها فرسٌ عَتيقٌ" . وإنما سمي عتيقا لأنه قد تخلّص من الهَجَانة[1] . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " خَيرُ الخَيْلِ الأدْهَمُ الأقْرحُ الأرْثَمُ[2] [ثم الأقرح المُحَجَّل][3] طَلْقُ اليمين فإن لم يكن أدْهَمَ فكُمَيْتٌ على هذه الشِّيَةِ " . أخرجه الترمِذيّ عن أبي قَتَادة . وفي مسند الدَّارِمِيّ عنه أن رجلا قال : يارسول الله، إني أريد أن أشترِي فرسا [فأيَّها أشترى][4] ؟ قال : " اِشْتَرِ أدْهَمَ أرثَمَ محجَّلًا[5] طَلْقَ اليُمْنَى أو من الكُمَيت على هذه الشِّيَة تَغْنَمْ وتَسْلَم " . وروى النَّسائِيّ عن أَنَس قال : لم يكن أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل . وروى الأئمة عن أبي هُرَيرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل ثلاثةٌ لرجلٍ أجْرٌ ولرجلٍ سِتْرٌ ولرجل وِزْرٌ" الحديث بطوله ، شُهْرتُه أغنتْ عن ذكره . وسيأتى ذكر أحكام الخيل في «الأنفال» و «النحل» بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ المُسَوَّمَةِ ﴾ يعني الراعية في المُرُوج والمسارح ؛ قاله سعيد ابن جُبير . يقال : سامت الدابة والشاة إذا سرحت تَسُومُ سَوْمًا فهي سائمة . وأسمتُها إذا تركتَها لذلك فهي مُسَامة . وسوّمتها تسويما فهي مُسَوَّمةٌ . وفي سُنَن ابن ماجه عن عليّ قال : نهى

---

(١) الهجين الذي ولدته برذونة من حصان عربي .

(٢) الأقرح : ما في جبهته قرحة ، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرّة . والأرثم : أبيض الأنف والشفة العليا . والمحجل : أن تكون قوائمه الأربع بيضا يبلغ منها ثلث الوظيف (مستدق الذراع والساق أو ما فوق الرسغ الى الساق) أو نصفه أو ثلثيه بعد أن يجاوز الأرساغ ولا يبلغ الركبتين والعرقوبين . وطلق اليمين : لا تحجيل فيها . والكميت : ما لونه بين السواد والحمرة . والشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره .

(٣) زيادة عن سنن الترمذي . (٤) زيادة عن مسند الدارمي .

(٥) في مسند الدارمي والأصول : « محجل» .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السَّوْم[1] قبل طلوع الشمس، وعن ذبح ذوات الدرّ . السَّوْم هنا فى معنى الرَّعْى . وقال الله عز وجل : « فِيهِ تُسِيمُونَ » . قال الأخطل :

مثل ابنِ بَزْعة[2] أو كآخَرَ مثلِه * أَوْلَى لكَ[3] ابنَ مُسِيمةِ الأجمالِ

أراد ابن راعية الإبل . والسَّوَام : كل بهيمة ترعى ، وقيل : المُعَدّة للجهاد ؛ قاله ابن زيد . مجاهد : المُسَوَّمة المُطَهَّمة الحسانُ . وقال عِكرمة : سوّمها الحُسْنُ ؛ واختاره النحّاس ، من قولهم : رجلٌ وَسِيم . ورُوى عن ابن عبّاس أنه قال : المُسَوَّمة المُعْلَمَةُ بشيات الخيل فى وجوهها ، من السيما وهى العلامة . وهذا مذهب الكِسائِىّ وأبى عبيدة .

قلت : كل ما ذُكر يحتمله اللّفظ ، فتكون راعيةً مُعَدَّةً حسانًا مُعْلَمَةً لِتُعرَفَ من غيرها . قال أبو زيد : أصل ذلك أن تجعل عليها صوفة أو علامة تخالف سائر جسدها لتبين من غيرها فى المرعى . وحكى ابن فارس اللغوىّ فى مُجْمَله : المسوَّمة المُرْسَلَة وعليها رُكبانها . وقال المؤرِّج[4] : المسوّمة المكْوِيّة . المبرّد : المعروفة فى البلدان . ابن كيسان : البُلْق . وكلها متقارب من السيما . قال النابغة :

بضُمْرٍ كالقِدَاح مُسَوَّماتٍ * عليها مَعشر أشباهُ جِنِّ

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿وَالأَنْعَامِ﴾ قال ابن كيسان : إذا قلت نَعَمٌ لم تكن إلا للإبل ، فإذا قلت أنعامٌ وقعت للإبل وكل ما يرعى . قال الفرّاء : هو مُذَكَّر ولا يؤنّث ؛ يقولون :

---

(١) فى حاشـية السندى على سنن ابن ماجه واللسان (مادة سوم) عند الكلام عن هـذا الحديث : « السوم : أن يساوم بسلعته ، ونهى عن ذلك فى ذلك الوقت لأنه وقت يذكر الله فيه فلا يشتغل بغيره . ويحتمل أن المراد بالسوم الرعى ؛ لأنها اذا رعت الرعى قبل شروق الشمس عليـه وهو نَدٍ أصابها منه داء قتلها ؛ وذلك معروف عند أهل المـال من العرب» .

(٢) كذا فى ديوانه . ورواية الأغانى (ج ٨ ص ٣١٩ طبع دار الكتب المصرية) : « كابن البزيعة ...» . والذى فى الأصول : «ضل ابن زرعة ...» . ويعنى بابن بزعة : شداد بن المنذر أخا حصين الذهلى . وقوله « كآخر مثله» يعنى حوشب بن رؤيم .

(٣) أولى لك : ويل لك ، فهى كلمة تقال فى مقام التهديد والوعيد . وقال الأصمعى : معناه قاربه ما يهلكه ، أى نزل به .

(٤) المؤرج (كمحدث) : أبو فيد عمرو بن الحارث السدوسى النحوى البصرى ، أحد أئمة اللغة والأدب .

هـذا نَعَمٌ واردٌ ، ويجمع أنعامًا . قال الهَرَوِىّ : والنَّعَم يذكَّر ويؤنّث ، والأنعام المواشى من الإبل والبقر والغنم ؛ وإذا قيل : النعم فهو الإبل خاصة . وقال حسان :

وكانت لا يزال بها أَنِيسٌ * خِلاَلَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشَاءُ

وفى سنن ابن ماجه عن عُرْوة البارِقِىّ يرفعه قال : " الإبلُ عِزٌّ لأهلها والغنم بركةٌ والخيرُ معقودٌ فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة " . وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشاة من دوابّ الجنّة " . وفيه عن أبى هُرَيرة قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراءَ بآتخاذ الدّجاج ، وقال : عند اتّخاذ الأغنياءِ الدَّجاجَ يأذَن الله بهلاك القرى . وفيه عن أُمّ هانِئ أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لها : " اتَّخِذِى غَنَمًا فإنّ فيها بركةً " . أخرجه عن أبى بكر بن أبى شَيْبة عن وكيع عن هِشَام بن عُرْوة عن أبيه عن أُمّ هانِئ ، إسناد صحيـــح .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ الحرث هنا اسم لكل ما يُحْرَث ، وهو مصدر سمِّى به ؛ تقـول : حَرَث الرجل حَرْثًا إذا أثار الأرض بمعنى الفِلاَحة ؛ فيقع اسم الحِرَاثة على زرع الحبوب وعلى الجنّات وعلى غير ذلك من نوع الفِلاَحة . وفى الحديث : " أُحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدا " . يقال حَرَثْتُ واحترثت . وفى حديث عبـد الله " أُحْرُثُوا هذا القرآنَ " أى فتّشوه . قال ابن الأعرابىّ : الحرث التفتيش . وفى الحديث : " أصدقُ الأسماء الحارِثُ " لأن الحـارث هو الكاسب . واحترات المـال كسْبه . والحَرَاث مُسْعَر النار . والحَرَاث مجـرى الوَتَر فى القوس ، الجمع أَحْرِثَة . وأحرث الرجل ناقته هَزَلها . وفى حديث معاوية : ما فعلت نواضحكم[1] ؟ قالوا : حَرَثْناها يوم بدر . قال أبو عبيـد : يعنون هزلناها ؛ يقال : حرثْتُ الدابة وأَحْرثتها ، لغتان . وفى صحيح البخارىّ عن أبى أُمَامة الباهِلِىّ قال وقد رأى سِكّةً[2]

(١) النواضح من الإبل التى يستقى عليها ؛ واحدها ناضح . والخطاب للأنصار ؛ وقد قعدوا عن تلقيه لما حج ؛ وأراد معاوية بذكر نواضحهم تقريعا لهم وتعريضا ، لأنهم كانوا أهل زرع وحرث وسق ؛ فأجابوه بما أسكته ، فهم يريدون بقولهم « هزلناها يوم بدر » التعريض بقتل أشياخه يوم بدر . (عن نهاية ابن الأثير) .

(٢) السكة (بكسر السين وتشديد الكاف المفتوحة) : الحديدة التى تحرث بها الأرض .

وشيئا من آلة الحرث فقال سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يدخلُ هـذا بيتَ قومٍ إلّا دخله الذلّ" . إنّ الذلّ هنا ما يلزَم أهلَ الشغل بالحرث من حقوق الأرض التى يطالبهم بها الأئمة والسلاطين . وقال المهلّب : معنى قوله فى هـذا الحديث والله أعلم الحضّ على معالى الأحـوال وطلبُ الرزق من أشرف الصناعات ؛ وذلك لِمَا خشِى النبيّ صلى الله عليه وسلم على أُمّته من الاشتغال بالحَرْث وتضييع ركوب الخيل فى سبيل الله ؛ لأنهم إن اشتغلوا بالحرث غلبتهم الأُمَم الراكبة للخيل المتعيشة من مكاسبها؛ فحضهم على التعيُّش من الجهاد لا من الخـلود[1] إلى عمارة الأرض ولزوم المِهْنة . ألَا ترى أنّ عمر قال : تمعددوا[2] واخْشَوشِنُوا واقطعوا الركب[3] وثِبُوا على الخَيْل وَثْبًا لا تغلبنّكم عليهـا رُعاة الإبل . فأمرهم بملازمة الخيل ، ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما مِن مسـلم غرس غَرْسًا أو زَرَع زرعًا فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة " .

قال العلماء : ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المـال كل نوع من المـال يتموّل به صنفٌ من الناس . أمّا الذهب والفضة فيتموّل بها التجار . وأمّا الخيل المسوّمة فيتموّل بها الملوك . وأمّا الأنعام فيتموّل بها أهل البوَادِى . وأمّا الحَرْث فيتموّل به أهل الرساتيق[4] . فتكون فتنة كل صنف فى النوع الذى يتموّل به . فأمّا النساء والبنون ففتنة للجميع .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى ما يُتَمَتَّع به فيها ثم يذهب ولا يبقى . وهذا منه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة . روى ابن ماجه وغيره عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنمـا الدنيا متاعٌ وليس من متاع الدنيا شىء أفضل من المرأة الصالحة " . وفى الحديث : " اِزْهَدْ فى الدنيـا يُحِبّك الله " أى فى متاعها من الجـاه والمـال الزائد على الضرورىّ . قال صلى الله عليه وسلم : " ليس لابن آدم حقٌّ فى سوَى هذه

---

(١) اللغة الفصحى «من الإخلاد» . (٢) يقال : تمعدد الغلام اذا شب وغلظ . وقيل : أراد تشبهوا بعيش معدّ بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقشف ؛ أى كونوا مثلهم ودعوا التنعم وزى العجم . (٣) فى مسند الامام أحمد بن حنبل : « وألقوا الركب» . ولم نوفق للراد منه . (٤) االرساتيق : السواد والقرى واحدها رستاق .

الخصال بيت يسكنه وثوب يُوارِى عورتَه وجِلْف الخبز والماء[١] " أخرجه الترمذى من حديث المِقْدَام بن مَعْدِيكَرِب . وسئل سهل بن عبد الله : بِمَ يسهل على العبد تركُ الدنيا وكل الشهوات؟ قال : بتشاغله بما أُمِر به .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ إبتداء وخبر . والمآب المرجع ؛ آب يؤوب إيابا إذا رجع . قال آمرؤ القيس :

وقد طَوَّفتُ فى الافاق حتّى * رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

وقال آخر :

وكُلُّ ذى غَيْبةٍ يؤوبُ * وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

وأصل مآب مَأْوَب ، قُلبت حركة الواو إلى الهمزة وأُبدل من الواو ألف ، مثل مَقَال . ومعنى الآية تقليلُ الدنيا وتحقيرها والترغيب فى حسن المرجع إلى الله فى الآخرة .

قوله تعالى : قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

منتهى الاستفهام عند قوله : « مِنْ ذٰلِكُمْ » . « لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا » خبر مقدم ، « وَجَنَّاتٌ » رفع بالابتداء . وقيل : منتهاه « عِنْدَ رَبِّهِمْ » ، و « جَنَّاتٌ » على هذا رُفع بإضمار مضمر تقديره ذلك جنّات . ويجوز على هذا التأويل « جَنَّاتٍ » بالخفض بدلًا من « خَيْرٍ » ولا يجوز ذلك على الأوّل . قال ابن عطيّة : وهذه الآية والتى قبلها نظير قوله عليه السلام : " تُنْكَح المرأة لأربع لِمالِها وحَسبها وجمالها ودِينها فاظْفَرْ بذات الدِّين تَرِبت يداك[٢] " خرّجه مسلم وغيره . فقوله " فاظفر بذات الدِّين " مِثال لهذه الآية . وما قبلُ مثالٌ للاولى . فذكر تعالى هذه تسليةً عن الدنيا وتقويةً لنفوس تاركيها . وقد تقدّم فى البقرة معانى ألفاظ هذه الآية .

---

(١) الجلف (بكسر فسكون) : الخبز وحده لا أُدم معه ، وقيل : هو الخبز الغليظ اليابس .

(٢) راجع هامشة ١ ص ٢٩ من هذا الجزء .

والرِّضوان مصدرٌ من الرِّضا، وهو أنه إذا دخل أهلُ الجنّة الجنّةَ يقول الله تعالى لهم "تُريدون شيئًا أزيدُكم"؟ فيقولون: يا ربّنا وأىّ شىء أفضل من هذا؟ فيقول: "رضاى فلا أسْخط عليكم بعده أبدا" خرّجه مسلم. وفى قوله تعالى: «وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ» وعدٌ ووعيدٌ.

قوله تعالى: ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

﴿الذين﴾ بدل من قوله «لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا» وإن شئت كان رفعًا أى هم الذين، أو نصبا على المدح. ﴿رَبَّنَا﴾ أى يا ربّنا. ﴿إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أى صدّقنا. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ دعاء بالمغفرة. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ تقدّم فى البقرة(١). ﴿الصَّابِرِينَ﴾ يعنى عن المعاصى والشهوات، وقيل: على الطاعات. ﴿والصَّادِقِينَ﴾ أى فى الأفعال والأقوال. ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الطائعين. ﴿والْمُنْفِقِينَ﴾ يعنى فى سبيل الله. وقد تقدّم فى البقرة(٢) هذه المعانى على الكمال. ففسر تعالى فى هذه الآية أحوال المتّقين الموعودين بالجنّات.

واختُلف فى معنى قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فقال أنس بن مالك: هم السائلون المغفرة. قتادة: المصلّون.

قلت: ولا تناقض، فإنهم يصلّون ويستغفرون. وخُصّ السَّحر بالذكر لأنه مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام لبنيه: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ»: "إنّه أخّر ذلك الى السَّحَر" خرّجه الترمذىّ وسيأتى. وسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم جبريل "أىّ الليل أسْمع"؟ فقال: "لا أدرى غير أنّ العرش يهتز عند السَّحر". يقال سَحَرٌ وسَحْرٌ، بفتح الحاء وسكونها. وقال الزجاج: السحر من حين يُدبر الليل الى أن يطلع الفجر الثانى. وقال ابن زيد: السحر هو سُدس الليل الآخِر.

---

(١) راجع المسألة الثانية جـ ٢ ص ٤٣٣ طبعة ثانية.

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨، ١٧٩، ٢٣٣، ٣٧١ وراجع المسئلة الخامسة جـ ٣ ص ٢١٣

قلت : أصحّ من هذا ما رَوَى الأئمة عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "يَنْزِل الله عزّ وجلّ الى سماء الدنيا كلّ ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول أنا المَلِك أنا الملِك مَنْ ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيَه من ذا الذى يستغفرنى فأغْفِرَ له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر" فى رواية « حتى ينفجر الصبح » لفظ مسلم . وقد اختلف فى تأويله؛ وأَوْلى ما قيل فيه ما جاء فى كتاب النسائىّ مفسّرا عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ الله عزّ وجلّ يُمْهِل حتى يمضى شطرُ الليل الأول ثم يأمر مُنادياً فيقول هل من داعٍ يستجاب له هل من مُسْتَغْفِر يُغْفَرُ له هل من سائل يُعْطَى" . صحّحه أبو محمد عبد الحقّ، وهو يرفع الإشكال ويوضح كُلَّ احتمال، وأنّ الأول من باب حذف المضاف، أى ينزل مَلَك ربّنا فيقول . وقد رُوى «يُنْزَلُ» بضم الياء، وهو يبيّن ما ذكرنا، وبالله توفيقنا . وقد أتينا على ذكره فى «الكتاب الأَسْنَى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العُلَى» .

مسألة — الاستغفار مندوب إليه، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين فى هذه الآية وغيرها فقال : «وبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» . وقال أنس بن مالك : أُمِرنا أن نستغفر بالسَّحر سبعين استغفارة . وقال سُفْيان الثَّوْرِىّ : بلغنى أنه إذا كان أول الليل نادى مُنَادٍ لِيقُمِ القانتون فيقومون كذلك يصلّون إلى السَّحر . فإذا كان عند السحر نادى مناد أين المستغفرين فيستغفر أولئك و يقوم آخرون فيصلّون فيلحَقون بهم . فإذا طلع الفجر نادى منادٍ : ألَا ليقم الغافلون فيقومون من فُرُشهم كالموتى نُشِروا من قبورهم . وروى عن أنس سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله يقول إنّى لَأَهُمّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرتُ إلى عُمّار بيوتى وإلى المتحابّين فىّ وإلى المتهجّدين والمستغفرين بالأسحار صرفتُ عنهم العذاب بهم" . قال مكحول : إذا كان فى أُمّة خمسة عشر رجلا يستغفرون الله كل يوم خمسا وعشرين مرّة لم يُؤاخذ الله تلك الأُمّة بعذاب العامّة . ذكره أبو نُعَيم فى كتاب الحِلْية له . وقال نافع : كان ابن عمر يقوم الليل ثم

يقول : يا نافع أَسْحَرْنا ؟ فأقول لا . فيعاود الصـلاة ثم يسأل ، فإذا قلت نَعَمْ قعد يستغفر .
وروى إبراهيم بن حاطِب عن أبيه قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد يقول :
يا ربّ ، أمرتنى فأطعتُك ، وهذا سحر فاغفر لى . فنظرتُ فإذا ٱبن مسعود .

قلت : فهـذا كله يدل على أنه استغفار باللّسان مع حضور القلب ، لا ما قال ابن زيد
أن المراد بالمستغفرين الذين يصلّون صلاة الصبح فى جماعة . والله أعلم . وقال لقمان لابنه :
"يا بُنَىّ لا يكن الدّيك أ كْيَسَ منك ، يُنادِى بالأسحار وأنت نائم" . والمختار من لفظ الاستغفار
ما رواه البخارىّ عن شـدّاد بن أَوْس ، وليس له فى الجامع غيره عن النبىّ صلى الله عليه وسلم
قال : "سـيِّد الاستغفار أن تقول اللّهمّ أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتَنى وأنا عبدُك وأنا على
عهـدك ووَعْدِك ما ٱستطعت أعوذُ بك من شر ما صنعتُ أَبُوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى
فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت — قال — ومَنْ قالها من النهار مُوقِنا بها فمات من يومه قبل
أن يُمْسِى فهو من أهل الجنّة ومن قالها من اللّيل وهو مُوقن بها فمات من ليله قبل أن يُصبح
فهو من أهل الجنة" . وروى أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد من حديث ابن لَهِيعةَ عن أبى صَخْر
عن أبى معاوية عن سعيد بن جُبَيْر عن أبى الصهباء البكرىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله
عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيـد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ثم قال :
"ألا أُعَلِّمك كلماتٍ تقولهن لو كانت ذنوبك كمَدَبّ النمل — أو كمَدَبّ الذرّ — لغفرها الله لك على
أنه مغفور لك : اللّهمّ لا إلٰه إلا أنت سبحانَك عملتُ سوءًا وظلمتُ نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر
الذنوب إلا أنت" .

قوله تعـالى : شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ
قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال سعيد بن جُبَيْر : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنما ، فلما نزلت هذه
الآية خَرَرْنَ سجّدا . وقال الكلبىّ : لمّـا ظهر رسول الله صلى الله عليـه وسلم بالمدينة قدم عليه

حَبْرَان من أحبار أهل الشام ؛ فلمّا أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينةَ بصفة مدينة النبيّ الذى يخرج فى آخر الزمان ! . فلما دخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت ، فقالا له : أنت محمد ؟ قال "نعم". قالا : وأنت أحمد ؟ قال "نعم". قالا : نسألك عن شهادة ، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدّقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَلَانى". فقالا : أخبرنا عن الأعظم شهادة فى كتاب الله . فأنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وسلم « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ » فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن المراد بأولِى العلم الأنبياء عليهم السلام . وقال ابن كَيْسان : المهاجرون والأنصار . مُقَاتِل : مؤمنو أهل الكتاب . السُّدّى والكلبىّ : المؤمنون كلهم ؛ وهو الأظهر لأنه عام .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء ؛ فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء . وقال فى شرف العلم لنبيّه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » . فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم . وقال صلى الله عليه وسلم : "إنّ العلماء وَرَثَةُ الأنبياء". وقال : "العلماء أُمَناء الله على خَلْقه". وهذا شرف للعلماء عظيم ، ومحل لهم فى الدِّين خطير . وخرّج أبو محمد عبد الغنىّ الحافظ من حديث بركة ابن نَشِيط — وهو عنكل بن حكارك وتفسيره بركة بن نشيط — وكان حافظا ، حدّثنا عمر بن المؤمَّل حدّثنا محمد بن أبى الخَصِيب حدّثنا عنكل حدّثنا محمد بن إسحاق حدّثنا شَرِيك عن أبى إسحاق عن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "العلماءُ ورثة الأنبياء يحبّهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتانُ فى البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة". وفى هذا الباب [حديث] عن أبى الدرداء خرّجه أبو داود .

الثالثــة — رَوى غالب القَطّان قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبًا من الأعمش فكنت أختلف اليه . فلما كان ليلة أردت أن أنحدر الى البَصْرة قام فتهجّد من الليل فقرأ بهذه الاية « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ» ، قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هــذه الشهادة وهى لى وديعة، وأن الدين عند الله الإسلام — قالها مرارا — فغدوت إليه وودّعته ثم قلت : إنى سمعتُك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدّثنى به . قال : والله لاحدّثتك به سنةً . قال : فأقمت وكتبت على بابه ذلك اليوم . فلما مضت السـنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة . قال : حدّثنى أبو وائل عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "يُجَاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى عبـدى عهِد إلىّ وأنا أحق مَنْ وَفّى أدْخِلوا عبدى الجنّة" . قال أبو الفرج الجَوْزىّ : غالب القطّان هو غالب بن خطّاف[1] يروى عن الأعمش حديث "شَهِد الله" ، وهو حديث مُعْضِل[2] . قال ابن عَدِىّ الضعف على حديثه بيِّن . وقال أحمد بن حنبل : غالب بن خطّاف القَطّان ثِقَة ثقة . وقال ابن مَعِين : ثِقَةٌ . وقال أبو حاتم : صَدُوقٌ صالح .

قلت : يكفيك من عَدالته وصدقه وثقته أنْ خرّج له البخارىّ ومسلم فى كتابيهما ، وحَسْبُك . ورُوى من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ قرأ شَهِد اللهُ أنه لا إِلَٰهَ إِلَّا هو والملائكةُ وأولو العـلم قائمـاً بالقسط لا إِلَٰهَ إِلَّا هو العزيز الحكيم عند مَنَامه خلق الله له سبعين ألف مَلَك يستغفرون له إلى يوم القيامة" . ويقال : مَنْ أقرّ بهذه الشهادة عن عَقْد من قلبه فقـد قام بالعدل . ورُوى عن سعيد بن جُبَير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حىٍّ من أحياء العرب صنمٌ أو صنمان، فلمّا نزلت هذه الآية أصبحت الأصنام قد خرّت ساجدةً لله .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ أى بيّن وأعلم؛ كما يقال : شهِد فلان عند القاضى إذا بَيّن وأعلم لمن الحقّ أو على من هو . قال الزجّاج : الشاهد هو الذى يعلم الشئ ويبيّنه؛ فقد دلّنا الله تعالى على وحدانيته بما خلق وبيّن . وقال أبو عُبَيْدة : « شَهِد اللهُ» بمعنى قضى الله، أى أعلم . قال ابن عطيّة : وهذا مردود من جهات . وقرأ الكِسائىّ بفتح «أنّ» فى قوله

---

(١) بضم الخاء، وقيل بفتحها . (٢) المعضل من الحديث : ما سقط من إسناده اثنان فصاعدا .

« أنّه لا إلٰه إلّا هو » وقوله « أنّ الدِّينَ » . قال المبرِّد : التقدير : أنّ الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو ، ثم حذفت الباء كما قال : أمرتُك الخيرَ أى بالخير . قال الكِسائىّ : أَنْصِبهما جميعا ، بمعنى شهد الله أنه كذا ، وأنّ الدين عند الله . قال ابن كَيْسان : « أنّ » الثانية بدل من الأولى ؛ لأن الإسلام تفسير المعنى الذى هو التوحيد . وقرأ ابن عبّاس فيما حكى الكِسائىّ « شَهِدَ اللهُ إنّه » بالكسر « أنّ الدين » بالفتح . والتقدير : شهد الله أن الدين الإسلام ، ثم ابتدأ فقال : إنّه لا إله إلا هو . وقرأ أبو المهلّب وكان قارئا — شُهَدَاءَ اللهِ بالنصب على الحال ، وعنه « شُهَدَاءُ الله » . وروى شُعْبة عن عاصم عن زِرٍّ عن أُبَىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ « أن الدِّين عند الله الحَنِيفيّةُ لا اليهودية ولا النَّصْرانية ولا المَجُوسِيّة » . قال أبو بكر الأنبارِىّ : ولا يخفى على ذى تمييزٍ أنّ هذا كلام من النبىّ صلى الله عليه وسلم على جهة التفسير، أدخله بعض من نقل الحديثَ فى القرآن . و ﴿ قَائِمًا ﴾ نصب على الحال المؤكدة من اسمه تعالى فى قوله « شَهِدَ اللهُ » أو من قوله « إلَّا هُوَ » . وقال الفرّاء : هو نصب على القطع ، كان أصله القائم ، فلمّا قَطعت الألف واللام نُصب كقوله : « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا » . وفى قراءة عبد الله « القائمُ بالقِسْطِ » على النعت . والقِسط العَدْل . ﴿ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ كرّر لأن الاولى حلّت محلّ الدعوى ، والشهادةُ الثانية حلّت محلّ الحكم . وقال جعفر الصادق : الأولى وصفٌ وتوحيد ، والثانيةُ رسمٌ وتعليم ؛ يعنى قُولُوا لَا إلٰهَ إلا الله العزيز الحكيم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلَامُ ﴾ الدِّين فى هذه الآية الطاعة والملّة ، والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ، قاله أبو العالية وعليه جمهور المتكلمين . والأصل فى مسمّى الإيمان

والإسلام التغاير؛ لحديث جبريل[١] . وقـد يكون بمعنى المرادفة، فيسمّى كل واحد منهما باسم الآخر، كما فى حديث وفـد عبد القيس[٢] وأنه أمرهم بالإيمان وحده وقال : "هل تدرون ما الإيمان"؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : "شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأن محمدا رسول الله وإقامُ الصلاة و إيتاءُ الزكاة وصومُ رمضان وأن تؤدُّوا خُمْسًا من المغنم" الحديث . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "الإيمان بِضْعٌ وسبعون باباً فأدناها إماطةُ الأذى وأرفعها قولُ لا إله إلّا الله" أخرجه الترمذِى . وزاد مسلم "والحياء شُعْبةٌ من الإيمان" . ويكون أيضا بمعنى التداخل، وهو أن يُطْلَق أحدهما و يراد به مسمّاه فى الأصل ومسمّى الآخر، كما فى هذه الآية إذ قد دخل فيها التصديق والأعمال؛ ومنه قوله عليه السلام : "الإيمانُ معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان" ، أخرجه ابن ماجه، وقـد تقدّم . والحقيقة هو الأول وضعًا وشرعا، وما عداه من باب التوسُّع . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَابَ ﴾ الآية . أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على عِلم منهم بالحقائق، وأنه كان بغيا وطلبا للدنيا؛ قاله ابن عمر وغيره . وفى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى : وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيًا بينهم إلّا من بعد ما جاءهم العلم ؛ قاله الأخفش . قال محمد بن جعفر بن الزُّبَير : المراد بهذه الآية النصارى ، وهو توبيخ لنصارى نَجْران . وقال الربيع بن أنس : المراد بها اليهود. ولفظُ الذين أوتوا الكتاب يعمّ اليهود والنصارى؛ أى « وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب » يعنى فى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم « إلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءهمُ العلم » يعنى ببيان صفته ونبوّته فى كتبهم . وقيل : أى وما اختلف الذين أوتوا الكتاب فى أمر عيسى وفرّقوا فيه القول إلا من بعد ما جاءهم العلم بأنّ الله إله واحد وأن عيسى عبدُ الله و رسولُه . و « بَغْيًا » نصب على المفعول من أجله ، أو على الحال من "الذين" . والله تعالى أعلم .

---

(١) راجع هذا الحديث فى صحيحى البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان الجزء الأول .

(٢) هو عبد القيس بن أفصى بن دعمى ، أبو قبيلة ، كانوا ينزلون البحرين وكان قدومهم عام الفتح وعلى رأسهم عبد الله بن عوف الأشج . (راجع كتاب الطبقات الكبير ج ١ قسم ثان ص ٥٤ طبع أوربا ، وشرح القسطلانى ج ١ ص ١٩٣ طبع بلاق) .

قوله تعالى : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أى جادلوك بالأقاويل المزوّرة والمغالطات، فأَسْنِدْ أمرك الى ما كُلِّفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرُك . وقوله «وَجْهِيَ» بمعنى ذاتى؛ ومنه الحديث "سَجَد وجهى للذى خلقه وصوّره" . وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد؛ كما تقول : خرج فلان فى وجه كذا . وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة[(١)] مستوفى؛ والأوّل أولى . وعبّر بالوجه عن سائر الذات إذ هو أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس . وقال :

أسلمتُ وَجْهِى لمن أسلمتْ * له المُزْنُ تحمــل عَذْباً زُلالا

وقد قال حُذّاق المتكلمين فى قوله تعالى «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ» : إنها عبارة عن الذات، وقيل : العمل الذى يقصد به وجهه . وقوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » « مَنْ » فى محل رفع عطفا على التاء فى قوله « أَسْلَمْتُ » أى ومَنِ اتّبعن أسـلم أيضا . وجاز العطفُ على الضمير المرفوع من غير تأكيـد للفصل بينهما . وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء « اتّبَعَنِ » على الأصل، وحذف الآخرون اتّباعا للمصحف إذ وقعت فيه بغير ياء . وقال الشاعر :

ليس تخفى يسارتى قدر يوم * ولقد تُخْفِ شِيمتى إعسارى

قوله تعـالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ يعنى اليهود والنصارى والأمّيِّين الذين لا كتاب لهم وهو مشركو العرب . «أَأَسْلَمْتُمْ» استفهام معناه التقرير وفى ضمنه الأمر، أى أسلموا؛ كذا قال الطبرى وغيره . وقال الزجّاج : « أأسلمتم » تهديد . وهذا حسن، لأن المعنى أأسلمتم أم لا . وجاءت العبـارة فى قوله « فَقَـدِ اهْتَدَوْا » بالمـاضى مبالغة فى الإخبار بوقوع الهـدى لهم

(١) راجع ج ٢ ص ٧٥ طبعة ثانية .

وتحصّله . و « البَلَاغُ » مصدر بَلَغَ بتخفيف عين الفعل ، أى إنما عليك أن تبلِّغ . وقيل : إنه مما نُسخ بالجهاد . قال ابن عطيّة : «وهذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ؛ وأمّا على ظاهر نزول هـذه الآيات فى وفد نجْران فإنما المعنى فإنما عليك أن تبلِّغ ما أُنزل إليك بما فيه من قتال وغيره » .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

فيه ستُّ مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إنّ الّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ﴾ قال أبو العبّاس المبرِّد : كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيّون يدعونهم الى الله عزّ وجل فقتلوهم ؛ فقام أُناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسـلام فقتلوهم ؛ ففيهم نزلت الآية . وكذلك قال مَعْقِل بن أبى مسْكين : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجىء الى بنى إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم ، فيقوم قوم ممن آتّبعهم فيأمرون بالقِسط ، أى بالعدل ، فيُقْتَلون . وقد رُوى عن ابن مسعود قال قال النبىّ صلى الله عليـه وسلم : " بئس القومُ قومٌ يقتلون الذين يأمرون الناس بالقسط من الناس بئس القومُ قومٌ لا يأمرون بالمعروف ولا يَنْهَوْنَ عن المنكر بئس القوم قومٌ يمشى المؤمن بينهم بالتَّقيَّة " . وروى أبو عُبَيْدة بن الجرّاح أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أوّل النهار فى ساعةٍ واحدة فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عبّاد بنى إسرائيل فأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر فقتِلوا جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية " . ذكره المَهْدَوِىّ وغيره . وروى شُعْبة عن أبى إسحاق عن أبى عُبَيدة عن عبد الله قال : كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم سـبعين نبيًّا ثم تقوم سُوقُ بَقْلهم من آخر

النهار. فإن قال قائل: الّذين وُعِظوا بهذا لم يقتُلوا نَبِيًّا. فالجواب عن هـذا أنهم رَضُوا فعل من قَتَل فكانوا بمنزلته؛ وأيضا فإنهم قاتلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهَمُّوا بقتلهم؛ قال الله عزّ وجلّ: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ».

الثانيـــة — دلّت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان واجبا فى الأمم المتقدّمة، وهو فائدة الرسالة وخلافـة النبوّة. قال الحسن قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم: "مَنْ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفةُ الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه". وعن دُرّة بنت أبى لَهَبٍ قالت: جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال: مَنْ خيرُ الناس يارسول الله؟ قال: "آمَرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتْقاهم لله وأوصلُهم". وفى التنزيل: «وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ» ثم قال: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ». فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقًا بين المؤمنين والمنافقين؛ فدلّ على أن أخصّ أوصاف المؤمن الأمرُ بالمعروف والنهى عن المنكر، ورأسها الدعاء الى الإسلام والقتالُ عليه. ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان إذا كانت إقامةُ الحـدود إليـه والتعزيرُ إلى رأيه والحبس والإطلاق له والنفى والتغريب؛ فَيَنْصِب فى كل بلدة رجلا صالحا قويًّا عالما أمينا ويأمره بذلك، ويُمْضِى الحدودَ على وجهها من غير زيادة. قال الله تعالى: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمعـروفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ».

الثالثـــة — وليس من شرط الناهى أن يكون عدلًا عند أهل السنّة، خلافا للمبتدعة حيث تقول: لا يغيّره إلّا عدلٌ. وهذا ساقط؛ فإن العدالة محصورة فى القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عامٌّ فى جميع الناس. فان تشبّثوا بقوله تعـالى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» وقوله: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْـدَ ٱللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» ونحوه، قيل لهم: إنما وقع الذمّ ها هنا على ارتكاب ما نُهِى عنه لا على النهى عن المنكر. ولا شك فى أن

النهى عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه، ولذلك يدور فى جهنم كما يدور الحمار بالرّحى؛ كما بيّناه فى البقرة عند قوله تعالى «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ»(١).

الرابعــة — أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البرّ أنّ المنكر واجبٌ تغييرُه على كل من قدر عليـه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللّوم الذى لا يتعـدّى إلى الأذى فإن ذلك لا ينبغى أن يمنعـه من تغييره؛ فإن لم يَقْدِرْ فبلسانه، فان لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك. وإذا أنكر بقلبه فقد أدّى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك. قال: والأحاديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى تأكيد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جدًّا ولكنها مقيَّدة بالاستطاعة. قال الحسن: إنما يُكَلَّمُ مؤمنٌ يُرْجَى أو جاهلٌ يُعَلَّم؛ فأمّا من وَضَع سيفَه أو سوطه فقال: اتَّقِنِى اتَّقِنِى فما لك وله. وقال ابن مسعود: بِحَسْب المرء إذا رأى منكرًا لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وروى ابن لَهِيعة عن الأعرج عن أبى هُرَيرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يَحِـلّ لمؤمن أن يُذِلَّ نفسَه". قالوا: يارسول الله وما إذلالُه نفسه؟ قال: "يتعرّض من البلاء لِمـا لا يقوم له".

قلت: وخرّجه ابن ماجه عن علىّ بن زيد بن جُدْعان عن الحسن بن جُنْـدُب عن حُذَيْفة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وكلاهما قد تُكُلِّمَ فيه. ورُوى عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرجل اذا رأى منكرًا لا يستطيع النكيرَ عليه فليقل ثلاث مرات «اللّهم إنّ هذا مُنْكَرٌ» فاذا قال ذلك فقد فعـل ما عليه، وزعم ابن العربىّ أن من رجا زوالَه وخاف على نفسـه من تغييره الضربَ أو القتلَ جاز له عند أكثر العلماء الاقتحامُ عند هذا الغرر، وإن لم يرج زوالَه فأىّ فائدة عنده. قال: والذى عندى أن النيّة اذا خَلَصت فليقتحم كيف ما كان ولا يُبَالِ.

قلتُ: هـذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع. وهـذه الآية تدلّ على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع خوف القتل. وقال تعالى: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ». وهذا إشارة إلى الإذاية.

(١) راجع ج ١ ص ٣٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة.

الخامسة — روى الأئمة عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ رأى منكم مُنْكَرًا فليُغَيِّرْه بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان". قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء. يعني عوامّ الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهي فليفعلْه، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو القتل فليفعل، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل. وهذا تُلُقِّيَ من قول الله تعالى: « فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ». وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائلَ على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفسِ غيره فله ذلك ولا شيءَ عليه. ولو رأى زيد عمرا وقد قصد مال بكر فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادرا عليه ولا راضيًا به؛ حتى لقد قال العلماء: لو فرضنا ...[1] وقيل: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء: إمامٌ عادل لا يظلِم، وعالِمٌ على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرِصون على طلب العلم والقرآنِ، ونساؤهم مستورات لا يتبرَّجن تبرُّج الجاهليّة الأولى.

السادسة — روى أنس بن مالك قال قيل: يا رسول الله، متى يُتْرَك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: "إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم". قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: "المُلْكُ في صِغاركم والفاحشةُ في كِبَاركم والعلمُ في رُذَالتكم". قال زيد: تفسير معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم "والعلم في رُذَالتكم" إذا كان العلم في الفسّاق. خرّجه ابن ماجه. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في «المائدة» وغيرها إن شاء الله تعالى. وتقدّم معنى « فَبَشِّرْهُمْ » « وحَبِطَتْ » في البقرة[2] فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)

(١) بياض في أكثر الأصول. وفي نسخة: «لو فرضنا قودا». ولم نوفق للصواب فيه.

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة. وجـ ٣ ص ٤٨ طبعة أولى أو ثانية.

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال ابن عبّاس : هذه الآية نزلت بسبب أنّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم دخل بيتَ المِدْرَاس على جماعة من يهود فدعاهم الى الله . فقال له نُعَيْم بن عمرو والحارث بن زيد : على أىّ دين أنت يا محمد ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إنى على مِلّة إبراهيم". فقالا : فإن إبراهيم كان يهوديًّا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "فَهَلُمُّوا إلى التوراة فهى بيننا و بينكم". فأبيَا عليه فنزلت الآية . وذكر النقّاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فقال لهم النبىّ صلى الله علية وسلم : "هلُمُّوا الى التوراة ففيها صفتى" فأبوا . وقرأ الجمهور «لِيَحْكُمَ» وقرأ أبو جعفر يزيد بن القَعْقَاع «لِيُحْكَمَ» بضم الياء . والقراءة الأولى أحسن؛ لقوله تعالى : «هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» .

الثانيـــة — فى هـذه الآية دليل على وجوب ارتفاع المدعو الى الحاكم لأنه دُعِى الى كتاب الله ؛ فإن لم يفعل كان مخالفا يتعيّن عليـه الزجر بالأدب على قدر المخالِف والمخالَف . وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس وبلاد المغرب وليس بالديار المصرية . وهـذا الحكم الذى ذكرناه مبيَّن فى التنزيل فى سورة «النور» فى قوله تعـالى : «وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ — الى قوله — بَلْ أُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»(١) . وأسند الزُّهْرِىّ عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ دعاه خَصْمُه إلى حاكم من حكّام المسلمين فلم يُجب فهو ظالم ولا حقَّ له" . قال ابن العربىّ : وهذا حديث باطل . أمّا قوله «فهو ظالم» فكلام صحيح . وأمّا قوله «فلا حَقّ له» فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد المالكىّ(٢) : واجبٌ على كل من دُعِى إلى مجلس الحاكم أن يُجيب ما لم يعلم أنّ الحاكم فاسق أو يعلم عداوةً بين المُدَّعِى والمُدَّعَى عليه .

الثالثـــة — وفيهـا دليل على أن شرائع مَنْ قبلنا شريعةٌ لنا إلا ما عَلِمنا نسخَه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا ، على ما يأتى بيانه . وإنمـا لا نقرأ التوراة ولا نعمـل

(١) الآيات ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ (٢) تنتهى عبارة بن خويزمنداد فى تفسير البحر لأبى حيان عند قوله : «ما لم يعلم أن الحاكم فاسق» فما ورد فى الأصول بعد هذه الكلمة غير واضح .

بما فيها لأن من هى فى يده غيرُ أمين عليها وقد غيّرها وبدّلها، ولو علمنا أن شيئا منها لم يتغيّر ولم يتبدّل جاز لنا قراءتُه . ونحو ذلك روى عن عمر حيث قال لكعب : إن كنتَ تعلم أنها التوراة التى أنزلها الله على موسى بن عمران فاْقرأْها . وكان عليه السلام عالمًا بما لم يُغَيَّر منها فلذلك دعاهم إليها وإلى الحُكْم بها . وسيأتى بيان هذا فى « المائدة » والأخبار الواردة فى ذلك إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إن هذه الآية نزلت فى ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارة إلى التولى والإعراض . وٱغترار منهم فى قولهم : « نحن أبناء الله وأحبّاؤه » إلى غير ذلك من أقوالهم . وقد مضى الكلام فى معنى قولهم : « لن تمسنا النار » فى البقرة (١) .

قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّتِه على جهة التوقيف والتعجب ، أى فكيف يكون حالهم أو كيف يَصْنعون إذا حشروا يوم القيامة وٱضمحلّت عنهم تلك الزخارف التى ٱدّعوها فى الدنيا، وجُوزُوا بما ٱكتسبوه من كفرهم وٱجترائهم وقبيح أعمالهم . واللام فى قوله «ليوم» بمعنى «فى»؛ قاله الكسائى . وقال البصريون : المعنى لحساب يوم . الطبرىّ : لما يحدث فى يوم .

قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

(١) آية ٨٠ جـ ٢ ص ١٠ طبعة ثانية .

قال علىّ رضى الله عنه قال النبىّ صلىّ الله عليـه وسلم : " لمـا أراد الله تعالى أن ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسى وشهد الله وقل اللّهمّ مالك الملك إلى قوله بغير حساب تعلّقن بالعرش وليس بينهن وبين الله حجاب وقلن يا ربّ تهبط بنا دارَ الذنوب وإلى من يعصيك فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا يقرأ كنّ عبد عقِب كل صلاة مكتوبة إلّا أسكنته حظيرة القدس على ما كان منه وإلا نظرت إليه بعينى المكنونة فى كل يوم سبعين نظرة وإلّا قضيت له فى كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرةُ وإلّا أعذته من كل عدوّ ونصرته عليه ولا يمنعه من دخول الجنة إلّا أن يموت " . وقال معاذ بن جبل : احتبست عن النبىّ صلى الله عليه وسلم يوما فلم أصلّ معه الجمعة فقال : " يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة " ؟ قلت : يا رسول الله، كان ليوحنا بن بارِيا اليهودىّ علىّ أُوقِيّة من تِبْر وكان على بابى يرصُدنى فأشفقت أن يحبسنى دونك . قال : " أتحب يا معاذ أن يقضى الله دينـك " ؟ قلت نعم . قال : " قل كل يوم قل اللهم مالِك الملك إلى قوله بغير حساب رَحْمٰنَ الدنيا والآخرة ورحيمَهما تُعْطِى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء آقض عنى دينى فلو كان عليك ملء الأرض ذهبا لأدّاه الله عنك ". خرّجه أبو نعيم الحافظ . أيضا عن عطاء الخُراسانىّ أن معاذ بن جبل قال : علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم آياتٍ من القرآن أو كلماتٍ ما فى الأرض مُسْـلمٍ يدعو بهن وهو مكروب أو غارم أو ذو دَيْن إلا قضى الله عنه وفرّج همّه، اِحتبست عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذكره . غريب من حديث عطاء أرسـله عن معاذ . وقال آبن عباس وأنس بن مالك : لمـا آفتتح رسول الله صلى الله عليه وسـلم مكة وواعد أمّته مُلك فارس والروم قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ! من أين لمحمد ملك فارس والروم ! هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكةُ والمدينةُ حتى طمِع فى ملك فارس والروم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل : نزلت دامغةً لباطل نصارى أهل نَجران فى قولهم : إن عيسى هو الله؛ وذلك أن هذه الأوصاف تبيّن لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس فى شىء منها . قال آبن إسحاق : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية بعنادهم وكفرهم . وأن عيسى صلى الله عليه وسلم وإن كان الله تعالى

أعطاه آياتٍ تدل على نبوّته من إحياء الموتى وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المنفرد بهذه الأشياء ؛ من قوله : « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء » . وقوله : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق من تشاء بغير حساب » فلو كان عيسى إلٰهاً كان هذا إليه ؛ فكان فى ذلك ٱعتبارٌ وآية بيّنة .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ ﴾ اختلف النحويون فى تركيب لفظة « اللهم » بعد إجماعهم أنها مضمومة الهاء مشدّدة الميم المفتوحة ، وأنها منادى ؛ وقد جاءت مخففة الميم فى قول الأعشى :

كدعوة من أبى رَبَاحٍ * يسمعها لَاهُمَ الكُبَارُ

قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم يا ألله ، فلما ٱستعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو « يا » جعلوا بدله هذه الميم المشدّدة فجاءوا بحرفين وهما الميمان عوضا من حرفين وهما الياء والألف ، والضمة فى الهاء هى ضمة الاسم المنادى المفرد . وذهب الفرّاء والكوفيون إلى أن الأصل فى اللهم يا ألله أُمَّنَا بخير ؛ فحذف وخلط الكلمتين ، وأن الضمة التى فى الهاء هى الضمة التى كانت فى أُمَّنَا لما حذفت الهمزة انتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطأ العظيم ، والقول فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الزجاج : محال أن يترك الضم الذى هو دليل على النداء المفرد ، وأن يجعل فى ٱسم الله ضمة أُمّ ، هذا إلحاد فى ٱسم الله تعالى . قال ٱبن عطية : وهذا غلو من الزجاج ، وزعم أنه ما سُمِع قط يا أللهُ أُمّ ، ولا تقول العرب يا اللهُمّ . وقال الكوفيون : إنه قد يدخل حرف النداء على « اللهم » وأنشدوا على ذلك قول الراجز :

* غفرتَ أو عذّبت يا اللهُمّا *

آخر :

وما عليكِ أن تقولى كلّما * سبّحتِ أو هلّلتِ يا أللّهُمّا[1]

أُرْدُدْ علينا شيخَنا مُسَلَّما * فإننا من خيره أن نَعدما

(١) ورد هذا الرجز فى لسان العرب (مادة أله) وليس فيه الشطر الأخير .

آخـر :

إنّى إذا ما حَـدَثٌ أَلَمَّا * أقول يا اللّهُـمَّ يا اللّهُمّا

قالوا : فلو كان الميم عوضا من حرف النـداء لما آجتمعتا . قال الزجاج : وهـذا شاذ ولا يعرف قائله ، ولا يترك له ما كان فى كتاب الله وفى جميع ديوان العرب ؛ وقـد ورد مثلُه فى قوله (١) :

همـا نَفَثَا فِى فِىَّ من فَمَوَيْهمـا * على النابح العاوِى أشـدَّ رِجامِ

قال الكوفيون : وإنما تزاد الميم مخففة فى فَمٍ وآبْنُمٍ ، وأما ميمٌ مشدّدةٌ فلا تزاد . وقال بعض النحويين : ما قاله الكوفيون خطأ ؛ لأنه لو كان كما قالوا كان يجب أن يقال : «اللهم» ويقتصر عليـه لأنه معه دعاء . وأيضا فقد تقول : أنت اللهمّ الرزاق ، فلو كان كما آدّعوا لكنت قد فصلت بجملتين بين الآبتـداء والخبر . قال النَّضْر بن شُميل : من قال اللهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه كلها . وقال الحسن : اللّهمّ تجمع الدعاء .

قوله تعالى : ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ قال قَتادة : بلغنى أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم سأل الله عز وجل أن يُعطِى أمّته مُلك فارس فأنزل الله هذه الآية . وقال مُقاتل : سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له مُلك فارس والروم فى أمته ؛ فعلّمه الله تعالى بأن يدعو بهذا الدعاء . وقد تقدم معناه . « ومالِكَ » منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ؛ ومثله قوله تعالى : « قلِ آللّهُمّ فاطِرَ آلسموات والأرض » ولا يجوز عنـده أن يوصف اللهم ؛ لأنه قد ضّمت إليه الميم . وخالفه محمد بن يزيد وإبراهيم بن السرىّ (٢) الزجاج فقالا : « مالِك » فى الإعراب صفة لآسم الله تعـالى ، وكذلك « فاطر السموات والأرض » . قال أبو علىّ : وهو مذهب

(١) القائل هو الفرزدق . وصف شاعرين من قومه نزع فى الشعر إليهما . وأراد بالنابح العاوى من هجاه ، وجعل الهجاء كالمراجمة لجعله المهاجى كالكلب النابح ؛ والرجام المراجمة . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٢) فى الأصول : « ... وابراهيم بن السرى والزجاج فقالوا » . ولا معنى لذكر الواو ؛ لأن الزجاج هو ابراهيم ابن السرى بن سهل أبو اسحاق الزجاج .

أبي العباس المبرد، وما قاله سيبويه أصْوب وأبين؛ وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حدّ « اللّهُـمّ » لأنه آسم مفرد ضم إليه صـوت، والأصـوات لا توصـف؛ نحو غاق وما أشبهه . وكان حكم الاسم المفرد ألا يوصف وإن كانوا قد وصفوه في مواضِع . فلما ضم هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمنزلة صوت ضم الى صوت؛ نحو حَيّهل فلم يوصف . و﴿ الْمُلْكَ ﴾ هنا النبوّة؛ عن مجاهد . وقيل : الغلبة . وقيل : المـال والعبيد . الزجاج : المعنى مالك العبـاد وما ملكوا . وقيـل : المعنى مالك الدنيـا والآخرة . ومعنى ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾ أي الإيمـان والإسلام . ﴿ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أي من تشاء أن تؤتيه إياه، وكذلك ما بعده ، لا بدّ فيه من تقدير الحـذف ، أي وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه منه، ثم حذف هذا، وأنشد سيبويه .

ألا هل لهذا الدهر من مُتَعلَّل * على الناس مهما شاء بالناسِ يفعلِ[1]

قال الزجاج : مهما شاء أن يفعـل بالناس يفعـل . وقوله : ﴿ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يقال : عزّ إذا علا وقهر وغلب؛ ومنه « وعزني في الخطابِ » . ﴿ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَـاءُ ﴾ ذل يَذِل ذُلّا . قال طَرَفة :

بطيءٍ عن الجُلَّى سريعٍ الى الخَنَا * ذليـلٍ باجماع الرجال مُلَهَّـدِ[2]

﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ أي بيدك الخير والشر فحذف؛ كما قال: «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» . وقيل : خُص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة في فضله . قال النقاش : بيدك الخير ، أي النصر والغنيمة . وقال أهل الإشارات . كان أبو جهل يملك المـال الكثير، ووقع في الرَّسّ[3] يوم بَدْر، والفقراءُ صُهَيْب وبِلال وخَبّاب لم يكن لهم مال، وكان ملكهم الإيمـان «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء» تقيم الرسـولَ يتيمَ أبي طالب على رأس الرس حتى يُنادِى أبدانًا قد انقلبت

(١) البيت للأسود بن يَعْفُر النهشلي . يقول إن هذا الدهر يذهب ببهجة الإنسان وشبابه ، و يتعلل في فعله ذلك تعلل المتجني على غيره . (عن شرح الشواهد) . (٢) الجلى : الأمر العظيم الذى يدعى له ذوو الرأى . والخنا : الفساد والفحش في المنطق . والذليل : المقهور، وهو ضدّ العزيز . وأجماع : جمع جُمْع ، وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . والملهد : المضروب ، وهو المدفع . (عن شرح المعلقات) . (٣) الرس : البئر المطوية بالحجارة .

إلى القَليب : يا عُتْبة ، ياشَيْبة تعز من تشاء وتذل من تشاء . أى صُهَيب ، أى بِلال ، لا تعتقدوا أنّا منعناكم من الدنيا ببغضكم . بيدك الخير ما منعكم من عجز . إنك على كل شئ قدير ، إنعام الحق عام يتولّى من يشاء .

قوله تعالى : تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

قال آبن عباس ومجاهِد والحسن وقَتادة والسُّدِّى فى معنى قوله « تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ » الآية ، أى تُدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر ، حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة وهو أطول ما يكون ، والليل تسع ساعات وهو أقصر ما يكون ، وكذا تولج النهار فى الليل ؛ وهو قول الكَلْبى ، ورُوى عن آبن مسعود . وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار كأن زوال أحدهما ولوج فى الآخر . وآختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ فقال الحسن : معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافرَ من المؤمن ، ورُوى نحوه عن سلمان الفارسى . وروى مَعْمر عن الزُّهْرى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم دخل على نسائه فإذا بامرأة حَسَنة الهيئة قال : "من هذه" ؟ قلن : إحدى خالاتك . قال : "ومَن هى" ؟ قلن : هى خالدة بنت الأسود بن عبد يَغُوث . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "سبحان الذى يخرج الحىّ من الميت" . وكانت آمرأة صالحة وكان أبوها كافرا . فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن ؛ فالموت والحياة مستعاران . وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت فى الآية حقيقتان ؛ فقال عِكرمة : هى إخراج الدَّجاجة وهى حيّة من البيضة وهى ميّتة ، وإخراج البيضة وهى ميتة من الدَّجاجة وهى حيّة . وقال آبن مسعود : هى النطفة تخرج من الرجل وهى ميتة وهو حىّ ، ويخرج الرجل منها حيّا وهى ميتة . وقال عِكرمة والسُّدِّى : هى الحبة تخرج من السنبلة والسنبلة تخرج من الحبة ، والنواة من النخلة والنخلة

تخرج من النواة، والحياة فى النخلة والسنبلة تشبيه . ثم قال : ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى بغير تضييق ولا تقتير، كما تقول : فلان يُعطى بغير حساب؛ كأنه لا يحسب ما يعطى .

قوله تعالى : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قال آبن عباس : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء ؛ ومثله « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ »(١) وهناك يأتى بيان هـذا المعنى . ومعنى ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أى فليس من حزب الله ولا من أوليائه فى شئ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . وحكى سيبويه « هو مِنّى فرسخين » أى من أصحابى ومعى . ثم آستثنى وهى :

الثانيـــة — فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ قال معاذ بن جبل ومُجاهد : كانت التَّقِيَّة فى جِدّة الإسـلام قبل قوّة المسلمين؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوّهم . قال آبن عباس : هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولا يقتل ولا يأتى مأثما . وقال الحسن : التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة، ولا تقيّة فى القتل . وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضّحاك : « إلّا أن تتّقُوا منهم تقيّة » وقيل : إن المؤمن إذا كان قائمـا بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفا على نفسه وقلبُه مطمئن بالإيمان . والتَّقِيّة لا تحِلّ إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم . ومن أُكْرِه على الكفر فالصحيح له أن يتصلّب ولا يجيب إلى التلفظ بكلمة الكفر؛ بل يجوز له ذلك على ما يأتى بيانه فى «النحل»(٢) إن شاء الله تعالى . وأمال حمزة والكسائى « تقاة » ، وفَخّم الباقون؛ وأصلُ « تقاة » وُقَيَة على وزن فُعَلَة ؛ مثل

---

(١) آية ١١٨ من هذه السورة .

(٢) عند قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ... » آية ١٠٦

تُؤدة وتُهمة، قلبت الواو تاء والياء ألفا . وروى الضحاك عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عُبادة بن الصامت الأنصارى وكان بَدْرِيًّا تقيًّا وكان له حِلف من اليهود ؛ فلما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال عُبادة : يانبيّ الله، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدوّ . فأنزل الله تعالى : « لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » الآية . وقيل : إنها نزلت فى عمّار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون، على ما يأتى بيانه فى « النحل » .

قوله تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾ قال الزجّاج : أى ويحذّركم الله إياه . ثم استغنوا عن ذلك بذا وصار المستعمل ؛ قال تعالى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » فمعناه تعلم ما عندى وما فى حقيقتى ولا أعلم ما عندك ولا ما فى حقيقتك . وقال غيره : المعنى ويحذركم الله عقابه؛ مثل « وآسألِ القرية » . وقال : « تعلم ما فى نفسى » أى مُغَيَّبى ؛ فجعلت النفس فى موضع الإضمار لأنه فيها يكون . ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أى وإلى الله جزاء المصير . وفيه إقرار بالبعث .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾

فهو العالم بخفيات الصدور وما اشتملت عليه، وبما فى السموات والأرض وما احتوت عليه . علّام الغيوب لا يعزُب عنه مثقال ذرة ولا يغيب عنه شىء، سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٣٠)﴾

يوم منصوب متصل بقوله : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ يَوْمَ تَجِدُ » . وقيل : هو متصل بقوله : « وإلى الله المصير . يوم تجد » . وقيل : هو متصل بقوله : « والله على كل شئ قدير . يوم تجد » ويجوز أن يكون منقطعا على إضمار اذكر؛ ومثله قوله : « إن الله عزيز ذُو ٱنْتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ » . و « مُحْضَرًا » حال من الضمير المحذوف من صلة « ما » تقديره تجد كل نفس ما عملته من خير مُحْضرا . هذا على أن يكون « تجد » من وُجْدان الضّالّة . و « ما » من قوله « وما عملت من سوء » عطف على « ما » الأولى . و « تَوَدُّ » في موضع الحال من «ما» الثانية . و إن جعلت «تجد» بمعنى تعلم كان « مُحْضَرًا » المفعول الثانى ، وكذلك تكون « تود » فى موضع المفعول الثانى ؛ تقديره يوم تجد كل نفس جزاء ما عملت محضرا . ويجوز أن تكون « ما » الثانية رفعاً بالأبتداء ، و « تود » فى موضع رفع على أنه خبر الأبتداء ، ولا يصح أن تكون « ما » بمعنى الجزاء ؛ لأن «تود» مرفوع ، ولو كان ماضيا لجاز أن يكون جزاء ، وكان يكون معنى الكلام : وما عملت من سوء ودّت لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا ؛ أى كما بين المَشْرِق والمَغْرِب . ولا يكون المستقبل إذا جعلت « ما » للشرط إلا مجزوما ، إلا أن تحمله على تقدير حذف الفاء على تقدير : وما عملت من سوء فهى تودّ . أبو عليّ : هو قياس قول الفرّاء عندى ؛ لأنه قال فى قوله تعالى : « وإن أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » : إنه على حذف الفاء . والأَمَد : الغاية ، وجمعه آماد . ويقال : استولى على الأَمَد ، أى غَلَب سابقا . قال النابغة :

إلّا لِمثْلِكَ أو مَن أنت سابِقُه * سَبْقَ الجَوَادِ إذا ٱستولَى على الأَمَدِ

والأمد : الغضب . يقال : أَمِد أَمَدًا ، إذا غضِب .

قوله تعالى : قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

الحُبُّ : المحبّة ، وكذلك الحِبّ بالكسر . والحِبّ أيضا الحبيب ؛ مِثل الخِدْن والخَدِين ؛ يقال أحبّه فهو مُحِبٌّ ، وحَبّه يَحِبُّه (بالكسر) فهو مَحْبُوب . قال الجوهرىّ : وهذا شاذّ ؛ لأنه

لا يأتى فى المضاعف يفعِل (بالكسر) . قال أبو الفتح : والأصل فيه حَبُبَ كظَرُف ، فأسكنت الباء وأدغمت فى الثانية . قال ٱبن الدّهان سعيد : فى حَبّ لغتان : حَبّ وأَحَبّ ، وأصل «حب» فى هذا البناء حَبُبَ كظرف ؛ يدلّ على ذلك قولهم : حَبُبْت ، وأكثر ما ورد فَعِيل من فَعُل . قال أبو الفتح : والدلالة على أحَبّ قوله تعالى : «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» بضم الياء . و«اتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» و «حبّ» يرد على فَعُل لقولهم حبيب . وعلى فُعِل كقولهم محبوب : ولم يرد اسم الفاعل من حَبّ المتعـدى ، فلا يقال : أنا حابٌّ . ولم يرد ٱسم المفعول من أَفْعَل إلّا قليلا ، كقوله :

* مِنِّى بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ * (١)

وحكى أبو زيد حَبَبْته أَحِبّه . وأنشد :

فواللهِ لولا تَمْـرُه ما حَبِبْتُــه * ولا كان أدْنَى من عُوَيف وهاشِم

وأنشـــد :

لَعَمْرُكَ إنّنى وطِلَابَ مِصْرٍ * لَكَالمُزْداد مما حَبّ بُعْـدَا

وحكى الأصمعىّ فتـح حرف المضارعة مع الباء وحدها . والحُبّ الخابيـة ، فارسىّ مُعَرّب . والجمع حِبَاب وحِبَبَة ؛ حكاه الجوهرىّ . والآية نزلت فى وفد نَجْرَانَ إذ زعموا أن ما ٱدّعَوْه لعيسى حبّ لله عز وجل ؛ قاله محمـد بن جعفر بن الزبير . وقال الحسن وٱبن جُرَيج : نزلت فى قوم من أهل الكتاب قالوا : نحن الذين نُحِبّ رَبّنا . ورُوِى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، واللهِ إنا لَنُحبّ ربّنا ؛ فأنزل الله عز وجل : «قل إن كنتم تُحِبّون الله فاتبعونى» . قال ٱبن عرفة : المَحَبّة عند العرب إرادة الشىء على قصد له . وقال الأزهرى : محبة العبد لله ورسوله طاعتُه لهما وٱتباعه أمرَهما ؛ قال الله تعالى : «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى» . ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغُفْران ؛ قال الله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» أى لا يغفر لهم . وقال سهل بن عبد الله : علامة حبِّ الله حبُّ القرآن . وعلامة حبِّ

---

(١) هذا عجز بيت لعنترة فى معلقته وصدره :
* ولقد نزلت فلا تظنى غيره *

القرآن حبُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . وعلامة حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حبُّ السُّنَّة .
وعلامة حبِّ الله وحبّ القرآن وحبّ النبيّ وحبّ السُّنَّة حبُّ الآخرة . وعلامة حبّ الآخرة
أن يُحِبّ نفسه . وعلامة حبّ نفسِه أن يُبْغِض الدنيا . وعلامة بغض الدنيا ألّا يأخذ منها
إلا الزاد والبُلْغة . وروى أبو الدَّرْداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى :
« قل إن كنتم تحبون الله فآتبعونى يحببكم الله » قال : " على البِرّ والتقوى والتواضع وذلة
النفس " خرّجه أبو عبد الله التّرمِذيّ . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من
أراد أن يُحِبّه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة وألّا يؤذى جاره" . وفى صحيح مسلم
عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله إذا أحبّ عبدا دعا جبريلَ
فقال إنى أحِبّ فلانا فأحِبّه قال فيُحِبُّه جبريل ثم ينادِى فى السماء فيقول إنّ الله يحب فلانا
فأحِبوه فيُحِبُّه أهلُ السماء قال ثم يوضع له القَبُول فى الأرض . وإذا أبغض عبدا دَعَا جبريلَ
فيقول إنى أبغض فلانا فأَبْغِضْه قال فيُبْغِضُه جبريلُ ثم ينادِى فى أهل السماء إن الله يُبْغِض
فلانا فأبْغِضُوه قال فيُبْغِضُونَه ثم تُوضع له البغضاءُ فى الأرض". وسيأتى لهذا مزيد بيان فى آخر
سورة «مريم» إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو رَجاء العُطارِدىّ "فاتّبَعُونى" بفتح الباء،
«ويغفر لكم» عطف على يحببكم . وروى محبوب عن أبى عمرو بن العَلاء أنه أدغم الراء من
«يغفر» فى اللام من «لكم» . قال النحاس : لا يُجيز الخليل وسيبويه إدغام الراء فى اللام،
وأبو عمرو أجلّ من أن يغلط فى مثل هذا، ولعلّه كان يُخْفِى الحركة كما يفعل فى أشياء كثيرة .

قوله تعالى : قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ يأتى بيانه فى « النساء »[1] .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ شرطٌ، إلا أنه ماض لا يُعْرَب . والتقدير فإن تولّوا على كفرهم وأعرضوا عن
طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم كما تقدّم .

(١) عند قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ... » آية ٥٩ .

وقال : « فإنّ الله » ولم يقل « فإنه » لأن العرب إذا عظّمت الشئ أعادت ذكره ؛ وأنشد سيبويه :

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شئٌ * نَغَّصَ الموتُ ذا الغِـنَى والفَقِيرا (١)

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ آصطفى آختار، وقد تقدّم فى البقرة (٢) . وتقدّم فيها اشتقاق آدم وكنيته (٣) . والتقدير إن الله آصطفى دينهم وهو دين الإسلام ؛ فخذف المضاف . وقال الزجاج : اختارهم للنبوّة على عالمى زمانهم . « ونوحا » قيل إنه مشتق من ناح يَنُوح ، وهو آسم أعجمىّ إلا أنه انصرف لأنه على ثلاثة أحرف، وهو شيخ المرسلين، وأوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام بتحريم البنات والأخوات والعمّات والخالات وسائر القرابات . ومن قال إن إدريس كان قبله من المؤرّخين فقد وَهِم على ما يأتى بيانه فى «الأعراف» (٤) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ تقدم فى البقرة معنى الآل وعلى ما يُطْلَق مستوفًى (٥) . وفى البخارىّ عن آبن عباس قال : آل ابراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد ؛ يقول الله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » وقيل : آل ابراهيم إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ والأسباطُ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم . وقيل : آل إبراهيم نفسه، وكذا آل عمران؛ ومنه قوله تعالى : « وبَقِيَّةٌ مِمَّـا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ » . وفى الحديث : "لقد أعطى مِزْمارا مِنْ مزامير آل داود"؛ وقال الشاعر :

(١) البيت لسوادة بن عدىّ . وقيل : لأمية بن أبى الصلت . (عن شرح الشواهد) .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) عند قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... » آية ٥٩ .
(٥) راجع جـ ١ ص ٣٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

ولا تَبْكِ مَيْتًا بعد مَيْتٍ أَحَبَّه * علىٌّ وعبّاسٌ وآلُ أبى بكر[1]

وقال آخر :

يُلَاقِى من تَذَكُّرِ آلِ لَيْلَى * كما يَلْقَى السَّلِيمُ من العِدَادِ[2]

أراد من تذكُّر لَيْلَى نفسَها . وقيل : آلُ عمرانَ آلُ إبراهيم، كما قال : « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » . وقيل: المراد عيسى، لأن أمّه ٱبنة عمران . وقيل: نفسه كما ذكرنا . قال مُقاتل : هو عمران أبو موسى وهارون ، وهو عمران بن يصهر بن فاهاث بن لاوى بن يعقوب . وقال الكَلْبى : وهو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان عليه السلام . وحكى السُّهيلى : عمران ابن ماثان، وامرأته حَنّة (بالنون) . وخص هؤلاء بالذِّكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بَقَضِّهم وقَضِيضهم من نسلهم . ولم ينصرف عِمْران لأن فى آخره ألفا ونونا زائدتين . ومعنى قوله : ﴿ على العالمين ﴾ أى على عالَمى زمانهم، فى قول أهل التفسير . وقال الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن علىّ : جميع الخلق كلّهم . وقيل « على العالمين » : على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصُّور، وذلك أن هؤلاء رسل وأنبياء فهم صَفْوة الخلق؛ فأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جازت مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعالمين » . فالرسل خلقوا للرحمة، ومحمد صلى الله عليه وسلم خلق بنفسه رحمة، فلذلك صار أمانًا للخلق . لمّا بعثه الله أمن الخلقُ العذابَ إلى نفخة الصور . وسائر الأنبياء لم يحلّو هذا المحل؛ ولذلك قال عليه السلام : " أنا رحمة مُهْداة " يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله . وقوله "مهداة" أى هديّة من الله للخلق . ويقال : اختار آدم بخمسة أشياء : أولها أنه خلقه بيده فى أحسن صُورة بقدرته . والثانى أنه علمه الأسماء كلها . والثالث أمر الملائكة بأن يسجدوا له . والرابع أسكنه الجنة . والخامس جعله أبا البشر . وٱختار نوحا بخمسة

---

(١) فى الأصول : « ولا تنس » والتصويب من تفسير ابن عطية . والبيت لأراكة ابن عبد الله الثقفى فى رثاء النبى صلى الله عليه وسلم . أى أحبة على وعباس وأبو بكر، ويريد جميع المؤمنين (راجع تفسير ابن عطية) .

(٢) العداد : اهتياج وجع اللديغ، وذلك إذا تمت له سنة مذ يوم لدغ هاج به الألم . وقيل : عداد السليم أن تعد له سبعة أيام فان مضت رجوا له البرء، ومالم تمض قيل هو فى عداده .

أشياء : أولها أنه جعله أبا البشر، لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته هم الباقون . والثانى أنه أطال عمره، ويقال : طُوبَى لمن طال عمره وحسن عمله . والثالث أنه آستجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين . والرابع أنه حمله على السفينة . والخامس أنه كان أول من نسخ الشرائع ؛ وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعمات . وآختار ابراهيم بخمسة أشياء : أولها أنه جعله أبا الأنبياء؛ لأنه رُوى أنه خرج من صُلبه ألفُ نبيّ من زمانه الى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم . والثانى أنه آتخذه خليلا . والثالث أنه أنجاه من النار . والرابع أنه جعله إماما للناس . والخامس أنه آبتلاه بالكلمات فوفقه حتى أتمهُنّ . ثم قال : « وآل عمران » فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما آختارهما على العالمين حيث بعث على قومه المنّ والسّلوى وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء فى العالم . وإن كان أبا مريم فإنه آصطفى له مريم بولادة عيسى بغير أب ولم يكن ذلك لأحد فى العالم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٤)

تقدّم فى البقرة معنى الذرية وآشتقاقها(١) . وهى نصب على الحال ؛ قاله الأخفش . أى فى حال كون بعضهم من بعض، أى ذرية بعضها من ولد بعض . الكوفيون : على القطع . الزجاج : بدل، أى آصطفى ذرّية بعضها من بعض، ومعنى بعضها من بعض، يعنى فى التناصر فى الدين؛ كما قال : « المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » يعنى فى الضلالة؛ قاله الحسن وَقتادة . وقيل : فى الاجتباء والاصطفاء والنبوّة . وقيل : المراد به التناسل، وهذا أضعفها .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٣٥) ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنْثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنْثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (٣٦)

(١) راجع ج ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ قال أبو عبيد : « إذ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : التقدير آذكر إذ . وقال الزجاج : المعنى وآصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران . وهى حَنّة (بالحاء المهملة والنون) بنت فاقود بن قنبل أمّ مريم جدّة عيسى عليه السلام، وليس باسم عربيّ ولا يعرف فى العربية حَنّة آسم امرأة . وفى العربية أبو حَنّة البَدْرىّ، ويقال فيه : أبو حبّة (بالباء بواحدة) وهو أصح، وآسمه عامر . ودير حَنّة بالشأم . ودير آخر أيضا يقال له كذلك؛ قال أبو نُوَاس . (١)

يا دَيْرَ حَنّةَ من ذات الأُكَيْرَاحِ (٢) * مَن يَصْحُ عنكِ فإنّى لستُ بالصّاحِى

وحَبّة فى العرب كثير؛ منهم أبو حَبّة الأنصارىّ . وأبو السَّنابل بن بَعْكَك المذكورُ فى حديث سُبَيْعة (٣) حَبّة . ولا يعرف خنّة بالخاء المعجمة [ونون] (٤) إلا بنت يحيى بن أكثم القاضى، وهى أم محمد بن نصر . ولا يعرف جنة (بالجيم) إلا أبو جنة ، وهو خال ذى الرُّمَّة الشاعر (٥) . كل هذا من كتاب آبن مَا كُولَا .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ (٦) تقدّم معنى النذر، وأنه لا يلزم العبد إلا بأن يلزم نفسه . يقال : إنها لما حملت قالت : لئن نجّانى الله ووضعت

---

(١) هو « دير حنة » بالحيرة من بناء نوح (راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٣١٢ طبعة دار الكتب المصرية) .
(٢) الأكيراح (بالضم ثم الفتح و ياء ساكنة وراء وألف وحاء) : مواضع تخرج إليها النصارى فى أعيادهم (عن القاموس) . وفى مسالك الأبصار : « أنها قباب صغار يسكنها رهبان يقال للواحد منها الكرح » .
(٣) هى سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت زوجة لسعد بن خولة فمات عنها بمكة فقال لها أبو السنابل حبة : إن أجلك أربعة أشهر وعشر، وقد كانت وضعت بعد وفاة زوجها بليال ، قيل خمس وعشرون ليلة ، وقيل أقل من ذلك . فلما قال لها أبو السنابل ذلك أتت الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال لها : " قد حللت فانكحى من شئت " . روى عنها فقهاء أهل المدينة وفقهاء أهل الكوفة من التابعين حديثها هـذا . وذكر ابن سعد أن أبا السنابل بن بعكك قد كان فيمن خطبها . وذكر ابن البرقى أنه تزوجها وأولدها ابنـه سنابل . (راجع كتاب الاستيعاب وتهذيب التهذيب وطبقات ابن سعد) .
(٤) زيادة عن كتاب المشتبه للذهبى . (٥) الذى فى المشتبه : « زوجة محمد » .
(٦) راجع ج ٣ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

ما فى بطنى لجعلته مُحَرَّرا . ومعنى « لك » أى لعبادتك . « محررا » نصب على الحال . وقيل : نعت لمفعول محذوف، أى إنى نذرت لك ما فى بطنى غلاما محررا . والأول أَوْلى من جهة التفسير وسياقِ الكلام والإعراب . أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز فى مواضع ويجوز على المجاز فى أخرى . وأما التفسير فقيل إن سبب قول آمرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تَلِد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، وأنها كانت تحت شجرة فبَصُرت بطائر يَزُق فَرْخًا فتحركت نفسُها لذلك، ودعت ربها أن يَهَب لها ولدا ، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها مُحرّرا، أى عتيقا خالصا لله تعالى، خادما للكنيسة حَبِيسا عليها، مُفرّغا لعبادة الله تعالى . وكان ذلك جائزا فى شريعتهم ، وكان على أولادهم أن يطيعوهم . فلما وضعت مريم قالت : «رب إنى وضعتها أنثى» يعنى أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة . قيل : لما يصيبها من الحَيْض والأذى . وقيل : لا تصلح لمخالطة الرجال . وكانت ترجو أن يكون ذَكَرا فلذلك حرّرت .

الثالثة — قال آبن العربى : « لا خلاف أن آمرأة عِمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرة، فلو كانت آمرأته أَمَة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر فى ولده كيفما تصرفت حاله؛ فإنه إن كان الناذر عبدا فلم يتقرر له قول فى ذلك؛ وإن كان حرًّا فلا يصح أن يكون مملوكا له، وكذلك المرأة مثله؛ فأىّ وجه للنذر فيه . وإنما معناه — والله أعلم — أن المرء إنما يريد ولده للأنس به والآستنصار والتسلى ، فطلبت هذه المرأةُ الولدَ أُنْسًا به وسُكونًا إليه؛ فلما منّ الله تعالى عليها به نذرت أن حظها من الأنس به متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف . وهذا نذر الأحرار من الأبرار . وأرادت به مُحَرّرًا من جهتى، محررًا من رِقّ الدنيا واشغالها؛ وقد قال رجل من الصُّوفيّة لأمّه : يا أُمَّه : ذَرِينى لله أتعبّد له وأتعلم العلم . فقالت نعم . فسار حتى تبصّر ثم عاد إليها فدقّ الباب، فقالت مَنْ؟ فقال لها : آبنُكِ فلان . قالت : قد تركناك لله ولا نعود فيك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ مأخوذ من الحُرِّية التى هى ضد العبُودِيّة؛ من هذا تحرير الكتّاب، وهو تخليصه من الآضطراب والفساد . وروى خُصَيف عن عِكرمة ومجاهد:

أن المحرّر الخالص لله عز وجل لا يشو به شئ من أمر الدنيا . وهـذا معروف فى اللغة أن يقال لكل ما خلَص : حُرّ، ومحرّر بمعناه؛ قال ذو الرُّمة :

وَالقُرْط فى حُرّة الذِّفْرَى مُعَلّقُــهُ * تباعـد الحبلُ منـه فهو يَضْطِرِبُ [1]

وطِين حُرّ لا رمل فيه . و باتت فلانة بليلةٍ حُرّة إذا لم يصل إليها زوجُها أوّلَ ليلة؛ فإن تمكّن منها فهى بليلة شَيْباء .

الخامســة — قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ قال ٱبن عباس : إنمـا قالت هـذا لأنه لم يكن يُقبل فى النَّذْر إلا الذكور، فقبِل الله مريم . « وأنثى » حال، و إن شئت بدل . فقيل : إنها ربّتها حتى ترعرعت وحينئذ أرسلتها؛ رواه أشهب عن مالك . وقيل : لفتها فى خِرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوفّت بنذرها وتبرّأت منها . ولعل الحجاب لم يكن عندهم كما كان فى صـدر الإسلام؛ ففى البخارىّ ومسلم أن ٱمرأة سوداء كانت تَقُمّ المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . الحديث .

السادســة — قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هو على قراءة من قرأ «وضعتُ» بضم التـاء من جملة كلامها؛ فالكلام متصل . وهى قراءة أبى بكر وٱبن عامر، وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له . ولم تقله على طريق الإخبار لأن علم الله فى كل شىء قد تقرّر فى نفس المؤمن، و إنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله . وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل قُدّم، وتقديره أن يكون مؤخّرا بعد «و إنى أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم» والله أعلم بما وضعت؛ قاله المَهْدوِىّ . وقال مكىّ : هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت فقال : والله أعلم بمـا وضعت أمّ مريم قالته أو لم تقـله . و يقوّى ذلك أنه لو كان من كلام أمّ مريم لكان وجه الكلام : وأنتَ أعلم بمـا وضعتُ؛ لأنها نادته فى أوّل الكلام فى قولها : رب إنى وضعتها أنثى . و رُوى عن ٱبن عباس « بمـا وضعتِ » بكسر التاء، أى قيل لها هذا .

(١) الذفريان : ما بين يمين العنق و يساره . وتباعد الحبل منه ، اى تباعد حبل العنق من القرط لأنها طو يلة العنق ليست بوقصاء . ومعلقه ، أى مكان تعليقه .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾ استدل به بعض الشافعية على أن المطاوعة فى نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه فى وجوب الكفارة عليها . ابنُ العربىّ : وهذه منه غفلة ، فإن هـذا خبر عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به . وهـذه الصالحة إنمـا قصدت بكلامها ما تشهد له به بيّنة حالها ومَقْطع كلامها ، فإنها نذرت خدمة المسجد فى ولدها ، فلما رأته أنثى لا تصلح وأنها عورة اعتذرت إلى ربّها من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها . ولم ينصرف «مريم» لأنه مؤنث معرفة ، وهو أيضا أعجمى ؛ قاله النحاس . والله تعالى أعلم .

الثامنـة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ يعنى خادم الربّ بلغتهم . ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ يعنى مريم . ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ يعنى عيسى . وهذا يدلّ على أن الذرّية قـد تقع على الولد خاصّة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مولود يولد إلا نَخَسه الشيطان فيستهلّ صارخا من نخسة [الشيطان][1] إلا ٱبنَ مريم وأمّه" ثم قال أبو هريرة : إقرءوا إن شئتم وإنى أُعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم . قال علماؤنا : فأفاد هـذا الحديثُ أن الله تعـالى استجاب دعاء أمّ مريم ، فإن الشيطان يَنْخُس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وٱبنها . قال قتادة : كل مولود يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد غير عيسى وأمّه جُعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شىء . قال علماؤنا : وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما . ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منـه إضلال الممسوس وإغواؤه فإن ذلك ظنّ فاسـد ؛ فكم تعرّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك عصمهم الله مما يَرُومه الشيطان ؛ كما قال : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لكَ عليهِم سلطان » . هذا مع أن كل واحد من بنى آدم قد وُكِل به قَرِينه من الشياطين ؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فَمَرْيَمُ وٱبْنُهَا وإن عُصِما من نخسه فلم يُعْصَما من ملازمته لهما ومقارنته " . والله أعلم .

---

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ المعنى : سلك بها طريق السعداء ؛ عن ابن عباس . وقال قوم : معنى التّقبل التكفّل فى التربية والقيامُ بشأنها . وقال الحسن : معنى التقبل أنه ما عذّبها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار . ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يعنى سوّى خَلْقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت فى اليوم ما ينبت المولود فى عام واحد . والقبول والنبات مصدران على غير المصدر ، والأصل تَقَبُّلاً وإنباتا . قال الشاعر :

أَكُفْرًا بعد ردّ الموت عنّى * وبعدَ عطائكَ المائةَ الرِّتاعا

أراد بعد إعطائك ، لكن لما قال « انبتها » دل على نَبَت ؛ كما قال امرؤ القيس :

فصِرْنا إلى الحسنى ورقّ كلامُنا * ورُضْتُ فذلّت صعبةً أىَّ إذلالِ

وإنما مصدر ذَلّتْ ذُلٌّ ، ولكنه ردّه على معنى أَذْلَلْتُ ؛ وكذلك كل ما يَرِد عليك فى هذا الباب . فمعنى تقبّل وقَبِل واحد . فالمعنى فَقَبِلها ربُّها بقبول حَسَن . ونظيره قول رُؤْبَة :

* وقد تَطَوّيْتُ انطواءَ الحِضْبِ (١) *

لأن معنى تَطَوّيتُ وانطويت واحد ؛ ومثله قول القَطامِىّ :

وخير الأمر ما استقبلت منه * وليس بأن تَتَبّعه اتباعا

لأن تَتَبّعت واتبعت واحد . وفى قراءة ابن مسعود « وأَنْزَلَ الملائكةَ تَنْزِيلاً » لأن معنى نزّل وأنزل واحد . وقال المُفَضّل : معناه وأنبتها فنبتتْ نباتًا حَسَنًا . ومراعاة المعنى أَوْلى

(١) الحضب (بفتح الحاء وكسرها وسكون الضاد) : ضرب من الحيات .

كما ذكرنا . والأصل فى القبول الضم ؛ لأنه مصدر مثل الدخول والخروج ، والفتح جاء فى حروف قليلة؛ مثل الوَلوع والوَزوع ؛ هذه الثلاثة لا غيرُ . قاله أبو عمرو والكسائى والأئمة . وأجاز الزجاج « بقُبُول » بضم القاف على الأصل .

قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى ضمها إليه . أبو عبيدة : ضمِن القيام بها . وقرأ الكوفيون « وكفّلها » بالتشديد، فهو يتعدّى إلى مفعولين ؛ والتقدير وكفّلها ربُّها زكريا، أى ألزمه كفالتها وقدّر ذلك عليه ويسّره له . وفى مصحف أبَىّ « وأكفلها » والهمزة كالتشديد فى التعدّى ؛ وأيضا فإن قبلْه « فتقبلها ، وأنبتها » فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها؛ فجاء «كفّلها» بالتشديد على ذلك . وخففه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا . فأخبر الله تعالى أنه هو الذى تولّى كفالتها والقيامَ بها ؛ بدلالة قوله : « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » . قال مكّىّ : وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع الى التخفيف، لأن الله تعالى إذا كفّلها زكريا كفلها بأمر الله ، ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان . وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كَثِير وأبى عبد الله المُزَنى «وكَفِلها» بكسر الفاء . قال الأخفش : يقال كَفَلَ يَكْفُلُ وكَفِلَ يَكْفَلُ ولم أسمع كَفُلَ ، وقد ذُكِرت . وقرأ مجاهد « فتقبّلْها » بإسكان اللام على المسألة والطلب . « رَبَّها » بالنصب نداء مضاف . «وأنبتْها» بإسكان التاء « وكفّلْها » بإسكان اللام « زكرياء » بالمدّ والنصب . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « زكريا » بغير مد ولا همز، ومدّه الباقون وهَمَزُوه . وقال الفَرّاء : أهل الحجاز يمدّون « زكرياء » ويُقْصرونه ، وأهل نَجْد يحذفون منه الألف و يصرفونه فيقولون : زكرى . قال الأخفش : فيه أربع لغات : المد والقصر، وزكرِىٌّ بتشديد الياء والصرف ، وزكَرٌ ورأيت زكرِيا . قال أبو حاتم : زكرى بلا صرف لأنه أعجمىّ وهذا غلط ؛ لأن ما كان فيه « يا » مثل هذا انصرف مثل كرسىّ ويحيى، ولم ينصرف زكرياء فى المد والقصر لأن فيه الف تأنيث والعجمة والتعريف .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ المحراب فى اللغة أكرم موضع فى المجلس . وسيأتى له مزيد بيان فى سورة « مريم »(١) . وجاء فى الخبر : إنها كانت فى غرفة كان زكريا يصعَد إليها بسُلّم . قال وَضّاح اليمن(٢) :

رَبَّةُ مِحرابٍ إذا جئتُها * لم أَلْقها حتى ٱرتَقِي سُلَّما

أى رَبّة غرفة . روى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : حملت ٱمرأة عِمران بعد ما أسنّت فنذرت ما فى بطنها محررا فقال لها عمران : ويحكِ ! ما صنعت ؟ أرأيت إن كانت أنثى . فاغتما لذلك جميعا . فهلك عِمران وحَنّة حامل فولدت أنثى فتقبلها الله بقبول حَسَن ، وكان لا يُحرّر إلا الغلمان فتساهم عليها الأحبار بالأقلام التى يكتبون بها الوَحى ، على ما يأتى . فكفلها زكريا وأخذ لها موضعا فلما أسنّت جعل لها محرابا لا يرتقى إليه إلا بسلم ، واستأجر لها ظِئرا وكان يُغلِق عليها بابا ، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبِرت ، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها ٱمرأة زكريا فى قول الكَلْبِىّ . وقال مُقاتِل : كانت أختها امرأة زكريا ، وكانت إذا طهرت من حيضتها وٱغتسلت ردّها الى المحراب . وقال بعضهم : كانت لا تحيض وكانت مطهَّرة من الحيض . وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء فى القَيْظ وفاكهة القيظ فى الشتاء فقال : يا مريم أنّى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله . فعند ذلك طمع زكريا فى الولد وقال : إن الذى يأتيها بهذا قادر أن يرزقنِى ولدا . ومعنى « أنّى » من أين؛ قاله أبو عبيدة . قال النحاس : وهذا

---

(١) عند قوله تعالى : « فخرج على قومه من المحراب » آية ١١ .

(٢) فى الأصول : « قال عدى بن زيد » والتصويب عن الأغانى ولسان العرب وشرح القاموس . وهذا البيت من قصيدة لوضاح اليمن أولها : يا ابنة الواحد جودى فما * إن تصرمينى فبما أولما .
راجع ترجمته فى الأغانى ج ٦ ص ٢٠٩ — ٢٤٠ طبع دار الكتب المصرية .

فيـه تساهل؛ لأن « أين » سؤال عن المواضع و « أنّى » سؤال عن المذاهب والجهات . والمعنى من أى المذاهب ومن أىّ الجهات لكِ هذا . وقد فرق الكُمَيت بينهما فقال :

أنّى ومن أين إليـك الطّرب * من حيث لا صَبْوة ولا رِيَب

و « كلّما » منصوب بوجد، أى كلّ دَخْلة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قيل : هو من قول مريم، ويجوز أن يكون مستأنفا؛ فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ هنالك فى موضع نصب ؛ لأنه ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصـله للمكان . وقال المُفَضَّل بن سَلَمـة : « هنالك » فى الزمان و « هناك » فى المكان ، وقد يجعل هـذا مكان هـذا . و ﴿ هَبْ لِى ﴾ أعطنى . ﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ مِن عِندِك . ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أى نَسلا صالحا . والذُّرِّية تكون واحدة وتكون جمعا ذكرا وأنثى ، وهو هنـا واحد . يدل عليـه قوله « فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » ولم يقل أولياء، وإنمـا أنّث « طَيِّبة » لتأنيث لفظ الذرية؛ كقوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنّث ولدته لتأنيث لفظ الخليفة . ورُوِى من حديث أنس قال قال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "أىّ رجل مات وترك ذُرِّيّة طيبـة أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئا" . وقد مضى فى « البقرة » اشتقاق الذرية (١) . و ﴿ طَيِّبَةً ﴾ أى صالحة مباركة . ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ أى قابله ؛ ومنه سمع الله لمن حِمده .

الثالثـــة ــ دلّت هذه الآية على طلب الولد وهى سُـنّة المرسلين والصدّيقين، قال الله تعالى . « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَـا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتّل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أجاز له ذلك لاَختصينا . وخرّج اَبن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "النكاح من سُنّتِى فمن لم يعمل بسُنّتى فليس منّى وتزوّجوا فإنى مكاثِرٌ بكم الأمم ومن كان

(١) راجع المسئلة التاسعة عشرة جـ ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

ذا طَوْل فَلْيَنْكِح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وِجاء[1] ". وفى هذا ردّ على بعض جُهّال المتصوّفة حيث قال : الذى يطلب الولدَ أحمق، وما عَرَف أنه الغبيّ الأخرق . قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل : « وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ » وقال : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » . وقد ترجم البخارى على هذا « باب طلب الولد » . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى طَلْحة حين مات ٱبنه : " أعرستم الليلة " ؟ قال نعم . قال : " بارك الله لكما فى غابر ليلتكما " . قال فحملت . فى البخارىّ : قال سفيان فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولادٍ كلهم قد قرءوا القرآن . وترجم أيضا « باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة » وساق حديث أنس بن مالك قال قالت أمّ سُلَيم : يارسول الله، خادمك أنس أدع الله له . فقال : " اللّهُمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته " . وقال صلى الله عليه وسلم : " اللّهُمّ ٱغفر لأبى سَلَمة وٱرفع درجته فى المهديِّين وٱخلفه فى عَقِبه فى الغابرين " . خرّجه البخارىّ ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : " تزوّجوا الوَلود الوَدود فإنى مكاثر بكم الأمم " . أخرجه أبو داود . والأخبار فى هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته وبعد موته. قال صلى الله عليه وسلم : " إذا مات أحدكم ٱنقطع عمله إلا من ثلاث " فذكر " أو ولد صالح يدعو له " . ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية .

الرابعة — فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرّع إلى خالقه فى هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا مُعِينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما فى أُولاه وأخراه؛ ألا ترى قول زكريا « وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » . وقال : « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » . وقال : « هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس فقال : "اللّهُمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيه". خرّجه البخارىّ ومسلم، وحسْبُك .

---

(١) الوجاء : أن ترض أنثيا الفحل رضًا شديدا يذهب شهوة النكاح. أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء .

قوله تعالى : فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ قرأ حمزة والكسائى « فناداه » بالألف على التذكير، ويميلانها لأن أصلها الياء، ولأنها رابعة . وبالألف قراءة ٱبن عباس وابن مسعود، وهو ٱختيار أبى عبيد . وروى عن جرير عن مُغيرة عن إبراهيم قال : كان عبد الله يذكّر الملائكة فى [كل][1] القرآن . قال أبو عبيد : نراه ٱختار ذلك خلافا على المشركين لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله . قال النحاس : هذا احتجاج لا يُحصَّل منه شئ ؛ لأن العرب تقول : قالت الرجال، وقال الرجال، وكذا النساء . وكيف يحتجّ عليهم بالقرآن، ولو جاز أن يحتج عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجّوا بقوله تعالى : « وإذ قالت الملائكة » ولكن الحجة عليهم فى قوله عز وجل : « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » أى فلم يشاهدوا، فكيف يقولون إنهم إناث فقد عُلم أن هذا ظنّ وهوًى . وأما « فناداه » فهو جائز على تذكير الجمع، « ونادته » على تأنيث الجماعة . قال مكّى : والملائكة ممن يعقل فى التكسير تجرى فى التأنيث مجرى ما لا يعقل، تقول : هى الرّجال، وهى الجذوع، وهى الجمال، وقالت الأعراب . ويقوى ذلك قوله : « وإذ قالتِ الملائكة » وقد ذُكّر فى موضع آخر فقال : « وَٱلْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ » وهذا إجماع . وقال تعالى : « وَٱلْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ » فتأنيث هذا الجمع وتذكيره حَسَنان . وقال السُّدّى : ناداه جبريل وحده ؛ وكذا فى قراءة ٱبن مسعود . وفى التنزيل « يُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » يعنى جبريل . والروح الوَحْى . وجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع . وجاء فى التنزيل « ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » يعنى نُعيم بن مسعود، على ما يأتى . وقيل : ناداه جميع الملائكة، وهو الأظهر . أى جاء النداء من قِبلهم .

---

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ « وهو قائم » ابتداء وخبر. « يصلى » فى موضع رفع، وإن شئت كان نصبا على الحال من المضمر. « أنّ الله » أى بأن الله . وقرأ حمزة والكسائىّ[1] « إنّ » أى قالت إن الله؛ فالنداء بمعنى القول . « يبشرك » بالتشديد قراءة أهل المدينة . وقرأ حمزة « يَبْشُرُك » مخففا؛ وكذلك حُميد بن قيس المكىّ إلا أنه كسر الشين وضم الياء وخفف الباء . قال الأخفش : هى ثلاث لغات بمعنًى واحد .

دليل الأولى وهى قراءة الجماعة أن ما فى القرآن من هذا من فعل ماض أو أمر فهو بالتثقيل؛ كقوله تعالى: «فَبَشِّرْ عِبَادِي» «فَبَشِّرْهم بمَغْفِرَةٍ» «فَبَشَّرْنَاهَا بإسْحَاقَ» «قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بالْحَقِّ» . وأما الثانية وهى قراءة عبد الله بن مسعود فهى من بَشَر يَبْشُر[2] وهى لغة تهامة؛ ومنه قول الشاعر[3] :

بَشَرت عيالِى إذ رأيتُ صحيفةً * أتتك من الحجّاج يُتلى كتابُها

وقال آخر :

وإذا رأيت الباهشين[4] الى النّدى * غُبْرًا أكُفُّهُم بقاعٍ مُمْحِلِ

فأعِنْهُمُ وابْشَرْ بما بَشِروا به * وإذا هُمُ نَزَلُوا بضَنْكٍ فانْزِلِ

وأما الثالثة فهى من أبشر يبشر إبشارا قال :

يا أمّ عَمْرو أبشرى بالبُشْرَى * موتٌ ذريعٌ وجَرادٌ عَظْلَى[5]

قوله تعالى : ﴿ بِيَحْيَى ﴾ كان اسمه فى الكتاب الأول حيا، وكان اسم سارة زوجة ابراهيم عليه السلام يسارة، وتفسيره بالعربية لا تلد، فلما بُشّرت بإسحاق قيل لها : سارة، سمّاها

(١) كذا فى الأصل واعراب القرآن للنحاس . والذى فى البحر لأبى حيان وغرائب القرآن للنيسابورى وتفسير ابن عطية : «وقرأ ابن عامر وحمزة «إن الله» بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتح الهمزة» .

(٢) كذا فى الأصول ومعالم التنزيل للبغوى . والذى فى تفسير البحر وابن عطية : «وفى قراءة عبد الله بن مسعود يبشرك بضم الياء، وتخفيف الشين المكسورة من أبشر، وهكذا قرأ فى كل القرآن » .

(٣) هو عطية بن زيد، وقال ابن برّى هو عبد القيس بن خفاف البرجمى . (عن اللسان) .

(٤) قال أبو عبيد : يقال للإنسان إذا نظر الى شىء فأعجبه واشتهاه فتناوله وأسرع نحوه وفرح به : بهش اليه .

(٥) جراد عاظلة وعظلى : لا تبرح . فى اللسان : «أراد أن يقول : يا أم عامر فلم يستقم له البيت فقال يا أم عمرو، وأم عامر كنية الضبع . ومن كلامهم للضبع : أبشرى بجراد عظلى، وكم رجال قتلى» .

بذلك جبريل عليه السلام . فقالت : يا ابراهيم لم نقص من آسمى حرف ؟ فقال ذاك إبراهيم لجبريل عليهما السلام . فقال : " إن ذاك الحرف زيد فى آسم آبنٍ لهما من أفضل الأنبياء اسمه حيي" وسُمِّى بيحيي ". ذكره النقاش . وقال قتادة : سُمِّى بيحيي لأن الله تعالى أحياه بالإيمان والنبوة . وقال بعضهم : سُمّى بذلك لأن الله تعالى أحيا به الناس بالهُدَى . وقال مُقاتِل : آشتق آسمه من آسم الله تعالى حىّ فسمّى يحيي . وقيل : لأنه أحيا به رحم أمّه .

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ يعنى عيسى فى قول أكثر المفسرين . وسُمِّى عيسى كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى التى هى « كن » فكان من غير أب . وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوىّ « بكِلْمة » مكسورة الكاف ساكنة اللام فى جميع القرآن ، وهى لغة فصيحة مثل كِتْف وفِخْذ . وقيل : سُمّى كلمة لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله تعالى . وقال أبو عبيد : معنى « بكلمة من الله » بكتاب من الله . قال : والعرب تقول أنشدنى كلمة أى قصيدة ؛ كما رُوى أن الحُوَيْدرة ذُكِرَ[1] لحسّان فقال : لعن الله كلمته ، يعنى قصيدته . وقيل غير هذا من الأقوال . والقول الأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . و « يحيي » أول من آمن بعيسى عليهما السلام وصدّقه ، وكان يحيي أكبرَ من عيسى بثلاث سنين . ويقال بستة أشهر . وكانا ابنى خالة ، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمّه إليه وهو فى خِرَقه . وذكر الطبرىّ أن مريم لما حملت بعيسى حملت أيضا أختها بيحيي ؛ فجاءت أختها زائرة فقالت : يا مريم ، أشعَرت أنى حملت ؟ فقالت لها مريم : أشعَرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى لأجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . وذلك أنه رُوى أنها أحست جنينها يخر برأسه الى ناحية بطْن مريم . قال السُّدىّ : فذلك قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ » . « ومصدّقا » نصب على الحال .

﴿وسَيِّدا﴾ السيد : الذى يسود قومه ويُنْتَهَى إلى قوله . وأصله سَيْوِد يقال : فلان أسود من

---

(١) الحويدرة تصغير الحادرة وهو لقب غلب عليه ، واسمه قطبة بن محصن بن جرول . و يعنى حسانُ بن ثابت رضى الله عنه قصيدته التى مطلعها :

بكرت سُمَيّـــة غدوة فتمتعى * وغـــدت غدوّ مفارق لم يربع

(راجع المفضليات ص ٤٨ طبع أوربا وكتاب الأغانى جـ ٣ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية) .

فلان ، أفعل من السيادة ؛ ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيّدا كما يجوز أن يسمى عزيزا أو كريما . وكذلك رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لبني قُريظة : " قوموا إلى سيدكم " . وفى البخارى ومسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال فى الحَسَن : " إن ٱبنى هذا سيدٌ ولعلّ الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " . وكذلك كان ، فإنه لما قُتل علىّ رضى الله عنه بايعه أكثر من أربعين ألفا وكثير ممن تخلّف عن أبيه وممن نَكث بيعته ، فبقى نحو سبعة أشهر خليفة بالعِراق وما وراءها من خُراسان ، ثم سار إلى معاويةَ فى أهل الحجاز والعراق وسار اليه معاويةُ فى أهل الشام ؛ فلما تراءى الجَمعان بموضع يقال له « مَسْكِن » من أرض السّواد بناحيـة الأنبار كرِه الحسَنُ القتالَ لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلب حتى تهلِك أكثر الأخرى فيهلك المسلمون ؛ فسلّم الأمر الى معاوية على شروط شرطها عليه ، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية ؛ فالتزم كل ذلك معاوية فصدَق قوله عليه السلام : " إن ٱبنى هـذا سيّد " ولا أسْود ممن سوّده الله تعالى ورسوله . قال قَتادة فى قوله تعالى « وسيدا » قال : فى العلم والعبادة . ابن جُبير والضحاك : فى العلم والتُّقى . مجاهِد : السيّد الكريم . ابن زيد : الذى لا يغلبه الغضب . وقال الزجاج : السيّد الذى يفوق أقرانه فى كل شىء من الخير . وهـذا جامع . وقال الكِسائِىّ : السيد من المَعِز المسِنّ . وفى الحديث " ثَنِىٌّ من الضأن خير من السيِّد من المعز " . قال :

سواءٌ عليه شاةُ عامٍ دَنتْ له * ليذبحها للضّيفِ أم شاةُ سيِّدِ

﴿ وحَصُورا ﴾ أصله من الحصر وهو الحبس . حَصَرنى الشىء وأحصرنى إذا حبسنى . قال ابن ميّادة :

وما هجرُ ليلَى أن تكون تباعدت * عليكَ ولا أن أحْصَرتك شُغولُ

وناقة حصور : ضيّقة الإحليل . والحَصُور : الذى لا يأتى النساء كأنه مُحجِم عنهن ؛ كما يقال : رجل حصور وحصِير إذا حَبس رِفده ولم يخرج ما يخرجه النَّدامَى . يقال : شرِب القوم فحَصِر عليهم فلان ، أى بخِل ؛ عن أبى عمرو . قال الأخطل :

وشارِبٍ مُرْبحٍ بالكأس نادمنِى * لا بالحَصُور ولا فيها بِسَوّارِ (١)

وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » أى محبِسا . والحصير الملك لأنه محجوب .
قال لبيد :

وقُماقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنهم * جِنٌّ لدى باب الحَصير قِيامُ (٢)

فيحيي عليه السلام حصور ، فعول بمعنى مفعول لا يأتى النساء ، كأنه ممنوع مما يكون فى الرجال ؛
عن ابن مسعود وغيره . وفعول بمعنى مفعول كثير فى اللغة ، من ذلك حلوب بمعنى محلوبة ؛
قال الشاعر :

فيها ٱثنتان وأربعون حَلُوبةً * سُودًا كخافية الغراب الأسحمِ (٣)

وقال ابن مسعود أيضا وابن عباس وابن جُبير وقَتادة وعطاء وأبو الشعْثاء والحسنُ والسُّدِّى
وابن زيد : هو الذى يكُفّ عن النساء ولا يقربهن مع القدرة . وهذا أصح لوجهين : أحدهما
أنه مَدْحٌ وثناءٌ عليه ، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسَب دون الجِبِلّة فى الغالب . الثانى
ان فعولا فى اللغة من صيغ الفاعلين ؛ كما قال (٤) :

ضَروبٌ بنصل السّيف سُوقَ سِمانِها * اذا عَدِموا زادا فإنك عاقِرُ

فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات . ولعلّ هذا كان شرعَه ؛ فأما شرعُنا فالنكاح كما تقدّم .
وقيل : الحصور العِنِّين الذى لا ذَكَر له يتأتّى له به النكاح ولا يُنزل ؛ عن ابن عباس أيضا وسعيد
ٱبن المسيب والضحاك . وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : "كلّ ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذّبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيي

---

(١) سوار : معربد وثاب . وقد روى « سآر » بوزن سعّار ، أى أنه لا يسئر فى الاناء سؤرا بل يشتفه كله .

(٢) القماقم من الرجال : السيد الكثير الخير الواسع الفضل . والقماقم العدد الكثير .

(٣) البيت لعنترة العبسى فى معلقته . والخوافى : أواخر ريش الجناح مما يلى الظهر .

(٤) البيت لأبى طالب بن عبد المطلب . مدح رجلا بالكرم فيقول : يضرب بسيفه سوق السمان من الإبل للأضياف اذا عدموا الزاد ولم يظفروا بجواد لشدة الزمان وكَلَبه ، وكانوا اذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها . (عن شرح الشواهد) .

ابن زكريا فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين" — ثم أهوى النبي صلى الله عليه وسلم بيده الى قَذاة[1] من الأرض فأخذها وقال : "كان ذَكَره مثل هذه القذاة" . وقيل : معناه الحابس نفسَه عن معاصى الله جل وعز . «ونبيًّا مِن الصالِحين» قال الزجاج : الصالح الذى يؤدّى لله ما ٱفترض عليه، وإلى الناس حقوقَهم .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾

قيل : الرب هنا جبريل، أى قال لجبريل : ربِّ — أى يا سيدى — أنّى يكون لى غلام؟ يعنى ولدا؛ وهذا قول الكلبى . وقال بعضهم : قوله «رب» يعنى الله تعالى . «أنّى» بمعنى كيف، وهو فى موضع نصب على الظرف . وفى معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما أنه سأل هل يكون له الولد وهو وٱمرأته على حاليهما أو يُردّان الى حال مَن يَلِد؟ . الثانى سأل هل يُرزق الولد من ٱمرأته العاقر أو من غيرها . وقيل : المعنى بأى منزلة استوجب هذا وأنا وٱمرأتى على هذه الحال؛ على وجه التواضع . ويروى أنه كان بين دعائه والوقت الذى بُشِّر فيه أربعون سنة، وكان يوم بشر ابن تسعين سنة وٱمرأته قريبة السنّ منه . وقال ابن عباس والضحاك : كان يوم بشر ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة؛ فذلك قوله «وٱمرأتِى عاقِر» أى عَقيم لا تلد . يقال : رجل عاقر وامرأة عاقر بيّنة العقْر . وقد عَقُرت وعَقُر (بضم القاف فيهما) تعقُر عُقْرا صارت عاقرا؛ مثل حسنت تحسن حسنا؛ عن أبى زيد . وعِقارة أيضا . وأسماء الفاعلين من فعُل فعِيلة؛ يقال : عظمت فهى عظيمة، وظرفت فهى ظريفة . وإنما قيل عاقر لأنه يراد به ذات عُقْر على النسب . ولو كان على الفعل لقال : عقرت فهى عقيرة كأن بها عقرا، أى كبِرا من السنّ يمنعها من الولد . والعاقر : العظيم من الرمل لا ينبت شيئا . والعُقْر أيضا مهر المرأة اذا وُطئت على شُبهة . وبيضة العُقْر : زعموا هى بيضة الديك؛ لأنه يبيض فى عمره بيضة واحدة الى الطّول . وعُقْر النار أيضا

(١) القذاة : ما يقع فى العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وسطها ومعظمها . وعُقْر الحوض : مؤخّره حيث تقف الإبل إذا وردت ؛ يقال : عُقْر وعُقُر مثل عُسْر وعُسُر ، والجمع الأعقار فهو لفظ مشترك . والكاف فى قوله «كذلك» فى موضع نصب ، أى يفعل الله ما يشاء مثل ذلك . والغلام مشتق من الغُلْمة وهو شدّة طلب النكاح. واغتلم الفحل غُلْمة هاج من شهوة الضِّرَاب . وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيّة :

شفاها من الداء العُضال الذى بها * غلامٌ إذا هَزَّ القناة سقاها

والغلام الطارّ الشارب . وهو بيّن الغُلُومة والغلوميّة ، والجمع الغِلْمة والغِلمان . ويقال : إن الغَيْلم الشابّ والجارية أيضا . والغَيْلم : ذكر السُّلَحْفاة . والغيلم موضع . واغتلم البحر هاج وتلاطمت أمواجه .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي آيَةً﴾ «جعل» هنا بمعنى صيّر لتعديه إلى مفعولين . و «لى» فى موضع المفعول الثانى . ولما بُشِّر بالولد ولم يَبْعُد عنده هذا فى قدرة الله تعالى طلب آية — أى علامة — يعرف بها صحة هذا الأمر وكونَه من عند الله تعالى ؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الاية بعد مُشافهة الملائكة أياه ؛ قاله أكثر المفسرين . قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض خرس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب مّا . قال ابن زيد : إن زكريا عليه السلام لما حملت زوجه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدا ، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله ؛ فإذا أراد مقاولة أحد لم يطقه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ الرمز فى اللغة الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل فى الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين ؛ وأصله الحركة . وقيل : طلبَ تلك الايةَ زيادة طمأنينة. المعنى : تمّم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الاية زيادة نعمة وكرامة . فقيل له : آيتك

ألّا تكلم الناس ثلاثة أيام ؛ أى تمنع من الكلام ثلاث ليال . دليل هذا القول قوله تعالى بعد بُشرى الملائكة له . « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » أى أوجدتك بقدرتى فكذلك أوجد لك الولد . واختار هـذا القول النحاس وقال : قول قَتادة إن زكريا عوقب بترك الكلام قول مرغوب عنه ؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا أنه أذنب ولا أنه نهاه عن هـذا . والقول فيه أن المعنى اجعل لى علامة تدل على كون الولد ، إذ كان ذلك مُغَيَّبًا عنى . « ورمزا » نصب على الاستثناء المنقطع ؛ قاله الأخفش . وقال الكِسائى : رَمَز يَرْمُز ويَرمِز . وقرئ « إلا رَمَزا » بفتح الميم و « رُمُزا » بضمها وضم الراء ، الواحدة رمزة .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود فى كثير من السُّنّة . وآكد الإشارات ما حكم به النبيّ صلى الله عليـه وسلم من أمر السوداء حين قال لها : "أين الله"؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : "أعتقها فإنها مؤمنة". فأجاز الإسلامَ بالإشارة الذى هو أصل الديانة الذى يُحرز الدمَ والمـالَ وتُستحق به الجنة ويُنجَى به من النـار . وحكم بإيمـانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ؛ فيجب أن تكون الإشارة عاملة فى سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء . وروى ابن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق أنه يلزمه . وقال الشافعىّ فى الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس فى الرَّجْعـة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف ، وإن شُكّ فيها فهذا باطل ، وليس ذلك بقياس وإنما هو استحسان . والقياس فى هذا كله أنه باطل لأنه لا يتكلم ولا تُعقل إشارته . قال أبو الحسن بن بَطّال : وإنمـا حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التى جاءت بجواز الإشارات فى أحكام مختلفة فى الديانة . ولعـل البخارىّ حاول بترجمته « باب الاشارة فى الطلاق والأمور » الردَّ عليـه . وقال عطاء : أراد بقوله « ألّا تُكَلِّم الناس » صوم ثلاثة أيام . وكانوا إذا صاموا لا يتكلمون إلا رمزا . وهذا فيه بُعد . والله أعلم .

الرابعـــة — قال بعض من يجيز نسخ القرآن بالسُّنّة : إن زكريا عليه السلام مُنع الكلامَ وهو قادر عليـه ، وإنه منسوخ بقوله عليـه السلام : "لا صُمتُ يوما إلى الليل" . وأكثر

العلماء على أنه ليس بمنسوخ، وأن زكريا إنما مُنع الكلام بآفة دخلت عليه منعته إياه ، وتلك الآفة عدم القدرة على الكلام مع الصحة ؛ كذلك قال المفسرون . وذهب كثير من العلماء إلى أنه "لا صُمتَ يوما إلى الليل" إنما معناه عن ذكر الله . وأما عن الهَذَر وما لا فائدة فيه، فالصّمت عن ذلك حسن .

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ﴾ أمره بألّا يترك الذّكْر في نفسه مع اعتقال لسانه ؛ على القول الأوّل . وقد مضى في البقرة معنى الذكر[1] . قال محمد ابن كعب القُرَظى : لو رُخّص لأحد في ترك الذّكْر لرُخّص لزكريا بقول الله عز وجل « ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا وآذكر ربك كثيرا » ولَرُخِّص للرجل يكون في الحرب بقول الله عز وجل : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا » . ذكره الطبري . « وسَبِّح » أى صلّ ؛ سُمّيت الصلاة سُبْحة لما فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء . و « العشىّ » جمع عشيّة . وقيل : هو واحد . وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ؛ عن مجاهد . وفي الموطأ عن القاسم بن محمد قال : ما أدركتُ الناس إلا وهم يصلّون الظهر بعشىّ . « والإبكار » من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿إن ٱلله ٱصطفاكِ﴾ أى اختارك، وقد تقدّم[2] . ﴿وطهركِ﴾ أى من الكفر ؛ عن مجاهد والحسن . الزجاج : عن سائر الأدناس من الحيض والنفاس وغيرهما . واصطفاك لولادة عيسى . ﴿على نساء العالمين﴾ يعنى عالَمِى زمانها ؛ عن الحسن وابن جُريج وغيرهما . وقيل : على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور ؛ وهو الصحيح على ما نبينه، وهو قول الزجاج وغيره . وكرر الاصطفاء لأن معنى الأوّل الاصطفاء لعبادته ، ومعنى الثانى

(١) راجع جـ ١ ص ٣٣١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٦ طبعة ثانية .

لولادة عيسى . وروى مسلم عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَمُلَ من الرجال كثير ولم يَكْمُل من النسـاء غيرُ مريمَ بنتِ عمرانَ وآسيةَ آمرأةِ فرعونَ وإنّ فضـل عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد على سائر الطعام" . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : الكمال هو التناهى والتمـام . ويقال فى ماضيه «كَمُل» بفتح الميم وضمها، ويكمل فى مضارعه بالضم . وكمال كل شىء بحَسَبِه . والكمال المطلق إنمـا هو لله تعالى خاصّةً . ولا شك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياءُ ثم يليهم الأولياء من الصـدّيقين والشهداء والصالحين . وإذا تقرر هـذا فقد قيل : إن الكمال المذكور فى الحديث يعنى به النبوة فيلزم عليـه أن تكون مريم عليها السلام وآسـية نبيّتين ، وقد قيل بذلك . والصحيح أن مريم نبيّة ؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة المَلَك كما أوحى إلى سائر النبيين حسْب ما تقدّم ويأتى بيانه أيضا فى « مريم » . وأمّا آسية فلم يَرِد ما يدل على نبوّتها دلالة واضحة بل على صدّيقيتها وفضلها، على ما يأتى بيانه فى « التحريم » .

ورُوى من طرق صحيحة أنه عليـه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة : "خير نساء العالمين أربع مريم بنت عِمران وآسـية بنتُ مُزاحم امرأةُ فرعون وخديجةُ بنتُ خويلد وفاطمـةُ بنت محمد" . ومن حديث ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "أفضل نساء أهل الجنـة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم آمرأة فرعون" . وفى طريق آخر عنه : "سيّدة نساء أهل الجنة بعـد مريم فاطمةُ وخديجةُ" .

فظاهر القرآن والأحاديث يقتضى أن مريم أفضـل من جميع نساء العالم من حوّاء الى آخر آمرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلّغتها الوَحْىَ عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ؛ فهى إذًا نبيّة والنبىّ أفضل من الولِىّ فهى أفضل من كل النساء : الأوّلين والآخرين مطلقا . ثم بعدها فى الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسِية . وكذلك رواه موسى بن عُقبـة عن كُرَيب عن ابن عباس قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "سـيّدة نساء العالمين مريمُ ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسِـية" . وهـذا حديث حسن يرفع الإشكال . وقد خصّ الله مريم بمـا لم يؤته أحدا من النساء؛ وذلك أن روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ فى دِرعها ودنا منها للنفخة؛ فليس هذا لأحد من النساء . وصدّقت بكلمات

ربها ولم تسأل آية عند ما بُشّرت كما سأل زكريا صلى الله عليه وسلم من الآية ؛ ولذلك سماها الله فى تنزيله صِدّيقةً فقال : « وأمّه صدّيقة » . وقال : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » فشهد لها بالصدّيقية وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقنوت . وإنما بُشر زكريا بغلام فلحظ الى كبر سنّه وعقامة رحم امرأته فقال : أنّى يكون لى غلام وٱمرأتى عاقر ؛ فسأل آية . وبُشّرت مريم بالغلام فلحظت أنها بِكْرٌ ولم يمسسها بشر فقيل لها : « كذلك قال ربك » فاقتصرت على ذلك ، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كُنْه هذا الأمر ، ومن لامرأة فى جميع نساء العالمين من نساء بنات آدم ما لها من هذه المناقب ! . ولذلك رُوى أنها سبقت السابقين مع الرسل الى الجنة ؛ جاء فى الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : "لو أقسمتُ لبرَرْتُ لا يدخل الجنة قبل سابق أمتى إلا بضعة عشر رجلا منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم بنتُ عمران" . وقد كان يحق على من انتحل علم الظاهر واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا سيّد ولد آدم ولا فخر" وقولَه حيث يقول : "لِواء الحمد يوم القيامة بيدى ومفاتيح الكَرَم بيدى وأنا أول خطيب وأول شفيع وأول مُبشّر وأول وأول" . فلم ينل هذا السؤدَد فى الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم فى الباطن . وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله فى التنزيل بالصدّيقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية . ومن قال لم تكن نبيّةً قال : إن رؤيتها للمَلَك كما رؤى جبريل عليه السلام فى صفة دِحْيَة الكَلْبىّ حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء . والأول أظهر وعليه الأكثر . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أى أطيلى القيام فى الصلاة ؛ عن مجاهد . قَتادة : أَدِيمى الطاعة . وقد تقدّم القول فى القنوت[1] . قال الأوزاعىّ : لما قالت لها الملائكة ذلك قامت فى الصلاة حتى وَرِمت

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ طبعة ثانية و ج ٣ ص ٢١٣ طبعة أولى وثانية .

قدماها وسالت دما وقيّحا عليها السلام . ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى ﴾ قدّم السجود ها هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب ؛ وقد تقدّم الخلاف فى هذا فى البقرة عند قوله تعالى : « إِنَّ الصفا والمروة مِن شعائِرِ اللهِ » . فإذا قلت : قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد ، فعلى هذا يكون المعنى واركعى واسجدى . وقيل : كان شرعهم السجود قبل الركوع . ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ قيل : معناه ٱفعلى كفعلهم و إن لم تُصلِّى معهم . وقيل : المراد به صلاة الجماعة . وقد تقدّم فى البقرة (١) .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ أى الذى ذكرنا من حديث زكرياّ ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فيه دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب ؛ وأخبر عن ذلك وصدّقه أهل الكتاب بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « نوحيه اليك » فردّ الكناية الى ذلك فلذلك ذكّر . والإيحاء هنا الإرسال إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوَحْى يكون إلهاما و إيماء وغير ذلك . وأصله فى اللغة إعلام فى خفاء ؛ ولذلك صار الإلهام يُسمّى وحْياً ؛ ومنه « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّين » وقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » وقيل : معنى « أوحيت الى الحواريين » أمرتهم ؛ يقال : وَحَى وأَوْحَى ، ورَمَى وأَرْمَى بمعناه . قال العجّاج :

* أَوْحَى لها القرارَ فٱستقرّتِ *

أى أمر الأرض بالقرار . وفى الحديث : " الوَحَى الوَحَى " وهو السرعة ؛ والفعل منه تَوَحَّيت تَوَحِّيًا . قال ابن فارس : الوَحْى الإشارة والكتابة والرسالة ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك

(١) راجع المسألة الخامسة وما بعدها جـ ١ ص ٣٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

حتى يعلمه وَحْىُ كيف كان . والوَحِىّ السريع . والوَحى الصَّوْت ؛ ويقال : استوحيناهم أى استصرخناهم . قال :

* أوحيت ميمونا لها والأزرق *

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى وما كنت يا محمد لديهم ، أى بحضرتهم وعندهم . ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ جمع قلم ؛ من قَلَمه إذا قطعه . قيل : قداحهم وسهامهم . وقيل : أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة ، وهو أجود ؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال « ذَلِكُمْ فِسْقٌ » . إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التى كانت عليها الجاهلية تفعلها . ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أى يحضنها ، فقال زكريا : انا أحقّ بها ، خالتها عندى . وكانت عنده أشباع بنت فاقود أختُ حَنّة بنت فاقود أمّ مريم . وقال بنو اسرائيل : نحن أحقّ بها ، بنت عالِمنا . فاقترعوا عليها وجاء كل واحد بقلمه ، واتفقوا أن يجعلوا الأقلام فى الماء الجارى فمن وقف قلمه ولم يُجرِه الماء هو حاضنها . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " جَرَت الأقلام وعال قلم زكريا " . وكانت آية له لأنه نبىّ تجرى الآيات على يديه . وقيل غير هذا . و « أيّهم يكفل مريم » ابتداء وخبر فى موضع نصب بالفعل المضمر الذى دل عليه الكلام ؛ التقدير : ينظرون أيهم يكفل مريم . ولا يعمل الفعل فى لفظ « أى » لأنها استفهام .

الثالثــة — استدلّ بعض علمائنا بهذه الاية على إثبات القرعة ، وهى اصل فى شرعنا لكل من أراد العدل فى القسمة ، وهى سُنّة عند جمهور الفقهاء فى المستويين فى الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظِّنة عمن يتولّى قسمتهم ، ولا يفضُل أحد منهم على صاحبه اذا كان المقسوم من جنس واحد اتّباعا للكتاب والسنة . وردّ العملَ بالقرعة أبو حنيفة وأصحابه ، وردّوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التى نهى الله عنها . وحكى ابن المنذر عن أبى حنيفة أنه جوّزها وقال : القرعة فى القياس لا تستقيم ، ولكنا تركنا القياس فى ذلك وأخذنا بالآثار والسُّنة . قال أبو عبيد : وقد عمِل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن المنذر . واستعمال القرعة

كالإجماع من أهل العلم فيما يُقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردّها . وقد ترجم البخاريّ في آخر كتاب الشهادات (باب القُرعة في المُشكِلات وقولِ الله عز وجل « إذ يلقون أقلامهم») وساق حديث النعمان بن بَشير : "مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن[1] فيها مثل قوم آستهموا على سفينة..." الحديث . وسيأتي في «الأنفال» إن شاء الله تعالى، وفي سورة «الزخرف» أيضا بحول الله سبحانه . وحديثَ أمّ العلاء وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهْمُه في السُّكْنى حين اقترعت الأنصار سُكْنى المهاجرين ، الحديث . وحديثَ عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها ؛ وذكر الحديث .

وقد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك؛ فقال مرّة : يُقرع للحديث . وقال مرّة : يسافر بأوفقهنّ له في السفر . وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لآستهموا" . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . وكيفية القُرْعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف . واحتج أبو حنيفة بأن قال : إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز . قال ابن العربيّ : « وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح[2] ؛ فأمّا ما يخرجه التّراضي [فيه[3]] فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجري مع موضع التّراضي، فإنها لا تكون أبدا مع التراضي» وإنما تكون فيما يَتَشاحّ الناس فيه ويُضَنّ به . وصفة القرعة عند الشافعيّ ومن قال بها : أن تُقطع رِقاع صغار مستوية فيكتب في كل رقعة آسم ذي السهم ثم تجعل في بنادق طين مستوية لا تفاوت فيها ثم تُجفّف قليلا ثم تلقى في ثوب رجل لم يحضر ذلك ويغطّى عليها ثوبه ثم يدخل يده ويخرج فإذا خرج اسم رجل أُعطي الجزء الذي أُقرع عليه .

(١) كذا في نسخ الأصل، وهو لفظ البخاري عن النعمان في « كتاب المظالم » . وروايته في « كتاب الشهادات » : « ... مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل ... » . والمدهن : الذي يرائي .

(٢) تشاح الخصمان : أراد كل أن يكون هو الغالب . (٣) زيادة عن أحكام القرآن لابن العربي .

الرابعــة — ودلت الآية أيضا على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدّة ؛ وقد قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ابنة حمزة — واسمها أمة الله — لجعفر وكانت عنده خالتها، وقال : "إنما الخالة بمنزلة الأم" وقد تقدّمت فى البقرة هذه المسألة(١) . وخرّج أبو داود عن عليّ قال : خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدِم بآبنة حمزة فقال جعفر: أنا آخذها أنا أحقّ بها ابنة عمّى وخالتها عندى، وإنما الخالة أمّ . فقال عليّ : أنا أحق بها آبنة عمى وعندى آبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى أحقّ بها . وقال زيد : أنا أحق بها، أنا خرجت إليها وسافرت وقدِمت بها . فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا قال : "وأما الجارية فأقضى بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخالة أمّ" . وذكر ابن أبى خَيْثمة أن زيد بن حارثة كان وَصِيّ حمزة فتكون الخالة على هذا أحق من الوَصِيّ ويكون ابن العم إذا كان زوجا غير قاطع بالخالة فى الحضانة وإن لم يكن مَحْرَمًا لها .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

دليل على نبوّتها كما تقدّم . و « إذ » متعلقة بِيختصِمون . ويجوز أن تكون متعلقة بقوله : «وما كنت لديهم» . « بكلمة منه » قرأ أبو السَّمّال بِكلْمة منه، وقد تقدّم . « آسمه المسيح » ولم يقل آسمها لأن معنى كلمة معنى ولد . والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصدّيق ؛ قاله إبراهيم النَّخعيّ . وهو فيما يقال معرّب وأصله الشين وهو مشترك . قال ابن فارس : المَسِيح العَرَق، والمَسِيح الصدّيق ، والمَسِيح الدرهم الأطلس لا نقش فيه . والمَسْح الجماع ؛ يقال مسحها . والأَمْسح : المكان الأملس . والمسحاء المرأة الرسحاء التى لا آسْتَ لها . وبفلان مَسْحة من من جمال . والمسائح قِسِيٌّ جِياد، واحدتها مَسِيحة . قال :

(١) راجع جـ ٣ ص ١٦٤ طبعة أولى وثانية .

لها مسائحُ زُورٌ فى مراكضها * لِينٌ وليس بها وهْن ولا رقق[1]

واختلف فى المسيح ابن مريم مما ذا أخذ؛ فقيل : لأنه مسح الأرض، أى ذهب فيها فلم يستكنّ بِكِنّ . وروى عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برِئ ؛ فكأنه سمى مسيحا لذلك، فهو على هذا فعيل بمعنى فاعل . وقيل : لأنه ممسوح بدُهن البركة، كانت الأنبياء تُمسح به طيّب الرائحة ؛ فاذا مُسح به عُلم أنه نبىّ . وقيل : لأنه كان ممسوح الأخمصين . وقيل : لأن الجمال مسحه، أى أصابه وظهر عليه . وقيل : إنما سُمّى بذلك لأنه مُسح بالطُّهْر من الذنوب . وقال أبو الهَيْثم : المسيح ضِد المسيخ ؛ يقال : مسحه الله أى خلقه خلقا حسنا مباركا . ومسخه أى خلقه خلقا ملعونا قبيحا . وقال ابن الأعرابى : المسيح الصديق ، والمسيخ الأعور ، وبه سمى الدّجال . وقال أبو عبيد : المسيح أصله بالعبرانية مِشيحا بالشين فعرّب كما عُرّب موشى بموسى . وأما الدّجال فسُمّى مسيحا لأنه ممسوح العينين . وقد قيل فى الدجال مِسّيح بكسر الميم وشد السين . وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة . وبعضهم يقول مَسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف؛ والأوّل أشهر وعليه الأكثر. سُمّى به لأنه يسيح فى الأرض أى يطوفها ويدخل جميع بُلدانها إلا مكةَ والمدينة وبيتَ المقدس ؛ فهو فعِيل بمعنى فاعل . فالدجال يمسح الأرض مِحنة، وابن مريم يمسحها مِنحة . وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول . وقال الشاعر :

* إنّ المَسيح يقتل المِسيخا *

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس من بلد إلا سيطؤه الدّجال إلا مكةَ والمدينةَ" الحديث . ووقع فى حديث عبد الله بن عمرو "إلا الكعبةَ وبيتَ المقدس" ذكره أبو جعفر الطبرى . وزاد أبو جعفر الطّحاوى "ومسجد الطور"؛ رواه من حديث جنادة بن أبى أميّة عن بعض أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وفى حديث أبى بكر بن أبى شيبة عن سَمُرة بن جُنْدُب عن النبىّ

(١) زور : جمع زوراء وهى المائلة . والوهن والرقق : الضعف .

صلى الله عليه وسلم " وأنه سيظهر على الأرض كلّهـا إلا الحرمَ و بيتَ المقـدس وأنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس" وذكر الحديث . وفى صحيح مسلم : "فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاءِ شرقىَّ دِمَشق بين مَهْرُودتين (١) واضِعا كفّيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدّر منه جُمان (٢) كاللؤلؤ فلا يحلّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركَه بباب لُدّ (٣) فيقتله" (٤) الحديث بطوله . وقد قيـل : إن المسيح اسم لعيسى غير مشتق سمّـاه الله به . فعلى هذا يكون عيسى بدلا من المسيح من البدل الذى هو هو . وعيسى اسم أعجمى فلذلك لم ينصرف . وإن جعلته عربيًّا لم ينصرف فى معرفة ولا نكرة ؛ لأن فيـه ألف تأنيث . ويكون مشتقًّا من عاسـه يعُوسه إذا ساسه وقام عليه . ﴿وَجِيهًا﴾ أى شريفا ذا جاهٍ وقَدر ، وانتصب على الحال ؛ قاله الأخفش . ﴿وِمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى وهو معطوف على « وجيها » أى ومقربا ؛ قاله الأخفش . وجمع وجيه وُجَهاء ووِجاه . ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ عطف على « وجيها » ؛ قاله الأخفش أيضا . و « المهـد » مضجع الصبىّ فى رضاعه . ومهّـدت الأمر هيأته ووطأته . وفى التنزيل « فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَـدُونَ » . وامتهد الشىء ارتفع كما يمتهد سـنام البعير . ﴿وَكَهْلًا﴾ الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة . وامرأة كهلة . واكتهلت الروضة إذا عمّها النّور . يقول : يكلم الناس فى المهد آية و يكلمهم كهلا بالوَحْى والرسالة . وقال أبو العباس : كلّمهم فى المهد حين برّأ أمّه فقال : « إنى عبد الله » الآية . وأما كلامه وهو كهل فاذا أنزله الله تعالى [من السماء] (٥) أنزله على صورة ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم « إنى عبد الله » كما قال فى المهد. فهاتان آيتان وحجتان . قال المَهْـدَوِى : وفائدة الاية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم فى المهد و يعيش إلى أن يكلمهم كهلا ، إذ كانت العادة أن من تكلم فى المهد لم يعش .

(١) قوله : مهرودتين ، أى فى شقتين أو حلتين . وقيل : الثوب المهرود الذى يصبغ بالورس ثم بالزعفران .

(٢) الجمان (بضم الجيم وتخفيف الميم) : حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار .

(٣) لد (بضم اللام وتشديد الدال) : قرية ببيت المقدس من نواحى فلسطين .

(٤) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٧٦ طبع بلاق . (٥) الزيادة عن البحر لأبى حيان .

قال الزجاج : « وكهلا » بمعنى ويكلم الناس كهلا . وقال الفرّاء والأخفش : هو معطوف على « وجِيها » . وقيل : المعنى ويكلم الناس صغيرا وكهلا . وروى ابن جُريج عن مجاهد قال : الكهل الحليم . النحاس : هـذا لا يُعرف فى اللغة ، وإنما الكهل عنـد أهل للغة من ناهز الأربعين . وقال بعضهم : يقال له حَدَث إلى ستّ عشرة سـنة . ثم شابّ إلى اثنتين وثلاثين . ثم يَكْتهل فى ثلاثٍ وثلاثين ؛ قاله الأخفش . « ومن الصالِحين » عطف على « وجِيها » أى وهو من العِباد الصالحين . ذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا عبد الله بن إدريس عن حُصين عن هلال بن يِسَاف . قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى وصاحب يوسف وصاحب جُريج ، كذا قال : «وصاحب يوسف» . وهو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى ٱبن مريم وصاحب جُريج ... وبيْنا صبيّ يرضـع من أمه" وذكر الحديث بطوله (١) . وقد جاء من حديث صُهيب فى قصة الأُخدود "أن ٱمرأة جِىء بها لتُلق فى النار على إيمانها ومعها صبيّ" . فى غير كتاب مسلم "يرضـع فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أُمَّه ٱصبرى فإنك على الحق" .

وقال الضحاك : تكلم فى المهد ستة : شاهد يوسف وصبيّ ماشِطة ٱمرأة فرعون وعيسى ويحيى وصاحب جُريج وصاحب الجَبّار . ولم يذكر الأخدود ، فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة . ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : "لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة" بالحصر فإنه أخبر بمـا كان فى علمه مما أوحى إليه فى تلك الحال . ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بمـا شاء من ذلك فأخبر به .

قلت : أما صاحب يوسف فيأتى الكلام فيه ، وأما صاحب جُريج وصاحب الجَبّار وصاحب الأخدودِ ففى صحيح مسلم . وستأتى قصـة الأخدود فى سورة « البروج » إن شاء الله تعالى . وأما صبيّ ماشطة [ٱمرأة] فرعون ، فذكر البيهقىّ عن ابن عباس قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لمـا أسرِى بى سِرْت فى رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة قالوا ماشطة

---

(١) راجع صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢٧٦ طبع بلاق .

آبنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت بسم الله فقالت ابنة فرعون أبى قالت ربّى وربُّكِ وربُّ أبيك قالت أوَلكِ ربّ غير أبى قالت نعم ربّى وربّكِ وربّ أبيكِ اللهُ — قال — فدعاها فرعون فقال ألكِ ربّ غيرى قالت نعم ربّى وربّكَ الله — قال — فأمر بنُقرة من نُحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها قالت إن لى إليك حاجةً قال ما هى قالت تجمع عظامى وعظامَ ولدى فى موضع واحد قال ذاك لكِ لما لكِ علينا من الحق فأمر بهم فألقوا واحدا واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم فقال قَعِى يا أمّه ولا تقاعِسى فإنا على الحق — قال — وتكلم أربعة وهم صغار هذا وشاهد يوسف وصاحب جُريج وعيسى آبن مريم ".

قوله تعالى : قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

أى يا سيّدى . تخاطب جبريل عليه السلام ؛ لأنه لما تمثّل لها قال لها : إنما أنا رسولُ ربّكِ ليَهب لكِ غلاما زكيا . فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد فقالت : أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ أى بنكاح . « وَلَمْ أَكُ بغِيًّا » ذكرت هذا تأكيدا ؛ لأن قولها « لم يمسسنى بشر » يشمل الحرام والحلال . تقول : العادة الجارية التى أجراها الله فى خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سِفاح . وقيل : ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد : أمِن قِبل زوج فى المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟ . فرُوى أن جبريل عليه السلام حين قال لها : « كذلك الله يخلق ما يشاء» « قال كذلكِ قال ربِّكِ هو علىَّ هيِّنٌ » . نفخ فى جَيب دِرعها وكُمّها ؛ قاله ابن جُريج . قال ابن عباس : أخذ جبريل رُدْن[1] قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه فى سورتها إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلِقت

---

(١) الردن (بالضم) : أصل الكم .

بذلك . وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة و بعضه من الإنس ، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذُرِّيته فجعل بعض الماء فى أصلاب الآباء و بعضَه فى أرحام الأمّهات فإذا اجتمع الماءان صارا ولدا ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعا فى مريم بعضه فى رحِمها و بعضه فى صُلبها فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها ؛ لأن المرأة ما لم تَهِج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذى كان فى صُلبها فى رَحِمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » يعنى إذا أراد أن يخلق خلقا فإنما يقول له كن فيكون . وقد تقدّم فى « البقرة » القول فيه مستوفى[1] .

قوله تعالى : وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ والْإِنْجِيلَ ﴾ قال ابن جُريج : الكتاب الكتابة والخط . وقيل : هو كتاب غير التوراة والإنجيل علّمه الله عيسى عليه السلام . ﴿ وَرَسُولًا ﴾ أى ونجعله رسولا . أو يكلمهم رسُولا . وقيل : هو معطوف على قوله « وجيها » . وقال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو فى قوله « ورسولا » مُقْحَمة والرسول حالا للهاء ، تقديره ويعلمه الكتاب رسولا . وفى حديث أبى ذَرّ الطّويل "وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليهم السلام" . ﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ ﴾ أى أصوّر وأقدّر لكم . ﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر « كهيّة » بالتشديد . الباقون بالهمز .

(١) راجع ج ٢ ص ٨٧ طبعة ثانية .

والطير يذكر ويؤنث . ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ أى فى الواحد منه أو منها أو فى الطين فيكون طائرا . وطائر وطَيْر مثل تاجر وتَجْر . قال وَهْب : كان يطير ما دام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى . وقيل : لم يخلق غير الخُفّاش لأنه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ فى القدرة ، لأن لها ثَدْيًا وأسنانا وأذنا ، وهى تحيض وتطهر وتلد . ويقال : إنما طلبوا خَلْق خُفّاش لأنه أعجب من سائر الخلق ؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضّرع يخرج منه اللبن ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما يرى فى ساعتين : بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جدا، ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة . ويقال : إن سؤالهم كان له على وجه التعنّت فقالوا : أخلق لنا خُفّاشا واجعل فيه روحا إن كنت صادقا فى مقالتك ؛ فأخذ طينا وجعل منه خفاشا ثم نفخ فيه فاذا هو يطير بين السماء والأرض؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله .

قوله تعالى : ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ﴾ الأكمه : الذى يولد أعمى ؛ عن ابن عباس . وكذا قال أبو عبيدة قال : هو الذى يولد أعمى ؛ وأنشد لرؤبة :

* فَٱرتَدّ ٱرْتِدادَ الأكمه *

وقال ابن فارس : الكَمَه العمَى يولد به الإنسان وقد يعرِض . قال سُويد :

* كَمِهت عيناه حتى ابيضّتا *

مجاهد : هو الذى يُبصر بالنهار ولا يُبصر بالليل . عكرمة : هو الأعمش ، ولكنه فى اللغة العمى؛ يقال كَمِه يَكْمه كَمَها وكَمَّهتها أنا إذا أعميتها . والبرص معروف وهو بياض يعترى الجلد . والأبرص القمر . وسامٌّ أَبْرَص معروف، ويجمع على الأبارص . وخُصّ هذان بالذكر لأنهما عياءان . وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطبّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك . ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ﴾ قيل : أحيا أربعة أنفس : العاذر وكان صديقا له ، وٱبن العجوز

وابنة العاشر وسام بن نوح ؛ فالله أعلم . فأما العاذر فانه كان تُوفِّى قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله ووَدَكُه يقطر فعاش ووُلد له . وأما ابن العجوز فإنه مرّ به يُحمل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله . وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك ووُلد لها؛ فلما رأوا ذلك قالوا : إنك تحيي من كان موته قريبا فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتة فأحي لنا سام بن نوح . فقال لهم : دُلّونى على قبره فخرج وخرج القوم معه حتى انتهى الى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه . فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يَكن في زمانكم شيب ؟ فقال : يا رُوحَ الله ، إنك دعوتنى فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله . فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول ذلك شاب رأسى . فسأله عن النزع فقال : يا روح الله ، إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتى ؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة . فقال للقوم : صدّقوه فإنه نبيّ ؛ فآمن به بعضهم وكذبه بعضهم وقالوا : هذا سحر . وروى من حديث إسماعيل ابن عَيّاش قال : حدّثنى محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى آبن مريم كان إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ فى الأولى «تبارك الذى بيده الملك» . وفى الثانية «تنزيل» السجدة؛ فإذا فرغ حمِد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم يا خفى يا دائم يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد؛ ذكره البيهقى وقال : ليس إسناده بالقوىّ[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بالذى تأكلونه وما تدخرون . وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا : أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندّخر للغد؛ فأخبرهم فقال : يا فلانُ أنت أكلت كذا وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا وآدخرت كذا وكذا؛ فذلك قوله «أُنَبِّئُكُمْ» الآية . وقرأ مجاهد والزُّهرِىّ والسَّخْتِيانِى «وما تَذْخرون» بالذال المعجمة مخفّفا . وقال سعيد بن جبير وغيره : كان يخبر الصبيان فى الكُتّاب بما يدخرون حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه . قتادة : أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما آدّخروه منها خِفية .

(١) ما كان للقرطى رحمه الله أن يذكره .

قوله تعالى : وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ عطف على قوله : « ورسولا » . وقيل : المعنى وجئتكم مصدقا . ﴿ لما بين يدىّ ﴾ لما قبلى . ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ ﴾ فيه حذف، أى ولأحل لكم جئتكم . ﴿ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعنى من الأطعمة . قيل : إنما أحلّ لهم عيسى عليه السلام ما حُرّم عليهم بذنوبهم ولم يكن فى التوراة نحو أكل الشحوم وكلّ ذى ظُفر . وقيل : إنما أحلّ لهم أشياء حرّمتها عليهم الأحبار ولم تكن فى التوراة محرّمة عليهم . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون « بعض » بمعنى كلّ ؛ وأنشد لبيد :

تراكُ أمكنـةٍ إذا لم أرضها * أو يرتبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

وهذا القول غلط عند أهل النّظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل فى هذا الموضع، لأن عيسى صلى الله عليه وسلم إنما أحلّ لهم أشياء مما حرّمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها ولم يحلّ لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشةً . والدليل على هـذا أنه رُوى عن قَتادة أنه قال : جاءهم عيسى بألين مما جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا ؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها . وقرأ النَّخَعِىّ « بعض الذى حَرُم » مثل كرم، أى صار حراما . وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر[1] :

أبا منـذرٍ أفنيتَ فآستبقِ بعضَنا * حَنانَيْكَ بعضُ الشر أهونُ من بعضِ

يريد بعض الشر أهون من كله . ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ إنما وحّد وهى آيات لأنها جنس واحد فى الدّلالة على رسالته .

(١) هو طرفة بن العبد ؛ خاطب به عمرو بن هند الملك، وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى من بنى إسرائيل . وأحسّ معناه علِم ووجد؛ قاله الزَّجّاج . وقال أبو عبيدة : معنى «أحسّ» عرف، وأصل ذلك وجود الشىء بالحاسة . والإحساس : العِلم بالشىء؛ قال الله تعالى : « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ » والحَسّ القتل؛ قال الله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ » . ومنه الحديث فى الجراد "إذا حَسّه البرد".

﴿ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى الكفر بالله . وقيل : سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء : أرادوا قتله .

﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ استنصرُ عليهم . قال السُّدّى والثورىّ وغيرهما : المعنى مع الله، فإلى بمعنى مع ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ » أى مع . والله أعلم . وقال الحسن : المعنى من أنصارى فى السبيل إلى الله؛ لأنه دعاهم إلى الله عز وجل . وقيل : المعنى من يَضُمّ نصرته إلى نصرة الله عز وجل . فإلى على هذين القولين على بابها، وهو الجيّد . وطلبَ النُّصرة ليحتمى بها من قومه ويظهر الدعوة ؛ عن الحسن ومجاهد . وهذه سنة الله فى أنبيائه وأوليائه . وقد قال لوط : « لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة وأصحاب ينصروننى . ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أى أنصار نبيّه ودينه . والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام، وكانوا اثنى عشر رجلا ؛ قاله الكلبى وأبو رَوْق .

واختلف فى تسميتهم بذلك ؛ فقال ابن عباس : سُمّوا بذلك لبياض ثيابهم ، وكانوا صيادين . ابن أبى نَجيح وابن أَرْطاة : كانوا قصّارين فسُمّوا بذلك لتبييضهم الثياب . قال عطاء : أسلمتْ مريَمُ عيسى إلى أعمال شتّى، وآخر ما دفعته الى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين ، فأراد معلّم عيسى السفر فقال لعيسى : عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فاصبغها . فطبخ عيسى حُبًّا واحدا وأدخل جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك . فقدِم الحوارىّ والثياب كلها فى الحُبّ فلما رآها قال : قد أفسدتها ؛ فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان كلّ ثوب مكتوب عليه صبغه .

فعجب الحوارىّ ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به ؛ فهم الحواريون . قَتادة والضحاك : سُمّوا بذلك لأنهم كانوا خاصّة الأنبياء . يريدان لنقاء قلوبهم . وقيـل : كانوا ملوكا، وذلك أن الملك صنع طعاما فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لاتنقص، فقال الملك له : من أنت ؟ قال : عيسى ٱبن مريم . قال : إنى أترك مُلْكى هذا وأتبعك . فانطلق بمن ٱتبعه معه ، فهم الحواريون ؛ قاله ابن عون . وأصل الحَوَر فى اللغة البياض . وحوّرت الثياب بيضتها . والحُوّارَى من الطعـام ما حُوّر ، أى بُيّض . وٱحور ٱبيض . والجَفْنة المحورة : المبيضة بالسنام . والحَوارِىّ أيضا الناصر ؛ قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لكل نبىّ حوارىّ وحوارِىّ الزبير " . والحواريات : النساء لبياضهن ؛ وقال :

فقل للحواريات يبكين غيرنا * ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

قوله تعـالى : رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنا آمنَّا بِمـا أَنْزَلْتَ ﴾ أى يقولون ربنا آمنا . ﴿ بمـا أَنْزَلْتَ ﴾ يعنى فى كتابك وما أظهرته من حكمك . ﴿وَٱتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعنى عيسى . ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس . والمعنى أثبت أسماءنا مع أسمائهم وٱجعلنا من جملتهم . وقيل : المعنى فاكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق .

قوله تعـالى : وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ يعنى كفار بنى إسرائيل الذى أحس منهم الكفر، أى قتله . وذلك أن عيسى عليه السلام لمـا أخرجه قومه وأمّه من بين أظهرهم عاد اليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهَمّوا بقتله وتواطئوا على الفتك به، فذلك مكرهم . ومكر الله : استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون؛ عن الفراء وغيره . قال ابن عباس : كلما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة . وقال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرهم؛ فسمى الجزاء باسم الابتداء؛ كقوله :

«اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»، «وَهُوَ خَادِعُهُمْ». وقد تقدم فى البقرة. وأصل المكر فى اللغة الاحتيال والخداع. والمَكْر: خَدالة الساق. وامرأة ممكورة الساقين. والمكر ضرب من الثياب. ويقال: بل هو المَغَرَة؛ حكاه ابن فارس. وقيل: «مكر الله» إلقاء شبه عيسى على غيره ورَفْع عيسى إليه. وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرفعه جبريلُ من الكُوّة إلى السماء، فقال مَلِكُهم لرجل منهم خبيثٍ يقال له يهوذا: ادخل عليه فاقتله، فدخل الخوخة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى، فلما خرج رأوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه. ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضا؛ فذلك قوله تعالى: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ». وقيل غير هذا على ما يأتى.

﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ اسم فاعل من مَكَرَ يَمْكُرُ مكرا. وقد عدّه بعض العلماء فى أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به: يا خير الماكرين أمْكُرْ لى. وكان عليه السلام يقول فى دعائه: "اللّهمّ امكر لى ولا تمكر علىّ". وقد ذكرناه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى. والله أعلم.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ العامل فى «إذ» مكروا، أو فعل مضمر. وقال جماعة من أهل المعانى منهم الضحاك والفراء فى قوله تعالى: «إنى متوفيك ورافعك الىّ» على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة. والمعنى: إنى رافعك الىّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء؛ كقوله: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى». والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما. قال الشاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق * عليكِ ورحمة الله السلام

أى عليك السلام ورحمة الله . وقال الحسن وابن جُريج : معنى متوفّيك قابضك ورافعك الى السماء من غير موت ؛ مثل توفّيت مالى من فلان أى قبضته . وقال وهب بن مُنَبِّه : توفّى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه الى السماء . وهذا فيه بُعد ؛ فإنه صح فى الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزولُه وقتلُه الدّجال على ما بيناه فى كتاب التذكرة وفى هذا الكتاب حسب ما تقدم، ويأتى . وقال ابن زيد : متوفّيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعدُ . وروى ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك مميتك . الربيع ابن أنس : وهى وفاة نوم ؛ قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ » أى ينيمكم لأن النوم أخو الموت ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل : أفى الجنة نوم قال : "لا، النّومُ أخو الموت والجنةُ لا موت فيها" . أخرجه الدارَقُطْنِيّ . والصحيح أن الله تعالى رفعه الى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد ، وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس ، وقاله الضحاك . قال الضحاك : كانت القصة لما أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون فى غُرفة وهم اثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مِشكاة الغرفة ، فأخبر إبليسُ جمعَ اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة . فقال المسيح للحواريّين : أيّكم يخرج ويُقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يانبى الله ؛ فألقى إليه مِدرعة(1) من صوف وعمامةً من صوف وناوله عُكّازه وألقى عليه شَبَهَ عيسى ، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه . وأما المسيح فكساه الله الرّيش وألبسه النور وقطع عنه لذة المَطْعم والمَشْرب فطار مع الملائكة . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا أبو معاوية حدّثنا الأعمش عن المِنْهال عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى الى السماء خرج على أصحابه وهم اثنا عشر رجلا من عَيْن فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال لهم : أمَا إنّ منكم مَن سيكفر بى اثنتى عشرة مرّة بعد أن آمن بى ، ثم قال : أيكم يُلقى عليه شبهى فيُقتل مكانى ويكون معى

---

(1) المدرعة (بالكسر) : الدراعة وهى ثوب من كتان .

فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم فقال أنا . فقال عيسى : إجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال عيسى : إجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال نعم أنت ذاك . فألقى الله عليه شَبَهَ عيسى عليه السلام . قال : ورفع الله تعالى عيسى من رَوْزَنَة (١) كانت فى البيت الى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرّة بعد أن آمن به ؛ فتفرقوا ثلاث فرق : قالت فرقة : كان فينا الله ما شاء ثم صعِد الى السماء ، وهؤلاء اليَعْقُوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النَّسْطُورِيّة . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فقتلوا ؛ فأنزل الله تعالى « فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُو » أى آمن آباؤهم فى زمن عيسى على عددهم بإظهار دينهم على دين الكفار « فأصبحوا ظاهرين » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزِلَنّ ابنُ مريم حكمًا عادلا فليَكْسِرَنّ الصليب وليَقْتُلَنّ الخنزير وليَضَعن الجزية ولتُتْرَكن القِلاص (٢) فلا يُسعى عليها ولتَذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليُدْعَوُنّ إلى المال فلا يقبله أحد". وعنه أيضا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " والذى نفسى بيده ليُهلّنّ ابن مريم بفَجّ الرَّوحاء (٣) حاجًّا أو مُعْتمِرًا أو لَيَثْنِيَنّهما ولا ينزل بشرع مبتدإ فينسخ به شريعتنا بل ينزل مجدِّدا لما دَرَس منها متبعها". كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم" ؟ وفى رواية : "فأمّكم منكم" . قال ابن أبى ذِئب . تدرى ما أمّكم منكم ؟ . قلت : تخبِرُنى . قال : فأمّكم بكتاب ربّكم تبارك وتعالى وسنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التّذكرة) والحمد لله . و « مُتَوَفِّيكَ » أصله متوفيُك حذفت الضمة استثقالا ،

(١) الروزنة : الكوّة .   (٢) القلاص (بالكسر) : جمع قلوص وهى الناقة .

(٣) فج الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ، كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر وإلى مكة عام الفتح وعام الحج . (عن معجم ياقوت) .

وهو خبر إنّ . «ورافعك» عطف عليه، وكذا «مطهّرك»، وكذا «وجاعل الذين اتّبعوك» . ويجوز « وجاعل الذين » وهو الأصل[1] . وقيل : إن الوقف التام عند قوله : « ومطهّرك من الذين كفروا » . قال النحاس : وهو قول حسن . « وجاعل الذين اتبعوك » يا محمد « فوق الذين كفروا » أى بالحجة و إقامة البرهان . وقيل بالعز والغلبة . وقال الضحاك ومحمد ابن أبان : المراد الحواريون . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ يعنى بالقتل والصَّلب والسَّبْى والجزية ، وفى الآخرة بالنار . ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « نتلوه » . ويجوز : الأمر ذلك، على إضمار المبتدأ .

قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ دليل على صحة القياس. والتشبيه واقع على أن عيسى خُلق من غير أب كآدم، لا على أنه خُلق من تراب . والشيء قد يُشبَّه بالشيء و إن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا فى وصف واحد ؛ فإن آدم خُلق من تراب ولم يُخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبَه ما بينهما أنهما خلقا من غير أبٍ ؛ ولأن أصل خِلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يُخلق من نفس التراب ،

(١) كذا فى بعض الأصول وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفى البعض الآخر : « وجعل ... » .

ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالا ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوّله من حال إلى حال، ثم جعله بشرا من غير أب . ونزلت هذه الآية بسبب وفد نَجْران حين أنكروا على النبيّ صلى الله عليه وسلم قولَه : "إنّ عيسى عبد الله وكلمته" فقالوا : أرِنا عبدا خُلق من غير أب؛ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : " آدم مَن كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب فآدم عليه السلام ليس له أبٌ ولا أمٌّ " . فذلك قوله تعالى : « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى فى عيسى « إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ » فى آدم «وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً » . ورُوى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك . فقال : " كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث قولكم اتخذ الله ولدا وأكلكم الخنزير وسجودكم للصليب " . فقالوا : مَن أبو عيسى ؟ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » إلى قوله : « فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » . فدعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا . فقالوا : أَمَا تعرض علينا سوى هذا؟ فقال : " الإسلام أو الجزية أو الحرب " فأقرّوا بالجزية على ما يأتى . وتم الكلام عند قوله « آدم » . ثم قال : « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فكان . والمستقبل يكون فى موضع الماضى إذا عُرف المعنى . قال الفراء : « الحق من ربك » مرفوع بإضمار هو . أبو عبيدة : هو استئناف كلام وخبره فى قوله « من ربك » . وقيل : هو فاعل، أى جاءك الحق . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكًّا فى أمر عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أى جادلك وخاصمك يا محمد فيـه ، أى فى عيسى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأنه عبد الله ورسـوله . ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا ﴾ أى أقبِلوا . وُضع لمن له جلالة ورِفعـة ثم صار فى الاستعمال لكل داع إلى الإقبال، وسيأتى له مزيد بيـان فى « الأنعام » . ﴿ نَدْعُ ﴾ فى موضع جزم . ﴿ أَبْنَاءَنَا ﴾ دليل على أن أبنـاء البنات يُسمّوْن أبنـاء ؛ وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم جاء بالحسن والحسين وفاطمةُ تمشى خلفه وعلىّ خلفها وهو يقول لهم : " إن أنا دعوت فأمّنوا " وهو معنى قوله ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أى نتضرع فى الدعاء ؛ عن ابن عباس . أبو عبيدة والكسائى : نلتعِن . وأصل الابتهـال الاجتهاد فى الدعاء باللّعن وغيره . قال لبِيد :

فى كُهولٍ سادةٍ من قومِه * نظر الدهر إليهم فابتهـلْ

أى اجتهد فى إهلاكهم . يقال : بَهَله الله أى لعنه . والبَهْل اللّعن . والبَهْل المـاء القليل . وأبهلته إذا خلّيتَه وإرادته . وبهلته أيضا . وحكى أبو عبيدة : بهله الله يبْهله بَهْلة أى لعنه . قال ابن عباس : هم أهل نجران : السيّدُ والعاقبُ وابنُ الحارث رؤساؤهم . ﴿ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

الثانيـــة — هذه الاية من أعلام نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبَوْا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرُهم العاقبُ أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادى نارا فإن محمدا نبىّ مرسل، ولقـد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى ؛ فتركوا المباهـلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدّوا فى كل عام ألفَ حُلّة فى صَـفَر وألفَ حُلّة فى رجب فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بدلا من الإسلام .

الثالثـــة — قال كثير من العلماء : إن قوله عليه السلام فى الحسن والحسين لما باهل « ندع أبناءنا وأبناءكم » وقولَه فى الحسن : " إن ٱبنى هذا سيّدٌ " مخصوص بالحسن والحسين أن يُسَمَّيا ٱبنى النبىّ صلى الله عليه وسلم دون غيرهما ؛ لقوله عليه السلام : " كلّ سَبَب ونَسَب

ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي " . ولهذا قال بعض أصحاب الشافعي فيمن أوصى لولد فلان ولم يكن له ولد لصلبه وله ولدُ ابنٍ وولدُ ابنة إن الوصية لولد الابن دون ولد الابنة ؛ وهو قول الشافعي . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « الأنعام والزخرف » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ الإشارة في قوله « إن هذا » إلى القرآن وما فيه من الأقاصيص ، سميت قصصا لأن المعاني تتتابع فيها ؛ فهو من قولهم : فلان يقص أثر فلان ، أي يتبعه . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ « من » زائدة للتوكيد ، والمعنى وما إله إلا الله ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الذي لا يُغلب . ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة . وقد تقدّم مثله والحمد لله .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسُّدِّي لأهل نَجْران . وفي قول قَتادة وابن جُريج وغيرهما ليهود المدينة ، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب . وقيل : هو لليهود والنصارى جميعا . وفي كتاب النبي صلى الله علية وسلم الى هِرَقْل « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمدٍ رسولِ الله إلى هِرَقْل عظيم الروم سلامٌ على من اتبع الهدى [أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام] (١) أَسْلِم تَسْلَم

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

[وأَسْلِم][١] يؤتك الله أجرك مرّتين وإن تولّيت فإنّ عليك إثمَ الأريسيّين[٢] ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله – الى قوله : فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» . لفظ مسلم . والسواء العدل والنَّصفة؛ قاله قتادة . وقال زهير :

أَرُونِى خُطَّةً لا ضيمَ فيها * يُسَوِّى بيننا فيها السّواءُ

الفـراء : و يقـال فى معنى العـدل سِوًى وسُوًى، فإذا فتحت السين مددت و إذا كسرت أو ضممت قصرت، كقوله تعالى : «مَكَانًا سُوًى» . قال : وفى قراءة عبد الله « إلى كلمة عدل بيننا و بينكم » . وقرأ قَعْنَب[٣] « كِلْمة » بإسكان اللام، ألقى حركة اللام على الكاف ، كما يقال كبد . فالمعنى أجيبوا الى ما دُعيتم إليه، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها مَيْل عن الحق؛ وقد فسّرها بقوله تعالى : « ألا نعبد إلا الله » فموضع « أن » خفض على البدل من « كلمة » ، أو رفع على إضمار مبتدإ، التقدير هى أن لا نعبد إلا الله . أو تكون مفسرة لا موضع لها، و يجوز مع ذلك فى « نعبد » وما عطف عليه الرفع والجزم : فالجزم على أن تكون «أن» مفسرة بمعنى أى ؛ كما قال عز وجل : « أنِ ٱمْشُوا » وتكون « لا » جازمة . هذا مذهب سيبويه . ويجوز على هـذا أن ترفع « نعبد » وما بعده يكون خبرا . و يجوز الرفع بمعنى أنه لا نعبد ؛ ومثله « أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » . وقال الكسائى والفراء : « ولا نشركْ به شيئا ولا يتخذْ » بالجزم على التوهم أنه ليس فى أول الكلام أن .

الثانيـــة – قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى لا نتبعه فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلّله الله تعالى . وهو نظير قوله تعـالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم فى قبول تحريمهم وتحليلهم لمـا لم يحرمه الله ولم يحلّه الله . وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذى لا يستند الى دليل شرعىّ . قال الكِيَا الطبرىّ : مثل استحسانات أبى حنيفة فى التقديرات التى قدّرها دون مُسْتندات بيّنة . وفيه ردّ على الروافض الذين يقولون : يجب قبول [قول] الإمام دون إبانة

---

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) الأريس : الأكّار وهو الفلّاح . (٣) هو أبو السمال العدوى .

مستند شرعى"، وأنه يحل ما حرّمه الله من غير أن يبين مستندا من الشريعة . وأرباب جمع رب . و « دُون » هنا بمعنى غير .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عما دُعوا اليه . ﴿ فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أى متّصفون بدين الإسلام منقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا فى ذلك من المِنن والإنعام، غير متخذين أحدًا ربًّا لا عيسى ولا عُزيرا ولا الملائكةَ ؛ لأنهم بشر مثلنا محدَث كحدوثنا، ولا نقبل من الرّهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرّمه الله علينا ، فنكون قد اتخذناهم أربابا . وقال عكرمة : معنى « يتخذ » يسجد . وقد تقدّم أن السجود كان إلى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعاذًا لمّا أراد أن يسجد ؛ كما مضى فى البقرة(١) بيانه . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ، أينحنِى بعضنا لبعض ؟ قال "لا" قلنا : أيعانق بعضنا بعضا ؟ قال "لا ولكن تصافحوا" أخرجه ابن ماجه فى سننه . وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان فى سورة « يوسف » ، وفى « الواقعة(٢) » مس القرآن أو بعضه على غير طهارة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الأصل « لما » فحذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر . وهذه الاية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه ، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده ؛ فذلك قوله : « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ » . قال الزجاج : هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيها اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام فى كل كتاب . ويقال : كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى أيضا ألف سنة . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ دحوضَ حجتكم وبطلانَ قولكم . والله أعلم .

---

(١) راجع حـ ١ ص ٢٩٣ طبعة ثانية أو ثالثة .   (٢) إيراد هذه الجملة هنا غير واضح المناسبة .

قوله تعـالى : هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ ﴾ يعنى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم كانوا يعلمونه فيما يجدون من نعته فى كتابهم فحاجّوا فيه بالباطل . ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعنى دعواهم فى إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا . والأصل فى « ها أنتم » أأنتم فأبدل من الهمزة الأولى هاء لأنها أختها؛ عن أبى عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير « هأنتم » مثـل هعنتم . والأحسن منه أن يكون الهـاء بدلا من همزة فيكون أصـله أأنتم . ويجوز أن تكون ها للتنبيه دخلت على « أنتم » وحذفت الألف لكثرة الاستعمال . وفى « هؤلاء » لغتان المد والقصر ومن العرب من يقصرها . وأنشد أبو حاتم :

لعمرك إنا والأحاليف هاؤلا * لفى مِحْنة أظفـارُها لم تُقَـلَّم

وهؤلاء ها هنا فى موضع النداء يعنى ياهؤلاء . ويجوز هؤلاء خبر أنتم ، على أن يكون أولاء بمعنى الذين وما بعده صلة له . ويجوز أن يكون خبر « أنتم » حاججتم . وقد تقدّم هذا فى «البقرة»[1] والحمد لله .

الثانيـــة — فى الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له ، والحظرِ على من لا تحقيق عنده فقال عز وجل : « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » . وقد ورد الأمر بالجدال لمن عَلِم وأيقن فقال تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال : يارسول الله ، إن آمرأتى ولدت غلاما أسود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل لك من إبل" ؟ قال نعم . قال :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة ، جـ ٢ ص ٢٠ طبعة ثانية .

"ما ألوانها" ؟ قال حُمْر : قال . "هل فيها من أَوْرَق"(١) ؟ قال نعم . قال : "فمن أين ذلك" ؟ قال : لَعَلّ عِرْقًا نزعه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وهذا الغلام لعلّ عِرْقا نزعه" . وهذا حقيقة الجدال ونهايةٌ فى تبيين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة، وبيّن أنه كان على الحنيفيّة الإسلاميّة ولم يكن مشركا . والحنيف : الذى يوحّد ويَحُجّ ويُضَحِّى ويختتن ويستقبل القبلة . وقد مضى فى « البقرة » اشتقاقه(٢) . والمسلم فى اللغة : المتذلل لأمر الله تعالى المنطاع له . وقد تقدّم فى «البقرة» معنى الإسلام مستوفًى(٣) والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

قال ابن عباس : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمتَ أنَّا أَوْلَى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك، فإنه كان يهوديًّا وما بك إلا الحسد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ أَوْلَى ﴾ معناه أحق ، قيل : بالمعونة والنصرة . وقيل بالحجة . ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ على مِلّته وسُنّته . ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ أفرد ذكره تعظيما له ؛ كما قال « فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى مستوفًى . و « هذا » فى موضع رفع عطف على الذين ، و « النبىّ » نعت لهذا أو عطف بيان، ولو نصب لكان جائزا فى الكلام عطفا على الهاء فى « اتبعوه » . ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ناصرهم . وعن ابن مسعود أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) الأورق : الذى لونه بين السواد والغُبرة .   (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٩ طبعة ثانية .

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ طبعة ثانية .

"إن لكل نبيّ وُلاةً من النبيّين و إن وليِّي منهم أبي وخليلُ ربي — ثم قرأ — إنّ أوْلى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيّ"".

قوله تعالى : وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

نزلت فى معاذ بن جبل وحُذيفة بن اليَمان وعمّار بن ياسرُ حين دعاهم اليهود من بنى النَّضير وقُريظة وبنى قَيْنُقاع إلى دينهم . وهذه الآية نظير قوله تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا » . و «من» على هذا القول للتبعيض . وقيل : جميع أهل الكتاب ، فتكون « من » لبيان الجنس . ومعنى « لو يضلونكم » أى يُكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له . وقال آبن جُريج : «يضلونكم» أى يهلكونكم ؛ ومنه قول الأخطل :

كنتَ القذى فى موج أكْدرَ مُزْبِدٍ * قَـذَف الأَتِىّ[1] به فضـلّ ضَلالا

أى هلك هلاكا . ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نفىٌ وإيجاب . ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يَفْطُنون أنهم لا يصلُون إلى إضلال المؤمنين . وقيل : «وما يشعرون» أى لا يعلمون بصحة الإسلام وواجب عليهم أن يعلموا ؛ لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة ، والله أعلم .

قوله تعالى : يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

أى بصحة الآيات التى عندكم فى كتبكم ؛ عن قتادة والسُّدّى . وقيل : المعنى وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التى أنتم مقرّون بها .

قوله تعالى : يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

(١) الأتِىّ : كل سيل يأتى من حيث لا تعلم .

اللبس الخلط، وقد تقدم في البقرة[1]. ومعنى هذه الآية والتي قبلها معنى ذلك. ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ ويجوز «تكتموا» على جواب الاستفهام. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصّيف وغيرهما قالوا للسّفلة من قومهم: آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، يعني أوله. وسُمّي وَجْهًا لأنه أحسنه، وأول ما يواجه منه أوّله. قال الشاعر:

وتُضيء في وجه النهار منيرةً * كجُمَانة البحريّ سُلّ نظامها[2]

وقال آخر:

من كان مسرورا بمقتل مالكٍ * فليأت نسوتنا بوجه نهارِ

وهو منصوب على الظرف، وكذلك « آخره ». ومذهب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليُشَكِّكُوا المسلمين. والطائفة الجماعة، من طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة.

ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار ثم ٱكفروا به آخره؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتّبعه ارتياب في دينه فيرجعون عن دينه إلى دينكم ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا. وقيل: المعنى آمنوا بصلاته في أوّل النهار إلى بيت المقدس فإنه الحق، وٱكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قِبْلتكم؛ عن ابن عباس وغيره. وقال مقاتل: معناه أنهم جاءوا محمدا صلى الله عليه وسلم أوّل النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسّفلة هو حق فاتبعوه، ثم قالوا: حتى ننظر في التوراة ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا: قد نظرنا في التوراة فليس هو به. يقولون إنه ليس بحق، وإنما أرادوا أن يُلبسوا على السّفلة وأن يُشكِّكوا فيه.

(١) راجع ﺣ ١ ص ٣٤٠ طبعة ثانية أو ثالثة.
(٢) البيت للبيد. والجمانة: حبة تعمل من الفضة كالدرة.

قوله تعالى : وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ هذا نهى ، وهو من كلام اليهود بعضهم لبعض ، أى قال ذلك الرؤساء للسّفلة . وقال السُّدّى : من قوله يهودِ خَيْبَر ليهود المدينة . وهذه الآية أشكل ما فى السورة . فرُوِى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم فإنكم أصحّ منهم دِينا . و «أن» و «يحاجوكم» فى موضع خفض ، أى بأن يحاجوكم أى باحتجاجهم ، أى لا تصدّقوهم فى ذلك فإنهم لا حجة لهم . ﴿ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من التوراة والمنّ والسَّلْوَى وفَرْق البحر وغيرها من الآيات والفضائل . فيكون «أن يؤتى» مؤخرا بعد « أو يحاجوكم » ، وقوله «إنّ الْهُدَى هُدَى اللهِ» اعتراض بين كلامين . وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدّقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب الى معطوف . وقيل : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالمد على الاستفهام أيضا تأكيد للإنكار الذى قالوه إنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أى لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالكلام على نَسَقه . و «أن» فى موضع رفع على قول من رفع فى قولك أزيد ضربته ، والخبر محذوف تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تصدّقون أو تقرون أى إيتاء موجود مصدَّق أو مُقَرّ به ، أى لا تصدّقون بذلك . ويجوز أن تكون « أن » فى موضع نصب على إضمار فعل ؛ كما جاز فى قولك أزيدا ضربته ، وهذا أقوى فى العربية لأن الاستفهام بالفعل أولى ، والتقدير أتقرون أن يؤتى أو أتشيعون ذلك أو أتذكرون ذلك ونحوه . و بالمد قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصِن وحُمَيد . وقال أبو حاتم : « أنْ » معناه «لأن» ، فحذفت لام الجر استخفافا وأبدلت مدّة ؛ كقراءة من

قرأ « أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ » أى لأن . وقوله « أو يحاجوكم » على هذه القراءة رجوع الى خطاب المؤمنين؛ أو تكون « أو » بمعنى «أَنْ» لأنهما حرفا شكّ وجزاء فوضع إحداهما موضع الأخرى . وتقدير الآية : وأن يحاجوكم عند ربكم يا معشر المؤمنين . وقيل : يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه . ومن قرأ بترك المدّ قال : إن النفى الأوّل دلّ على إنكارهم فى قولهم ولا تؤمنوا . فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم : لا تصدّقوا بأن يُؤتَى أحد مثل ما أوتيتم ، أى لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمنّ والسَّلْوَى وفَلْق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات ، أى أنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم . فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة . ومن ٱستثنى ليس من الأوّل ، وإلا لم يجز الكلام . ودخلت « أحد » لأن أوّل الكلام نفى فدخلت فى صلة « أن » لأنه مفعول الفعل المنفى؛ فأن فى موضع نصب لعدم الخافض . وقال الخليل : أن فى موضع خفض بالخافض المحذوف . وقيل : إن اللام ليست بزائدة ، و « تؤمنوا » محمول على تقرّوا . وقال ابن جريج : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم . وقيل : المعنى لا تخبروا بما فى كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لمن تبع دينكم لئلا يكون طريقا إلى عبدة الأوثان إلى تصديقه . وقال الفراء : يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل « إلا لمن تبع دينكم » ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم « قل ان الهدى هدى الله » . أى إن البيان الحق هو بيان الله عز وجل « أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » بيّن ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، و «لا» مقدرة بعد «أن» أى لئلا يؤتى؛ كقوله « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لئلا تضلوا ، فلذلك صلح دخول «أحد» فى الكلام . و « أو » بمعنى « حتى » و « إلا أن » ؛ كما قال ٱمرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عينُك إنّما * نحاول مُلكًا أو نموت فنُعذَرا

وقال آخر :

وكنتُ إذا غَمَزْت قناة قوم * كسرتُ كعوبَها أو تستقيما

ومثله قولهم: لا نلتقى أو تقوم الساعة، بمعنى «حتى» او «إلا أن» ؛ وكذلك مذهب الكسائى.
وهى عند الأخفش عاطفة على «وَلَا تُؤْمِنُوا» وقد تقدّم . أى لا إيمان لهم ولا حجة؛ فعطف
على المعنى . ويحتمل أن تكون الآية كلها خطابا للؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم
والتشحيذ لبصائرهم؛ لئلا يشكّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم فى دينهم . والمعنى لا تصدّقوا
يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم ، ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل
والدّين ، ولا تصدّقوا أن يحاجّكم فى دينكم عند ربكم مَن خالفكم أو يقدر على ذلك، فإن
الهُدَى هدى الله وإن الفضل بيد الله . قال الضحّاك : إن اليهود قالوا إنا نحاجّ عند ربنا مَن
خالفنا فى ديننا؛ فبيّن الله تعالى أنهم هم المُدْحَضُون المعذَّبون وأن المؤمنين هم الغالبون. ومحاجّتهم
خصومتهم يوم القيامة . ففى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن اليهود والنصارى
يحاجُّونا عند ربّنا فيقولون أعطيتنا أجْراً واحدا وأعطيتهم أجرين فيقول هل ظلمتكم من
حقوقكم شيئا قالوا لا قال فإن ذلك فَضْلِي أُوتيه من أشاء " . قال علماؤنا : فلو علموا أن ذلك
من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا؛ فأعلم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أنهم يحاجوكم يوم القيامة
عند ربكم ثم قال قل لهم « إِنّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . وقرأ ابن
كَثير « آنْ يؤتى » بالمدّ على الاستفهام ؛ كما قال الاعشى :

أأن رأت رُجلاً أعْشَى أضَرَّبه * رَيْبُ المَنُون ودهْرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ[1]

وقرأ الباقون بغير مدّ على الخبر . وقرأ سعيد بن جبير « إن يؤتى » بكسر الهمزة، على معنى
النّفى؛ ويكون من كلام الله تعالى كما قال الفراء . والمعنى : قل يا محمد إن الهُدَى هدَى الله إن
يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم – يعنى اليهود – بالباطل فيقولون نحن أفضل
منكم . ونصب « أو يحاجوكم » يعنى بإضمار « أن » و « أو » تضمر بعدها « أن » إذا كانت
بمعنى «حتى» و « إلّا أن » . وقرأ الحسن « أن يؤتِيَ بكسر التاء وياء مفتوحة، على معنى أن
يؤتِيَ أحدٌ أحدًا مثل ما أوتيتم ، فحذف المفعول .

---

(١) متبل : مسقم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الهُدَى إلى الخير والدّلالة الى الله عز وجل بيد الله جل ثناؤه يؤتيه أنبياءه، فلا تنكروا أن يؤتى أحد سواكم مثل ما أوتيتم ، فإن أنكروا ذلك فقل لهم « إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » . والقول الآخر : قل إن الهدى هدى الله الذى آتاه المؤمنين من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لا غيره . وقال بعض أهل الإشارات فى هذه الآية : لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

أى بنبوّته وهدايته؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . ابن جُريج : بالإسلام والقرآن من يشاء . قال أبو عثمان : أجمل القول ليبقى معه رجاء الراجى وخوف الخائف، والله ذو الفضل العظم .

قوله تعالى : وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ مثل عبد الله بن سَلَام . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وهو فنحاص بن عازوراء اليهودىّ، أودعه رجل دينارا فخانه . وقيل : كعب بن الأشرف وأصحابه . وقرأ ابن وَثّاب والأشهب العقيلى « مَنْ إِنْ تِيمَنْه » على لغة من قرأ نِستعين وهى لغة بكر وتميم . وفى حرف عبد الله « مالك لا تِيمَنّا على يوسف » . والباقون بالألف . وقرأ نافع والكِسّائى « يؤدِّهِى » بياء فى الإدراج . قال أبو عبيد : واتفق أبو عمرو والأعمش وعاصم وحمزة فى رواية أبى بكر

على وقف الهاء، فقرءوا « يؤدّهْ إليك » . قال النحاس : بإسكان الهاء لا يجوز إلا فى الشعر عند بعض النحويين، و بعضهم لا يجيزه ألبتّةَ و يرى أنه غلط ممن قرأ به، وأنه توهّم أن الجزم يقع على الهاء، وأبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه مثلُ هذا . والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء، وهى قراءة يزيد بن القَعْقاع . وقال الفرّاء : مذهب بعض العرب يجزمون الهاء إذا تحرك ما قبلها، يقولون : ضربتهْ ضربا شديدا، كما يسكنون ميم أنتم وقمتم وأصلها الرفع، كما قال الشاعر :

لما رأى ألّا دعهْ ولا شِبَعْ * مال إلى أرْطَاة حِقْفٍ فاضطّجعْ (١)

وقيل : إنما جاز إسكان الهاء فى هذا الموضع لأنها وقعت فى موضع الجزم وهى الياء الذاهبة . وقرأ أبو المُنْذر سلّام والزُّهرِىّ « يؤدّهُ » بضم الهاء بغير واو . وقرأ قَتادة وحُميد ومجاهد « يؤدِّهُو » بواو فى الإدراج، اختِير لها الواو لأن الواو من الشّفة والهاء بعيدة المَخْرَج. قال سيبويه : الواو فى المذكّر بمنزلة الألف فى المؤنّث ويبدل منها ياء لأن الياء أخف إذا كان قبلها كسرة أو ياء ، وتحذف الياء وتبقى الكسرة لأن الياء قد كانت تحذف والفعل مرفوع فأثبتت بحالها .

الثانية — أخبر تعالى أن فى أهل الكتاب الخائنَ والأمينَ والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغى اجتناب جميعهم . وخصّ أهل الكتاب بالذّكر و إن كان المؤمنون كذلك لأنّ الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب . والله أعلم . وقد مضى تفسير القنطار . وأما الدينار فأربعة وعشرون قيراطا والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير، فمجموعه اثنتان وسبعون حبة، وهو مُجْمَع عليه . ومن حفِظ الكثير وأدّاه فالقليل أوْلى، ومن خان فى اليسير أو منعه فذلك فى الكثير أكثر . وهذا أدلّ دليل على القول بمفهوم الخطاب . وفيه بين العلماء خلاف مذكور فى أصول الفقه . وذكر تعالى قسمين : من يودّى ومن لا يؤدِّى إلا بالملازمة عليه ؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدِّى و إن دُمت عليه قائما . فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب

(١) الأرطاة : واحدة الأرطى، وهو شجر من شجر الرمل . والحقف (بالكسر) : ما اعوج من الرمل .

والمعتاد والثالث نادر ؛ فخرج الكلام على الغالب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلمى وغيرهما « دِمت » بكسر الدال وهما لغتان ، والكسر لغة أَزْد السَّراة ؛ من « دِمْت تدام » مثل خفت تخاف . وحكى الأخفش دِمت تدوم ، شاذًّا .

الثالثة — استدلّ أبو حنيفة على مذهبه فى ملازمة الغَريم بقوله تعالى : « إلا ما دمت عليه قائما » وأباه سائر العلماء ، وقد تقدّم فى البقرة[1] . وقد استدل بعض البَغْداديّين على حبس المِديان بقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً » فإذا كان له ملازمته ومنعه من التصرف جاز حبسه . وقيل : إن معنى « ما دمت عليه قائما » أى بوجهك فيهابُك ويستحى منك ، فإن الحياء فى العينين ؛ ألا ترى إلى قول ابن عباس رضى الله عنه : لا تطلبوا من الأعمى حاجة فإن الحياء فى العينين . وإذا طلبت من أخيك حاجة فانظر إليه بوجهك حتى يستحى فيقضيها . ويقال : « قائما » أى ملازما له ؛ فإن أنظرته أنكرك . وقيل : أراد بالقيام إدامة المطالبة لا عين القيام . والدِّينار أصله دِنّار فعوّضت من إحدى النونين ياء طلبا للخفة لكثرة استعماله . يدل عليه أنه يجمع دنانير ويصغر دُنَيْنِير .

الرابعة — الأمانة عظيمة القَدْر فى الدِّين ، ومن عِظم قدرها أنها تقوم هى والرَّحِم على جَنَبَتَىِ[2] الصراط ؛ كما فى صحيح مسلم . فلا يُمكَّن من الجواز إلا من حفظهما . وروى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا النبىّ صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة ، قال : " ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه " الحديث . وقد تقدم بكماله أول البقرة[3] . وروى ابن ماجه حدّثنا محمد ابن المُصَفَّى حدّثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سِنان عن أبى الزاهِريّة عن أبى شجرة كثير ابن مُرة عن ابن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء فاذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مَقِيتا مُمَقَّتا فإذا لم تلقه إلا مَقِيتا مُمَقَّتا نُزعت منه الأمانة فاذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائنا مُخَوَّنا فاذا لم تلقه إلا خائنا مخوّنا نُزعت منه

(١) فى قوله تعالى : « وإن كان ذو عسرة فنظرة ... » جـ ٣ ص ٣٧١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) جنبة الوادى (بفتح النون) : جانبه وناحيته . والجنبة (بسكون النون) : الناحية ؛ يقال : نزل فلان جنبةً أى ناحية .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة ، وصحيح مسلم جـ ١ ص ٥١ طبع بلاق .

الرحمة فإذا نُزعت منه الرحمة لم تَلقه إلا رجيما مُلْعَنًا فإذا لم تَلقه إلا رجيما مُلْعَنًا نزعت منه رِبْقة الإسلام". وقد مضى فى البقرة معنى قولِه عليه السلام: "أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك". والله أعلم.

الخامســة — ليس فى هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافا لمن ذهب إلى ذلك؛ لأن فُسّاق المسلمين يوجد فيهم من يؤدّى الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولا. فطريق العدالة والشهادة ليس يجزئ فيـه أداء الأمانة فى المال من جهة المعاملة والوديعة؛ ألا ترى قولهم: «ليس علينا فى الأُمِّيِّينَ سبيل» فكيف يعدل من يعتقد استباحة أموالنا وحَرِيمنا بغير حرج عليـه؛ ولو كان ذلك كافيا فى تعديلهـم لسُمعت شهادتهم على المسلمين.

السادســة — قوله تعـالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ يعنى اليهود ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ قيل: إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون: ليس علينا فى الأُمِّيين سبيل — أى حرج فى ظلمهم — لمخالفتهم إيانا. وادّعوا أن ذلك فى كتابهم؛ فأكذبهم الله عز وجل وردّ عليهم فقال: «بَلَىٰ» أى بلى عليهم سبيل العـذاب بكذبهم واستحلالهم أموال العرب. قال أبو إسحاق الزجاج: وتمّ الكلام. ثم قال «مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْـدِهِ وَاتَّقَىٰ». ويقال: إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالا فلما أسـلم أرباب الحقوق قالت اليهود: ليس لكم علينا شيء، لأنكم تركتم دِينكم فسقط عنا دَينكم. وادّعوا أنه حكم التوراة فقال الله تعـالى: «بلى» ردّا لقولهم «ليس علينـا فى الأُمِّيين سبيل». أى ليس كما تقولون، ثم اسـتأنف فقال: «مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ» الشركَ فليس من الكاذبين بل يحبه الله ورسوله.

السابعــة — قال رجل لابن عباس: إنّا نُصيب فى العَمْـد من أموال أهل الذّمّـة الدّجاجة والشـاة ونقول: ليس علينا فى ذلك بأس. فقال له: هـذا كما قال أهل الكتاب «ليس علينا فى الأُمِّيين سبيل» إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طِيب

أنفسهم ؛ ذكره عبد الرزاق عن معمر عن أبى إسحاق الهمْدانىّ عن صَعْصعة أن رجلا قال لابن عباس ؛ فذكره .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن الكافر لا يُجعل أهلا لقبول شهادته لأن الله تعالى وصفه بأنه كذاب . وفيه ردّ على الكفرة الذين يحرِّمون ويحلّلون غير تحريم الله وتحليله ويجعلون ذلك من الشرع . قال ابن العربى : ومن هذا يخرج الردّ على من يحكم بالاستحسان من غير دليل ، ولست أعلم أحدا من أهل القِبْلة قاله . وفى الخبر : لما نزلت هذه الآية قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ما شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىّ إلا الأمانة فإنها مؤدّاة الى البَرّ والفاجر " .

قوله تعالى : بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

«من» رفع بالابتداء وهو شرط . و «أوفَى» فى موضع جزم . و « اتقى » معطوف عليه ، أى واتقى الله ولم يكذب ولم يستحل ما حُرِّم عليه . ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ أى يُحب أولئك . وقد تقدّم معنى حب الله لأوليائه . والهاء فى قوله « بعهده » راجعة إلى الله عز وجل . وقد جرى ذكره فى قوله «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ويجوز أن تعود على الموفّى ومتّقى الكفر والخيانة ونقض العهد . والعهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — روى الأئمة عن الأشعث بن قيس قال : كان بينى و بين رجل من اليهود أرض فجحدنى فقدّمته إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل

لك بيّنة " ؟ قلت لا ، قال لليهودىّ : " احلف " قلت : إذا يحلف فيذهب بمالى ؛ فأنزل الله تعالى « إنّ الذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً " إلى آخر الآية . وروى الأئمة أيضا عن أبى أُمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة " . فقال له رجل : وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال : " وإن كان قضيبا من أَرَاك (١) " . وقد مضى فى البقرة معنى « لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ (٢) » .

الثانيــة — ودلّت هذه الاية والأحاديثُ أن حكم الحاكم لا يُحِلّ المـال فى الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانَه . وقد روى الأئمة عن أمّ سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إلىّ وإنما أنا بشر ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض وإنمـا أقضى بينكم على نحوٍ مما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنمـا أقطع له قطعة من النار يأتى بها يوم القيامة " . وهذا لا خلاف فيه بين الأئمة ، وإنما ناقض أبو حنيفة وغلا فقال : إن حكم الحاكم المبنىّ على الشهادة الباطلة يُحِلّ الفرج لمن كان محرّما عليه ؛ كما تقدّم فى البقرة (٣) . وزعم أنه لو شهد شاهدا زور على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما فان فرجها يحل لمتزوجها ممن يعلم أن القضية باطل . وقد شُنّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح ، وبأنه صان الأموال ولم ير استباحتها بالأحكام الفاسدة ولم يصن الفروج عن ذلك ، والفروج أحقّ أن يحتاط لها وتُصان . وسيأتى بطلان قوله فى آية اللعان (٤) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

(١) الأراك : شجر من الحمض يستاك بقضبانه ، الواحدة أراكة . (٢) آية ١٧٤ ج ٢ ص ٢٣٤ طبعة ثانيــة . (٣) راجع المسئلة الثالثة ج ٢ ص ٣٣٨ طبعة ثانية . (٤) آية ٦ سورة النور.

يعنى طائفة من اليهود . وقرأ أبو جعفر وشيبة « يلَوُّون » على التكثير . والمعنى يحرفون الكلم ويعدِلون به عن القصد . وأصل اللّىّ الميل . لَوَى بيده ، ولَوَى برأسه إذا أماله ؛ ومنه قوله تعالى : «لَيًّا بألسنتهم» أى عنادا عن الحق ومَيْلًا عنه إلى غيره . ومعنى «ولا تلوون على أحد » أى لا تَعرُجون عليه ؛ يقال لَوَى عليه إذا عرج وأقام . واللّى المَطْل . لواه بدَينه يَلْوِيه ليًّا ولِيّانا مَطَله . قال :

قد كنت داينت بها حسّانا * مخافة الإفلاس والليّانا

* يحسن بيع الأصل والعيانا *

وقال ذو الرُّمة :

تريدين ليّانِى[1] وأنتِ مَلِيّةٌ * وأُحْسن يا ذات الوِشاح التّقاضِيا

وفى الحديث " لَىُّ الواجِد يُحِلّ عِرضَه وعقوبته " . والألْسنة جمع لسان فى لغة من ذكّر، ومن أنّث قال ألسن .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ ما كان ﴾ معناه ما ينبغى ؛ كما قال : و «مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً» و « مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ » . و « مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا » يعنى ما ينبغى . والبشر يقع للواحد والجمع لأنه بمنزلة المصدر ؛ والمراد به هنا عيسى فى قول الضّحّاك والسُّدّى . والكتاب : القرآن . والحكم : العلم والفهم . وقيل أيضا الأحكام . أى أن الله لا يصطفى لنبوّته الكَذَبة ولو فعل ذلك بشر لسلبه آيات النبوة وعلاماتها . ونصب « ثم يقولَ » على الاشتراك بين « أن يؤتيه » و بين « يقول » أى لا يجتمع لنبىّ إتيان النبوّة وقوله : « كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ » . ﴿ وَلٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ أى ولكن جائز أن يكون النبىّ يقول لهم

(١) فى ديوانه : « تطيلين » .

كونوا ربّانيين . وهذه الآية قيل إنها نزلت فى نصارى نجْران . وكذلك رُوى أن السورة كلها إلى قوله : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ » كان سبب نزولها نصارى نجْران ولكن مُزِج معهم اليهود ؛ لأنهم فعلوا من الجَحْد والعِناد فِعلَهم .

والرَّبانِيُّون واحِدهم ربّانِىّ منسوب إلى الرَّبّ . والربَّانِىّ الذى يُرَبّى الناس بصغار العلم قبل كِباره ؛ وكأنه يقتدى بالرب سبحانه فى تيسير الأمور ؛ رُوى معناه عن ابن عباس . قال بعضهم : كان فى الأصل رَبِّىّ فأدخلت الألف والنون للبالغة ؛ كما يقال للعظيم اللحية : لِحْيَانِىّ ولعظيم الجُمّة جُمّانى ولغليظ الرَّقَبة رَقَبانِىّ . وقال المبرّد : الربّانيون أرباب العلم ، واحدهم ربّان ، من قولهم : رَبَّه يَرُبّه فهو ربّان إذا دبّره وأصلحه . فمعناه على هــذا يدبّرون أمور الناس ويصلحونها . والألف والنون للبالغة كما قالوا رَيّان وعطشان ، ثم ضمت اليها ياء النسبة كما قيل : لِحْيانىّ ورَقَبانىّ وجمّانىّ . قال الشاعر :

لو كنتُ مُرتَهِنًا فى الحق أنزلنى * منه الحديث وربّانىٌّ أحبارى

فمعنى الربّانِىّ العــالم بِدين الربّ الذى يعمل بعلمه ؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم . وقد تقدم هــذا المعنى فى البقرة : وقال أبو رزين : الربانىّ هو العالم الحكيم . وروى شعبة عن عاصم عن زِرٍّ عن عبد الله بن مسعود «ولكن كونوا ربّانيين» قال : حكماء علماء . ابن جُبير : حكماء أتقياء . وقال الضحاك : لا ينبغى لأحد أن يدع حفظ القرآن جُهــدَه فإن الله تعالى يقول : «ولكن كونوا ربّانِيِّين» . وقال ابن زيد : الربانيُّون الولاة ، والأحبار العلماء . وقال مجاهد : الربانيون فوق الأحبار . قال النحاس : وهو قول حسن ؛ لأن الأحبار هم العلماء . والربّانىّ الذى يجمع الى العلم البصرَ بالسياســة ؛ مأخوذ من قول العرب : رَبَّ أمرَ الناس يَرُبّه إذا أصلحه وقام به ، فهــو رابٌّ وربّانِىّ على التكثير . قال أبو عبيدة : سمعت عالما يقول : الربانىّ العالِمُ بالحلال والحرام والأمر والنهى ، العارفُ بأنباء الأمّة وماكان وما يكون . وقال محمــد بن الحنفيّة يوم مات ابنُ عباس : اليومَ مات ربانِىُّ هــذه الأمة . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حرّ ولا مملوك إلا ولله عز وجل

عليه حقّ أن يتعلم من القرآن ويتفقه فى دينه — ثم تلا هذه الآية — ولكن كونوا ربّانيين" الآية . رواه ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ قرأه أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف من العلم . واختار هذه القراءة أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصديقها « تَدْرُسُون » ولم يقل « تُدَرِّسون » بالتشديد من التدريس . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة « تُعلّمون » بالتشديد من التعليم؛ واختارها أبو عبيد . قال : لأنها تجمع المعنيين « تعلمون ، وتدرسون » . قال مَكّىّ : التشديد أبلغ؛ لأن كل معلِّم عالِمٌ بمعنى يَعْلم وليس كل من عَلِم شيئا مُعَلِّمًا . فالتشديد يدل على العلم والتعليم، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط؛ فالتعليم أبلغ وأمدح وغيره أبلغ فى الذم . احتج من رجح قراءة التخفيف بقول ابن مسعود « كونوا ربانيين » قال : حكماء علماء؛ فيبعد أن يقال كونوا فقهاء حكماء علماء بتعليمكم . قال الحسن : كونوا حكماء علماء بعلمكم . وقرأ أبو حَيْوَة « تُدرِسون » من أدرس يدرس . وقرأ مجاهد « تَعلّمون » بفتح التاء وتشديد اللام، أى تتعلمون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٨٠)

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالنصب عطفا على « أَنْ يُؤْتِيَهُ » . ويقوّيه أن اليهود قالت للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نتخذك يا محمد ربًّا ؟ فقال الله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة — الى قوله : ولا يأمركم » . وفيه ضمير البشر ، أى ولا يأمركم البشر يعنى عيسى وعُزَيرا . وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأوّل ، وفيه ضمير اسم الله عز وجل ، أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقوّى هذه القراءة أن فى مصحف عبد الله « ولن يأمركم » فهذا يدل على الاستئناف ، والضمير أيضا لله عز وجل؛ ذكره مَكّىّ، وقاله سيبويه والزجاج . وقال ابن جُريج وجماعة : ولا يأمركم محمد عليه

السلام . وهذه قراءة أبى عمرو والكسائى وأهل الحرمين . ﴿ أَنْ تَتَّخِذُوا ﴾ أى بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أرْبابًا . وهذا موجود فى النصارى يعظّمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أربابا . ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ على طريق الإنكار والتعجب ؛ فحرّم الله تعالى على الأنبياء أن يتخذوا الناس عبادا يتألّهون لهم ولكن ألزم الخلق حرمتهم . وقد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم انه قال : " لا يقولنّ أحدكم عَبْدِى وأَمَتِى وليقل فَتاىَ وفَتاتِى ولا يقل أحدكم ربّى وليقل سَيِّدى " . وفى التنزيل « اذكرنى عند ربك »[1] . وهناك يأتى بيان هذا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

قيل : أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدّق بعضهم بعضا ويأمر بعضهم بالإيمان بعضا ؛ فذلك معنى النُّصرة بالتصديق . وهذا قول سعيد بن جُبير وقَتادة وطاوس والسُّدى والحسن ، وهو ظاهر الآية . قال طاوس : أخذ الله ميثاق الأوّل من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر . وقرأ ابن مسعود « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب » . قال الكسائى : يجوز أن يكون « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » بمعنى وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين . وقال البصريون : إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقد أخذ ميثاق الذين معهم ؛ لأنهم قد آتبعوهم وصدّقوهم . و« ما » فى قوله «لَمَا» بمعنى الذى . قال سيبويه : سألت الخليل ابن أحمد عن قوله عز وجل : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة » فقال : لما بمعنى الذى . قال النحاس : التقدير على قول الخليل للذى آتيتكموه، ثم حذف

(١) آية ٤٢ سورة يوسف .

الهاء لطول الاسم . و « الذى » رفع بالابتداء وخبره « من كتاب وحكمة » . و « مِن » لبيان الجنس . وهـذا كقول القائل : لزيد أفضل منك ؛ وهو قول الأخفش أنها لام الابتداء . قال المَهْدوِىّ : وقوله « ثم جاءكم » وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والعائد منها على الموصول محذوف ؛ التقدير ثم جاءكم رسول مصدّق به .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قول علىّ وابن عباس رضى الله عنهما . واللفظ و إن كان نكرة فالإشارة إلى معيّن ؛ كقوله تعالى : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً — الى قوله : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ » . فأخذ الله ميثاق النبيّين أجمعين أن يؤمنـوا بمحمد عليه السلام و ينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهـم . واللام من قوله «لتؤمنن به» جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف . وهو كما تقول فى الكلام : أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا ، كأنك قلت استحلفتك ، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذى هو « لمـا » فى قراءة ابن كَثير على ما يأتى . ومن فتحها جعلها متلقيّة للقسم الذى هو أخذ الميثاق . واللام فى « لتؤمنن به » جواب قسم محذوف ، أى والله لتؤمنن به . وقال المبرّد والكسائى والزجاج : «ما» شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن ، ومعناه لمـا آتيتكم ؛ فموضع «ما» نصب ، وموضع «آتيتكم» جزم» ، و « ثم جاءكم » معطوف عليه . ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ اللام فى قوله « لتؤمنن به » جواب الجزاء ؛ كقوله تعالى : «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ» ونحوه . وقال الكسائىّ : لتؤمنن به مُعْتمَـد القسم فهو متصـل بالكلام الأول ، وجواب الجزاء قوله « فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ » . ولا يحتاج على هـذا الوجه الى تقدير عائد . وقرأ أهل الكوفة « لِمَـا آتيتكم » بكسر اللام ، وهى أيضـا بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ ، أى أخذ الله ميثاقهم لأجل الذى آتاهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسـول مصدّق لمـا معكم لتؤمنن به من بعـد الميثاق ؛ لأن أخذ الميثـاق فى معنى الاستحلاف كما تقـدّم . قال النحاس : ولأبى عبيـدة فى هـذا قول حَسَن . قال : المعنى و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

لتؤمننّ به لِمَا آتيتكم من ذكر التوراة . وقيل : فى الكلام حذف ، والمعنى و إذ أخذ الله ميثاق النبيّين لَتُعَلِّمُنّ الناس لِمَا جاءكم من كتاب وحكمة ، ولتأخذنّ على الناس أن يؤمنوا . ودلّ على هذا الحذف « وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِى » . وقيل : إن اللام فى قوله « لِما » فى قراءة من كسرها بمعنى بعد ، يعنى بعد ما آتيتكم من كتاب وحكمة ؛ كما قال النابغة :

توهّمتُ آيات لها فعرفتُها * لستّةِ أعوام وذا العامُ سابعُ

أى بعد ستة أعوام . وقرأ سعيد بن جُبير « لمّا » بالتشديد ، ومعناه حين آتيتكم . واحتمل أن يكون أصلها التخفيف فزيدت «مِن» على مذهب من يرى زيادتها فى الواجب فصارت لمن ما ، وقلبت النون ميما للإدغام فآجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الأولى منهن استخفافا . وقرأ أهل المدينة «آتيناكم» على التعظيم . والباقون «آتيتكم» على لفظ الواحد . ثم كلّ الأنبياء لم يُؤتوا الكتاب و إنما أوتى البعض ؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب . والمراد أخذ ميثاق جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو فى حكم من أوتى الكتاب لأنه أوتى الحُكم والنبوّة . وأيضا من لم يؤت الكتاب أُمر بأن يأخذ بكتاب من قبله فدخل تحت صفة من أوتى الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ « اقررتم » من الإقرار ، والإِصْر والأَصْر لغتان ، وهو العهد . والإصر فى اللغة الثِّقل ؛ فَسُمِّى العهد إصْرا لأنه مَنْع وتشديد . ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ أى اعلموا ؛ عن ابن عباس . الزجاج : بيّنوا لأن الشاهد هو الذى يصحّح دعوى المدّعى . وقيل : المعنى اشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم . ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عليكم وعليهم . وقال سعيد بن المسيّب : قال الله عز وجل للملائكة فاشهدوا عليهم ، فتكون كناية عن غير مذكور .

قوله تعالى : فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

«مَنْ» شرط . فمن تولّى من أمم الأنبياء عن الإيمان بعد أخذ الميثاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ أى الخارجون عن الإيمان . والفاسق الخارج . وقد تقدّم [1] .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ قال الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيُّنا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كِلَا الفريقين برئٌ من دِينه" . فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك ؛ فنزل «أفغير دين الله يبغون» يعنى يطلبون . ونصبت «غير» بيبغون ، أى يبغون غير دين الله . وقرأ أبو عمرو وحده « يبغون » بالياء على الخبر « وإليه ترجعون » بالتاء على المخاطبة . قال : لأن الأول خاصٌّ والثانى عامٌّ ففرَق بينهما لافتراقهما فى المعنى . وقرأ حفص وغيره « يبغون ، ويرجعون » بالياء فيهما ؛ لقوله : « فأولئك هم الفاسقون » . وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب ؛ لقوله « لَمَا آتيتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ أى استسلم وانقاد وانخضع وذلّ ، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم ؛ لأنه مجبول على مالا يقدر أن يخرج عنه . قال قَتادة : أسلم المؤمن طوعًا والكافر عند موته كرهًا ولا ينفعه ذلك ؛ لقوله : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » . قال مجاهد : إسلام الكافر كرها بسجوده لغير الله وسجود ظلّه لله ، « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ » . « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » . وقيل : المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم ؛ فمنهم الحَسَن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم منقادون آضطرارًا ، فالصحيح منقاد طائع محبٌّ لذلك ، والمريض منقاد خاضع وإن كان كارها . والطوع الانقياد والآتباع

بسهولة . والكره بما كان بمشقة و إباء عن النفس . و ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ مصدران فى موضع الحال ، أى طائعين ومكرهين . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله عز وجل : « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » قال : " الملائكة أطاعوه فى السماء والأنصارُ وعبدُ القَيْس فى الأرض" . وقال عليه السلام : " لا تَسُبُّوا أصحابى فإن أصحابى أسلموا من خوف الله وأسلم الناس من خوف السيف" . وقال عِكْرِمة : «طوعا» من أسلم من غير مُحاجّة «وكرها» من اضطرته الحجة إلى التوحيد . يدلّ عليه قوله عز وجل : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . قال الحسن : هو عموم معناه الخصوص . وعنه : « أسلم من فى السموات» وتم الكلام . ثم قال : « والأرض طوعا وكرها» . قال : والكاره المنافق لا ينفعه عمله . و «طوعا وكرها » مصدران فى موضع الحال . عن مجاهد عن ابن عباس قال: إذا استصعبت دابّة أحدكم أو كانت شَمُوسًا[1] فليقرأ فى أذنها هذه الآية : « أفغير دين الله يبغون وله اسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها » إلى آخر الآية .

قوله تعالى : وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

« غير » مفعول بيبتغ ، «دينا» منصوب على التفسير ، ويجوز أن ينتصب دينا بيبتغ ، وينتصب «غير» على أنه حال من الدِّين . قال مجاهد والسُّدِّى : نزلت هذه الآية فى الحارث بن سُويد أخو الجُلَاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتدّ عن الإسلام هو وآثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفارا ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . ورُوى ذلك عن ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . ﴿وهو فِي الاخرة مِن الخاسِرين ﴾

---

(١) شمست الدابة : شردت و جمحت ومنعت ظهرها .

قال هشام : أى وهو خاسر فى الآخرة من الخاسرين؛ ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول .
وقال المازنى : الألف واللام مثلها فى الرجل . وقد تقدّم هذا فى البقرة[1] عند قوله : « وإنه فِي الاخرةِ لمِن الصالِحِين» .

قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾

قال ابن عباس : إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتدّ ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه : سَلُوا لِى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لى من توبة ؟ فجاء قومُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل له من توبة؟ فنزلت « كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ» إلى قوله : « غفورٌ رَحِيمٌ » فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النّسائى . وفى رواية : أن رجلا من الأنصار ارتد فلحق بالمشركين ، فأنزل الله « كيف يهدى الله قوما كفروا » الى قوله : « إلا الذِين تابوا » فبعث بها قومُه إليه ، فلما قرئت عليه قال : والله ما كَذَبنى قومى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أ كذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله ، والله عز وجل أصدقُ الثلاثة؛ فرجع تائبا ، فقَبِل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه . وقال الحسن : نزلت فى اليهود لأنهم كانوا يبشِّرون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم و يستفتحون على الذين كفروا ؛ فلما بُعث عاندُوا وكفروا ، فأنزل الله عز وجل « أولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . ثم قيل : « كيف » لفظة استفهام ومعناه الجَحْد ، أى لا يهدى الله . ونظيره قوله : « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ » أى لا يكون لهم عهد؛ وقال الشاعر :

كيف نومى على الفِراش ولمّا * يشمل القومَ غارةٌ شَعواءُ

أى لا نوم لى . ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يقال : ظاهر الآية أَنَّ مَن كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ، ومن كان ظالما لا يهديه الله؛ وقد رأينا كثيرا من المرتدّين قد أسلموا

(١) راجع حـ ٢ ص : ١٣٣ طبعة ثانية .

وهـداهم الله ، وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم . قيـل له : معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقبِلون على الإسـلام ؛ فأما إذا أسلموا وتابوا فقـد وفّقهم الله لذلك . والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : أُولَـٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

أى إن داموا على كفرهم . وقد تقدّم معنى لعنة الله والناس فى «البقرة»[1] فلا معنى لإعادته . ﴿وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى لا يؤخَّرون ولا يؤجَّلون ، ثم استثنى التائبين فقال : «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» هو الحارث بن سُوَيد كما تقدّم . ويدخل فى الآية بالمعنى كل من راجع الإسلام وأخاص .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

قال قتادة وعطاء الخراسانىّ والحسن : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمـانهم بنعته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم . وقيل : «ازدادوا كفرا» بالذنوب التى اكتسبوها . وهذا اختيار الطبرى ، وهى عنده فى اليهود . ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ مشكل لقوله : «وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» فقيل : المعنى لن تقبل توبتهم عنـد الموت . قال النحاس : وهـذا قول حسن ؛ كما قال عز وجل : «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ» . ورُوى عن الحسن وقتادة وعطاء . وقد قال صلى الله عليه وسـلم : "إن الله

(١) راجع جـ ٢ ص ١٨٨ طبعة ثانية .

يقبل توبة العبد مالم يُغَرْغِر[(١)]". وسيأتى فى «النساء» بيان هذا المعنى. وقيل: «لن تقبل توبتهم» التى كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر قد أحبطها . وقيل : «لن تقبل توبتهم» إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر؛ وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام . وقال قُطْرُب : هذه الآية نزلت فى قوم من أهل مكة قالوا : نتربص بمحمد رَيْبَ المَنُون، فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا . فأنزل الله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» أى لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر ؛ فسمّاها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح من القوم عَزْم ، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صحّ العزم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

المِلء (بالكسر) مقدار ما يملأ الشىء، والمَلء (بالفتح) مصدر ملأت الشىء؛ ويقال : أعطنى مِلأه ومِلأيه وثلاثةَ أملائِه . والواو فى «ولو افتدى بِهِ» قيل : هى مقحمة زائدة؛ المعنى : فلن يقبل من أحدهم مِلء الأرض ذهبا لو افتدى به . وقال أهل النظر من النحويين : لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنها تدل على معنًى . ومعنى الآية : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا تبرّعًا ولو افتدى به . و «ذهبا» نصب على التفسير فى قول الفراء . قال المفضّل : شرط التفسير أن يكون الكلام تامًّا وهو مُبْهَم ؛ كقولك عندى عشرون ؛ فالعدد معلوم والمعدود مبهم؛ فإذا قلت درهما فسّرت . وإنما نصب التمييز لأنه ليس له ما يخفضه ولا ما يرفعه، وكان النصب أخف الحركات فجُعل لكل مَا لَا عامل فيه . وقال الكسائىّ : نصب على إضمار من، أى من ذهب ؛ كقوله : «أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا» أى من صيام . وفى البخارىّ ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "يُجاء بالكافر

(١) أى ما لم تبلغ روحه حلقومه؛ فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به المريض .

يوم القيامة فيُقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقال له قد كنت سُئلت ما هو أيسر من ذلك". لفظ البخارى. وقال مسلم بدل "قد كنت، كذبت، قد سُئلت".

قوله تعالى : لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

فيه مسألتان :

الأولى — روى الأئمة واللفظ للنَّسائى عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة : إن ربّنا ليسألُنا من أموالنا فأشهدك يارسول الله أنى جعلت أرضى لله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلها فى قرابتك فى حسان ابن ثابت وأُبَىّ بن كعب". وفى الموطّأ « وكانت أحبّ أمواله إليه بِئْرُحاء[1]، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب » . وذكر الحديث. ففى هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فَحْوَى الخطاب حين نزلت الآية غيرَ ذلك. ألا ترى أبا طلحة حين سمع « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا » الآية، لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذى يريد الله أن ينفق منه عبادهُ بآية أخرى أو سُنّة مبيِّنة لذلك فإنهم يحبون أشياء كثيرة . وكذلك فعل زيد بن حارثة ، عَمَد مما يحب إلى فرس يقال له "سَبَل" وقال : اللّهُمّ إنك تعلم أنه ليس لى مالٌ أحب إلىّ من فرسى هذه ؛ فجاء بها النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقال : هذا فى سبيل الله . فقال لأسامة بن زيد "اقبضه". فكأنّ زيدا وجد من ذلك فى نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد قبلها منك " . ذكره أسد بن موسى . وأعتق ابنُ عمرَ نافعاً مولاه، وكان أعطاه فيه عبدُ الله بن جعفر ألفَ دينار . قالت صفية بنت أبى عبيد : أظنه تأول قول الله عز وجل : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وروى شِبل عن أبى نجيح

(١) بئرحاء : موضع كان لأبى طلحة بالمدينة .

عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سَبْى جَلُولاء يوم فتح مدائن كِسْرَى ؛ فقال سعد بن أبى وقّاص : فدعا بها عمر فأعجبته، فقال إن الله عز وجل يقول: «لن تنالوا البِر حتى تنفِقوا مِما تحبون» فأعتقها عمر رضى الله عنه. ورُوى عن الثّورى أنه بلغه أن أمّ ولد الربيع بن خَيْثم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لى : يا فلانة أعطى السائل سكّرا، فإن الربيع يحب السكّر. قال سفيان : يتأول قولَه جل وعز : «لن تنالوا البِر حتى تنفِقوا مما تحِبون». ورُوى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشترى أعدالا من سكّر ويتصدّق بها ، فقيل له : هلّا تصدّقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكّر احبّ إلىّ فأردت أن أنفق مما أحبّ. وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تُدركون ما تؤمّلون إلا بالصبر على ما تكرهون.

الثانيــة — واختلفوا فى تأويل «البر» فقيل الجنة ؛ عن ابن مسعون وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسُّدّى. والتقدير لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون. والنوال العطاءُ ، من قولك نولته تنويلا أعطيته. ونالنى من فلان معروف ينالنى ، أى وصل إلىّ. فالمعنى : لن تصلوا إلى الجنة وتُعطَوْها حتى تنفقوا مما تحبون. وقيل : البر العمل الصالح. وفى الحديث الصحيح : "عليكم بالصدق فإنه يدعو إلى البر وإن البر يدعو إلى الجنة". وقد مضى فى البقرة[1]. قال عطية العَوْفى : يعنى الطاعة. عطاء : لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحّاء تأملون العيش وتخشون الفقر. وعن الحسن : «حتى تنفِقوا» هى الزكاة المفروضة. مجاهد والكَلْبى : هى منسوخة، نسختها آية الزكاة. وقيل : المعنى حتى تنفقوا مما تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع. وروى النَّسائىّ عن صَعْصعة بن معاوية قال : لَقِيت أبا ذَرّ قال : قلت حدّثنى قال نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين فى سبيل الله إلا استقبلته حَجَبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده". قلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن

---

(١) فى قوله تعالى : «أولئك الذين صدقوا ...» جـ ٢ ص ٢٤٣ طبعة ثانية.

كانت إبلا فبعيرين و إن كانت بقـرا فبقرتين . وقال أبو بكر الوراق : دلّهم بهـذه الآية على الفُتُوّة . أى لن تنالوا بِرّى بكم إلا ببرّكم بإخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم؛ فإذا فعلتم ذلك نالكم بِرّى وعطفى . قال مجاهد: وهو مثل قوله : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا » . « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى و إذا علم جازى عليه .

قوله تعالى : كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حِلًّا ﴾ أى حلالا، ثم استثنى فقال : ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وهو يعقوب عليه السلام . فى التّرمذىّ عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أخبرنا، ما حَرّم إسرائيل على نفسه؟ قال : "كان يسكن البدو فاشتكى عِرْق النَّسا[1] فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحومَ الإبل وألبانَها فلذلك حَرّمها" . قالوا : صـدقت . وذكر الحديث . ويقال : نَذر إن برأ[2] منه ليتركنّ أحبَّ الطعام والشراب إليه ، وكان أحبّ الطعام والشراب إليه لحومُ الإبل وألبانُها . وقال ابن عباس ومجاهد وقَتادة والسُّدّى : أقبل يعقوب عليه السلام من حَرّان يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عِيصو، وكان رجلا بطشًا قويًّا ، فلقِيَه مَلَك فظنّ يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه، فغمز المَلَكُ فخذ يعقوب عليه السلام، ثم صعد الملك إلى السماء و يعقوب ينظر إليه فهاج عليـه عِرْق النَّسا، ولقِىَ من

(١) النسا (بالفتح مقصور) : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر؛ فاذا سمنت الدابة انفلق فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان، واذا هزلت الدابة اضطربت الفخذان وماجت الربلتان (الربلة اللحمة الغليظة) وخفى النسا (عن الصحاح) .

(٢) برأ من المرض (بالفتح) لغة أهل الحجاز . وسائر العرب يقولون : برئت (بالكسر) .

ذلك بلاء شديدا ، فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله زُغاء أى صياح ، فحلف يعقوب عليه السلام إن شفاه الله جل وعز ألّا يأكل عرقا ، ولا يأكل طعاما فيه عِرْق فحرمها على نفسه ؛ فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق يخرجونها من اللحم . وكان سبب غمز المَلَك فخذه أنه كان نذر إن وهب الله له اثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرَهم . فكان ذلك للمخرج من نذره ؛ عن الضحاك .

الثانيـــة — واختُلف هل كان التحريم من يعقوبَ بآجتهاد منه أو باذن من الله تعالى؟ والصحيح الأوّل ؛ لأن الله تعـالى أضاف التحريم إليــه بقوله تعالى : « إلَّا مَا حَرَّمَ » وأن النبي إذا أدّاه اجتهادُه إلى شيء كان دِيناً يلزمنا اتباعه لتقرير الله سبحانه إياّه على ذلك . وكما يوحَى إليــه ويلزم آتباعُه ، كذلك يؤذن له ويجتهد ، ويتعيّن موجَب اجتهاده إذا قُدِر عليه ، ولولا تقدّم الإذن له فى تحريم ذلك ما تسوّر (١) على التحليل والتحريم . وقد حرّم نبيّنا صلى الله عليه وسلم العسل على الرواية الصحيحة ، أو خادَمه مارية فلم يقرّ الله تحريمه ونزل « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » على ما يأتى بيانه فى « التحريم » . قال الكِيَا الطبرى : فيمكن أن يقال : مطلق قوله تعـالى : « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » يقتضى ألا يختص بمارية . وقد رأى الشافعىّ أن وجوب الكفارة فى ذلك غير معقول المعنى ، فجعلها مخصوصا بموضـع النص . وأبو حنيفة رأى ذلك أصلا فى تحريم كل مباح وأجراه مجرى اليمين .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال ابن عباس : لما أصاب يعقوبَ عليه السلام عِرقُ النَّسا وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل فحرّمها على نفســه . فقالت اليهود : إنما نحرّم على أنفسنا لحوم الإبل لأن يعقوب حرّمها وأنزل الله تحريمها فى التوراة ؛ فأنزل الله هـذه الاية . قال الضحاك : فكذّبهم الله وردّ عليهم فقال يا محمد : « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فلم يأتوا . فقال عز وجل : ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال الزجاج : فى هذه الاية

(١) تسوّر : هجم .

أعظم دلالة لنبوة محمد نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، أخبرهم أنه ليس فى كتابهم ، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة فأَبَوْا؛ يعنى عرفوا أنه قال ذلك بالوَحْى . وقال عطيّة العَوْفى : إنما كان ذلك حراما عليهم بتحريم يعقوب ذلك عليهم . وذلك أن إسرائيل قال حين أصابه عِرق النَّسا : والله لئن عافانى الله منه لا يأكله لى ولد ؛ ولم يكن ذلك محرّما عليهم . وقال الكَلْبىّ : لم يحرّمه الله عز وجل فى التوراة عليهم وإنما حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم ، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله تعالى عليهم طعاما طيِّباً، أو صَبّ عليهم رجزا وهو الموت؛ فذلك قوله تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لهم » الآية . وقوله : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ » الاية — إلى قوله : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

الرابعة — ترجم ابن ماجه فى سُنَنه « دواء عِرق النَّسا » حدثنا هشام بن عمار وراشد ابن سعيد الرملى قالا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا هشام بن حسان حدّثنا أنس بن سيرين أنه سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "شفاء عِرق النَّسا ألْية شاة [أعرابية][1] تذاب ثم تُجَزَّأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الريق فى كل يوم جزء" . وأخرجه الثعلبىّ فى تفسيره أيضا من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِرق النسا : "تؤخذ ألْيَة كبش عربىّ لا صغير ولا كبير فتقطع صغارا فتخرج إهالته[2] فتقسم ثلاثة أقسام فى كل يوم على ريق النفس ثُلثا" قال أنس : فوصفته لأكثر من مائة فبَرَأ بإذن الله تعالى . شعبة : حدثنى شيخ فى زمن الحجاج بن يوسف فى عِرق النَّسا أقسم لك بالله الأعلى لئن لم تنته لأكوينّك بنار ولأحلقنّك بمُوسَى . قال شعبة : قد جربته بقوله ، ويمسح على ذلك الموضع .

قوله تعالى : قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه . (٢) الإهالة (بالكسر) : الشحم المذاب ، أو كل ما ائتدم به من الأدهان .

أى قل يا محمد صدق الله، إنه لم يكن ذلك فى التوراة محرما. ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ أمر باتباع دينه. ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ردّ عليهم فى دعواهم الباطل كما تقدم.

قوله تعالى : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوّل مسجد وضع فى الأرض قال : "المسجد الحرام". قلت : ثم أىّ؟ قال : "المسجد الأقصى". قلت : كم بينهما؟ قال : "أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاةُ فصلّ". قال مجاهد وقَتادة : لم يُوضع قبلَه بيتٌ. قال علىّ رضى الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة، والمعنى أنه أوّل بيت وُضع للعبادة. وعن مجاهد قال : تفاخرَ المسلمون واليهود فقالت اليهود : بيت المقدِس أفضل وأعظم من الكعبة؛ لأنه مُهَاجَرُ[1] الأنبياء وفى الأرض المقدسة. وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل؛ فأنزل الله هذه الآية. وقد مضى فى البقرة[2] بيان البيت وأوّل من بناه. قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيتِ قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفى سنة، وأن قواعده لفى الأرض السابعة السُّفلَى. وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام؛ كما خرّجه النَّسائى بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو. وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خِلالًا ثلاثة [سأل الله عز وجل][3] حُكْمًا يصادف حكمه فأُوتيَه وسأل الله عز وجل مُلْكًا

---

(١) المهاجر (بفتح الجيم) : موضع المهاجرة.
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ طبعة ثانية.
(٣) زيادة عن سنن النسائى.

لا ينبغى لأحد من بعده فأُوتيه وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألّا يأتيه أحد لا يَنْهزه(١) إلا الصلاةُ فيــه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمّه فأوتيه ". فجاء إشكال بين الحديثين؛ لأن بين إبراهيم وسليمان آمادا طويلة. قال أهل التواريخ: أكثر من ألف سنة. فقيل: إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدّدا ما كان أسسه غيرهما. وقد رُوى أن أوّل من بنى البيت آدم عليــه السلام كما تقدّم. فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاما، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيتَ بإذن الله؛ وكلٌّ محتمَل. والله أعلم. وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت فى الأرض وأن يطوفوا به؛ وكان هــذا قبل خلق آدم، ثم إن آدم بَنَى منــه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم آستتم بناءه إبراهيمُ عليه السلام.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر «إن» واللام توكيد. و «بَكّة» موضع البيت، ومكة سائر البلد؛ عن مالك بن أنس. وقال محمــد بن شهاب: بكة المسجد، ومكة الحرم كله، تدخل فيه البيوت. قال مجاهد: بكة هى مكة. فالميم على هذا مبدلة من البــاء؛ كما قالوا: طين لازب ولازم. وقاله الضحاك والمؤرّج. ثم قيــل: بكّة مشتقة من البَكّ وهو الازدحام. تَبَاكّ القوم ازدحموا. وسُمِّيت بكة لازدحام الناس فى موضع طوافهم. والبَكّ دقّ العنق. وقيل: سُمِّيت بذلك لأنها كانت تدقّ رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيهــا بظلم. قال عبد الله بن الزبير: لم يقصِدها جبار قطّ بســوء إلا وَقَصه(٢) الله عز وجل. وأما مكة فقيل: إنها سُمّيت بذلك لأنها تَمُكّ المخ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة؛ من قولهم: مَكَكْتُ العظم إذا أخرجت ما فيه. ومَكَّ الفصِيلُ ضَرع أمّه وآمتكه إذا آمتص كل ما فيه من اللبن وشربه. قال الشاعر:

* مَكّت فلم تُبقِ فى أجوافها دِرَرا *

وقيــل: سُمّيت بذلك لأنها تَمُكّ مَن ظلم فيها، أى تهلكه وتنقصه. وقيل: سُمّيت بذلك لأن الناس كانوا يَمُكّون ويضحكون فيها؛ من قوله: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً

(١) النهز: الدفع. (٢) الوقص: الكسر والدق.

وَتَصْدِيَةً » أى تصفيقا وتصفيرا . وهذا لا يوجبه التصريف؛ لأن « مَكَّة » ثُنائيّ مضاعف، و «مكا» ثُلاثيّ معتل .

الثالثة — قوله تعالى . ﴿ مُبَارَكًا ﴾ جعله مُبَارَكًا لتضاعف العمل فيه ؛ فالبركة كثرة الخير . ونصب على الحال من المضمر فى « وُضِع » أو بالظرف من « بكة » . المعنى : الذى استقر ببكة مباركا . ويجوز فى غير القرآن «مبارك» ؛ على أن يكون خبرا ثانيا، أو على البدل من الذى، أو على إضمار مبتدأ . ﴿ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ عطف عليه، و يكون بمعنى وهو هُدًى للعالمين . ويجوز فى غير القرآن « مباركٍ » بالخفض يكون نعتا للبيت .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ رفع بالابتداء أو بالصفة . وقرأ أهل مكة وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير « آيةٌ بيّنةٌ » على التوحيد ، يعنى مقام إبراهيم وحده . قالوا : أثر قدميه فى المقام آية بينة . وفسّر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله ؛ فذهب إلى أن من آياته الصفا والمَرْوة والرُّكن والمَقام . والباقون بالجمع . أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحَطيم وزمزم والمشاعر كلّها . قال : أبو جعفر النحاس : من قرأ « آيات بينات » فقراءته أبين؛ لأن الصَّفا والمَرْوة من الايات . ومنها أن الطائر لا يعلو البيت صحيحا . ومنها أن الحاج يطلب الصيد فإذا دخل الحرم تركه . ومنها أن الغيث إذا كان ناحية الركن اليمانيّ كان الخِصْب باليمن، وإذا كان بناحية الشام كان الخصب بالشام، و إذا عمّ البيت كان الخِصْب فى جميع البلدان . ومنها أن الجِمَار على ما يُزاد عليها تُرى على قدر واحد . والمَقام من قولهم : قُمت مَقاما، وهو الموضع الذى يُقام فيه . والمُقام من قولك : أقمت مُقاماً . وقد مضى هذا فى البقرة[(١)]، ومضى الخلاف أيضا فى المقام والصحيح منه . وارتفع المقام على الابتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير منها مقام إبراهيم ؛ قاله الأخفش . وحكى عن محمد بن يزيد أنه قال : «مقام» بدل من «آيات» . وفيه قول ثالث بمعنى هى مقام إبراهيم . وقول الأخفش معروف فى كلام العرب . كما قال زهير :

---

(١) راجع ج ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية .

لها متاعٌ وأعوانٌ غَدَوْنَ به * قِتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أفرغ انْسَحَقَا (١)

أى مضى وبَعُدَ سيلانه. وقول أبى العباس : إن مقاما بمعنى مقامات؛ لأنه مصدر . قال الله تعالى : «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِم» . وقال الشاعر :

* إن العيون التى فى طَرْفها مرض *

أى فى أطرافها . ويقوى هذا الحديثُ المروى" الحج مقام ابراهيم " .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال قتادة : ذلك أيضا من آيات الحَرَم . قال النحاس : وهو قول حسن؛ لأن الناس كانوا يُتخطّفون من حواليه، ولا يصل إليه جبّار ، وقد وُصِل إلى بيت المقدس وخُرِّب، ولم يوصل إلى الحرم . قال الله تعالى : «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» . وقال بعض أهل المعانى : صورة الاية خبر ومعناها أمر، تقديرها ومن دخله فأمّنوه؛ كقوله : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» أى لا ترفُثوا ولا تفسُقوا ولا تجادلوا . ولهذا المعنى قال الإمام السابق النُّعمان بن ثابت : من اقترف ذنبًا واستوجب به حَدًّا ثم لجأ إلى الحَرَم عَصَمه، [لقوله تعالى :] « ومَنْ دَخَلَهُ كان آمنًا »؛ فأوجب الله سبحانه الأمن لمن دخله . ورُوى ذلك عن جماعة من السلف منهم ابن عباس وغيره من الناس . قال ابن العربى : « وكلّ من قال هـذا فقد وهم من جهتين : إحداهما أنه لم يفهم من الآية أنها خبر عما مضى، ولم يقصد بها إثباتَ حُكم مستقبَل. الثانى أنه لم يعلم أنّ ذلك الأمر قدذهب وأن القتل والقتال قـد وقع بعد ذلك فيها، وخبر الله لا يقع بخلاف مُخْبَره؛ فدلّ ذلك على أنه كان فى الماضى هذا . وقد ناقض أبو حنيفة فقال: إذا لجأ إلى الحَرَم لا يُطعَم ولا يُسْقَى ولا يُعامَل ولا يُكلَّم حتى يخـرج فاضطروه (٢) إلى الخروج وليس يصح معه أمنٌ . ورُوى عنه أنه قال : يقع القصاص فى الأطراف فى الحَرَم ولا أَمْنَ أيضا مع هذا» .

(١) قوله : لها متاع، أى لهـذه الناقة التى يستقى عليها . والقتب (بالكسر) : جميع أداة السانيـة من أعلاقها وحبالها . والسانية : ما يسقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره . والغرب : الدلو العظيمة .

(٢) عبارة ابن العربى فى أحكام القرآن له : « ... فاضطراره إلى الخروج ليس يصح معه أمن » .

والجمهور من العلماء على أن الحدود تُقام فى الحرم ، وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خَطَل (١) وهو متعلّق بأستار الكعبة .

قلت : وروى الثّورى عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس : من أصاب حدًّا أقيم عليه فيه ، وإن أصاب فى الحِلّ ولجأ إلى الحَرَم لم يُكلَّم ولم يبايع حتى يخرج من الحَرَم فيقام عليه الحدّ؛ وهو قول الشّعبى . فهذه حجة الكوفيين ، وقد فهم ابن عباس ذلك من معنى الآية ، وهو حَبْر الأمّة وعالِمُها . والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النّعم على كل من كان بها جاهلا ولها منكرا من العرب؛ كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » ؛ فكانوا فى الجاهلية من دخله ولجأ إليه أمِن من الغارة والقتل؛ على ما يأتى بيانه فى «المائدة» إن شاء تعالى . قال قَتادة : ومن دخله فى الجاهلية كان آمنا . وهذا حسن . ورُوى أن بعض المُلْحدة قال لبعض العلماء : أليس فى القرآن « ومَن دخله كان آمِنا » فقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا فلم يأمَن من كان فيه ! قال له : ألستَ من العرب ! ما الذى يريد القائل من دخل دارى كان آمنا ؟ أليس أن يقول لمن أطاعه : كُف عنه فقد أمّنته وكففت عنه ؟ قال بلى . قال : فكذلك قوله « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » . وقال يحيى بن جَعْدة : معنى « ومن دخله كان آمِنا » يعنى من النار .

قلت : وهذا ليس على عمومه ؛ لأن فى صحيح مسلم عن أبى سعيدٍ الخُدْرِىّ حديثَ الشفاعة الطويل "فوالّذِى نفسى بيده ما منكم من أحد بأشدّ مُناشدةً لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار يقولون ربّنا كانوا يصومون معنا ويُصلّون ويَحجّون فُيقال لهم أخرجوا من عَرفتم" الحديثَ . وإنما يكون آمنًا من النار من دخله لقضاء النُّسُك معظِّما له عارفًا بحقه متقرّبًا إلى الله تعالى . قال جعفر الصادق : من دخله على الصفاء

(١) ابن خطل (بالتحريك) هو عبد الله بن خطل . رجل من بنى تيم بن غالب ، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلما فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقا وبعث معه رجلا من الأنصار وكان معه مولى يخدمه وكان مسلما فنزل منزلا وأمر المولى أن يذبح له تيسا فيصنع له طعاما فنام ؛ فاستيقظ ولم يصنع له شيئا فعَدَا عليه فقتله ثم ارتدّ مشركا . راجع تاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام .

كما دخله الأنبياء والأولياء كان آمنا من عذابه . وهــذا معنى قوله عليه السلام : " مَن حجّ فلم يَرْفُث ولم يَفْسُق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " .
قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . وأنشد :

يا كعبةَ الله دَعوةَ اللّاجى * دعــوةَ مستشعرٍ ومحتاج
ودّع أحبابَه ومسكنَه * فجاء ما بين خائفٍ رَاج
إنْ يَقبل اللهُ سعيَه كرمًا * نجا، وإلّا فليس بالنّاج
وأنت ممن تُرجَى شفاعته * فاعطف على وافِدِ بنِ حجّاج

وقيل : المعنى ومن دخله عامَ عُمْرة القضاء مع محمد صلى الله عليــه وسلم كان آمنا . دليله قوله تعالى : «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » . وقد قيل : إن «مَن» هاهنا لمن لا يعقل، والآية فى أمان الصّيد، وهو شاذ . وفى التنزيل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ » الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ اللام فى قوله «ولله» لام الإيجاب والإلزام، ثم أكّده بقوله تعالى : ﴿ عَلَى ﴾ التى هى من أوْكد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربى : لفلان علىّ كذا؛ فقد وكّده وأوجبه . فذكر الله تعالى الحج بأوْكد ألفاظ الوجوب تأكيدًا لحقّه وتعظيما لحُرمته . ولا خلاف فى فريضته، وهو أحد قواعد الإسلام، وليس يجب إلا مرّة فى العمر .
وقال بعض النــاس : يجب فى كل خمسة أعوام ؛ ورَوى فى ذلك حديثا أسنده إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، والحديث باطل لا يصح، والإجماع صادّ فى وجوههم .

قلت : وذكر عبد الرزاق حدّثنا سفيان عن العلاء بن المسيّب عن أبيه عن أبى سعيد الخُدرىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الربّ جل وعز إن عبدا أوْسعتُ عليه فى الرزق فلم يَعُد إلىّ فى كل أربعة أعوام لمحرومٌ " مشهور من حديث العلاء بن المسيّب بن رافع الكاهلىّ الكوفىّ من أولاد المحدّثين، روى عنه غير واحد، منهم من قال : فى خمسة أعوام،

ومنهم من قال : عن العلاء عن يونس بن حبّان عن أبي سعيد في غير ذلك من الاختلاف .
وأنكرت المُلْحِدةُ الحجَّ فقالت : إن فيه تجريدَ الثياب وذلك يخالف الحياء، والسَّعْيَ وهو يناقض الوَقار، ورَمْيَ الجمار لغير مَرْمًى وذلك يضادّ العقل ؛ فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلَّها باطلةٌ إذ لم يعرفوا لها حِكمة ولا عِلّة ، وجَهلوا أنه ليس من شرط المَوْلَى مع العبد أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به ولا أن يطلع على فائدة تكليفه، وإنما يتعيّن عليه الامتثال، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود . ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول في تلبيته : "لَبَّيْكَ حَقًّا حقًّا تعبُّدًا ورِقًّا لبّيكَ إلٰهَ الحق" . وروى الأئمة عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحُجُّوا". فقال رجل: كلّ عام يا رسول الله؟ فسَكتَ، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو قلتُ نعم لوجَبَتْ ولَمَا استطعتم" ثم قال: "ذَرُوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمْر فأتُوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدَعُوه" لفظ مسلم . فبيّن هذا الحديثُ أن الخطاب إذا توجّه على المكلَّفين بفرضٍ أن يكفي منه فعلُ مرّة ولا يقتضي التَّكرار ؛ خلافا للأستاذ أبي إسحاق الأسْفرايِيني وغيره . وثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له أصحابه : يا رسول الله، أحجّنا لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال : "لا بل للأبد". وهذا نصٌّ في الردّ على من قال : يجب في كل خمس سنين مرّة . وقد كان الحج معلوما عند العرب مشهورا لديهم ، وكان مما يُرغَب فيه لأسواقها وتَبَرُّرِها[1] وتحِيعها ؛ فلما جاء الإسلام خُوطبو بما علموا وأُلزموا بما عَرفوا . وقد حجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل حج الفرض، وقد وقف بعرفةَ ولم يُغيّر من شَرْع إبراهيم ما غيّروا؛ حتى كانت قريش تقف بالمَشْعر الحرام ويقولون : نحن أهل الحَرَم فلا نخرج منه؛ ونحن الحُمْس[2]. حسب ما تقدّم بيانه في «البقرة»[3] .

قلت : من أغرب ما رأيته أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حجّ قبل الهجرة مرّتين وأن الفرض سقط عنه بذلك ؛ لأنه قد أجاب نداء إبراهيم حين قيل له : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

(١) التبرر : الطاعة . (٢) الحمس جمع الأحمس ، وهم قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس ؛ سموا حمسا لأنهم تحمسوا في دينهم ، أي تشددوا . (٣) راجع ج ٢ ص ٣٤٥ طبعة ثانية .

بالحج» . قال الكِيَا الطبرى: وهذا بعيد؛ فإنه إذا ورد فى شرعه: «وللهِ عَلَى النَاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» فلا بدّ من وجوبه عليه بحكم الخطاب فى شرعه . ولئن قيل: إنما خاطب من لم يحجّ ، كان تحكمًا وتخصيصا لا دليل عليه، ويلزم عليه ألّا يجب بهذا الخطاب على من حجّ على دِين إبراهيم ، وهذا فى غاية البُعْد .

الثانيــــة — ودلّ الكتاب والسُّنةُ على أن الحج على التَّراخى لا على الفَوْر؛ وهو تحصيل مذهب مالكٍ فيما ذكر ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد، وهو قول الشافعىّ ومحمد بن الحسن وأبى يوسف فى رواية عنه . وذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المالكيين إلى أنه على الفور، ولا يجوز تأخيره مع القُدرة عليـه ؛ وهو قول داود . والصحيح الأول ؛ لأن الله تعالى قال فى سـورة الحج : «وَأَذِّنْ فى النَّاس بالحج يأتُوكَ رِجالًا» وسورة الحج مكية . وقال تعالى: «ولِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البيت» الآية . وهذه الآية نزلت عام أُحُد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سنة عشر . أما السُّنّة فحديث ضِمَام بن ثعلبة السَّعدىّ من بنى سعد بن بَكْر قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن الإسلام فذكر الشَّهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج . رواه ابن عباس وأبو هريرة وأنس، وفيهـا كلها ذِكر الحج، وأنه كان مفروضا، وحديث أنس أحسنها سياقا وأتمها . واختُلف فى وقت فرضيته؛ فقيل: سنة خمس . وقيل: سنة سبع . وقيل: سنة تسع ؛ ذكره ٱبن هشام عن أبى عُبيدة الواقدىّ عامَ الخَنْدق بعد ٱنصراف الأحزاب . قال ابن عبد البر : ومن الدليل على أن الحج على التراخى إجماعُ العلماء على ترك تَفْسِيق القادر على الحج إذا أخّره العامَ والعامين ونحوهما، وأنه إذا حج من بعـد أعوامٍ من حين استطاعته فقـد أدّى الحج الواجبَ عليـه فى وقته . وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاةُ حتى خرج وقتُهـا فقضاها بعد خروج وقتها ، ولا كمن فاته صيام رمضان لمرض أو سـفر فقضاه ، ولا كمن أفسد حجه فقضاه . فلما أجمعوا على أنه لا يقـال لمن حجّ بعد أعوام من وقت استطاعته : أنت قاضٍ لِمَـا وجب عليـك ؛ عَلِمنا أن وقت الحج مُوَسَّع فيـه وأنه على التراخى لا على الفور . قال أبو عمر : كل من قال بالتراخى لا يحُدُّ فى ذلك حدًّا؛ إلا ما رُوى عن سُحْنُون وقد سئل عن الرجل

يجد ما يحجّ به فيؤخر ذلك إلى سنين كثيرة مع قدرته على ذلك هل يُفسَّق بتأخيره الحجّ وتُرَدّ شهادتُه ؟ قال : لا وإن مضى من عمره ستون سنة ، فاذا زاد على الستين فُسِّق ورُدّت شهادته . وهذا توقيف وحدّ ، والحدودُ فى الشرع لا تُؤخذ إلا عمّن له أن يُشرّع .

قلت : وحكاه ابن خُوَيْزِمَنْداد عن ابن القاسم . قال ابن القاسم وغيره : إن أخّره ستين سنة لم يحرج[1] ، وإن أخره بعد الستين حَرِج ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وقلّ من يتجاوزها " فكأنه فى هذا العشر قد يتضايق عليه الخطاب . قال أبو عمر : وقد يحتجّ بعضُ الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : " مُعْتَرَك أمّتى من الستين إلى السبعين وقلّ من يجاوز ذلك " . ولا حُجّة فيه ؛ لأنه كلام خرج على الأغلب من أعمار أمّته لو صح الحديث . وفيه دليل على التَّوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضا ، ولا ينبغى أن يقطع بتفسيق من صَحّت عدالته وأمانته بمثل هذا من التأويل الضعيف . وبالله التوفيق .

الثالثـــة — أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ عامٌّ فى جميعهم مُسترسل على جُملتهم . قال ابن العربىّ : « وإن كان الناس قد اختلفوا فى مطلق العمومات ، بَيْدَ أنهم ٱتفقوا على حمل هذه الآية على جميع الناس ذَكَرِهم وأُنثاهم ، خَلَا الصّغيرِ فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف ، وكذلك العبد لم يدخل فيه ؛ لأنه أخرجه عن مطلق العموم قولُه تعالى : « مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيهِ سَبِيلا » والعبد غير مستطيع ؛ لأن السّيّد يمنعه لحقوقه عن هذه العبادة . وقد قدّم الله سبحانه حقّ السيد على حقّه رِفقًا بالعباد ومصلحةً لهم . ولا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة ، فلا نَهْرِف[2] بما لا نَعرِف ، ولا دليل عليه إلا الإجماع » . قال ٱبن المُنْذر : أجمع عامّة أهل العلم إلا من شَذّ منهم ممن لا يعدّ خلافا على أن الصبىّ إذا حج فى حال صغره والعبد اذا حج فى حال رِقّه ثم بلغ الصبىّ وعَتق العبد كان عليهما حَجّة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلا . وقال أبو عمر : خالف أبو داود جماعةَ فقهاء الأمصار وأئمةَ الأثر فى المملوك وأنه عنده مخاطَب بالحج ، وهو عند جمهور العلماء خارجٌ من الخطاب العام فى قوله تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى

(١) حرج (من باب علم) : أثم . (٢) الهرف : شبه الهذيان من الإعجاب بالشىء .

النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» بدليل عدم التصرف، وأنه ليس له أن يحج بغير إذن سيّده؛ كما خرج من خطاب الجُمُعة وهو قوله تعالى: «يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» الآية — عند عامّة العلماء إلا من شذ. وكذا من خطاب إيجاب الشهادة، قال الله تعالى: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا» فلم يدخل فى ذلك العبدُ. وكما جاز خروج الصبىّ من قوله: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهو من الناس بدليل رفع القلم عنه. وخرجت المرأة من قوله: «يأيُّها الذين آمنُوا إذا نُودِىَ للصَّلاةِ» وهى ممن شَمِله ٱسم الإيمان، وكذلك خروج العبد من الخطاب المذكور. وهو قول فقهاء الحجاز والعراق والشام والمغرب، ومثلهم لا يجوز عليهم تحريف تأويل الكتاب. فإن قيل: إذا كان حاضرَ المسجد الحرام وأذِن له سيّدُه فلِمَ لا يلزمه الحج؟ قيل له: هذا سؤال على الإجماع وربما لا يُعلّل ذلك، ولكن إذا ثبت هذا الحكم على الإجماع استدللنا به على أنه لا يُعتدّ بحجّه فى حال الرقّ عن حِجّة الإسلام؛ وقد رُوى عن ٱبن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أيُّما صبىّ حجّ ثم أدرك فعليه أن يحجّ حِجّة أخرى وأيُّما أعرابىّ حجّ ثم هاجر فعليه أن يحج حِجّة أخرى وأيُّما عبد حج ثم اعتق فعليه أن يحجّ حِجّة أخرى". قال ٱبن العربىّ: «وقد تساهل بعض علمائنا فقال: إنما لم يثبت الحج على العبد وإن أذِن له السيد لأنه كان كافرا فى الأصل ولم يكن حجُّ الكافر معتدًّا به، فلما ضُرب عليه الرقّ ضربًا مؤبّدًا لم يُخاطب بالحج؛ وهذا فاسد من ثلاثة أوجه فاعلموه. أحدها — أن الكفار عندنا مخاطَبون بفروع الشريعة، ولا خلاف فيه فى قول مالك. الثانى — أن سائر العبادات تلزمه من صلاة وصوم مع كونه رقيقا، ولو فعلها فى حال كفره لم يُعتدّ بها، فوجب أن يكون الحج مثلها. الثالث — أن الكُفر قد ارتفع بالإسلام فوجب ارتفاع حكمه. فتبيّن أن المعتمد ما ذكرناه من تقدّم حقوق السيد». والله الموفق.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «مَن» فى موضع خفض على بدل البعض من الكل؛ هذا قول أكثر النحويين. وأجاز الكسائى أن يكون «من» فى موضع رفع بحِجّ، التقدير ان يحج البيت مَن. وقيل هى شرط. و «استطاع» فى موضع جزم، والجواب

محذوف، أى من استطاع إليه سبيلا فعليه الحج . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله؟ الحج كلّ عام، قال : "لا بل حجة"؟ قيل : فما السبيل، قال : "الزاد والراحلة". ورواه عن أنس وابن مسعود وابن عمر وجابر وعائشة وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال فسئل عن ذلك فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أن تجد ظَهر بَعـير" . وأخرج حديثَ ابن عمر أيضا ابنُ ماجه فى سُننه ، وأبو عيسى الترمذىّ فى جامِعه وقال : «حديث حَسَن ، والعمل عليه عند أهل العلم أنّ الرجل إذا ملك زادا وراحلة وجب عليه الحج . وإبراهيم بن يزيد هو الخُوزى[(١)] المكىّ ، وقد تكلّم فيه بعض أهل الحديث من قِبَل حِفظِه» . وأخرجاه عن وَكيع والدَّارَقُطْنِيُّ عن سفيان بن سعيد قالوا : حدّثنا إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عبّاد عن ابن عمر قال : قام رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ما يوجب الحج؟ . قال : "الزاد والراحلة" قال : يا رسول الله ، فما الحاج؟ قال : "الشَّعِث التَّفِل"[(٢)] . وقام آخر فقال : يا رسول الله وما الحج؟ قال : "العَجُّ والثَّجُّ" . قال وكيع : يعنى بالعج العجيج بالتَّلبِية والثَّج نحر البُدْن؛ لفظ ابن ماجه . وممن قال إن الزاد والراحلة شرط فى وجوب الحج : عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وعبد الله بن عباس والحسن البصرى وسعيد بن جُبير وعطاء ومجاهد . وإليه ذهب الشافعىّ والثّورىّ وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحاق وعبد العزيز بن أبى سلمة وابن حبيب، وذكر عبدوس[(٣)] مثله عن سُحْنون . قال الشافعىّ : الاستطاعة وجهان : أحدهما أن يكون مستطيعا ببدنه واجدا من ماله ما يبلّغه الحج . والثانى أن يكون معضُوبا[(٤)] فى بدنه لا يثبت على مَرْكَبه وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه بأجرة وبغير أجرة ، على ما يأتى بيانه . أما المستطيع ببدنه فإنه يلزمه فرض الحج بالكتاب بقوله عز وجل : «مَن استطاع إليه سبيلا» . وأما المستطيع بالمال فقد لزمه فرض الحج بالسُّنة بحديث الخَثْعَمية على ما يأتى . وأما المستطيع بنفسه وهو القَوِىّ الذى لا تلحقه مشقّة غير محتملة

(١) هو أحد رجال سند حديث ابن عمر . (٢) الشعث : متلبد الشعر . والتفل : الذى قد ترك استعمال الطيب .
(٣) فى بعض الأصول : «ابن عبدوس» . (٤) المعضوب : الضعيف .

فى الركوب على الراحلة ؛ فان هذا إذا ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج بنفسه ، و إن عدم الزاد والراحلة أو أحدهما سقط عنه فرضُ الحج ؛ فان كان قادرا على المشى مُطيقا له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد فى طريقه بصنعةٍ مثل الخرز والحجامة أو نحوهما فالمستحب له أن يحجّ ماشياً رَجلاً كان أو امرأةً . قال الشافعى : والرجل أقلّ عُذراً من المرأة لأنه أقوى . وهذا عندهم على طريق الآستحباب لا على طريق الإيجاب . فأما إن قدر على الزاد بمسألة الناس فى الطريق كَرِهت له أن يحجّ لأنه يصير كَلًّا على الناس . وقال مالك بن أنس رحمه الله : إذا قَدَر على المشى ووجد الزاد فعليه فرض الحج ، و إن لم يجد الراحلة وقَدَر على المشى نُظر ؛ فإن كان مالكا للزاد وجب عليه فرض الحج ، و إن لم يكن مالكا للزاد ولكنه يقدر على كسب حاجته منه فى الطريق نُظر أيضا ؛ فإن كان من أهل المروءات ممن لا يكتسب بنفسه لا يجب عليه ، و إن كان ممن يكتسب كفايته بتجارة أو صناعة لزمه فرض الحج ، وهكذا إن كانت عادته مسألة الناس لزمه فرض الحج . وكذلك أوجب مالكٌ على المطيق المشى الحجّ ، و إن لم يكن معه زاد وراحلة . وهو قول عبد الله بن الزبير والشَّعْبِىّ وعكرمة . وقال الضحاك : إن كان شابًّا قويًّا صحيحا ليس له مال فعليه أن يؤجّر نفسه بأكله أو عقبه حتى يقضِى حجّه(١) . فقال له قائل : كلّف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو أن لأحدهم ميراثا بمكة أكان تاركه ؟ ! بل ينطلق إليه ولو حَبْوًا ، كذلك يجب عليه الحج . واحتج هؤلاء بقوله عز وجل : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا » أى مُشاةً . قالوا : ولأن الحج من عبادات الأبدان من فرائض الأعيان ، فوجب ألا يكون الزاد من شروط وجوبها ولا الراحلة كالصلاة والصيام . قالوا : ولو صح حديث الخُوزِىّ الزاد والراحلة لحملناه على عموم الناس والغالب منهم فى الأقطار البعيدة . وخروج مطلق الكلام على غالب الأحوال كثيرٌ فى الشريعة وفى كلام العرب وأشعارها . وقد روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب عن مالك أنه سئل عن هذه الآية فقال : الناس فى ذلك

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل . والذى فى تفسير الطبرى : « بأكله وعقبه حتى ... » . وفى تفسير الفخر الرازى والبحر لأبى حيان : « ... بأكله حتى ... » .

على قدر طاقتهم و يُسرهم وجَلَدهم . قال أشهبُ لمالكٍ : أهو الزاد والراحلة؟ . قال : لا والله، ما ذاك إلا على قدر طاقة الناس، وقد يجد الزادَ والراحلة ولا يقدر على السير، وآخر يقدر أن يمشى على رجليه .

الخامســـة — إذا وُجدت الاستطاعة وتوجّه فرضُ الحج فعَرض مانع كالغريم يمنعه عن الخروج حتى يؤدّىَ الدَّين؛ ولا خلاف فى ذلك . أو يكون له عِيَال يجب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكوِّن لهم نفقتهم مدّةَ غيبته لذهابه ورجوعه، لأن هـذا الإنفاق فرض على الفَوْر والحجّ فرضٌ على التّراخى فكان تقديم العيال أوْلى . وقـد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كَفَى بالمرء إثما أن يُضيِّع من يقوت" . وكذلك الأَبَوَان يخاف الضيعةَ عليهما وعَدَم العوضِ فى التلطّف بهما ، فلا سبيل له إلى الحج ؛ فإن مَنَعاه لأجل الشّوق والوَحْشة فلا يُلتفت إليه . والمرأة يمنعها زوجها، وقيل لا يمنعها . والصحيح المنع ؛ لا سيما إذا قلنا إن الحج لا يلزم على الفَوْر. والبحر لا يمنع الوجوب إذا كان غالبه السلامة — كما تقدّم بيانه فى البقرة[1] — ويَعلم من نفسه أنه لا يَمِيد[2] . فإن كان الغالب عليه العَطَب أو المَيْد حتى يعطل الصلاة فلَا . و إن كان لا يجد موضعا لسجوده لكثرة الراكب وضيق المكان فقد قال مالك : إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه فلا يركبه . ثم قال : أيركب حيث لا يُصلِّى ! ويلٌ لمن ترك الصلاة ! . ويسقط الحج إذا كان فى الطريق عدوّ يطلب الأنفس أو يطلب من الأموال ما لم يتحدّد بحدّ مخصوص أو يتحدّد بقـدر مُجْحِف . وفى سقوطه بغير المُجْحف خلاف . وقال الشافعىّ : لا يعطى حبة ويسقط فرض الحج . ويجب على المتسوّل إذا كانت تلك عادته وغلب على ظنه أنه يجد من يعطيه . وقيل لا يجب، على ما تقدّم من مراعاة الاستطاعة .

السادســـة — إذا زالت الموانع ولم يكن عنده من النّاضّ[3] ما يحجّ به وعنده عُروض فيلزمه أن يبيع من عُروضه للحج ما يُباع عليه فى الدَّين . وسئل ابن القاسم عن الرجل تكون له القِرْبة

---

(١) راجع حـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية .
(٢) المائد : الذى يركب البحر فتغثى نفسه من نتن ماء البحر حتى يدار به و يكاد يغشى عليه .
(٣) الناض : الدراهم والدنانير .

ليس له غيرُها أيبيعها فى حجة الإسلام و يترك ولده ولا شىء لهم يعيشون به . قال : نعم ، ذلك عليه ويترك ولده فى الصدقة . والصحيح القول الأول ؛ لقوله عليه السلام : "كفى بالمرء إثمـا أن يُضيّع من يقوت" وهو قول الشافعى . والظاهر من مذهبه أنه لايلزم الحج إلا من له ما يكفيه من النفقة ذاهبا وراجعا — قاله فى الإملاء — و إن لم يكن له أهل وعيال . وقال بعضهم : لا يعتبر الرجوع لأنه ليس عليه كبير مشقة فى تركه القيام ببلده ؛ لأنه لا أهل له فيه ولا عيال وكلُّ البلاد له وطن . والأوّل أصوب ؛ لأن الإنسان يستوحش لفراق وطنه كما يستوحش لفراق سكنه . ألا ترى أن البِكر إذا زنا جُلد وغُرّب عن بلده سواء كان له أهل أولم يكن . قال الشافعىّ فى الأمّ : إذا كان له مسكن وخادم وله نفقة أهله بقدر غيبته يلزمه الحج . وظاهر هذا أنه اعتبر أن يكون مال الحج فاضلا عن الخادم والمسكن ؛ لأنه قدّمه على نفقة أهله ، فكأنه قال : بعد هذا كله . وقال أصحابه : يلزمه أن يبيع المسكن والخادم و يَكْتَرِى مسكنا وخادما لأهـله . فإن كان له بضاعة يتجربهـا و ربحها قدر كفايته و كفاية عياله على الدوام ، ومتى أنفق من أصل البضاعة اختلّ عليه ربحها ولم يكن فيه قدر كفايته ، فهل يلزمه الحج من أصل البضاعة أم لَا ؛ قولان : الأوّل للجمهور وهو الصحيح المشهور ؛ لأنه لا خلاف فى أنه لو كان له عَقار تكفيه غلّته لزمه أن يبيع أصل العَقار فى الحج ، فكذلك البضاعة . وقال ابن شُريح : لا يلزمه ذلك و يُبقى البضاعة ولا يحج من أصلها ؛ لأن الحج إنما يجب عليه فى الفاضل من كفايته . فهذا الكلام فى الاستطاعة بالبدن والمـال .

السابعـــة — المريض والمعْضُوب ، والعضب القطع ومنه سُمّى السيف عَضْبًا ، وكأنّ من انتهى إلى ألّا يقدر أن يستمسك على الراحلة ولا يثبت عليها بمنزلة من قُطعت أعضاؤه إذ لا يقدر على شىء . وقد اختلف العلماء فى حكمهما بعد إجماعهم أنه لا يلزمهما المسير إلى الحج ؛ لأن الحج إنما فرضه الله على المستطيع إجماعا ، والمريض والمعضوب لا استطاعة لهما . فقال مالك : إذا كان معضُوبًا سقط عنـه فرض الحج أصلا ، سواء كان قادرا على من يحجّ عنه بالمـال أو بغير المـال لا يلزمه فرض الحج . ولو وجب عليـه الحج ثم عُضِب وزَمِن سقط عنـه فرض الحج ؛

ولا يجوز أن يُحجّ عنه فى حال حياته بحال ، بل إن أوْصى أن يُحجّ عنه بعد موته حُجّ عنه من الثلث، وكان تطوعا، واحتج بقوله تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى . فمن قال : إن له سَعى غيره فقد خالف ظاهر الآية . و بقوله تعالى : «وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهذا غير مستطيع ؛ لأن الحج هو قصد المكلّف البيتَ بنفسه، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة مع العجز عنها كالصلاة . وروى محمد بن المُنْكَدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل ليُدخل بالحِجّة الواحدة ثلاثةً الجنةَ الميتَ والحاجّ عنه والمنفذَ ذلك " . خرّجه الطبرانى أبو القاسم سليمان بن أحمد قال حدثنا عمرو بن[1] حصين السَّدوسى قال حدثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر، فذكره .

قلت : أبو معشر اسمه نَجيح وهو ضعيف عندهم . وقال الشافعىّ : فى المريض الزَّمِن والمعضوب والشيخ الكبير يكون قادرا على من يعطيه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطيع استطاعةً مّا . وهو على وجهين : أحدهما أن يكون قادرا على ما يستأجر به مَن يحج عنه فإنه يلزمه فرض الحج، وهذا قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، رُوى عنه أنه قال لشيخ كبير لم يَحُجّ : جهّزْ رجلا يحجّ عنك . و إلى هذا ذهب الثَّورى وأبو حنيفة وأصحابه وابن المبارك وأحمد و إسحاق . والثانى أن يكون قادرا على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحجّ عنه، وهذا أيضا يلزمه الحج عند الشافعىّ وأحمد وابن راهْوَيه، وقال أبو حنيفة : لا يلزم الحج ببذل الطاعة بحال . استدل الشافعىّ بما رواه ابن عباس أن امرأة من خَثْعم سألتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله، إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبِى شيخًا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحجّ عنه ؟ قال : "نعم" . وذلك فى حجة الوداع . فى رواية : لا يستطيع أن يستوىَ على ظهر بعيره . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " فحُجِّى عنه أرأيتِ لو كان على أبيك دَيْنٌ أكنتِ قاضِيَته " ؟ قالت نعم . قال : " فدَيْن الله أحق أن يقضى " . فأوجب النبىّ صلى الله عليه وسلم الحج بطاعة ابنته إياه و بذلها من نفسها له بأن تحجّ عنه ؛ فإذا وجب ذلك

(١) فى بعض الأصول : « عمر بن حفص » .

بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المـال الذى يستأجر به أولى . فأما إن بذل له المـال دون الطاعة فالصحيح أنه لا يلزمه قبوله والحج به عن نفســه ولا يصير ببذل المـال له مستطيعا . وقال علماؤنا : حديث الخثعمية ليس مقصـودُه الإيجابَ وإنمـا مقصوده الحثّ على برّ الوالدين والنظر فى مصالحهما دُنْيا ودِينًا وجلب المنفعة إليهما جِبِلّة وشرعا؛ فلما رأى من المرأة انفعالا وطواعيــة ظاهرة ورغبةً صادقة فى بِرّها بأبيها وحرصًا على إيصال الخير والثواب إليــه، وتأسّفت أن تفوته بركة الحج أجابها إلى ذلك . كما قال للأخرى التى قالت : إن أُمّى نذرت أن تحجّ فلم تحجّ حتى ماتت أفأحجّ عنها ؟ قال : " حُجّى عنها أرأيتِ لو كان على أمّك دَين أكنتِ قاضيتَه " ؟ قالت نعم . ففى هــذا ما يدل على أنه من باب التطوّعات وإيصـال البرّ والخيرات للأموات . ألَا ترى أنه قد شـبّه فعلَ الحج بالدَّين . وبالإجمـاع لو مات ميّت وعليه دَين لم يجب على وَلِيّه قضـاؤه من ماله ، فإن تطوّع بذلك تأدّى الدَّين عنه . ومن الدليل على أن الحج فى هــذا الحديث ليس بفرض على أبيهـا ما صرّحت به هــذه المرأة بقولها « لا يستطيع » ومن لا يستطيع لا يجب عليه . وهــذا تصريح بنفى الوجوب ومنع الفريضة؛ فلا يجوز ما انتفى فى أوّل الحديث قطعا أن يثبت فى آخره ظَنًّا . يحققه قوله : "فدَين الله أحقّ أن يقضى" فإنه ليس على ظاهره إجماعا؛ فإن دَين العبد أولى بالقضاء، وبه يبدأ إجماعا لفقر الآدمىّ واستغناء الله تعالى؛ قاله ابن العربىّ . وذكر أبو عمر بن عبد البر أن حديث الخثعمية عند مالك وأصحابه مخصوصٌ بها . وقال آخرون : فيه اضطراب . وقال ابن وهب وأبو مصعب : هو حق فى الولد خاصّةً . وقال ابن حبيب : جاءت الرخصة فى الحج عن الكبير الذى لا مُنْهض له ولم يحج وعمن مات ولم يحج أن يحج عنه ولده وإن لم يُوصِ به ويجزئه إن شاء الله تعـالى . فهذا الكلام على المعضوب وشبهه . وحديثُ الخثعمية أخرجه الأئمة، وهو يرد على الحسن قولَه : إنه لا يجوز حجّ المرأة عن الرجل .

الثامنــة — وأجمع العلماء على أنه إذا لم يكن للمكلف قوت يتزوّده فى الطريق لم يلزمه الحج . وإن وهب له أجنبى مالًا يحجّ به لم يلزمه قبوله إجماعا؛ لمـا يلحقه من المِنّة فى ذلك . فلو كان رجل وهب لأبيه مالًا فقد قال الشافعىّ : يلزمه قبوله؛ لأن ابن الرجل من كسبه ولا مِنّة عليه

فى ذلك . وقال مالك وأبو حنيفة : لا يلزمه قبوله ؛ لأن فيه سقوط حرمة الأبوة ، إذ يقال : قد جَزَاه وقد وفاه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس وغيره : المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا . وقال الحسن البصرى وغيره : إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . وروى الترمذى عن الحارث عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ملك زادا وراحلة تُبَلِّغه إلى بيت الله ولم يحجّ فلا عليه أن يموت يهوديًّا أو نصرانيًّا وذلك أن الله يقول فى كتابه وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِليه سبيلا " . قال أبو عيسى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى إسناده مَقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث يُضعَّف » . وروى نحوه عن أبى أمامة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . وعن عبد الله بن جُبير عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته : " يأيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء إن شاء يهوديًّا أو نصرانيا أو مجوسيًّا إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائر لا نصيب له فى شفاعتى ولا وُرودِ حَوْضى " . وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلّغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحلّ فيه الزكاة فلم يزكّه سأل عند الموت الرجعة " . فقيل يا بن عباس إنا كنا نرى هذا للكافرين . فقال : أنا أقرأ عليكم به قرآنا « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » . قال الحسن بن صالح فى تفسيره : فأزكّى وأحجّ . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله عن الآية فقال : " من حج لا يرجو ثوابا أو جلس لا يخاف عقابا فقد كفر به " . وروى عن قتادة عن الحسن قال قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى الأمصار فينظرون إلى مَن كان له مال ولم يحجّ فيضربون عليه الجزية ؛ فذلك قوله تعالى : « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

قلت : هذا خرج مخرج التغليظ؛ ولهذا قال علماؤنا : تضمّنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجّه عليه، ولا يجزئ أن يحجّ عنه غيره؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد . والله أعلم . وقال سعيد بن جُبير : لو مات جارٌ لى وله مَيْسرة ولم يحج لم أصلّ عليه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى تصرفون عن دين الله من آمن . وقرأ الحسن تُصِدون « ضم التاء وكسر الصاد » وهما لغتان : صَدّ وأصَدّ؛ مثل صدّ اللحم وأصدّ إذا أنتن . وخَمّ وأخَمّ أيضا إذا تغيّر . ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ تطلبون لها، فحذف اللام؛ مثل «وَإِذَا كَالُوهُمْ» . يقال : بغيت له كذا أى طلبته . وأبغيت له كذا أى أعنته . والعِوَج : المَيْل والزَّيغ (بكسر العين) فى الدِّين والقول والعمل وما خرج عن طريق الاستواء . و(بالفتح) فى الحائط والجدار وكل شخص قائم؛ عن أبى عبيدة وغيره . ومعنى قوله تعالى : « يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ » أى لا يقدرون بألّا يَعُوجُوا عن مكان . وعاج بالمكان وعوّج أقام ووقف . والعائج الواقف؛ قال الشاعر :

هـــل أنتم عائجون بنـا لعنّا[1] * نرى العَرَصاتِ[2] أو أثَرَ الخيام

والرجل الأعوج : السّيء الخلق، وهو بيّن العَوَج . والعُوج من الخيل التى فى أرجلها تَحْنِيب . والأعْوَجيّة من الخيل تُنسب إلى فرس كان فى الجاهلية سابقا . ويقال : فرسٌ مُحَنَّب إذا كان بعيد ما بين الرجلين بغير فَحَج؛ وهو مَدْحٌ . ويقال : الحَنَب اعوجاجٌ فى السَّاقَين . قال الخليل التَّحْنيب يوصف فى الشدة، وليس ذلك باعوجاج .

---

(١) لعنا : لغة فى لعل . (٢) العرصة : كل بقعة بين الدور ليس فيها بناء . وعرصة الدار : وسطها .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ أى عقلاء . وقيل : شهداء أنّ فى التوارة مكتوبا أن دين الله الذى لا يُقبل غيره الإسلام، إذ فيه نعتُ محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠) ﴾

نزلت فى يهودىّ أراد تجديدَ الفتنة بين الأَوْس والخَزْرَج بعد انقطاعها بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، فجلس بينهم وأنشدهم شِعْرًا قاله أحدُ الحَيَّين فى حربهم . فقال الحَىّ الآخر : قد قال شاعرنا فى يوم كذا وكذا ، فكأنهم دخلهم من ذلك شىء ، فقالوا : تعالَوْا نَرُدُّ الحربَ جَذَعًا كما كانت . فنادى هؤلاء : يا آلَ أَوْس . ونادى هؤلاء . يا آلَ خَزْرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية؛ فجاء النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى وقف بين الصّفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أَنْصَتوا له وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السّلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون؛ عن عكرمة وابن زيد وابن عباس . والذى فعل ذلك شاس بن قيس اليهودىّ، دَسّ على الأَوْس والخَزْرج من يذكّرهم ما كان بينهم من الحروب، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أتاهم وذكّرهم، فعرف القوم أنها نَزْغةٌ من الشيطان ، وكَيْدٌ من عدوّهم؛ فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم سامعين مُطيعين؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى الأوس والخزرج . ﴿ إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يعنى شاسًا وأصحابه . ﴿ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ قال جابر بن عبد الله : ما كان طَالعٌ أكرهَ إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأومأ إلينا بيده فكَفَفنا وأصلح الله تعالى ما بيننا؛ فما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيتُ يوما أقبحَ ولا أَوْحَش أولًا وأحسنَ آخرًا من ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾

قاله تعالى على جهة التعجب ، أى وكيف تكفرون . ﴿ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كان بين الأَوْس والخَزْرَج قتالٌ وشرٌّ فى الجاهلية، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيوف؛ فأُتِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم فذُكر ذلك له فذهب إليهم ؛ فنزلت هذه الآية « وَكَيْفَ تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ الله وفيكم رسوله — إلى قوله تعالى : فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ويدخل فى هذه الآية مَن لم يَرَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم؛ لأن ما فيهم من سُنّته يقوم مقام رؤيته. قال الزجّاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصةً؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه . ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآنَ الذى أوتىَ فِينا مكانَ النبىّ صلى الله عليه وسلم فِينا وإن لم نشاهده. وقال قَتادة : فى هذه الآية عَلَمان بيّنان : كتابُ الله ونبىّ الله؛ فأما نبىّ الله فقد مضى، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً؛ فيه حلالُه وحرامُه، وطاعته ومعصيته. ﴿وكيفَ﴾ فى موضع نصب، وفتحت الفاء عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين، وٱختِير لها الفتح لأن ما قبل الفاء ياء فثَقُل أن يجمعوا بين ياء وكسرة. قوله : ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ أى يمتنع و يتمسّك بدينه وطاعته. ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ وُفّق وأرشد ﴿ إلى صِراطٍ مستقيم ﴾ . ابن جُريج « يَعتصم بِاللهِ » يؤمن به . وقيل : المعنى ومن يعتصِم بِاللهِ أى يتمسّك بحبل الله، وهو القرآن . يقال : أعصم به واعتصم، وتمسّك واستمسك إذا امتنع به من غيره . واعتصمت فلانا هيّأتُ له ما يَعتصِم به . وكل متمسّك بشىء مُعصِم ومُعتصِم . وكلُّ مانعٍ شيئا فهو عاصم؛ قال الفرزدق :

أنا ابن العاصمين بَنِى تَميم * إذا ما أَعْظَمُ الحـدَثانِ نَابَا

قال النابغـــة :

يَظَلّ من خوفه المَلّاح معتصِمًا * بالخَيزُرانة بعد الأَيْنِ والنَّجَدِ[1]

(١) الخيزرانة : السُّكّان، وهو ذنب السفينة . والنجد (بالتحريك) : العرق من عمل أو كرب أو غيره .

وقال آخر[1] :

فأَشرطَ فيها نفسَه وهو مُعصِمٌ * وألقى بأسبابٍ له وتوكّلا

وعصمه الطعامُ: منع الجوعَ منه؛ تقول العرب : عَصَمه الطعامُ أى منعه من الجوع؛ فكَنّوا السَّوِيق بأبى عاصم لذلك . قال أحمد بن يحيى : العرب تُسمّى الخبز عاصما وجابرا ؛ وأنشد:

فلا تلوميني ولُومِى جابِرًا * فجابرٌ كلّفني الهواجِرا

ويُسمّونه عامرا . وأُنشد :

أبو مالك يعتادنِى بالظّهائر * يجىء فيُلقى رحلَه عند عامِر

أبو مالك كنية الجوع .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١٠٢)

فيه مسألة واحدة :

روى النحاس عن مُرّة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حقّ تقاته » أن يطاع فلا يُعْصَى وأن يُذكَر فلا يُنْسَى وأن يُشكر فلا يُكفر" . وقال ابن عباس : هو ألا يُعصَى طَرْفة عَيْن . وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله، من يَقْوَى على هذا؛ وشقّ عليهم فأنزل الله عز وجل « فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ » ونسخت هذه الآيةَ ؛ عن قَتادة والرّبيع وابن زيد . قال مقاتل : وليس فى آل عمران من المنسوخ شىء إلا هذه الآية . وقيل : إن قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » بيانٌ لهذه الآية . والمعنى : فاتّقوا الله حق تُقاته ما استطعتم ، وهذا أصوب ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أَوْلَى . وقد روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قول الله « يَاأَيُّها الذين آمنوا اتقوا اللهَ حَقّ تُقاته » لم تُنسخ ، ولكن « حقّ تُقاته » أن يُجاهد فى الله حقّ

(١) هو أوس بن حجر ؛ كما فى اللسان مادة « عصم » .

جهاده ، ولا تأخذكم فى الله لومةُ لائم ، وتقُـوموا بالقِسط ولو على أنفسكم وأبْنـائكم . قال النحاس : وكلما ذُكر فى الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ . وقد مضى فى البقرة معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا ﴾ العِصْمة المَنَعة، ومنه يقال للبَذْرَقة : عِصْمةٌ . والبَذْرَقة : الخفارة للقافلة ، وذلك بأن يرسل معها من يحميها ممن يؤذيها . قال ابن أبى خالَوَيْه : البَذْرَقة لست بعربية وإنما هى كلمة فارسيّة عرّبتها العرب ؛ يقال : بعث السلطان بَذْرَقه مع القافلة .

والحبل لفظ مشترك ، وأصله فى اللغة السّبب الذى يوصل به إلى البُغْية والحاجة . والحبل : حبل العاتق(٢) . والحبل : مستطيل من الرمل؛ ومنه الحديث : والله ما تركتُ من حَبْل إلا وقفت عليه ، فهل لى مِن حج ؛ والحبل الرّسَنُ . والحبل العَهْد . قال الأعشى :

وإذا تُجَـوِّزها حِبالُ قبيـلةٍ * أخذَت من الأخرى إليك حِبالَها

يريد الأمان . والحِبْل الداهية ؛ قال كُثَيِّر(٣) :

فلا تعْجَلى يا عَزّ أن تتفهّـمِى * بنُصح أتى الواشون أم بحُبُول

(١) راجع ﺟ ٢ ص ١٣٤ طبعة ثانية . (٢) حبل العاتق : عصبة بين العنق والمنكب .

(٣) فى الأصول : «لبيد» . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس مادة « حبل » .

والحبال : حبال الصائد . وكلها ليس مرادا فى الآية إلا الذى بمعنى العهد ؛ عن ابن عباس .
وقال ابن مسعود : حبلُ الله القرآنُ . ورواه علىّ وأبو سعيد الخُدرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك . وأبو معاوية عن الهَجَرى (١) عن أبى الأحوص عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن هو حبل الله " . وروى تقىّ بن مَخْلد حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هُشيم عن العوّام بن حوشَب عن الشعبىّ عن عبد الله بن مسعود « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا » قال : الجماعة؛ وروى عنه من وجوه، والمعنى كله متقارب متداخل ؛ فإن الله تعالى يأمر بالألْفة وينهى عن الفُرقة فإن الفرقة هَلَكَةٌ والجماعةَ نجاة . ورحم الله ابن المبارك حيث قال :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا * منه بعُروته الوُثْقَى لمن دانا

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ كما افترقت اليهود والنصارى فى أديانهم ؛ عن ابن مسعود وغيره . ويجوز أن يكون معناه ولا تفرّقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا فى دِين الله إخوانا؛ فيكون ذلك منعًا لهم عن التقاطع والتدابر . ودلّ عليه ما بعده وهو قوله تعالى : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » . وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف فى الفروع ؛ فإن ذلك ليس اختلافا إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معانى الشرع ؛ وما زالت الصحابة يختلفون فى أحكام الحوادث ، وهم مع ذلك متآلفون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اختلاف أُمّتى رحمة " وإنما منع الله اختلافا هو سبب الفساد . روى الترّمذىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة أو اثنتين وسبعين فِرقة والنصارى مثلَ ذلك وتفرّقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة " . قال الترمذى : هذا حديث صحيح . وأخرجه أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليأتينّ على أمتى ما أتى

---

(١) الهجرى : بهاء وجيم مفتوحتين، نسبة الى هجر . وهو ابراهيم ابن مسلم العبدى . (عن تهذيب التهذيب).

على بنى إسرائيل حَذْو النَّعل بالنّعل حتى لو كان منهم من يأتى أمّة علانية لكان من أمتى من يصنع ذلك و إن بنى إسرائيل تفرّقت اثنتين وسبعين مِلة وتفترق أمّتى على ثلاث وسبعين مِلّة كلهم فى النار إلا مِلّة واحدة " قالوا : من هى يارسول الله ؟ قال : " ما أنا عليه وأصحابى " . أخرجه من حديث عبد الله بن زياد الأفريقى عن عبـد الله بن يزيد عن ابن عمر ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قال أبو عمر : وعبد الله الأفريقى ثِقة وثّقه قومُه وأثنوا عليه ، وضعفه آخرون . وأخرجه أبو داود فى سننه من حديث معاوية بن أبى سفيان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " قال ألَا إنّ من قبلكم مِن أهـل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين مِلّة و إن هـذه المِلة ستفترق على ثلاث وسـبعين ثنتان وسبعون فى النـار وواحدةٌ فى الجنة وهى الجماعة و إنه سيخرج من أمتى أقوام تجارَى بهم تلك الأهواءُ كما يتجارى الكَلَب(١) بصاحبه لا يَبْقَى منه عِرق ولا مِفصل إلا دخله " . وفى سنن ابن ماجه « عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة مات واللهُ عنه راض " . قال أنس : وهو دِين الله الذى جاءت به الرّسـل وبلّغوه عن ربّهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديقُ ذلك فى كتاب الله فى آخر ما نزل، يقول الله : « فَإِنْ تَابُوا » قال : خَلعوا الأوثان وعبادتهـا « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ » ، وقال فى آية أخرى : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ » . أخرجه عن نصر بن على الجَهْضَمِىّ عن أبى أحمـد عن أبى جعفر الرّازىّ عن الربيع بن أنس عن أنس . قال أبو الفرج الجَوْزىّ : فإن قيل هـذه الفرق معروفة؛ فالجواب أنا نعرف الافتراق وأصول الفِرَق وأن كل طائفة من الفِرق انقسمت إلى فرق و إن لم نحط بأسمـاء تلك الفرق ومذاهبها، فقد ظهر لنا من أصول الفِرَق الحَرُورِيّة والقَدَرِيّة والجَهْمِيّة والمُرْجِئة والرافضة والجَبْرِية .وقال بعض أهل العلم : أصل الفرق الضالة هذه الفرقُ الستّ، وقد انقسمت كل فرقة منها اثنتى عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة .

(١) الكلب (بالتحريك) : داء يعرض للانسان من عض الكلب الكَلِب فيصيبه شبه الجنون ، فلا يعض أحدا إلا كَلِب ، وتعرض له أعراض رديئة ، و يمتنع من شرب المـاء حتى يموت عطشا .

انقسمت الحَرُورِيّة اثنتى عشرة فرقة ؛ فأوّلهم الأَزْرَقِيّة(١) — قالوا : لا نعلم أحدا مؤمنا ؛ وكفّروا أهل القِبْلة إلّا مَن دان بقولهم . والأباضية — قالوا : من أخذ بقولنا فهو مؤمن ، ومن أعرض عنه فهو منافق . والثعلبيّة — قالوا : إن الله عز وجل لم يقض ولم يُقَدِّر . والحازِميّة — قالوا : لا ندرى ما الإيمان ، والخلق كلهم معذورون . والخَلَفِية — زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر وأنثى كفر . والكوزية(٢) — قالوا : ليس لأحد أن يمسّ أحدا لأنه لا يعرف الطاهر مِن النّجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب و يغتسل . والكَنزيّة — قالوا : لا يسع أحدا أن يُعطى ماله أحدا ؛ لأنه ربما لم يكن مستحقا بل يكنزه فى الأرض حتى يظهر أهل الحق . والشِّمراخِيّة — قالوا : لا بأس بمسّ النساء الأجانب لأنهم رياحين . والأَخْنَسية — قالوا : لا يلحق الميّت بعد موته خير ولا شر . والحكميّة — قالوا : مَن حاكم إلى مخلوق فهو كافر . والمُعْتَزِلة — قالوا : آشتبه علينا أمر علىّ ومعاوية فنحن نتبرّأ من الفريقين . والميمونية — قالوا : لا إمام إلا برضا أهلِ محبّتنا .

وآنقسمت القَدَرية اثنتى عشرة فرقة : الاحمرية — وهى التى زعمت أن فى شرط العدل من الله أن يملّك عباده أمورَهم ، ويحولَ بينهم وبين معاصيهم . والثّنَوِيّة — وهى التى زعمت أن الخير من الله والشرّ من الشيطان . والمعتزلة — وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا الرّبُوبِيّة . والكَيْسانية — الذين قالوا : لا ندرى هذه الأفعال من الله أو من العباد ، ولا نعلم أيثاب الناس بعدُ أو يعاقبون . والشيطانية — قالوا : إن الله تعالى لم يخلق الشيطان . والشّريكية — قالوا : إن السيئات كلها مقدّرة إلا الكفر . والوهمية — قالوا : ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات ، ولا للحسنة والسيئة ذات . والزِّبْرِيّة — قالوا : كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق ، ناسخا كان أو منسوخا . والمسعدية — زعموا أن من عصى ثم تاب

(١) لم نجد بعض أسماء هذه الفرق التى سيذكرها المؤلف فى كتب الكلام التى بين أيدينا ؛ ولذلك لم نوفق لتحرير هذا البعض. (٢) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة ففى بعض « الكورية » بواو وراء . وفى بعض : « الكروية » براء وواو .

لم تقبل توبته . والناكثية — زعموا أن من نكث بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا إثم عليه . والقاسطية — تبعوا إبراهيم بن النّظام فى قوله : من زعم أن الله شىء فهو ليس بكافر .

وانقسمت الجَهمِيّة اثنتى عشرة فرقة : المعطّلة — زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق، وأن من آدّعى أن الله يُرى فهو كافر . والمريسية — قالوا : أكثر صفات الله تعالى مخلوقة . والملتزقة — جعلوا البارى سبحانه فى كل مكان . والواردية — قالوا لا يدخل النار من عرف ربّه ، ومن دخلها لم يخرج منها أبدا . والزنادقة — قالوا : ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربّا؛ لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس، وما لا يُدرك لا يثبت . والحرقية — زعموا أن الكافر تحرقه النار مرّة ثم يبقى محترقا أبدا لا يجد حرّ النار . والمخلوقية — زعموا أن القرآن مخلوق . والفانية — زعموا أن الجنة والنـار يفنيان، ومنهم من قال لم يُخلقا . والعبدِية(١) — جحدوا الرسل وقالوا إنمـا هم حكماء . والواقِفية — قالوا : لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخـلوق . والقبرية — ينكرون عذاب القبر والشفاعة . واللفظية — قالوا : لفظُنا بالقرآن مخـــلوق .

وانقسمت المرجئة اثنتى عشرة فرقـة : التارِكية — قالوا : ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به، فمن آمن فليفعل ما شاء . والسايبية — قالوا : إن الله سيّب خلقه ليفعلوا ما شاءوا . والراجية — قالوا : لا يُسمّى الطائع طائعا ولا العاصى عاصيا، لأنّا لا ندرى ما له عند الله تعالى . والسالبية — قالوا : الطاعة ليست من الإيمـان . والبهيشية — قالوا : الإيمـان عِلْمٌ ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر . والعملية — قالوا : الإيمـان عمل . والمنقوصية — قالوا : الإيمـان لا يزيد ولا ينقص . والمستثنية — قالوا : الآستثناء من الإيمـان . والمشبِّهة — قالوا : بَصَرٌ كبصرٍ ويد كيدٍ . والحشوية — قالوا : حكم الأحاديث كلها واحد؛ فعندهم أن تارك النّفل كتارك الفرض . والظاهِرية — الذين نفوا القياس . والبِدْعية — أول من ابتدع الأحداث فى هذه الأمة .

(١) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة؛ ففى بعضها « العبرية » وفى بعضها الآخر « العسيرية » .

وانقسمت الرافضة اثنتى عشرة فِرقة : العَلَوِيّة — قالوا : إن الرسالة كانت إلى علىّ وإن جبريل أخطأ . والأمرية — قالوا : إن عليًّا شريك محمد فى أمره . والشيعة — قالوا : إن عليًّا رضى الله عنه وصِىّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ووَليُّه من بعده، وإن الأمة كفرت بمبايعة غيره . والإسحاقِية — قالوا : إن النبوّة متصلة إلى يوم القيامة، وكلّ مَن يعلم علم أهل البيت فهو نبىّ . والناووسية — قالوا : علىّ أفضل الأمّة، فمن فضّل غيره عليه فقد كفر . والإمامية — قالوا : لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين، وان الإمام يعلمه جبريل عليه السلام، فاذا مات بدّل غيره مكانه . والزيدِية — قالوا : ولد الحسين كلهم أئمة فى الصلوات، فمتى وُجد منهم أحد لم تجز الصلاةُ خلف غيرهم، برّهم وفاجرهم . والعباسية — زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره . والتناسخية — قالوا : الأرواح تتناسخ؛ فمن كان مُحسنًا خرجت روحه فدخلت فى خلق يسعد بعيشه . والرَّجعية — زعموا أن عليًّا وأصحابه يرجعون إلى الدنيا ، وينتقمون من أعدائهم . واللاعنة — يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشةَ وغيرَهم . والمتربّصة — تشبهوا بزِىّ النُّساك ونصّبوا فى كل عصر رجلا ينسُبون إليه الأمر ؛ يزعمون أنه مَهدِىُّ هذه الأمة ، فاذا مات نصّبوا آخر .

ثم انقسمت الجبرية اثنتى عشرة فرقة : فمنهم المضطربة — قالوا : لا فعل للآدمىّ ، بل الله يفعل الكل . والأفعالية — قالوا : لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها ، وإنما نحن كالبهائم نقاد بالحبل . والمفروغية — قالوا : كل الأشياء قد خُلقت، والآن لا يُخلق شىء . والنجارية — زعمت أن الله تعالى يعذّب الناس على فعله لا على فعلهم . والمنانية — قالوا : عليك بما يخطر بقلبك، فافعل ما توسمت منه الخير . والكسبية — قالوا : لا يكتسب العبد ثوابا ولا عقابا . والسابقية — قالوا : من شاء فليفعل ومن شاء لم يفعل، فإن السعيد لا تضرّه ذنوبه والشقىّ لا ينفعه برّه . والحبية — قالوا : من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان . والخوفية — قالوا : من أحبّ الله تعالى لم يسعه أن يخافه لأن الحبيب لا يخاف حبيبه . والفكرية[1] — قالوا : من ازداد علما سقط عنه بقدر ذلك من العبادة .

(١) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة؛ ففى بعض : « النكرية » بالنون، وفى بعض « الفركية » .

والحشبية[١] — قالوا : الدنيا بين العباد سواء، لا تفاضل بينهم فيما ورّثه أبوهم آدم . والمنية[٢] — قالوا : مِنّا الفعل ولنا الاستطاعة .

وسيأتى بيان الفرقة التى زادت فى هذه الأمة فى آخر سورة « الأنعام » إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس لسِمَاك الحنفى : يا حنفىّ ، الجماعةَ الجماعةَ ! ! فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرّقها؛ أما سمعت الله عز وجل يقول : « وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ويكره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرةَ السؤال وإضاعة المال “ . فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسُنّة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادا وعملا ؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشّتات الذى يتم به مصالح الدنيا والدّين، والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذى حصل لأهل الكتابين . هذا معنى الآية على التمام ، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور فى موضعه من أصول الفقه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ أمر تعالى بتذكر نعمه وأعظمها الإسلام واتباع محمد عليه السلام؛ فإنّ به زالت العداوة والفرقة وكانت المحبة والألفة . والمراد الأوْس والخزرج ؛ والآية تعم . ومعنى « فأصبحتم بنعمته إخوانا » أى صرتم بنعمة الإسلام إخوانا فى الدّين . وكلما فى القرآن « أصبحتم » معناه صرتم؛ كقوله تعالى : « إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا » أى صار غائرا . والإخوان جمع أخ، وسُمّىَ أخا لأنه يتوخى مذهبَ أخيه، أى يقصده . وشفا كلّ شىء حرفه، وكذلك شفيره؛ ومنه قوله تعالى : « وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ » . قال الراجز:

نحن حفرنا للحجيج سَجْلَه[٣] * نابتة فوق شِفاها بقله

---

(١) فى بعض الأصول : «الحشبية» بالحاء المهملة ، وفى بعض «الحيثية» بالياء المثناة من تحت والثاء المثلثة .

(٢) فى بعض الأصول : «المعية» بالعين . (٣) السجلة : الدلو الضخمة المملوءة ماء . والمراد هنا البئر .

وأشفى على الشيء أشرف عليه ؛ ومنه أشفى المريض على الموت . وما بقى منه إلا شفًا أى قليل . قال ابن السّكّيت : يقال للرجل عند موته وللقمر عند امّحاقه وللشمس عند غروبها : ما بقى منه إلا شفًا، أى قليل . قال العَجّاج :

وَمَرْبإٍ عالٍ لمن تشرّفا * أشرفتُه بلا شفًى أو بشَفَى

قوله « بلا شفى » أى غابت الشمس . « أو بشفى » وقد بقيت منها بقيّة . وهو من ذوات الياء ، وفيه لغة أنه من الواو . وقال النحاس : الأصل فى شفا شَفَو، ولهذا يكتب بالألف ولا يمال . وقال الأخفش : لمّا لم تجز فيه الإمالة عُرِف أنه من الواو؛ ولأن الإمالة بين الياء، وتثنيته شفوان . قال المَهْدَوِىّ : وهذا تمثيل يراد به خروجُهم من الكفر الى الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٤)

قد مضى القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى هذه السورة . و« مِن » فى قوله « مِنكم » للتبعيض . ومعناه أن الآمِرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء . وقيل : لبيان الجنس . والمعنى لتكونوا كلكم كذلك .

قلت : القول الأوّل أصح ؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عيّنهم الله تعالى بقوله : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ » الآية . وليس كل الناس مُكّنوا . وقرأ ابن الزبير : « وَلْتكن مِنكم أمّةٌ يدعون إلى الخيرِ ويأمرون بِالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عنِ المُنكرِ ويَستعينونَ اللهَ على ما أصابهم » . قال أبو بكر الأنبارى : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه غَلِط فيه بعض الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن؛ يدلّ على صحة ما أصف الحديثُ الذى حدّثنيه أبى حدّثنا ابن عرفة حدّثنا وَكيع عن أبى عاصم عن ابن عون عن صبيح قال : سمعت عثمان بن عفّان يقرأ «ويأمرون بِالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عنِ المنكرِ ويستعينونِ الله على ما أصابهم » فما يشكّ عاقل فى أن عثمان لا يعتقد هذه الزيادة من

القرآن ؛ إذ لم يكتبها فى مصحفه الذى هو إمام المسلمين ، و إنمـا ذكرها واعظًا بها ومؤكّدا ما تقدّمها من كلام رب العالمين جل وعلا .

قوله تعـالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

يعنى اليهود والنصارى فى قول جمهور المفسرين . وقال بعضهم : هم المبتدِعة من هذه الأمة . وقال أبو أمامة : هم الحَرُورِيّة؛ وتلا الآية . وقال جابر بن عبد الله : « الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَات » اليهود والنصـارى . « جاءهم » مذكر على الجمـع ، وجاءتهم على الجماعة .

قوله تعـالى : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعنى يوم القيامة . حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضّة ووجوه الكافرين مسـودّة . ويقال : إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى فى كتابه حسناته استبشر وابيضّ وجهه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته اسودّ وجهه . ويقال : إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته ابيض وجهه ، وإذا رجحت سيئاته اسودّ وجهه . ويقال : ذلك عند قوله : « وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » . ويقال : إذا كان يوم القيامة يؤمر كلّ فريق بأن يجتمع إلى معبوده فإذا انتهوا إليه حزِنُوا واسودّت وجوههم ، فيبقى المؤمنون وأهـل الكتاب والمنافقون؛ فيقول الله تعالى للمؤمنين : "مَن ربكم" ؟ فيقولون : ربّنا الله عزّ وجل . فيقول

لهم . "أتعرفونه إذا رأيتموه" . فيقولون : سبحانه ! إذا آعترف[1] عرفناه . فيرونه كما شاء الله . فيخرّ المؤمنون سُجَّدًا لله ، فتصير وجوهُهم مثلَ الثلج بياضا ، ويبقى المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرون على السجود فيحزَنوا وتسودّ وجوههم ؛ وذلك قوله تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » . ويجوز « تِبيضّ وتِسودّ » بكسر التائين ؛ لأنك تقول : ابيضت ، فتكسر التاء كما تكسر الألف . وهى لغة تميم وبها قرأ يحيي بن وثّاب . وقرأ الزُّهْرىّ « يوم تَبياض وتَسوادّ » ويجوز كسر التاء أيضا . ويجوز « يوم يبيض وجوه » بالياء على تذكير الجمع . ويجوز « أُجُوه » مثل أُقِّتَت . وآبيضاض الوجوه إشراقُها بالنعيم . وآسودادها هو مايرهقها من العذاب الأليم .

الثانية — واختلفوا فى التعيين ؛ فقال ابن عباس : تبيضّ وجوه أهلِ السُّنّة وتسودّ وجوه أهل البِدْعة .

قلت : وقول ابن عباس هذا رواه مالك بن سليمان الهَرَوِىّ أخو غسانَ عن مالك بن أنس عن نافع عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى« يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» قال : "يعنى تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة" ذكره محمد ابن علىّ بن ثابت الخطيب . وقال فيه : مُنْكَرٌ من حديث مالك . قال عطاء : تبيضّ وجوه المهاجرين والأنصار، وتسودّ وجوه بنى قُريظة والنَّضِير. وقال أبىّ بن كعب : الذين اسودت وجوههم الكفارُ، وقيل لهم : أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أخرجتم من ظهر آدم كالذّرّ. هذا اختيار الطبرى . الحَسَنُ : الآية فى المنافقين . قَتادةُ: فى المرتدين . عِكرمة : هم قوم من أهل الكتاب كانوا مصدّقين بأنبيائهم مصدِّقين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث فلما بعث عليه السلام كفروا به ؛ فذلك قوله : « أكفرتم بعد إيمانكم » . وهو اختيار الزجاج . مالك بن أنس : هى فى أهل الأهواء . أبو أُمامة الباهِلىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : هى فى الحَرُورِيّة . وفى خبر آخر أنه عليه السلام قال : " هى فى القَدَرية " . روى الترمذىّ عن

(١) هذه عبارة ابن الأثير ، أي اذا وصف نفسه بصفة نحققه بها عرفناه . وفى الأصول : اذا «عرّفتاه» .

أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رءوسًا منصوبةً على باب دمشق[1] ، فقال أبو أُمامة : كِلابُ النار شرُّ قتلَى تحت أديم السماء، خيرُ قتلَى مَن قتلوه — ثم قرأ — «يوم تبيضّ وجوهٌ وتَسودُّ وجوهٌ» الى آخر الآية . قلت لأبي أمامة : أنتَ سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا مرّةً أو مرّتين أو ثلاثا حتى عدّ سَبْعًا ما حدّثتكُمُوه . قال : هذا حديث حَسَن . وفي صحيح البخاريّ عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني فَرَطُكم[2] على الحوض مَن مرّ عليّ شرِب ومن شرِب لم يَظمأ أبدا لَيَرِدَنّ عليّ أقوام أعرِفهم ويعرِفوني ثم يُحال بيني و بينهم " . قال أبو حازم[3] : فسمعني النُّعمان بن أبي عيّاش فقال : هكذا سمعتَ من سهل بن سعد ؟ فقلت نعم . فقال : أَشهدُ على أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ لسمعْتُه وهو يزيد فيها : " فأقول إنهم مِنّي فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سُحْقًا سُحْقًا لمن غيّر بعدى " . وعن أبي هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يَرِد على الحوض يوم القيامة رَهْطٌ من أصحابي فيُجْلَوْن عن الحوض فأقول يا ربِّ أصحابي فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم آرتدّوا على أدبارهم القَهْقَرى " . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . فمن بدّل أو غيّر أو آبتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المُبعَدين منه المُسْوَدّي الوجوه ، وأشدّهم طَرْدًا و إبعادا من خالف جماعةَ المسلمين وفارق سبُلَهم ، كالخوارج على اختلاف فرقها والروافِض على تباين ضلالها والمعتزلة على أصناف أهوائها ؛ فهؤلاء كلهم مبدّلون ومبتدِعون . وكذلك الظَّلَمة المسرفون في الجَوْر والظُّلم وطَمْس الحق وقتْل أهله و إذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخِفّون بالمعاصي ، و جماعةُ أهل الزيغ والأهواء والبدع ؛ كلٌّ يخاف عليهم أن يكونوا عُنُوا بالآية ، والخبر كما بيّنّا . ولا يُخلّد في النار إلا كافرٌ جاحدٌ ليس في قلبه مِثقالُ حَبّة خَرْدَلٍ من إيمان . وقد قال ابن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شرٌّ من أهل الأهواء . وكان يقول : تمام الإخلاص تجنُّبُ المعاصي .

(١) في صحيح الترمذي : « على درَج مسجد دمشق » . (٢) الفرط (بفتحتين) : الذي يتقدّم الواردين ليصلح لهم الحياض . (٣) أبو حازم هو سلمة بن دينار ، أحد رجال سند هذا الحديث .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فيقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم ، يعنى يوم الميثاق وحين قالوا بلى . ويقال : هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث فلما بُعث كفروا به . وقال أبو العالية : هذا للمُنافقين ، يقال أكفرتم فى السِّر بعد إقراركم فى العلانية . وأجمع أهل العربية على أنه لا بدّ من الفاء فى جواب « أما » لأن المعنى فى قولك : « أما زيد فمنطلق » مهما يكن من شىء فزيد منطلق . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ هؤلاء أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهده . ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى فى جنته ودار كرامته خالدون باقون . جعلنا الله منهم وجنّبنا طريق البِدع والضلالات ، ووفّقنا لطريق الذين آمنو وعملوا الصالحات . آمين .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر ، يعنى القرآن . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ يعنى نُنزّل عليك جبريلَ فيقرؤها عليك . ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقال الزجاج : « تلك آيات الله » المذكورة حُجَجُ الله ودلائله . وقيل : « تلك » بمعنى هذه ولكنها لما ٱنقضت صارت كأنها بَعُدت فقيل « تلك » . ويجوز أن تكون « آيات الله » بدلا من « تلك » ولا تكون نعتا لأن المُبْهم لا يُنعت بالمضاف . ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعنى أنهم لا يعذبهم بغير ذنب . ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال المَهْدَوِىّ : وجه ٱتّصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظُلما للعالمين وصله بذكر ٱتّساع قدرته وغناه عن الظلم بكون ما فى السموات وما فى الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره .

قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى التِّرمذيّ عن بَهْز بن حَكيم عن أبيه عن جدّه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس » قال : "أنتم تُتِمّون سبعين أمّةً أنتم خيرها وأكرمها على الله" . وقال : هـذا حديث حَسَن . وقال أبو هريرة : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام . وقال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بَدْرًا والحُدَيْبِية . وقال عمر بن الخطاب : من فعـل فعلهم كان مثلهم . وقيل : هم أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى الصالحين منهـم وأهلَ الفضل ؛ وهم الشهداء على الناس يوم القيامة ؛ كما تقدم فى البقرة[(1)] . وقال مجاهد : « كنتم خير أمة أُخرجت للناس » على الشرائط المذكورة فى الآية . وقيل : معناه فى اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم مذ آمنتم خيرَ أمة . وقيل : جاء ذلك لتقدّم البشارة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّتِه . فالمعنى كنتم عند من تقدّمكم من أهل الكُتُب خيرَ أمّة . وقال الأخفش : يريد أهل أمّة ، أى خير أهل دين ؛ وأنشـد :

حلفتُ فـلم أترك لنفسك رِيبةً * وهـل يأْثَمَنْ ذو أمةٍ وهو طائـعُ[(2)]

وقيل : هى كان التامة ، والمعنى خلقتم ووُجدتم خير أمة . « فخير أمّة » حال . وقيل : كان زائدة ، والمعنى أنتم خير أمة . وأنشد سيبويه :

* وجِيرانٍ لنا كانوا كِرامِ[(3)] *

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية .

(٢) البيت للنابغة الذبيانى .

(٣) هذا عجز بيت للفرزدق . وصدره :

* فكيف إذا رأيت ديار قوم *

ومثله قوله تعالى : « كيف نُكَلِّم من كان فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » . وقوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ » . وقال فى موضع آخر : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ » . وروى سفيان بن مَيْسرة الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة « كنتم خير امة أخرجت للناس » قال : يَجُرُّون الناس بالسلاسل إلى الإسلام . قال النحاس : والتقدير على هذا كنتم للناس خير أمة . وعلى قول مجاهد : كنتم خير أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وقيل : إنما صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر، والأمرُ بالمعروف والنّهى عن المنكر فيهم أَفْشَى . فقيل : هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "خير الناس قَرنِى" أى الذين بُعثت فيهم .

الثانيــة — واذا ثبت بنصّ التنزيل أن هـذه الأمة خير الأمم فقد روى الأئمـة من حديث عِمران بن حُصين عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "خير الناس قَرْنِى ثم الذين يَلُونهم" . وهذا يدلّ على أن أوّل هذه الأمة أفضلُ ممن بعدهم، وإلى هذا ذهب معظم العلماء . وأن من صحب النبىّ صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرّة فى عمره أفضلُ ممن يأتى بعده، وإن فضيلة الصحبة لا يَعْدِلها عمل . وذهب أبو عمر بن عبد البرّ الى أنه قد يكون فيمن يأتى بعد الصحابة أفضلُ ممن كان فى جُملة الصحابة، وأن قوله عليه السلام : "خير الناس قَرْنى" ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول . وقد جمع قَرْنُه جماعةً من المنافقين المُظْهِرين للإيمان وأهلِ الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود، وقال لهم : ما تقولون فى السارق والشارب والزانى . وقال مواجهةً لمن هو فى قرنه "لا تَسُبُّوا أصحابى". وقال لخالد بن الوليد فى عَمّار : "لا تسبّ من هو خير منك" . وروى أبو أُمامة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "طُوبَى لمن رآنِى وآمن بى وطُوبَى سبع مرات لمن لم يرنى وآمن بى" . وفى مسند أبى داود الطّيالِسِىّ عن محمد بن أبى حُميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أتدرون أىّ الخلق أفضل إيمانا" قلنا الملائكة . قال : "وحق لهم بل غيرهم" قلنا الأنبياء . قال : "وحقّ

لهم بل غيرهم" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الخلق إيمانا قوم فى أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى يجدون ورَقًا فيعملون بما فيها وهم أفضل الخلق إيمانا" . وروى صالح بن جُبير عن أبى جُمعة قال : قلنا يا رسول الله، هل أحد خير منّا ؟ قال : " نعم قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتابا بين لوحين فيؤمنون بما فيه و يؤمنون بى ولم يرونى " . وقال أبو عمر : وأبو جُمعة له صحبة واسمه حبيب بن سِباع ، وصالح بن جبير من ثقات التابعين . وروى أبو ثعلبة الخُشَنِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن أمامكم أيّامًا الصابرُ فيها على دِينه كالقابض على الجَمْر للعامل فيها أجر خمسين رجلا يعمل مثل عمله" قيل : يارسول الله، مَن هم ؟ قال : "بل منكم" . قال أبو عمر : وهذه اللفظة « بل منكم » قد سكت عنها بعض المحدّثين فلم يذكرها . وقال عمر بن الخطاب فى تأويل قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس» قال : مَن فعل مثلَ فعلِكم كان مثلكم . ولا تعارُض بين الأحاديث لأن الأوّل على الخصوص، والله الموفق .

وقد قيل فى توجيه أحاديث هذا الباب : إن قَرْنه إنما فُضّل لأنهم كانوا غُرَباء فى إيمانهم لكثرة الكفار وصبرِهم على أذاهم وتمسّكهم بدينهم ، و إن أواخر هذه الأمة إذ أقاموا الدِّين وتمسّكوا به وصبروا على طاعة ربّهم فى حين ظهور الشرّ والفسق والهَرَج والمعاصى والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غرباء ، وزَكَت أعمالهم فى ذلك الوقت كما زَكَت أعمال أوائلهم . ويشهد له قوله عليه السلام "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطُوبَى للغرباء" . ويشهد له أيضا حديثُ أبى ثعلبة ويشهد له أيضا قولُه صلى الله عليه وسلم : " أمّتى كالمطر لا يُدرى أوّلُه خيرٌ أم آخرُه " ذكره أبو داود الطّيالِسى وأبو عيسى الترمذى ، ورواه هشام بن عبيد الله الرازى عن مالكٍ عن الزُّهرِى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمتى مِثلُ المطرِ لا يُدْرى أوله خير أم آخِره" . ذكره الدّارَقُطْنِىّ فى مسند حديث مالك . قال أبو عمر : هشام بن عبيد الله ثِقةٌ لا يختلفون فى ذلك . وروى أن عمر بن عبد العزيز لما وَلِى الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن اكتب إلىّ سيرةَ عمر بنِ الخطّاب لأعمل بها ؛ فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمرَ فأنت أفضل من عمر ، لأن زمانك ليس

كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر . قال : وكتب إلى فقهاء زمانه، فكلُّهم كتب إليه بمثل قول سالم . وقد عارض بعض الجِلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : "خيرُ الناسِ قرني" بقوله صلى الله عليه وسلم : "خيرُ الناسِ من طال عمره وحسُنَ عملُه وشرُّ الناسِ من طال عمرُه وساء عَمَلُه" . قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضى مع تواتر طرقها وحسنها التّسويةَ بين أوّلِ هذه الأمةِ وآخرها . والمعنى فى ذلك ما تقدّم ذكره من الإيمان والعمل الصالح فى الزمان الفاسد الذى يُرفع فيه من أهل العلم والدِّين ، ويكثر فيه الفسق والهرج ، ويُذَلّ المؤمنُ ويُعَزّ الفاجر ويعود الدِّين غَرِيبًا كما بدا ، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر . فيستوى حينئذ أول هذه الأمة بآخرها فى فضل العمل إلا أهل بَدْر والحُدَيْبية . ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصواب، والله يؤتى فضله من يشاء .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ مَدْحٌ لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتّصفوا به؛ فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم ، وكان ذلك سببا لهلاكهم . وقد تقدّم الكلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أوّل السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبيّ صلى الله عليه وسلم خير لهم، وأخبر أنّ منهم مؤمنا وفاسقا، وأن الفاسق أكثر .

قوله تعالى : لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ يعنى كذبهم وتحريفهم وبُهْتهم ؛ لا أنه تكون لهم الغلبة ؛ عن الحسن وقتادة . فالاستثناء متصل ، والمعنى لن يضروكم إلا ضُرًّا يسيرا ؛ فوقع الأذى موقع المصدر . فالآية وَعْدٌ من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وأنّ أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام[1] إلا إيذاء بالبُهت

(١) الاصطلام : الاستئصال .

والتحريف، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين . وقيـل : هومنقطع ، والمعنى لن يضروكم ألبتّة ، لكن يؤذونكم بما يُسمعونكم . قال مقاتل : إنّ رءوس اليهود : كعب وعديّ والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وابن صوريا عمَدوا إلى مؤمنيهم : عبدالله بنِ سلَام وأصحابِه فآذوهم لإسلامهم؛ فأنزل الله تعالى : « لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى » يعني باللسان، وتم الكلام. ثم قال: ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ يعني منهزمين، وتم الكلام. ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ مستأنف؛ فلذلك ثبتت فيه النون . وفي هذه الآية معجزة للنبيّ عليه السلام؛ لأنّ مَن قاتله من اليهود والنصارى ولّاه دُبُرَه .

قوله تعالى : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ يعني اليهود . ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ أي وُجدوا ولُقُوا ، وتمّ الكلام . وقد مضى في البقرة معنى ضَرْبِ الذّلّة عليهم (١) . ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ استثناء منقطع ليس من الأوّل . أي لكنهم يعتصمون بحبل من الله . ﴿ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ يعني الذّمّة التي لهم . والناس : محمدٌ والمؤمنون يؤدّون إليهم الخراج فيؤمّنونهم . وفي الكلام

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

اختصار، والمعنى: إلا أن يعتصموا بحبل من الله، فحذف؛ قاله الفراء. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أى رجعوا. وقيل احتملوا. وأصله فى اللغة أنه لزمهم؛ وقد مضى فى البقرة. ثم أخبر لِمَ فُعل ذلك بهم؛ فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وقد مضى فى البقرة مستوفًى. ثم أخبر فقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ وتم الكلام. والمعنى: ليس أهل الكتاب وأمّةُ محمد صلى الله عليه وسلم سواءً؛ عن ابن مسعود. وقيل: المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواءً. وذكر ابو خيثمة زُهير بن حرب حدّثنا هاشم بن القاسم حدّثنا شَيبان عن عاصم عن زِرٍّ عن ابن مسعود قال: أخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ثم خرج الى الناس فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: "إنه ليس من أهل الأديان أحدٌ يذكر الله تعالى فى هذه الساعة غيرُكم" قال: وأنزلت هذه الآية «ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمّة قائمة — الى قوله: والله عليم بالمتقين» وروى ابن وهب مثله. وقال ابن عباس: قول الله عز وجل «من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليلِ وهم يسجدون» من آمن مع النبىّ صلى الله عليه وسلم. وقال ابن إسحاق عن ابن عباس: لما أسلم عبد الله بن سَلَام، وثعلبة بن سَعْيَة[1]، وأَسِيد بن سَعية[2]، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود؛ فآمنوا وصدّقوا ورغِبوا فى الإسلام ورسخوا فيه قالت أحبار يهودَ وأهلُ الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تَبِعه إلا شرارُنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دِين آبائهم وذهبوا إلى غيره؛ فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قوله «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. الى قوله: وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ». وقال الأخفش: التقدير من أهل الكتاب ذو أمّة، أى ذو طريقة حسنة. وأنشد:

* وهل يأثمن ذو أمّةٍ وهو طائعٌ *

---

(١) سعية: بالسين والعين المهملتين وياء باثنتين.

(٢) فى الاستيعاب فى ترجمة أسيد هذا: «رواه يونس بن بكير عن ابن اسحاق (أسيد) بفتح الهمزة وكسر السين، وكذلك قال الواقدى. وفى رواية ابراهيم بن سعد عن ابن إسحاق (أسيد) بالضم. والفتح عندهم أصح».

وقيل : فى الكلام حذف، والتقدير من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمـة، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى؛ كقول أبى ذُؤيب :

عصانى اليها القلبُ إنّى لأمره (١) * مطيعٌ فما أدرِى أرُشْـدٌ طِلابُهـا

أراد : أرُشْدٌ أم غَىٌّ ، فحذف . قال الفرّاء : « أمةٌ » رفع بِسواء ، والتقدير : ليس يستوى أمةٌ من أهل الكتاب قائمةٌ يتلون آيات الله وأمةٌ كافرة . قال النحاس : هـذا قول خطأ من جهات : إحداها أنه يرفع «أمة» بسواء فلا يعود على اسم ليس شىء، و يرفع بما ليس جاريا على الفعل ويضمر مالا يحتاج اليـه ؛ لأنه قد تقدم ذكر الكافرة فليس لإضمار هذا وجه . وقال أبو عبيدة : هذا مثـل قولهم : أكلونى البراغيث ، وذهبوا أصحابك . قال النحاس : وهذا غلط لأنه قد تقدّم ذكرهم ، وأكلونى البراغيث لم يتقدم لهم ذكر . و ﴿ آنَاءَ اللَّيْـلِ ﴾ سـاعاته . واحدها إنًى وأنًى وإنْىٌ ، وهو منصـوب على الظرف . و ﴿ يَسْـجُدُونَ ﴾ يُصلّون؛ عن الفراء والزجاج؛ لأن التلاوة لا تكون فى الركوع والسجود . نظيره قوله : « وَلَهُ يَسْجُدُونَ » أى يُصلّون . وفى الفرقان: « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ » وفى النَّجْم : « فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا » . وقيل : يراد به السجود المعروف خاصّةً . وسبب النزول يردّه ، وأن المراد صلاة العَتَمة كما ذكرنا عن ابن مسعود؛ فعبدة الأوثان ناموا حيث جَنّ عليهم الليل، والموَحِّدون قيام بين يدى الله تعالى فى صلاة العشاء يتلون آيات الله؛ ألا ترى لمّـا ذكر قيامهم قال « وهم يسجدون » أى مع القيام أيضا . الثّورىّ : هى الصلاة بين العشاءين . وقيـل : هى فى قيام الليل . وعن رجل من بنى شَيبة كان يدرس الكتب قال : إنا نجـد كلاما من كلام الربّ عز وجل: أيُحسَب راعى إبل أو غنم إذا جَنّه الليل ٱنخزل (٢) كمن هو قائم وساجد آناء الليل . ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ يعنى يقرّون بالله و بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قيل هو عموم . وقيل : يراد به الأمر بٱتّباع النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ والنهى عن المنكر النهى عن مخالفته . ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ التى يعملونها مُبادرين غير

(١) فى الأصول : * عصيت إليها القلب إنى لأمرها * والتصويب عن ديوان أبى ذؤيب . يقول : عصانى القلب وذهب إليها فأنا أتبع ما يأمرنى به .

(٢) انخزل : انفرد .

متثاقلين لمعرفتهم بقدر ثوابهم. وقيل: يبادرون بالعمل قبل الفوت. ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى مع الصالحين، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الجنة. ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ قرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائى وحفص وخلف بالياء فيهما؛ إخبارا عن الأمة القائمة. وهى قراءة ابن عباس واختيار أبى عُبيد. وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ». وهى اختيار أبى حاتم، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعا الياء والتاء. ومعنى الآية: وما تفعلوا من خير فلن تُجْحَدوا ثوابه بل يُشْكَر لكم وتُجازَون عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اسم إن، والخبر «لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا». قال مقاتل: لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم وهو قوله «إن الذين كفروا». وقال الكلبى: جعل هذا ابتداء فقال: إن الذين كفروا لن تغنى عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئا. وخصّ الأولاد لأنهم أقرب أنسابهم إليهم. ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ابتداء وخبر، وكذا و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وقد تقدم جميع هذا.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ «ما» تصلح أن تكون مصدرية، وتصلح أن تكون بمعنى الذى والعائد محذوف، أى مثل ما ينفقونه. ومعنى «كَمَثَلِ رِيحٍ» كمثل مَهَبّ ريح. قال ابن عباس: والصرُّ البردُ الشديدُ. قيل: أصله من الصَّرير

الذى هو الصوت ، فهو صوت الريح الشديدة . الزجاج : هو صوت لهب النار التى كانت فى تلك الريح. وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة. وفى الحديث : إنه نهى عن الجراد الذى قتله الصِّرّ . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بُطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته فأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشىء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه. قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصيـة ومَنْع حق الله تعالى . وقيل : ظلموا أنفسهم بأن زرعوا فى غير وقت الزراعة أو فى غير موضعها فأدّبهم الله تعالى لوضعهم الشىء فى غير موضعه؛ حكاه المَهْدوىّ .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — أكّد الله تعالى الزَّجر عن الرُّكون إلى الكفار. وهو متصل بما سبق من قوله : «إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» . والبطانة مصدر، يُسمَّى به الواحد والجمع . و بطانة الرجل خاصّتُـه الذين يستبطنون أمرَه ، وأصله من البَطْن الذى هو خلاف الظهر . و بَطَن فلان بفلان يَبْطُن بُطونا و بطانة إذا كان خاصًّا به . قال الشاعر :

أولئــك خُلْصانى نَعَمْ وبطانتى * وهم عَيْبَتى من دون كلّ قريب

الثانيــة — نهى الله عزّ وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دُخلاءَ ووُلَجاءَ، يفاوضونهم فى الآراء، ويسندون إليهم أمورَهم . ويقال : كلّ من كان على خلاف مذهبك ودينك لا ينبغى لك أن تحادثه . قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينـه * فكل قَرين بالمقارن يَقْتـدى

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "المرء على دِين خليله فلينظر أحدُكم مَن يخالل" . وروى عن ابن مسعود أنه قال : اعتبروا النـاس بإخوانهم . ثم بيّن تعالى المعنى الذى لأجله نهى عن المواصلة فقال : « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا » يقول فسادا . يعنى لا يتركون الجهد فى فسادكم ، يعنى أنهم وإن لم يقاتلوكم فى الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد فى المكر والخديعة ، على ما يأتى بيانه . ورُوى عن أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» قال: "هم الخوارج". ورُوى أن أبا موسى الأشعرى استكتب ذِمّيًا فكتب إليه عمر يعنّفه وتلا عليه هذه الآية. وقدِم أبو موسى الأشعرىّ على عمر رضى الله عنه بحّساب فرفعه إلى عمرَ فأعجبه . وجاء عمرَ كتابٌ فقال لأبى موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد . فقال : لم! أجُنب هو ؟ قال : إنه نصرانى؛ فانتهره وقال : لَا تدنِهم وقد أقصاهم الله ، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله ، ولا تأمنهم وقد خوّنهم الله. وعن عمر رضى الله عنه قال: لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهـم يستحلون الرشا (١) ، واستعينوا على أموركم وعلى رعيّتكم بالذين يخشون الله تعالى . وقيل لعمر رضى الله عنه: إن ههنا رجلا من نصارى الحِيرَة لا أحدَ أكتب منه ولا أخطّ بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ بِطانة من دون المؤمنين . فلا يجـوز استكتاب أهل الذمة ، ولا غير ذلك من تصرّفاتهم فى البيع والشراء والاستنابة إليهم .

قلت : وقد انقلبت الأحوال فى هذه الأزمان باتّخاذ أهل الكتاب كَتَبةً وأمناء وتسوّدوا بذلك عنـد الجهلة الأغبياء من الوُلاة والأمراء . روى البخارىّ عن أبى سعيدٍ الخُدْرِىّ عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : "ما بعث الله مِن نبيّ ولا استخلف مِن خليفةٍ إلا كانت له بِطانتانِ بِطانةٌ تأمره بِالخير وتحضه عليه وبِطانة تأمره بالشرّ وتحثّه عليـه والمعصوم من عصَمه الله". وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لاتستضيئوا بِنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا". فسّره الحسن بن أبى الحسن فقال : أراد عليـه

(١) فى بعض الأصول : « ... الربا » بالباء .

السلام لا تستشيروا المشركين فى شىء من أموركم، ولا تنقشوا فى خواتيمكم محمدا. قال الحسن: وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ» الآية.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أى من سواكم. قال الفرّاء: «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ» أى سوى ذلك. وقيل: «مِن دُونِكم» يعنى فى السير وحسن المذهب. ومعنى «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» لا يقصّرون فيما فيه الفسادُ عليكم. وهو فى موضع الصّفة لبطانة من دونكم. يقال: لا آلُو جهدا أى لا أقصّر. وأَلَوْت أُلُوًّا قصّرت؛ قال امرؤ القيس:

وما المرء ما دامت حُشاشة نفسه * بمُدْرِك أطرافِ الخُطوبِ ولا آلِ

والخَبال الخَبْل. والخَبْل الفسادُ؛ وقد يكون ذلك فى الأفعال والأبدان والعقول. وفى الحديث: "من أصيب بدَمٍ أو خَبْل" أى جُرْح يفسد العضو. والخبل فسادُ الأعضاء، ورجلٌ خَبْلٌ ومُخْتَبَلٌ، وخَبله الحبّ أى أفسده. قال أَوْس:

أبنى لُبَيْنَى لستُم بيَـدٍ * إلّا يدًا مخبولَةَ(١) العَضُدِ

أى فاسدة العضد. وأنشد الفرّاء:

نَظَـر ابنُ سـعدٍ نظرةً وَبَّتْ(٢) بها * كانت لصحبـك والمَطِىِّ خَبالَا

أى فسادا. وانتصب «خبالا» بالمفعول الثانى؛ لأن الأَلْوَ يتعدى إلى مفعولين، وإن شئت على المصدر، أى يخبلونكم خبالا، وإن شئت بنزع الخافض، أى بالخبال؛ كما قالوا: أوجعته ضربا: «وما» فى قوله: «وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ» مصدرية، أى وَدُّوا عنتكم. أى ما يشق عليكم. والعنت المشقة، وقد مضى فى «البقرة»(٣) معناه.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يعنى ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم. والبغضاء: البغض، وهو ضدّ الحُبّ. والبغضاء مصدر مؤنّث. وخصّ تعالى الأفواه بالذِّكْر دون الألسنة إشارةً إلى تشدّقهم وثرثرتهم فى أقوالهم هـذه، فهُم

---

(١) الذى فى ديوانه: * إلّا يدا ليست لها عضد * (٢) الوَبُّ: التهيؤ للحملة فى الحرب.

(٣) راجع حـ ٣ ص ٦٦ طبعة أولى أو ثانية.

فوق المتستر الذى تبدو البغضاء فى عينيه . ومن هذا المعنى نَهْيُه عليه السلام أن يَشْتَحِى الرجل فاه فى عِرض أخيه، معناه أن يفتح؛ يقال : شَحَى الحمار فاه بالنهيق، وشَحَى الفمُ نفسه . وشَحَى اللجامُ فَمَ الفرس شَحْيًا ، وجاءت الخيل شَوَاحِىَ : فاتحاتٍ أفواهَها . ولا يفهم من هذا الحديث دليلُ خطاب على الجواز فيأخذ أحد فى عِرض أخيه هَمْسًا؛ فإن ذلك يحرُم باتفاق من العلماء . وفى التنزيل « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » الآية. وقال صلى الله عليه وسلم : "إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام". فذِكر الشَّحْو إنما هو إشارة إلى التشدّق والانبساط . فاعلم .

الخامسة — وفى هذه الآية دليل على أن شهادة العدوّ على عدوّه لا تجوز، وبذلك قال أهل المدينة وأهل الحجاز؛ ورُوى عن أبى حنيفة جواز ذلك . وحكى ابن بطّال عن ابن شعبان أنه قال : أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة العدوّ على عدوّه فى شىء وإن كان عدلا، والعداوة تزيل العدالة فكيف بعداوة كافر .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ إخبار وإعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يُظهِرون بأفواههم . وقرأ عبد الله بن مسعود : « قد بدا البغضاء » بتذكير الفعل؛ لما كانت البغضاء بمعنى البُغْض .

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ يعنى المنافقين . دليله قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا » ؛ قاله أبو العالية ومقاتل . والمحبة هنا بمعنى المصافاة، أى أنتم أيها المسلمون تصافونهم ولا يصافونكم لِنفاقهم . وقيل : المعنى تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر . وقيل : المراد اليهود؛ قاله الأكثر . والكتاب اسم جنس؛ قاله ابن عباس . يعنى

بالكتب، واليهودُ يؤمنون بالبعض؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » . ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا خَلَوْا فيما بينهم عضُّوا عليكم الأنامل، يعنى أطراف الأصابع من الغيظ والحنق عليكم؛ فيقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هؤلاء ظهروا وكثروا . والعَضّ عبارة عن شِدّة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه؛ ومنه قول أبى طالب :

* يعضّون غيظًا خَلْفَنا بالأنامل *

وقال آخر :

إذا رَأَوْنِى أطال اللهُ غيظَهـم * عَضُّوا من الغيظ أطراف الأباهِيم

يقال : عضّ يَعُضّ عَضًّا وعَضِيضا . والعُضّ (بضم العين) : علَف دوابِّ أهل الأمصار مثل الكُسْب والنَّوى المرضوخ؛ يقال منه : أعضّ القوم، إذا أكلت إبلُهم العُضّ . وبعير عُضَاضِىٌّ، أى سمين كأنه منسوب إليه . والعِضّ (بالكسر) : الدّاهى من الرجال والبليغ المنكر . وعَضُّ الأنامل من فعل المُغْضَب الذى فاته ما لا يقدِر عليه، أو نَزَل به ما لا يقدر على تغييره . وهذا العَضّ هو بالأسنان كعضّ اليد على فائت قريب الفوات . وكقرع السّن النادمة، إلى غير ذلك من عدّ الحصى والخط فى الأرض للهموم . ويكتب هذا العَضّ بالضاد الساقطة، وعظّ الزمان بالظاء المشالة؛ كما قال :

وَعَظُّ زمانٍ يا ابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ * من المـال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ[1]

وواحد الأنامل أنمُلة (بضم الميم) ويقال بفتحها، والضم أشهر . وكان أبو الجَوْزاء إذا تلا هذه الآية قال : هم الأباضِيّة . قال ابن عطيّة : وهذه الصفة قد تترتب فى كثير من أهل البدع إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن قيل : كيف لم يموتوا واللهُ تعالى إذا قال لشىء : كن فيكون . قيل عنه جوابان : أحدهما — قال فيه الطبرىّ وكثير

(١) البيت للفرزدق . والرواية المعروفة كما فى اللسان والنقائض : «وعض زمان» بالضاد بدل الظاء، وهذه الكلمة فى هذا المعنى تقال بالضاد وبالظاء كما فى القاموس . والمسحت : المستأصل . والمجلف : الذى بقيت منه بقية .

من المفسرين : هو دعاء عليهم . أى قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا . فعلى هذا يتّجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهة وغيرَ مواجهة بخلاف اللّعنة .

الثانى — أن المعنى أخبرهم أنهم لا يُدركون ما يؤمّلون ، فإن الموت دون ذلك . فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقى معنى التقريع والإغاظة . ويجرى هذا المعنى مع قول مسافر ابن أبى عمرو :

ويتمنّى فى أُرومتنا * ونفقأ عين من حَسَدَا

وينظر إلى هذا المعنى قولُه تعالى : « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ » .

قوله تعالى : إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : « إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ » قرأ السُّلَمى بالياء والباقون بالتاء . واللفظ عام فى كل ما يحسُن ويسوء . وما ذكره المفسرون من الخِصْب والجَدْب واجتماع المؤمنين ودخول الفُرْقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلةٌ وليس باختلاف . والمعنى فى الآية : أن من كانت هذه صفته من شدّة العداوة والحِقْد والفَرَح بنزول الشدائد على المؤمنين لم يكن أهلا لأن يُتّخذ بطانة ، لا سِيّما فى هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذى هو مِلاك الدنيا والآخرة . ولقد أحسن القائل فى قوله :

كلّ العداوة قد تُرجَى إفاقتها * إلا عداوةَ مَن عاداك من حَسَدِ

﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا ﴾ أى على أذاهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين . ﴿ وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ يقال : ضاره يضُورُه ويَضيره ضَيْرًا وضَوْرًا ، فشرط تعالى نفْيَ ضررهم بالصبر والتقوى ، فكان ذلك تسليةً للمؤمنين وتقويةً لنفوسهم .

قراءات — قرأ الحَرَميّان وأبو عمـرو « لا يَضِرْكُم » من ضار يضير كما ذكرنا ؛ ومنه قوله «لا ضَيْرَ» ، وحذفت الياء لا لتقاء الساكنين ؛ لأنك لما حذفت الضمة من الراء بقيت الراء ساكنةً والياءُ ساكنة فحذفت الياء ، وكانت أولى بالحذف لأن قبلها مايدلّ عليها . وحكى الكسائىّ أنه سمع «ضاره يَضُوره» وأجاز «لايَضُرْكم» وزعم أن فى قراءة أُبَىّ بن كعب «لا يَضْرُرْكُم» . ويجوز أن يكون مرفوعا على تقدير إضمار الفاء ؛ والمعنى : فلا يضركم . ومنه قول الشاعر[1] :

* مَن يفعلِ الحسناتِ الله يَشكُرُهَا *

هذا قول الكسائى والفَرّاء . أو يكون مرفوعا على نيّة التقديم ؛ وأنشد سيبويه :

* إنّك إن يُصرَع أخوك تُصرَعُ[2] *

أى لايضرّكم أن تصبروا وتتقوا . ويجوز أن يكون مجزوما ، وضمت الراء لالتقاء الساكنين على إتباع الضم . وكذلك قراءة من فتح الراء على أن الفعل مجزوم ، وفتح « يضرّكم » لا لتقاء الساكنين لخفّة الفتح ؛ رواه أبو زيد عن المفضل عن عاصم ، حكاه المَهْدَوِىّ . وحكى النحاس : وزعم المفضّل الضّبىّ عن عاصم « لا يَضُرِّكم » بكسر الراء لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ العامل فى « إذ » فعل مضمر تقديره : واذكر إذ غدوت ، يعنى خرجت بالصباح . ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ من منزلك من عند عائشة . ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ هـذه غزوة أُحُد وفيها نزلت هذه الآية كلها . وقال مجاهـد والحسن ومُقاتل والكلْبى : هى غزوة الخَنْـدَق . وعن الحسن أيضا : يوم بَدْر . والجمهور على أنها غزوة أُحُد ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا » وهذا إنما كان يوم أحد ، وكان المشركون قصدوا المدينة فى ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا ثأرهم

(١) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه . وتمامه : * والشر بالشر عند الله سيان *

(٢) هذا عجز بيت لجرير بن عبد الله . وصدره : * يا أقرع بن حابس يا أقرع *

فى يوم بدر، فنزلوا عند أُحُد على شَفِير الوادى بقناةٍ مُقابلَ المدينة يوم الأربعاء الثانى عشر من شوّال سنة ثلاث من الهِجْرة على رأس أحد وثلاثين شهرا من الهجرة ، فأقاموا هنالك يوم الخميس والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه أن فى سيفه ثُلْمة وأن بقرا له تُذبح وأنه أدخل يده فى دِرعٍ حصينة؛ فتأولها أن نفرا من أصحابه يُقتلون وأن رجلا من أهل بيته يُصاب وأن الدّرع الحصينةَ المدينةُ . أخرجه مسلم . فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الغزَاة . وأصل التبوّء اتخاذ المنزل. بوّأته منزلا إذا أسكنته إياه؛ ومنه قوله عليه السلام : "من كَذَب علىّ متعمّدا فلْيتبوّأ مقعدَه من النار" أى ليتخذ فيها منزلا . فمعنى تبوّئ المؤمنين تتّخذ لهم مَصاف . وذكر البَيْهَقِىّ من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت فيما يرى النائم كأنى مُرْدِفٌ كبشا وكأن ضَبّة سيفى انكسرت فأوّلت أنى أقتل كبش القوم وأوّلتُ كسر ضبةِ سيفى قتل رجل من عِتْرتى " . فقُتل حمزةُ وقتلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم طلحةَ، وكان صاحبَ اللواء . وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب : وكان حاملَ لواء المهاجرين رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا عاصمٌ إن شاء الله لما معى؛ فقال له طلحة بن عثمان أخو سعيد ابن عثمان الحَجَبىّ : هل لك ياعاصم فى المبارزة؟ قال نعم؛ فبدَرَه ذلك الرجلُ فضرب بالسيف على رأس طلحةَ حتى وقع السيف فى لحيته فقتله ؛ فكان قتلُ صاحب لواء المشركين تصديقًا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم "كأنى مردف كبشا" .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

العامل فى «إذ» «تبوّئ» أو «سميع عليم» . والطائفتان : بنو سَلِمة من الخَزْرَج وبنو حارثة من الأوْس وكانا جَناحى العَسْكر يوم أُحُد . ومعنى ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ ان تَجْبُنا . وفى البخارىّ عن جابر قال : فينا نزلت « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا » قال نحن الطائفتان : بنو حارثة و بنو سَلِمَة، وما نُحِبّ أنها لم تنزل لقول الله عز وجل : « والله وليهما » . وقيل:

هم بنو الحارث و بنو الخَزْرج و بنو النَّبِيت ، والنَّبِيت هو عمرو بن مالك من بنى الأوس .
والفشل عبارة عن الجبن ؛ وكذا هو فى اللغـة . والهَمّ من الطائفتين كان بعـد الخروج لما
رجع عبد الله بن أبَىّ بمن معه من المنافقين فحفِظ الله قلوبهم فلم يرجعوا؛ فذلك قوله تعالى :
«واللهُ وَلِيُّهُمَا» يعنى حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهَمّ . وقيل : أرادوا التقاعد عن الخروج
وكان ذلك صغيرة منهم . وقيل : كان ذلك حديثَ نفس منهم خطر ببالهم وأطلع الله نبيّه عليه
السلام عليـه فازدادوا بصـيرة؛ ولم يكن ذلك الخَوَرْ[1] مكتَسَباً لهم فعصمهم الله ، وذمّ بعضهم
بعضا ، ونهضوا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فمضى رسول الله صلى الله عليـه وسلم حتى أطلّ
على المشركين ، وكان خروجه من المدينة فى ألفٍ ، فرجع عبد الله بن أبَىّ بن سَلُول بثلاثمائة
رجل غاضبا ؛ إذ خُولف رأيُه حين أشار بالقعود والقتال فى المدينـة إن نهض إليهم العدوّ ،
وكان رأيه وافق رأى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأبى ذلك أكثر الأنصار ، وسيأتى .
ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فآستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة .
قال مالك رحمه الله : قُتل من المهاجرين يوم أحُد أربعةٌ ، ومن الأنصار سبعون رضى الله عنهم .
والمَقاعِد : جمع مَقْعد وهو مكان القعود ، بمنزلة مواقف ، ولكن لفظ القعود دالّ على الثبوت ؛
ولا سِيّمَا أن الرماة كانو قعودا . هـذا معنى حديثِ غَزاة أحُد على الاختصار ، وسيأتى من
تفصيلها ما فيه شِفاء . وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد ولم يكن مع
المسلمين يومئذ فرس . وفيها جُرِح رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى وجهه وكُسِرت رَباعِيته
اليمنى السفلى بحجر وهُشِمت البَيْضَةُ[2] من على رأسه صلى الله عليه وسلم ، و جزاه عن أمّته ودِينه
بأفضل ما جزى به نبيًّا من أنبيائه على صبره . وكان الذى تولّى ذلك من النبىّ صلى الله عليه
وسلم عمرو بن قَمِيئة اللّيثى ، وعُتبـة بن أبى وقّاص . وقد قيل : إن عبد الله بن شِهاب جدّ
الفقيه محمد بن مسلم بن شهاب هو الذى شَجّ رسولَ الله صلى الله عليـه وسلم فى جبهته . قال
الواقِدِىّ : والثابت عندنا أن الذى رَمَى فى وجه النبىّ صلى الله عليـه وسلم ابنُ قميئة ، والذى

(١) هكذا فى الأصول. (٢) البيضة : الخوذة ، وهى زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

أدمى شَفَته وأصاب رَباعِيَته عتبةُ بنُ أبى وقّاص . قال الواقِدِىّ بإسناده عن نافع بن جُبير قال : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدتُ أُحُدًا فنظرتُ إلى النَّبْل تأتى من كل ناحية ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم وَسَطُها كلٌّ [ذلك][1] يُصرف عنه . ولقد رأيت عبد الله بن شِهاب الزُّهرِىّ يقول يومئذٍ : دُلّونِى على محمد دُلُّونى على محمد، فلا نَجَوْتُ إن نجا . [وإنّ][1] رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه؛ فعاتبه فى ذلك صَفْوان فقال: والله ما رأيته، أحلِف بالله إنه منّا ممنوع ! خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاقدنا على قتله [فلم نخلُص إلى ذلك][1]. وأَكَبّت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط فى حُفْرة كان أبو عامر الرّاهب قد حفرها مكيدةً للمسلمين، فخرّ عليه السلام على جنبه واحتضنه طلحة حتى قام، ومَصّ مالكُ بنُ سِنان والدُ أبى سعيد الخُدْرِىّ من جُرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الدمَ . وتشبّثت حلقتان من دِرْع المِغْفَر فى وجهه صلى الله عليه وسلم فانتزعهما أبو عُبيدة بن الجرّاح وعضّ عليهما بثَنِيّته فسقطتا؛ فكان أهْتَمَ يزِينه هَتَمه رضى الله عنه . وفى هذه الغَزاة قُتل حمزةُ رضى الله عنه ، قتله وَحْشِىٌّ، وكان وَحْشِىّ مملوكا لجبير بن مُطْعِم . وقد كان جُبير قال له : إن قَتلتَ محمدا جعلنا لك أَعِنّة الخيل، وإن أنت قَتلتَ علىّ بنَ أبى طالب جعلنا لك مائة ناقة كلّها سُود الحَدَق، وإن أنت قتلتَ حمزةَ فأنت حُرٌّ . فقال وَحْشِىّ : أمّا محمد فعليه حافظٌ من الله لا يخلُص إليه أحد . وأمّا علىّ ما برز إليه أحد إلا قتله . وأمّا حمزة فرجل شجاع ، وعسى أن أصادفه فأقتله . وكانت هِنْد كلما تهيأ وَحْشِىٌّ أو مرّت به قالت : إيهًا أبا دَسْمة اشْفِ واسْتَشْفِ . فكَمَن له خَلْف صخرة وكان حمزة حمَل على القوم من المشركين؛ فلما رجع من حملته ومرّ بوَحْشِىّ زَرَقه بالمِزْراق فأصابه فسقط منها، رحمه الله ورَضِى عنه . قال ابن إسحاق : فبقَرت هِنْد عن كبد حمزة فلاكَتْها ولم تستطِع أن تُسيغَها فلفَظتها ثم علَت على صخرة مُشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحن جَزَيناكم بيوم بَدْر * والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعُرِ
ما كان عن عُتْبةَ لى من صَبْرٍ * ولا أخى وعَمِّه وبَكْرى

(١) زيادة عن مغازى الواقدى .

شَفيتُ نفسى وقضيتُ نَذْرِى * شَفيتَ وَحْشِىُّ غَليلَ صَدْرِى
فشُكْرُ وَحْشِىٍّ علىَّ عُمْرِى * حتى تَرِمَّ أعْظُمِى فى قَبْرِى

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عَبّاد بن المطَّلب فقالت :

خَزِيتِ فى بَدْرٍ وبعدَ بَدْر * يا بنتَ وَقّاعٍ عظيمِ الْكُفْرِ
صبَّحكِ اللهُ غَداةَ الفَجْرِ * مِلْهاشِمِيِّين الطِّوالِ الزُّهْرِ
بكُلِّ قَطّاعٍ حُسامٍ يَفْرِى * حَمْزَةُ لَيْثِى وعلىٌّ صَقْرِى
إذ رام شَيْبَ[1] وأبوكِ غَدْرِى * فخَضَبا منه ضَواحِىَ النَّحْرِ
* ونَذْرُكِ السَّوءَ فشَرُّ نَذْرِ *

وقال عبد الله بن رَواحة يبكى حَمْزَةَ رضى الله عنه :

بَكَتْ عينِى وحُقَّ لها بُكاها * وما يُغْنِى البكاءُ أو العَويلُ
على أسَدِ الإلهِ غداةَ قالوا * أحمزةُ ذاكُمُ الرَّجلُ القتيلُ
أصيبَ المسلمون به جميعًا * هناكَ ، وقد أصيبَ به الرَّسولُ
أبا يَعْلَى لكَ الأركانُ هُدّتْ * وأنتَ الماجدُ البَرُّ الوَصُولُ
عليكَ سلامُ رَبِّكَ فى جِنانٍ * مُخالِطُها نَعيمٌ لا يَزولُ
ألَا يا هاشمَ الأخيارِ صَبْرًا * فكُلُّ فعالِكُم حَسَنٌ جَميلُ
رسولُ اللهِ مُصْطَبِرٌ كَريمٌ * بأمرِ اللهِ يَنطِقُ إذ يقولُ
ألَا مَن مُبلِغٌ عَنِّى لُؤَيًّا * فبَعْدَ اليومِ دائلَةٌ تَدُولُ
وقبلَ اليوم ما عَرفوا وذاقوا * وَقائِعَنا بها يُشفَى الغَليلُ
نَسيتم ضَرْبَنا بِقَليبِ[2] بَدْرٍ * غداةَ أتاكُمُ الموتُ العَجيلُ
غداةَ ثَوَى أبُو جَهْل صريعًا * عليه الطيرُ حائِمَةً تَجُولُ
وعُتبةُ وآبنُه خَرّا جميعًا * وشَيْبةُ عضّه السيفُ الصَّقيلُ

(١) أرادت شيبة بن ربيعة أخا عتبة بن ربيعة أبا هند . وقد رخم هنا فى غير النداء لضرورة الشعر .

(٢) القليب (بفتح أوله وكسر ثانيه) : البئر العادية القديمة التى لا يعلم لها ربّ ولا حافر تكون فى البرارى ، يذكر ويؤنث .

ومـا تركنا أميّة مجلعبا[1] * وفي حيزومه[2] لدن نبيـل

وهام بني ربيعة سائلوها * ففي أسيافنا منها فلول

ألا يا هند لا تبدى شماتا * بحمزة إن عزكم ذليل

ألا يا هند فابكي لا تملّى * فأنت الواله العبرى الهبول[3]

ورثته أيضا أخته صفية، وذلك مذكور في السيرة، رضي الله عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهي بيان التوكّل. والتوكّل في اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير. وواكل فلان إذا ضيّع أمره متّكلا على غيره.

واختلف العلماء في حقيقة التوكّل؛ فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال: قالت فرقة الرّضا بالضّمان، وقطع الطّمع من المخلوقين. وقال قوم: التوكّل ترك الأسباب والرّكون إلى مسبّب الأسباب؛ فإذا شغله السّبب عن المسبّب زال عنه اسم التّوكّل. قال سهل: من قال التّوكّل يكون بترك السّبب فقد طعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل يقول: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» فالغنيمة اكتساب. وقال تعالى: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» فهذا عمل. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "إنّ الله يحب العبد المحترف". وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرضون على السّريّة[4]. قال غيره: وهذا قول عامة الفقهاء. وأنّ التوكّل على الله هو الثّقة بالله والإيقان بأنّ قضاءه ماض، واتّباع سنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم في السّعي فيما لابدّ منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرّز من عدوّ وإعداد الأسلحة واستعمال ماتقتضيه سنّة الله تعالى المعتادة. وإلى هذا ذهب محقّقو الصّوفية، لكنه لايستحقّ اسم التوكل عندهم مع الطّمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب؛ فإنها لاتجلب نفعا ولا تدفع ضرّا بل السبب والمسبّب فعل الله تعالى، والكلّ منه وبمشيئته؛ ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم. ثم المتوكّلون على

(١) المجلعب: المصروع إما ميتا وإما صرعا شديدا. (٢) الحيزوم: وسط الصدر وما يضم عليه الحزام. واللدن: الرمح. (٣) الهبول من النساء: الثكول. (٤) السرية: طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة؛ سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السريّ النفيس.

حالين : الأول — حال المتمكن فى التوكّل فلا يلتفت إلى شىء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر . الثانى — حال غير المتمكن وهو الذى يقع إليه الالتفات إلى تلك الأسباب أحيانا غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحاليّة ؛ فلا يزال كذلك إلى أن يُرَقِّيَــه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين ، ويلحقه بدرجات العارفين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ ﴾ كانت بَدْرٌ يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثمانية عشر شهرا من الهِجْرة ، وبَدْرٌ ماء هنالك وبه سُمِّيَ الموضع . وقال الشَّعْبِيّ : كان ذلك الماء لرجل من جُهينة يُسَمَّى بدرا ، وبه سُمِّيَ الموضع . والأوّل أكثر . قال الواقِدِيّ وغيره : بَدْرٌ اسم لموضع غيرُ منقول . وسيأتى فى قِصة بَدْرٍ فى « الأنفال » إن شاء الله تعالى . و ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ معناها قليلون ؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا . وكان عدوّهم ما بين التسعمائة إلى الألف . و « أذِلة » جمع ذليل . واسم الذُّلّ فى هذا الموضع مستعار ، ولم يكونوا فى أنفسهم إلا أعِزّة ، ولكن نِسبتهم إلى عدوّهم وإلى جميع الكفار فى أقطار الأرض تقتضى عند المتأمل ذِلَّتَهم وأنهم يُغلبون . والنّصرُ العَوْنُ ؛ فنصرَهم اللهُ يوم بَدْرٍ وقَتَل فيه صناديدَ المشركين ، وعلى ذلك اليوم ٱبْتُنِي الإسلام ، وكان أوّلَ قتال قاتله النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن بُريدة قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة قاتل فى ثمانٍ منهن . وفيه عن ابن إسحاق قال : لَقيت

زيد بن أرْقَم فقلت له : كم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : تسع عشرة غزوة . فقلت : فكم غزوتَ أنت معه ؟ فقال : سبع عشرة غزوة . قال فقلت : فما أول غزوة غزاها؟ قال : ذات العُسَير أو العشير . وهذا كلّه مخالف لما عليه أهل التواريخ والسِّيَر . قال محمد بن سعد فى كتاب الطبقات له : إنّ غزواتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون غزوة، وسراياه ست وخمسون، وفى رواية ست وأربعون[(١)]، والتى قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأُحُد والمُرَيْسِيع والخَنْدق وخَيْبر وقُريظة والْفَتح وحُنين والطّائف . قال ابن سعد : هذا الذى ٱجتمع لنا عليه . وفى بعض الروايات : أنه قاتل فى بنى النّضير وفى وادى القُرَى مُنْصَرَفه من خَيْبر وفى الغابة[(٢)] . وإذا تقرّر هذا فنقول : زيد وبريدة إنما أخبر كل واحد منهما بما فى علمه أو شاهده . وقول زيد «إن أوّل غزوة غزا ذات العشيرة» مخالف أيضا لما قال أهل التواريخ والسِّير . قال محمد بن سعد : كان قبل غزوة العشيرة ثلاثُ غزوات، يعنى غزاها بنفسه . وقال ابن عبد البر فى كتاب الدرر فى المغازى والسير. أول غزاةٍ غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة وَدّان[(٣)] غزاها بنفسه فى صفر؛ وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل، أقام بها بقية ربيع الأول وباقى العام كلّه إلى صَفَر من سنة اثنتين من الهجرة، ثم خرج فى صفر المذكور واستعمل على المدينة سعدَ بن عُبادة حتى بلغ وَدّان فوادع[(٤)] بنى ضَمْرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربًا، وهى المسماة بغزوة الأبواء . ثم أقام بالمدينة إلى [شهر] ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خرج فيها واستعمل على المدينة السّائبَ بنَ عثمان بن مَظْعون حتى بلغ بَوَاط[(٥)] من ناحية رَضْوَى[(٦)]، ثم رجع إلى المدينة

---

(١) الذى فى كتاب الطبقات لابن سعد : «وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وأربعين سرية» .

(٢) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام .

(٣) ودان (بفتح الواو وشدّ المهملة) : قرية جامعة من أمهات القرى من عمل الفرع . وقيل : واد فى الطريق يقطعه المصعدون من حجاج المدينة . (عن شرح المواهب) .

(٤) الموادعة : المصالحة .

(٥) بواط (بفتح الموحدة وقد تضم وتخفيف الواو وآخره طاء مهملة) : جبل من جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة بُرُد من المدينة .

(٦) رضوى (بفتح الراء وسكون المعجمة مقصور) : جبل بالمدينة، وهو على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة .

ولم يلق حربا ، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى، ثم خرج غازيا واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وأخذ على طريق مِلْكٍ (١) إلى العسيرة .

قلت : ذكر ابن إسحاق عن عمّار بن ياسر قال : كنت أنا وعلىّ بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العشيرة من بَطْن يَنْبُع فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهرا فصالح بها بنى مُدلج وحلفاءهم من بنى ضَمْرة فوادعهم؛ فقال لى علىُّ بنُ أبى طالب : هل لك أبا اليَقْظان أن تأتى هؤلاء ؟ نَفَرٌ من بنى مُدْلج يعملون فى عَيْن لهم ننظر كيف يعملون . فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة ثم غشِيَنا النّوم فعمَدنا إلى صَوْر (٢) بين النخل فى دَقْعاءَ من الأرض فنِمْنا فيه ؛ فوالله ما أَهَبَّنَا إلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقَدمه ؛ فجلسنا وقد تترّبْنا من تلك الدقعاء فيؤمئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "مالَكَ يا أبا تُراب"؛ فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال : "ألاَ أخبركم بأشقَى الناسِ رجلين" قلنا : بلى يارسول الله؛ فقال : "أُحَيْمِرُ ثمودَ الذى عقر الناقة والذى يضربك يا علىُّ على هذه — ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسه — حتى يَبُلَّ منها هذه" ووضع يده على لحيته . فقال أبو عمر : فأقام بها بقيّة جُمادى الأولى وليالِ من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مُدْلِج ثم رجع ولم يَلْقَ حَرْباً . ثم كانت بعد ذلك غزوة بَدْرٍ الأولى بأيام قلائل ، هذا الذى لا يشكّ فيه أهلُ التواريخ والسِّير، وزيد بن أرْقم إنما اخبر عما عنده . والله أعلم . ويقال : ذات العُسَير بالسين والشين، ويزاد عليها هاء فيقال : العشيرة . ثم غزوة بَدْرٍ الكبرى وهى أعظم المشاهد فضلاً لمن شَهِدها ، وفيها أمدّ الله بملائكته نبيَّه والمؤمنين فى قول جماعة العلماء، وعليه يدلّ ظاهر الآية، لا فى يوم أُحد . ومن قال : إن ذلك كان يوم أُحُد جعل قولَه تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ » إلى قوله : « تَشْكُرُونَ » اعتراضا بين الكلامين . هذا قول عامر الشّعبىّ ، وخالفه الناس . وتظاهرت الروايات بأنّ الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت؛ ومن ذلك قولُ أَبِى أَسَيدٍ مالكِ بنِ ربيعة وكان شهِدَ

---

(١) ملك (بالكسر ثم السكون والكاف) : واد بمكة .

(٢) الصور : جماعة النخل الصغار؛ لا واحد له من لفظه .

بَدْر : لو كنتُ معكم الآن بِبَدْر ومعِي بصرى لأريتكم الشِّعْب(١) الذى خرجت منه الملائكةُ ، لا أشك ولا أمْترِى . رواه عقيل عن الزُّهرى عن أبى حازم سلمةَ بن دينار . قال ابن أبى حاتم : لا يُعرف للزُّهرى عن أبى حازم غيرُ هذا الحديث الواحد ، وأبو أُسَيد يقال إنه آخر من مات من أهل بَدْر ؛ ذكره أبو عمر فى الاستيعاب وغيره . وفى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطّاب قال : « لما كان يومُ بَدْر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابُه ثلاثمائةٍ وتسعةَ عشرَ رجلا ، فاستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القبلةَ ثم مَدّ يديه فجعل يهتف بربّه : "اللّهمَّ أنجِز لِى ما وَعَدْتَنِى اللّهمَّ آتِ ما وعدتنى اللّهُمَّ إن تُهلِك هذه العصابةَ من أهل الإسلام لا تُعْبَد فى الأرض" فما زال يهتِف بربّه مادًّا يديه مستقبل القِبلة حتى سقط رداؤه عن منْكِبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منْكِبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبىّ الله ، كفاك مُنَاشَدَتُك ربّك ، فإنهُ سيُنْجِز لك ما وعدَك ؛ فأنزل الله تعالى : « إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » فأمدّه الله تعالى بالملائكة . قال أبو زُمَيل(٢) : فحدّثنى ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتدّ فى أثر رجل من المشركين أمامَه إذ سمِع ضربة بالسوط فوقه وصوتَ الفارس يقول : أَقْدِم حيْزُوم(٣) ؛ فنظر إلى المُشْرِك أمامَه فخرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفُه وشُقّ وجهُه [كضربة السوط(٤)] فاخضرّ ذلك أجمعُ . فجاء الأنصارىّ فحدّث ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : "صدقتَ ذلك من مَدَد السماء الثالثة" فقتلوا يومئذ سبعين وأَسَرُوا سبعين . وذكر الحديث . وسيأتى تمامه فى آخر « الأنفال » إن شاء الله تعالى . فتظاهرت السُّنّة والقرآن على ما قاله الجمهور ، والحمد لله . وعن خارجة بن ابراهيم عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : "مَنِ القائل يوم بدر من الملائكة أَقْدِمْ حيْزُومُ" ؟ فقال جبريل : "يا محمد ما كل سماء أعرف" . وعن علىّ رضى الله عنه أنه خطب الناس فقال : بينا أنا أمتح من قَلِيب بَدْر جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قطُّ ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قطُّ إلا التى كانت

(١) الشعب (بالكسر) : الطريق فى الجبل . (٢) أبو زميل (بالتصغير) هو سماك بن الوليد . (تهذيب التهذيب) .
(٣) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة . (٤) زيادة عن صحيح مسلم .

قبلها . قال : وأظنه ذكر : ثم جاءت ريح شديدة ، فكانت الريح الأُولى جبريلَ نزل فى ألفٍ من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وكانت الريح الثانيـة مِيكائيلَ نزل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة إسرافيل نزل فى ألف من الملائكة عن مَيْسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى المَيْسرة . وعن سهل بن حُنيف رضى الله عنه قال : لقد رأيتُنا يوم بَدْر وأنّ أحدَنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يصل إليـه . وعن الرّبيع بن أنس قال : كان الناس يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضربٍ فوق الأعناق وعلى البنان مثل سِمَة النار قـد أحرِق به ؛ ذكر جميعه البَيْهَقِىُّ رحمه الله . وقال بعضهم : إن الملائكة كانوا يقاتلون وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة ؛ لأن كل موضع أصابت ضربتهم اشتعلت النار فى ذلك الموضع ، حتى ان أبا جهل قال لابن مسعود : أنت قتلتنى ؟ ! إنمـا قتلنى الذى لم يصل سِنانى إلى سُنْبُك فرسه وإن ٱجتهدتُ . و إنمـا كانت الفائدة فى كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكةَ مجاهدين إلى يوم القيامة ؛ فكلُّ عَسْكر صَبَر واحتسب تأتيهم الملائكة و يقاتلون معهم . وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنمـا يكونون عددا أو مددا . وقال بعضهم : إنمـا كانت الفائدة فى كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون ويسبّحون ، و يكثّرون الذين يقاتلون يومئذ . فعلى هـذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر و إنما حضروا للدعاء بالتثبيت ، والأول أكثر . قال قَتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدّهم الله بألفٍ ثم صاروا ثلاثةَ آلاف ، ثم صاروا خمسةَ آلاف ؛ فذلك قولُه تعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِـدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » وقولُه : « أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ » وقولُه : « بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » فصـبر المؤمنون يوم بَدْر واتّقوا الله فأمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم ؛ فهذا كله يوم بدر . قال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف رِدْءٌ للمؤمنين إلى يوم القيامة . قال الشَّعْبىّ : بلغ النبىّ

صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كُرْز بن جابر المُحارِبىّ يريد أن يُمِدّ المشركين فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ — إلى قوله : مُسَوِّمِينَ ﴾ فبلغ كُرْزًا الهزيمةُ فلم يُمدّهم ورجع ، فأمدّهم الله أيضا بالخمسة آلاف ، وكانوا قد مُدّوا بألف . وقيل : إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته ، واتّقوا محارمه أن يمدّهم أيضا فى حروبهم كلّها ، فلم يصبروا ولم يتّقوا محارمه إلا فى يوم الأحزاب ، فأمدّهم حين حاصروا قُرَيظة . وقيل : إنما كان هذا يوم أُحُد ، وعدهم الله المَدَدَ إن صبروا ، فما صبروا فلم يُمَدّوا بمَلَك واحد ، ولو أُمِدّوا لما هُزِموا ؛ قاله عِكرمة والضّحاك . فإن قيل : فقد ثبت عن سعد ابن أبى وَقّاص أنه قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم بدر رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عليه أشدّ قتال ، ما رأيتهما قُبل ولا بُعد . قيل له : لعلّ هذا مختصّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، خصّه بملَكين يقاتلان عنه ولا يكون هذا إمدادا للصحابة . والله أعلم .

الثانيــة — نزول الملائكةِ سببٌ من أسباب النّصر لا يحتاج إليه الربّ تعالى ، و إنما يحتاج إليه المخلوقُ فليعلّق القلبَ بالله ولْيثِق به ، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ؛ « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التى قد خَلَت من قبلُ ، «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا» ، ولا يقدح ذلك فى التوكّل . وهو يردّ على من قال : إن الأسباب إنما سُنّت فى حق الضعفاء لا للأقوياء ؛ فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء ؛ وهذا واضح . و«مدّ» فى الشر و«أمدّ» فى الخير . وقد تقدّم فى البقرة (1) . وقرأ أبو حَيْوة «منزِلين» بكسر الزاى مخففا ، يعنى منزِلين النّصر . وقرأ ابن عامر مشدّدة الزاى مفتوحة على التكثير . ثم قال : ﴿ بَلَى ﴾ وتمّ الكلام . ﴿ إِن تَصْبِرُوا ﴾ شرط ، أى على لِقاء العدوّ . ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ عطف عليه ، أى معصيته . والجواب ﴿ يُمْدِدْكُمْ ﴾ . ومعنى ﴿ مِن فَوْرِهِم ﴾ من وجههم . هذا عن عِكرمة وقَتادة والحسن

(1) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

والرّبيع والسُّدّى وابنِ زيد . وقيل : مِن غضبهم؛ عن مجاهد والضحاك . كانوا قد غضبوا يوم أُحُد ليوم بَدْر ممـا لقوا . وأصل الفَوْر القصدُ إلى الشىء والأخذُ فيه بِجِد؛ وهو من قولهم : فارتِ القِدْر تفور فَوْرا وفوَرَانا إذا غَلَت . والفَوْر الغَلَيانُ . وفار غضبُه إذا جاش . وفَعَلَه من فَوْره أى قبـل أن يسكن . والفوّارة ما تفور من القِدْر . وفى التنزيل « وَفَارَ التَّنُّورُ » . قال الشاعر :

* تفور علينا قِدرهم فنديمها *

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ مُسَوَّمِينَ ﴾ بفتح الواو اسم مفعول، وهى قراءة ابن عامر وحمزة والكِسائِى ونافع . أى مُعَلَّمين بعلامات . و« مُسَوِّمين » بكسر الواو اسم فاعل، وهى قراءة أبى عمرو وآبن كثير وعاصم؛ فيحتمل من المعنى ما تقدّم، أى قد أعلَموا أنفسهم بِعلامة، وأعلموا خيلهم . ورجح الطبرِىّ وغيرُه هذه القراءة . وقال كثير من المفسرين : مسوِّمين أى مرسِلين خيلهم فى الغارة . وذكر المَهْدَوِىّ هذا المعنى فى «مُسَوَّمين» بفتح الواو، أى أرسلهم الله تعالى على الكفار . وقاله ابن فُورَك أيضا . وعلى القراءة الأولى اختلفوا فى سِيما الملائكة؛ فرُوى عن على بن أبى طالب وابن عباس وغيرِهما أن الملائكة آعتَمّت بعمائم بِيضٍ قد أرسلوها بين أكتافهم؛ ذكره البَيْهَقِىّ عن ابن عباس، وحكاه المَهْدَوِىّ عن الزجاج . إلا جبريل فإنه كان بعمامة صفراء على مِثال الزّبير بن العوام، وقاله آبن إسحاق . وقال الربيع : كانت سِيماهم أنهم على خَيْل بُلْق .

قلت : ذكر البَيْهَقِىّ عن سُهيل بن عمرو رضى الله عنـه قال : لقـد رأيت يوم بدر رجالا بِيضًا على خَيْلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض مُعَلَّمين يَقتلون ويأسِرون . فقوله «معلّمين» دلّ على أن الخيل البُلْق ليست السِّيما . والله أعلم . وقال مجاهد : كانت خيلهم مَجْزُوزة الأذناب والأعراف مُعلَّمة النواصى والأذناب بالصُّـوف والعِهْن[١] . ورُوى عن ابن عباس : تسومت الملائكة يوم بدر بالصوف الأبيض فى نواصى الخيل وأذنابها . وقال عباد بن عبد الله بن الزبير وهِشام بن عُروة الكَلْبى : نزلت الملائكة فى سِيما الزبير عليهم عمائم صُفْر مرخاة على أكتافهم . وقال ذلك عبد الله وعروة ابنا الزُّبير . وقال عبد الله : كانت ملاءة صفراء آعتمّ بها الزبير رضى الله عنه .

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ ألوانا .

قلت : ودلت الآية — وهى الرابعة — على ٱتخاذ العلامة للقبائل والكتائب يجعلها السلطان لهم لتتميّز كلّ قبيلة وكَتيبة من غيرها عند الحرب ، وعلى فضل الخيل البلق لنزول الملائكة عليها .

قلت : — ولعلها نزلت عليها مُوافِقة لفرس المِقداد، فإنه كان أبْلَق ولم يكن لهم فرس غيره، فنزلت الملائكة على الخيل البُلْق إكراما للمقداد؛ كما نزل جبريل مُعْتَجِرًا بعمامة صفراء على مِثال الزّبير . والله أعلم .

ودلت الآية أيضا — وهى الخامسة — على لِباس الصوف وقد لبِسه الأنبياء والصالحون . وروى أبو داود وابن ماجه واللفظ عن أبى بُرْدة عن أبيه قال قال لى أبى : لو شهِدتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء لحسِبت أن رِيحنا ريح الضأن . ولبس صلى الله عليه وسلم جُبة رُومِيّة من صوفٍ ضيّقة الكُمّين ؛ رواه الأئمة . ولبِسها يونس عليه السلام ؛ رواه مسلم . وسيأتى لهذا المعنى مزِيد بيان فى «النحل» إن شاء الله تعالى .

السادسة — قلت : وما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت محزوزة الأذناب والأعراف فبعيد ؛ فإن فى مُصنّف أبى داود عن عُتبة بن عبد السّلمى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تَقُصُّوا نواصى الخيل ولا معارفها ولا أذنابها فإن أذنابها مَذابُّها ومعارَفها دفاؤها ونواصيها معقود فيها الخير" . فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة . والله أعلم .

ودلّت الآية على حسن الأبيض والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك ، وقد قال ٱبن عباس : من لبس نعلا أصْفَر قُضيت حاجته . وقال عليه السلام : "الْبَسُوا من ثيابكم البياض فإنه من خير ثيابكم وكَفّنوا فيه موتاكم وأما العمائم فتيجان العرب ولباسها" . وروى رُكَانةُ وكان صارع النبىّ صلى الله عليه وسلم فصرعه النبىّ صلى الله عليه وسلم، قال رُكَانة : وسمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "فَرْق ما بيننا وبين المشركين العمائمُ على القلانس" أخرجه أبو داود . قال النحاس : إسناد مجهول لا يُعرف سماع بعضه من بعض .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ الهاء للمَدَد، وهو الملائكة . أو الوعد أو الإمداد، ويدل عليه « يمددكم » أو للتسويم أو للإنزال أو العدد على المعنى ؛ لأن خمسة آلاف عدد . ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ اللام لام كى، أى ولتطمئن قلوبكم به جعله ؛ كقوله : «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا» أى حفظا لها جعل ذلك. ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ يعنى نصر المؤمنين، ولا يدخل فى ذلك نصر الكافرين؛ لأن ما وقع لهم من غلبة إنما هو إملاء محفوف بخذلان وسوء عاقبة وخُسْران . ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بالقتل . ونظم الآية : ولقد نصركم الله ببدر ليقطع . وقيل : المعنى وما النصر إلا من عند الله ليقطع . ويجوز أن يكون متعلّقا بيمددكم، أى يمددكم ليقطع . والمعنى : من قتل من المشركين يوم بدر؛ عن الحسن وغيره . السُّدِّى : يعنى به مَن قُتِل من المشركين يوم أُحُد وكانوا ثمانيةَ عشرَ رجلا . ومعنى ﴿ يَكْبِتَهُمْ ﴾ يحزنهم؛ والمكبُوت المحزون . ورُوِى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبى طلحة فرأى ٱبنَه مَكْبُوتًا فقال : " ما شأنه " ؟ . فقيل : مات بعيره . وأصله فيما ذكر بعض أهل اللغة « يكبِدهم » أى يصيبهم بالحزن والغيظ فى أكبادهم ، فأبدلت الدال تاء ، كما قلبت فى سَبَت رأسه وسَبَده أى حلقه . كَبَت الله العدوّ كَبْتاً إذا صرفه وأذلّه ، وكَبَده أصابه فى كبده؛ يقال : أحرق الحزن كبده، وأحرقت العداوة كبده . وتقول العرب للعدوّ : أسود الكبد؛ قال الأعشى :

فما أجْشِمتُ[1] من إتيانِ قومٍ * هـمُ الأعداء فالأكبادُ سُودُ

كأن الأكباد لما احترقت بشدّة العداوة ٱسودت . وقرأ أبو مِجْلَز «أو يكبِدهم» بالدال . والخائب : المنقطع الأمل . خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب . والخيّاب : القِدْح لا يُورِى .

(١) أجشمت : كلفت على مشقة .

قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مُسلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كُسرت رَباعِيتُه يوم أُحُد، وشُجّ فى رأسه، فجعل يَسْلُت الدم عنه ويقول : "كيف يُفلح قوم شَجّوا رأس نبيّهم وكسروا رباعِيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى" . فأنزل الله تعالى «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» . الضحاك : هَمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يَدعُوَ على المشركين فأنزل الله تعالى : «ليس لك مِن الأمرِ شىء» . وقيل : استأذن فى أن يَدعُوَ فى استئصالهم، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيُسلِم وقد آمن كثيرٌ منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاصى وعِكْرمة بن أبى جهل وغيرهم . وروى التِّرمِذىّ عن ابن عمر قال : وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر فأنزل الله عز وجل « ليس لكَ مِن الأمر شىء » فهداهم الله للإسلام . وقال : هذا حديث حَسَن غريب صحيح . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هو معطوف على «لِيَقْطَعَ طَرَفًا» . والمعنى : ليقتل طائفة منهم أو يخزيهم بالهزيمة أو يتوب عليهم أو يعذّبهم. وقد تكون «أو» هاهنا بمعنى « حتى » و « إلا أن » . قال آمرؤ القيس :

* ... أو نموتَ فنعذَرَا *

قال علماؤنا : قوله عليه السلام : "كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيهم" استبعاد لِتوفيق من فعل ذلك به . وقوله تعالى : «ليس لك مِن الأمرِ شىء» تقريب لما استبعده وإطماع فى إسلامهم، ولما أطمِع فى ذلك قال صلى الله عليه وسلم : "اللّهمّ آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" كما فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : كأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : " رَبِّ اغفر لقومى فإنهم

لا يعلمون". قال علماؤنا : فالحاكى فى حديث ابن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو المحكى عنه؛ بدليل ما قد جاء صريحا مبيّنا أنه عليه الصلاة والسلام لما كسرت رباعيتُه وشُجّ وجهــه يوم أُحُد شَقّ ذلك على أصحـابه شَقًّا شـديدا وقالوا : لو دعوت عليهم ! فقال : " إنى لم أُبعث لَعَّانًا ولكن بعثتُ داعِيًا ورحمــةً اللّهُمّ اغفر لقومى فإنهم لايعلمون ". فكأنه عليه السلام أوحى إليه بذلك قبل وقوع قِضيّة أحُد، ولم يُعيَّن له ذلك الشىء؛ فلما وقع له ذلك تعيّن أنه المعْنِىُّ بذلك بدليل ماذكرنا . ويبينه أيضا ما قاله عمر له فى بعض كلامه : بأبى أنت وأمى يارسول الله! لقــد دعا نوح على قومه فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » الآية. ولو دعوتَ علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا؛ فلقد وُطِئ ظهرك وأدْمِى وجهك وكُسرت رَباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلتَ : "رَبّ اغفر لقومى فإنهم لايعلمون" . وقوله : " اشتد غضب الله على قوم كسروا رَباعية نبيّهم " يعنى بذلك المباشَر لذلك ، وقد ذكرنا اسمه على اختلاف فى ذلك ، وإنما قلنا إنه خصوص فى المباشر لأنه قد أسلم جماعة ممن شهد أُحدا وحَسُن إسلامهم .

الثانيـــة — زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخةٌ للقنوت الذى كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع فى الركعة الأخيرة من الصبح، واحتجّ بحديث ابن عمر أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فى صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال : " اللّهُمّ ربّنا ولك الحمد فى الآخرة " — ثم قال — " اللّهُمّ العن فلانا وفلانا " فأنزل الله عز وجل « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم » الآية . أخرجه البخارىّ ، وأخرجه مسلم أيضا من حديث أبى هريرة أتمّ منه . وليس هذا موضع نسخ وإنمـا نبّه الله تعالى نبيَّه على أن الأمر ليس إليه ، وأنه لايعلم من الغيب شيئا إلا ما أعلمه ، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويعجّل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شىء ولله مافى السموات وما فى الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء . فلا نسخ ، والله أعلم . وبيّن بقوله : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ » أن الأمر بقضاء الله وقدره رَدًّا على القَدَرِيّة وغيرهم .

الثالثة — واختلف العلماء فى القنوت فى صلاة الفجر؛ فمنع الكوفيون منه فى الفجر وغيرها. وهو مذهب الليث ويحيى بن يحيى الليثى الأندلسى صاحب مالك، وأنكره الشّعبيّ. وفى الموطّأ عن ابن عمر: أنه كان لا يَقْنُت فى شىء من الصلاة. وروى النَّسائى أنبأنا قُتيبة عن خلف عن أبى مالك الأشجعيّ عن أبيه قال: صلّيت خَلْفَ النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يَقْنُت، وصلّيتُ خلف أبى بكر فلم يقنت، وصلّيت خلف عمرَ فلم يقنت، وصلّيت خلف عثمانَ فلم يقنت، وصلّيت خلف علىّ فلم يقنت؛ ثم قال: يابنىّ إنها بدعة. وقيل: يقنت فى الفجر دائما وفى سائر الصلوات إذا نزل بالمسلمين نازلة؛ قاله الشافعيّ والطَّبَرَى. وقيل: هو مستَحَب فى صلاة الفجر، وروى عن الشافعيّ. وقال الحسن وسُحْنون: إنه سُنّة. وهو مقتضى رواية علىّ بن زياد عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمدا. وحكى الطبرىّ الإجماعَ على أن تركه غيرُ مفسد للصلاة. وعن الحسن: فى تركه سجود السّهو؛ وهو أحد قولى الشافعيّ. وذكر الدّارَقُطْنِيّ عن سعيد ابن عبد العزيز فيمن نسِى القنوت فى صلاة الصبح قال: يسجد سجدتى السّهو. واختار مالك قبل الركوع؛ وهو قول إسحاق. ورُوى أيضا عن مالك بعد الركوع، ورُوى عن الخلفاء الأربعة، وهو قول الشافعيّ وأحمد وإسحاق أيضا. ورُوى عن جماعة من الصحابة التخييرُ فى ذلك. ورَوى الدَّارَقُطْنِيّ بإسناد صحيح عن أنس أنه قال: ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْنُت فى صلاة الغداة حتى فارق الدنيا. وذكر أبو داود فى المراسيل عن خالد بن أبى عِمران قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على مُضَرَ إذ جاءه جبريل فأومأ إليه أن آسْكُتْ فسكت؛ فقال: "يا محمد إن الله لم يبعثك سَبّابا ولا لَعّانا وإنما بعثك رحمةً ولم يبعثك عذابا، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾" قال: ثم علّمه هذا القنوت فقال: "اللّهمّ إنّا نَستعينُكَ ونَستغفِرُكَ ونُؤمِنُ بك ونَخْنَع[1] لك ونَخْلَع ونترك من يَكْفُرك اللّهُمّ إيّاكَ نعبد ولكَ نُصلِّي ونَسْجُد وإليك نَسْعَى ونَحْفِد[2] نرجُو رحمتك ونخاف عذابك الجِدّ إنّ عذابك بالكافرين مُلْحَق[3]".

(١) الخنوع: الخضوع والذل.　(٢) الحفد (بفتح فسكون): الإسراع فى العمل والخدمة.
(٣) الرواية بكسر الحاء، أى من نزل به عذابك ألحقه بالكفار. وقيل: هو بمعنى لاحق، لغة فى لحق. ويروى بفتح الحاء على المفعول، أى إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به. (عن ابن الأثير).

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ هذا النّهى عن أكل الربا اعتراض بين أثناء قِصة أُحُد . قال ابن عطية : ولا أحفظ فى ذلك شيئا مَرْوِيًّا .

قلت : قال مجاهد : كانوا يبيعون البيع إلى أجل ، فإذا حلّ الأجلُ زادوا فى الثمن على أن يُؤَخّروا ؛ فأنزل الله عز وجل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً» . وإنما خص الربا من بين سائر المعاصى لأنه الذى أذن فيه بالحرب فى قوله : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» والحرب يُؤذِن بالقتل ؛ فكأنه يقول : إن لم تَتّقوا الرِّبَا هُزِمتم وقُتلتم . فأمرهم بترك الربا لأنه كان معمولًا به عندهم . والله أعلم . و ﴿أَضْعَافًا﴾ نصب على الحال و ﴿مُضَاعَفَةً﴾ نعته . وقرئ «مضعّفة» ومعناه : الربا الذى كانت العرب تضعّف فيه الدَّين ، فكان الطالب يقول : أَتَقْضِى أم تُرْبِى ؟ كما تقدّم فى «البقرة»(1) . و ﴿ مُضَاعَفَةً ﴾ إشارة إلى تكرار التّضعيف عامًا بعد عامٍ كما كانو يصنعون ؛ فدلّت هذه العبارة المؤكّدة على شُنعة فعلهم وقُبْحه ولذلك ذكرت حالة التّضعِيف خاصّةً .

قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى فى أموال الرّبا فلا تأكلوها . ثم خوّفهم فقال : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال كثير من المفسرين : وهذا الوعيد لمن استحلّ الرّبا ، ومن استحلّ الرّبا فإنه يكفر . وقيل : معناه اتّقُوا العملَ الذى يَنزِع منكم الإيمان فتستوجبون النار ؛ لأن من الذنوب ما يستوجب به صاحبُه نَزْعَ الإيمان ويُخاف عليه ؛ من ذلك عقوق الوالدين . وقد جاء فى ذلك أَثَرٌ : أن رجلا كان عاقًا لوالديه يقال له عَلْقمة ؛ فقيل له عند الموت : قلْ لا إله إلا الله ، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمُّه فرضيت عنه . ومن ذلك قطيعة الرَّحِم وأكلُ الربا والخيانةُ

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

فى الأمانة . وذكر أبو بكر الورّاق عن أبى حنيفة أنه قال : أكثرُ ما ينزع الإيمان من العبد عند الموت . ثم قال أبو بكر : فنظرنا فى الذّنوب التى تنزع الإيمان فلم نجد شيئا أسرعَ نزعًا للإيمان من ظلم العباد . وفى هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة ردًّا على الجَهْمِيّة لأن المعدوم لا يكون مُعَدًّا . ثم قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ فى السُّنَن . وقيل : «أَطِيعوا الله» فى تحريم الربا « والرَّسُولَ » فيما بلّغكم من التحريم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى كى يرحمكم الله . وقد تقــدّم .

قوله تعـالى : وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر « سارِعوا » بغير واو، وكذلك فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ باقى السبعة «وسارِعوا» بالواو . وقال أبو علىّ : كِلَا الأمرين شائع مستقيم، فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجمـلة على الجملة، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانيــة ملتبسةٌ بالأولى مستغنيةٌ بذلك عن العطف بالواو . والمسارعة المبادرة، وهى المغلطة . وفى الآية حذف، أى سارعوا إلى ما يوجب المغفرةَ وهى الطاعة . قال أنس ابن مالك ومَكْحُول فى تفسير « سارِعوا إلى مغفرةٍ مِن ربكم » : معنـاه الى تكبيرة الإحرام . وقال علىّ بن أبى طالب : إلى أداء الفرائض . عثمان بن عفّان : إلى الإخلاص . الكَلْبىّ : إلى التوبة من الرِّبا . وقيل : إلى الثبات فى القتال . وقيل غير هذا . والآيةُ عامّة فى الجميع، ومعناها معنى « فَاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ » (1) وقد تقدّم .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ تقـديره كعرض فحذف المضاف، كقوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » أى إلا كخَلْق نفس واحدة و بَعْثِها . قال الشاعر :

(1) راجع جـ ٢ ص ١٦٥ طبعة ثانية .

حسِبتَ بغامَ راحِلتى عناقاً * وما هى وَيْبَ غيرِك بالعَناق (١)

يريد صوت عَناق . نظيره فى سورة الحديد « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

واختلف العلماء فى تأويله ؛ فقال ابن عباس : تُقْرَن السموات والأرض بعضُها إلى بعض كما تبسط الثياب ويُوصل بعضها ببعض ؛ فذلك عَرْض الجنة ، ولا يعلم طولَها إلا الله . وهذا قول الجمهور ، وذلك لا يُنكر ؛ فإن فى حديث أبى ذَرٍّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "ما السموات السبع والأَرَضون السبع فى الكرسيّ إلا كدراهمَ أُلقيت فى فَلاةٍ من الأرض وما الكُرْسىُّ فى العرش إلا كَحَلْقة ألقيت فى فلاة من الأرض" . فهذه مخلوقات أعظم بكثير جدًّا من السموات والأرض ، وقدرة الله أعظم من ذلك كله . وقال الكَلْبى : الجنان أربعة : جنة عَدْن وجنة المأْوَى وجنـة الفِرْدَوس وجنّة النَّعيم ، وكلّ جَنّة منها كعرض السماء والأرض لو وُصل بعضُها ببعض . وقال إسماعيل السُّدِّى : لو كسرت السموات والأرض وصِرْن خَرْدلا ، فبِكُلّ خَرْدَلة جنّةٌ عرضُها كعرض السماء والأرض . وفى الصحيح : " إن أَدْنَى أهلِ الجنة منزلةً مَن يتمنَّى ويتمنَّى حتى إذا انقطعت به الأمانى قال الله تعالى : لكَ ذلك وعشرةُ أمثاله" رواه أبو سعيد الخدرىّ ، خرّجه مسلم وغيره . وقال يَعْلَى بن أبى مُرّة : لَقِيت التَّنُوخىّ رسولَ هِرَقْل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بِحِمص شيخا كبيرا قال : قدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هِرَقْل ، فناول الصحيفةَ رجلا عن يساره ؛ قال : فقلت مَن صاحبكم الذى يقرأ ؟ قالوا : معاوية ؛ فاذا كتاب صاحبى : إنك كتبتَ تدعونى إلى جنّـة عَرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحانَ الله فأين الليل إذا جاء النهار" .
وبمثل هـذه الحجة استدلّ الفاروق على اليهود حين قالوا له : أرأيت قولكم « وجنّة عرضها السموات والأرض » فأين النار ؟ فقالوا له : لقد نَزَعْت بما فى التوراة (٢) . ونبّه تعالى بالعَرْض على الطول لأن الغالب أن الطُّول يكون أكثر من العرض ، والطول إذا ذكر لا يدلّ على قدر

---

(١) بغام الناقة : صوت لا تفصح به . والعناق (بالفتح) : الأنثى من المعز . وويب ؛ بمعنى ويل . والبيت لذى الخِرَق الطّهَوىّ يخاطب ذئبا تبعه فى طريقه . (عن اللسان) . (٢) نزعت بما فى التوراة : جئت بما يشبهها .

العرض . قال الزُّهْرِى : إنما وصف عَرْضَها ، فأما طُولها فلا يعلمه إلا الله ؛ وهذا كقوله تعالى : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » فوصف البِطانة بأحسن ما يُعلم من الزينة ، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسنَ وأتقنَ من البطائن . وتقول العرب : بلادٌ عريضة ، وفلاة عريضة ، أى واسعة ؛ قال الشاعر :

كأنّ بلادَ الله وهى عريضةٌ * على الخائف المطلوب كِفّةُ حابِلِ (١)

وقال قوم : الكلام جارٍ على مَقْطع العرب من الاستعارة ؛ فلما كانت الجنة من الاتّساع والانفساح فى غايةٍ قُصْوَى حسُنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض ؛ كما تقول للرجل : هذا بحر ، ولشخص كبير من الحيوان : هذا جبل . ولم تَقْصِد الآيةُ تحديدَ العرض ، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه . وعامّةُ العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة ؛ لقوله « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » وهو نص حديث الإسراء وغيره فى الصحيحين وغيرهما . وقالت المعتزلة : إنهما غير مخلوقتين فى وقتنا ، و إن الله تعالى إذا طَوَى السموات والأرضَ ٱبتدأ خلقَ الجنةِ والنارِ حيث شاء ؛ لأنهما دارُ جزاء بالثواب والعقاب ، فخلقتا بعد التكليف فى وقت الجزاء ؛ لئلا تجتمع دار التكليف ودار الجزاء فى الدنيا ، كما لم يجتمعا فى الآخرة . وقال ٱبن فُورَك : الجنة يزاد فيها يوم القيامة . قال ابن عطيّة : وفى هذا متعلّق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال : إن الجنة لم تخلق بعدُ . قال ابن عطية وابنُ فُورَك : « يزاد فيها » إشارة إلى موجود ، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العُذْر فى الزيادة .

قلت : صدق ابن عطيّة رضى الله عنه فيما قال . و إذا كانت السموات السبع والأرَضُون السبع بالنّسبة إلى الكرسى كدراهمَ أُلْقِيت فى فلاة من الأرض ، والكرسىّ بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ؛ فالجَنّةُ الآن على ماهى عليه فى الآخرة عرضُها كعرض السموات والأرض ؛ إذ العرش سَقْفُها ، حسب ما ورد فى صحيح مسلم ، ومعلوم أن السقف يحتوى على ماتحته و يزيد . و إذا كانت المخلوقات كلّها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذى يقدّره ويعلم طوله وعرضَه إلا الله خالقه الذى لانهاية لقدرته ، ولا غاية لسَعَة مملكته ، سبحانه وتعالى .

(١) الكفة (بالكسر) : مايصاد به الظباء ، يجعل كالطوق .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٣٤

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ هذا من صفة المتّقين الذين أعِدّت لهم الجنة . وظاهر الآية أنها مدحٌ بفعل المندوب إليه . و﴿السرّاء﴾ اليسر ﴿والضرّاء﴾ العسر ؛ قاله ابن عبـاس والكَلْبيّ ومُقاتل . وقال عبيد بن عُمير والضحاك : السراء والضَّراء الرَّخاءُ والشدّة . ويقال فى حال الصحة والمرض . وقيل : فى السراء فى الحياة ، وفى الضراء يعنى يوصى بعـد الموت . وقيـل : فى السراء فى العرس والولائم . وفى الضراء فى النوائب والمآتم . وقيـل : فى السراء النفقة التى تسرّكم ؛ مثل النفقة على الأولاد والقرابات . والضراء على الأعداء . ويقال : فى السراء مايضيف به الفتى ويُهْدَى إليه . والضراء ماينفقه على أهل الضرّ ويتصدّق به عليهم .

قلت : — والآية تعمّ . ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ وهى المسألة :

الثانيـــة — وكَظْمُ الغيظ ردُّه فى الجوف ؛ يقال : كَظَم غيظَه أى سكتَ عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوّه . وكَظمتُ السِّقاء أى ملأته وسددت عليه . والكِظَامة ما يُسدّ به مجرى المـاء ؛ ومنه الكِظام للسير الذى يُشدّ به فم الزِّق والقِرْبة . وكَظَم البعيرُ جِرّته[1] إذا ردّها فى جوفه ؛ وقد يقال لحبسه الجِرّة قبل أن يرسلها إلى فِيه : كظم ؛ حكاه الزجاج . يقال : كَظَم البعير والناقةُ إذا لم يجترّا ؛ ومنه قول الراعى :

فأفضْنَ بعـد كُظومِهنّ بِجـرّةٍ * من ذى الأبارِق إذ رَعَيْنَ حَقِيلا

الحَقِيل : موضع . والحَقِيل نَبْتٌ . وقد قيل : إنها تفعل ذلك عند الفزع والجَهد فلا تَجْتَرّ . قال أَعْشَى باهِلةَ يصف رجلا نحّارا للإبل فهى تفزع منه :

قد تَكْظِم البُزْلُ[2] منه حين تُبصِره * حتى تَقَطّع فى أجوافهـا الجِرَر

(١) الجرة (بالكسر) : ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه .

(٢) البزل (بضم فسكون) : جمع بازل ، وهو البعير الذى استكمل الثامنة وطعن فى التاسعة وفطر نابه .

ومنه : رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئا غمًّا وحزنًا . وفى التنزيل : « وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » . «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ» . «إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ» . والغيظ أصل الغضب ، وكثيرا ما يتلازمان لكن فُرْقانُ ما بينهما أن الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر فى الجوارح مع فعل مّا ولا بدّ؛ ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارةٌ عن أفعاله فى المغضوب عليهم . وقد فسّر بعضُ الناس الغيظَ بالغضب؛ وليس بجيد . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ العَفْوُ عن الناس أَجَلُّ ضروبِ فعلِ الخير؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفُوَ حيث يتّجه حقّه . وكلُّ من استحق عقوبةً فتُركت له فقد عُفِيَ عنه . واختلف فى معنى «عنِ الناسِ»؛ فقال أبو العالية والكَلْبِي والزّجاج: «والعافين عنِ الناسِ » يريد عن المماليك . قال ابن عطيّة : وهذا حَسَن على جهة المثال؛ إذ هم الخدمة فهم يذنبون كثيرا والقُدْرة عليهم متيسّرة، و إنفاذ العقوبة سهل؛ فلذلك مثّل هذا المفسِّر به .
ورُوى عن مَيْمون بن مهران أن جاريتَه جاءت ذات يوم بصحيفة فيها مَرَقة حارّة، وعنده أضياف فعَثَرَت فصبّت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية : يامولاى، استعمل قول الله تعالى : «وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ» . قال لها : قد فعلتُ . فقالت : اعمل بما بعده «والعافين عنِ الناسِ» . فقال: قد عفوتُ عنك . فقالت الجارية : «والله يحب المحسنين» .قال ميمون : قد أحسنتُ إليكِ، فأنتِ حُرّة لوجه الله تعالى . ورُوى عن الأحنف مثلُه . وقال زيد بن أسلم : « والعافين عنِ الناسِ » عن ظلمهم وإساءتهم . وهذا عامٌّ؛ وهو ظاهر الآية . وقال مُقاتل بن حيان فى هذه الآية : بَلَغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك : ” إنّ هؤلاء من أمّتى قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت “ . فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب واثنى عليهم فقال: «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» ، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله : « والعافين عنِ الناسِ » ، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم فى ذلك .
ووردت فى كَظْم الغيظ والعَفْو عن الناس وملك النفس عند الغضب أحاديثُ ؛ وذلك من

أعظم العبادة وجهادِ النفس ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " ليس الشديد بالصُّرَعَةِ [١] ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب " . وقال عليه السلام : " ما من جُرْعة يتجرّعها العبدُ خيرٌ له وأعظم أجرا من جُرْعةِ غيظٍ فى الله " . وروى أنس أن رجلا قال : يارسول الله ، ما أشدّ من كل شيء ؟ قال : " غضب الله " . قال فما يُنْجِى من غضب الله ؟ قال : " لا تغضب " . قال العَرْجِىّ :

و إذا غَضِبتَ فكن وَقورًا كاظمًا * للغيظ تُبصر ما تقول وتَسمعُ
فكفى به شرفًا تَصَبُّرُ ساعةٍ * يرضى بها عنك الإلٰه وتُرفَعُ

وقال عروة بن الزّبير فى العفو :

لن يبلغ المجدَ أقوام و إن شَرُفوا * حتى يَذِلُّوا و إن عَزُّوا لأقوامِ
ويُشتَموا فترى الألوانَ مُشرِقةً * لا عَفْوَ ذُلٍّ ولكن عَفْوَ إكرامِ

وروى أبو داود وأبو عيسى التِّرمذىّ عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنِىّ عن أبيه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " مَن كظم غيظًا وهو يستطيع أن يُنفذَه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يُخيِّره فى أىّ الحُورِ شاء " قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان يومُ القيامة نادَى مُنادٍ من كان أجره على الله فليَدْخُلِ الجنة فيقال مَن ذا الذى أجره على الله فيقوم العَافُون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب " . ذكره الماوردى . وقال ابن المبارك : كنت عند المنصور جالسًا فأمر بقتل رجل ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يومُ القيامة نادَى مُنادٍ بين يدىِ الله عز وجل من كانت له يدٌ عند الله فلْيتقدّم فلا يتقدّم إلا مَن عَفَا عن ذنب " ؛ فأمر بإطلاقه .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى يثيبهم على إحسانهم . قال سَرِىّ السَّقَطِى : الإحسان أن تُحسِن وقت الإمكانِ ، فليس كل وقت يمكنك الإحسان ؛ قال الشاعر :

(١) الصرعة (بضم الصاد وفتح الراء) : المبالغ فى الصراع الذى لا يُغلب ؛ فنقله إلى الذى يَغلب نفسه عند الغضب ويقهرها .

بادِرْ بخيرٍ إذا ما كنتَ مُقتـدِرًا * فليس فى كل وقتٍ أنت مُقْتَدِرُ

وقال أبو العباس الجُمّانِىّ فأحسن :

ليس فى كل ساعةٍ وأوانِ * تَتَهيّا صنائعُ الإحسانِ

وإذا أمْكَنَتْ فبادِرْ إليها * حذَرًا من تعذُّرِ الإمكانِ

وقد مضى فى «البقرة»(١) القول فى المحسن والإحسان فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ذكر اللهُ تعالى فى هـذه الآية صِنفا دون الصِّنف الأول فألحقهم به برحمته ومَنِّه ؛ فهؤلاء هم التوّابون . قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت هذه الآية فى نَبْهَان التّمار — وكنيته أبو مقبل — أتته آمرأة حسناء باع منها تمرا ، فضمها إلى نفسه وقبّلها فندم على ذلك ، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ؛ فنزلت هذه الآية . وذكر أبو داود الطّيالِسِىّ فى مسنده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : حدّثنى أبو بكر — وصدق أبو بكر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن عبد يُذنب ذنبًا ثم يتوضأ ويصلِّى ركعتين ثم يستغفر اللهَ إلا غفر له — ثم تلا هذه الآية — والَّذينَ إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظَلَموا أنفسَهم ذكروا الله فَٱسْتَغْفَرُوا لذنوبهم — الآيةَ ، والآيةَ الأخرى — وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ " . وخرّجه التِّرمذىّ وقال : حديثٌ حَسَنٌ . وهذا عام . وقد تنزل الآية بسبب خاصّ ثم تتناول جميعَ مَن فعل ذلك وأكثر منه . وقد قيل : إن سبب نزولها أن ثَقَفيًّا خرج فى غَزاة وخلّف صاحبًا له أنْصارِيًّا على أهله ، فخانه فيها بأن

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

ٱقتحم عليها فدفعت عن نفسها فقبّل يدها ، فندم على ذلك فخرج يسيح فى الأرض نادما تائبا ؛ فجـاء الثّقفىّ فأخبرته زوجته بفعل صاحبه ، فخرج فى طلبه فأتى به إلى أبى بكر وعمرَ رجاءَ أن يجـد عندهما فَرَجًا ؛ فوبّخاه فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعله ؛ فنزلت هذه الآية . والعموم أَوْلى للحـديث . ورُوِى عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا : يارسول الله ، كانت بنو إسرائيـل أكرَمَ على الله منّا ، حيث كان المذنب منهم تُصبح عقوبتُـه على باب داره . وفى رواية : كفّارة ذنبه مكتوبةً على عتبة داره : اِجْدَع أنفك ، اِقطع أذنك ، افعل كذا ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية تَوْسِعةً ورحمةً وعِوَضًا من ذلك الفعل ببنى إسرائيل . ويروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية . والفاحشة تطلق على كل معصية ، وقد كثر اختصاصها بالزّنَا حتى فسّر جابرُ بْنُ عبد الله والسُّدّىُّ هذه الآيةَ بالزنا . و « أو » فى قوله « أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » قِيل هى بمعنى الواو ؛ والمراد ما دون الكبائر. ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ معناه بالخوف من عقابه والحياء منه . الضّحاك : ذكروا العَرْض الأكبر على الله . وقيل : تفكروا فى أنفسهم أن الله سائلُهم عنه ؛ قاله الكلبىّ ومقاتل . وعن مقاتل أيضا : ذكروا الله باللسان عند الذنوب . ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ طلبوا الغُفْران لأجل ذنوبهم . وكلُّ دعاء فيه هـذا المعنى أو لفظه فهو ٱسْتغفار . وقد تقدّم فى صدر هذه السورة سيّد الاستغفار ، وأن وقته الأسحار . فالٱستغفار عظيم وثوابه جسيم ، حتى لقد رَوى الترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : " من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فرّ من الزَّحْف " . وروى مَكْحول عن أبى هريرة قال : ما رأيت أكثرَ ٱستغفارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مَكْحول : ما رأيت أكثرَ ٱستغفارا من أبى هريرة . وكان مكحول كثير الٱستغفار . قال علماؤنا : الٱستغفار المطلوبُ هو الذى يَحُلّ عَقْد الإصرار ويثبت معناه فى الجنان ، لا التّلفظ باللّسان . فأما من قال بلسانه : أستغفر الله ، وقلبُه مُصِرٌّ على معصيته فٱستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار ، وصـغيرته لاحقة بالكبائر . ورُوِى عن الحَسَن البصرِىّ أنه قال : اسـتغفارنا يحتاج إلى اسـتغفار .

قلت : هذا يقوله فى زمانه ، فكيف فى زماننا هذا الذى يُرَى فيه الإنسان مُكِبًّا على الظلم ! حريصا عليه لايُقلِع ، والسُّبْحَة فى يده زاعما أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف . وفى التنزيل « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً »(١) . وقد تقدّم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أى ليس أحد يغفر المعصية ولا يُزيل عقوبتها إلا الله . ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ أى ولم يثبتوا و يعـزموا على ما فعلوا . وقال مجاهد : أى ولم يمضوا . وقال معبد بن صبيح : صلّيتُ خلف عثمانَ وعليٌّ إلى جانبى ، فأقبل علينا فقال : صلّيتُ بغير وضوء ثم ذهب فتوضأ وصَلَّى . « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » . الإصرار هو العزم بالقلب على ترك الأمر والإقلاع عنه . ومنه صَرُّ الدنانيرِ أى الربط عليها . قال الحُطَيئة يصف الخيل :

عوابس بالشُّعْثِ الكُماة إذا ٱبتغَوْا ✻ عُلالَتَهـا بالمُحْصَـدات أَصرَّت(٢)

أى ثبتت على عَدْوِها . وقال قَتادة : الإصرار الثبوت على المعاصى ؛ قال الشاعر :

يُصِرّ بالليـل ما تخفى شواكله(٣) ✻ يا وَيْحَ كلِّ مُصِرِّ القلبِ خَتَّـار(٤)

قال سهل بن عبد الله : الجاهل ميت ، والناسى نائم ، والعاصى سكران ، والمُصِرّ هالكٌ . والإصرار هو التسويف ، والتّسويف أن يقول أتوب غدا ؛ وهـذا دَعْوَى النفس ، كيف يتوب غدا وغدا لا يملِكه ! . وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينـوى ألّا يتوبَ فإن نوى التوبة خرج عن الإصرار . وقول سَهْلٍ أحسَنُ . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : "لا توبة مع الإصرار" .

الثالثـــة — قال علمـاؤنا : الباعث على التّوبة وحلّ الإصرار إدامةُ الفكر فى كتاب الله العزيز الغفار . وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنـة ووعَدَ به المُطيعين ، وما وصفه من

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة ، جـ ٣ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) العلالة (بالضم) : بقية جرى الفرس . والمحصدات : السياط المفتولة .

(٣) الشواكل : الطرق المنشعبة عن الطريق الأعظم .

(٤) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . وقيل : هو أسوأ الغدر وأقبحه . و «ختار» للمبالغة .

عذاب النار وتهدّد به العاصين، ودام على ذلك حتى قَوِى خوفُه ورجاؤه فدعا الله رَغَبًا ورَهَبًا؛ والرَّغْبَـةُ والرهبةُ ثَمـرةُ الخوف والرجاء، يخاف من العِقـاب ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب. وقد قيـل: إن الباعث على ذلك تنبيهٌ إلٰهيٌّ ينبّـه به من أراد سـعادته؛ لِقُبْح الذنوب وضررها إذ هى سموم مهلكة.

قلت: وهذا خلاف فى اللفظ لا فى المعنى، فإن الإنسان لا يتفكّر فى وعد الله ووعيده إلا بتنبيهه؛ فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفســه فوجدها مشحُونةً بذنوبٍ اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منـه النّدم على ما فرّط، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى صَدَق عليه أنه تائب. فإن لم يكن كذلك كان مُصرًّا على المعصية وملازِمًا لأسباب الهَلَكة. قال سهل بن عبد الله: علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب؛ كالثلاثة الذين خُلِّفــوا[(1)].

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه أقوال. فقيل: أى يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها. قال النحاس: وهذا قول حَسَن. وقيل: «وهم يعلمون» أنى أعاقب على الإصرار. وقال عبد الله بن عُبيد بن عُمير: «وهم يعلمون» أنهم إن تابوا تاب الله عليهم. وقيل: «يعلمون» أنهم إن استغفروا غُفر لهم. وقيل: «يعلمون» بما حرّمت عليهم؛ قاله ابن إسحاق. وقال ابن عباس والحسن ومُقاتل والكَلْبِى: «وهم يعلمون» أن الإصرار ضارٌّ، وأن تركه خيرٌ من التّمادِى. وقال الحسن بن الفضل: «وهم يعلمون» أن لهم رَبًّا يغفر الذنب.

قلت: وهذا أخذه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فيما يَحكِى عن ربّه عز وجل قال: "أذنب عبد ذنباً فقال اللّهمّ اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا فعَلِم أن له ربًّا يَغفِر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أىْ ربّ اغفرلى ذنبى — فذكر مثله مرتين، وفى آخره: اِعمـل ما شئت فقد غفرت لك" أخرجه مسلم.

(1) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. تخلفوا عن الخروج مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه لا تكلمنّ أحدا من هؤلاء الثلاثة؛ إلى أن نزل فيهم قوله تعالى: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا ...» آية ١١٨ سورة التوبة، وراجع سيرة ابن هشام فى الكلام على غزوة تبوك (ص ٨٩٣ طبع أوربا).

وفيه دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب؛ لأن التوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحّت ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثانى إلى توبة أخرى مستأنفة ، والعود إلى الذنب وإن كان أقبحَ من ابتدائه؛ لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة ، فالعَوْدُ إلى التوبة أحسَنُ من ابتدائها؛ لأنه أضاف إليها ملازمةَ الإلحاح بباب الكريم وأنه لا غافر للذنوب سواه. وقوله فى آخر الحديث "اِعمل ما شئت" أمرٌ معناه الإكرام فى أحد الاقوال؛ فيكون من باب قوله : «ادخُلوها بسلَام» . وآخر الكلام أخبر عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه . ودلّت الآية والحديث على عظم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه" أخرجاه فى الصحيحين . وقال : يستوجب العبدُ العفوَ إذا اعترف بما جَنَى من الذنوب وٱقترف . وقال آخر :

أقــرِرْ بذنبـــك ثم ٱطلب تجاوزَه * إن الجحود جحودَ الذنب ذنبان

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده لو لم تُذنِبُوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيُغفر لهم" . وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفار والتوّاب، على ما بيناه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

الخامســة — الذنوب التى يُتاب منها إما كُفر أو غيرُه؛ فتوبة الكافر إيمانُه مع نَدَمِه على ما سلف من كفره، وليس مجرّدُ الإيمان نفسَ توبة . وغير الكفر إمّا حَقٌّ لله تعالى، وإما حَقٌّ لغيره؛ فحَقّ الله تعالى يكفى فى التوبة منه التركُ؛ غير أن منها مالم يكتف الشرع فيها بمجرّد الترك بل أضاف إلى ذلك فى بعضها قضاءً كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفّارةً كالحِنْث فى الأيمان والظِّهار وغير ذلك . وأمّا حقوق الآدميّين فلا بُدّ من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجَدوا تُصدّق عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسارٍ فعَفْو الله مأمول، وفضله مبذول؛ فكم ضَمِن من التّبِعات وبدّل من السيئات بالحسنات . وسيأتى زيادة بيان لهذا المعنى .

السادســـة — ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذنبَه و يعلمه أن يتوب منه بعينه، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنبًا تاب منه . وقد تأوّل كثير من الناس فيما ذكر شيخُنا أبو محمد عبد المعطى الأسكندرانى رضى الله عنــه أن الإمام المُحاسبى رحمه الله يرى أن التوبة من أجناس المعاصى لا تصح، وأن النّدم على جُملتها لا يكفى، بل لا بدّ أن يتوب من كل فعــلٍ بجارحته وكلّ عَقْد بقلبه على التّعيين . ظنوا ذلك من قوله، وليس هذا مراده ، ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلّف إذا عرف حكم أفعاله، وعرف المعصية من غيرها صحّت منه التوبة من جملة ماعرف؛ فإنه إن لم يعرف كَوْنَ فعله المــاضى معصية لا يمكنه أن يتوب منه لا على الجملة ولا على التفصيل . ومثاله رجل كان يتعاطى بابًا من أبواب الرِّبَا ولا يعرف أنه رِبًا فإذا سمع كلام الله عز وجل : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ » عَظُم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا . فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكّر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لابَسَ منه شيئا كثيرا فى أوقات متقدّمة، صح أن يندم عليه الآن جملةً، ولا يلزمه تعيين أوقاته . وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالغيبة والنميمة وغيرِ ذلك من المحرّمات التى لم يعرف كونها محرّمة. فإذا فَقُه العبد وتفقّد مامضى من كلامه تاب من ذلك جملةً،وندم على ما فرّط فيه من حق الله تعالى. و إذا استحلّ من كان ظلمه فحالّه على الجملة وطابت نفسه بترك حقّه جاز؛ لأنه من باب هبة المجهول . هذا مع شُحّ العبد وحرصه على طلب حقه، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والعفو عن المعاصى صغارها وكبارها . قال شيخنا رحمه الله تعالى : هذا مراد الإمام، والذى يدلّ عليه كلامه لمن تفقده وما ظنّه به الظانُّ من أنه لايصح الندم إلا على فِعْلٍ فِعْلٍ وحركةٍ حركةٍ وسَكْنةٍ سَكْنةٍ على التعيين هو من باب تكليف ما لا يطاق، الذى لم يقع شَرْعًا و إن جاز عقلًا، و يلزم عنه أن يعرف كم جُرْعة جَرعها فى شرب الخمر، وكم حركة تحركها فى الزنا، وكم خطوة مشاها إلى مُحرّم، وهــذا مالا يُطيقه أحد، ولا يتأتّى منه توبة على التفصيل . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان من احكام التوبة وشروطها فى «النساء» وغيرها إن شاء الله تعالى .

السابعة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ ودلالة قاطعة لما قاله سيف السُّنَّة، ولسان الأمة القاضى أبو بكر بن الطيب : أن الانسان يؤاخذ بما وطّن عليه ضميرَه، وعزم عليه بقلبه من المعصية .

قلت : وفى التنزيل « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » وقال : « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » . فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم وسيأتى بيانه . وفى البخارى "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار" قالوا : يارسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال : "إنه كان حريصا على قتل صاحبه". فعلّق الوعيدَ على الحرص وهو العزم وألْغَى إظهار السلاح . وأَنَصُّ من هذا ما خرّجه التِّرمذىّ من حديث أبى كَبْشة الأنمارىّ وصحّحه مرفوعا "إنما الدنيا لأربعةِ نفرٍ رجل أعطاه الله مالًا وعلْمًا فهو يتقِى فيه ربّه ويَصِلُ فيه رَحِمَه ويعلم لله فيه حقًّا فهذا بأفضل المنازل. ورجل آتاه الله علما ولم يُؤته مالًا فهو [صادق النية][1] يقول لو أن لى مالًا لعمِلت فيه بعمل فلان فهو نيّته فأجرهما سواء . ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته عِلما فهو [يخبط فى ماله بغير علم][1] لا يتّقى فيه ربّه ولا يَصِلُ به رَحِمَه ولا يعلم لله فيه حقًّا فهذا بأخبث المنازل. ورجل لم يؤته الله مالًا ولا علْمًا فهو يقول لو أن لى مالًا لعملت فيه بعمل فلان فهو نيّته فوزرهما سواء" . وهذا الذى صار إليه القاضى هو الذى عليه عامة السَّلَف وأهل العلم من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين، ولا يُلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يَهُمّ الإنسانُ به وإن وطّن عليه [نفسه] لا يؤاخذ به . ولا حُجّة فى قوله عليه السلام : "من هَمّ بسيئة فلم يعملْها لم تُكتب عليه فإن عَمِلها كُتبت سيئةً واحدة" لأن معنى "فلم يعملها" فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا، ومعنى "فإن عملها" أى أظهرها أو عزم عليها بدليل ما وصفنا . وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

رتّب تعالى بفضله وكرمه غُفرانَ الذنوب لمن أخلص فى توبته ولم يُصِرّ على ذنبه. ويمكن أن يتصل هذا بقصّة أُحُد، أى من فرّ ثم تاب ولم يُصِرّ فله مغفرة الله .

(١) زيادة عن سنن الترمذى .

قوله تعالى : قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

هذا تَسْلِيَةٌ من الله تعالى للؤمنين ، والسُّنن جمع سُنّة وهى الطريق المستقيم . وفلان على السُّنّة أى على طريق الاستواء لا يميل إلى شىء من الأهواء؛ قال الهُذَلِىّ :

فلا تجْزَعَن من سُنّة أنت سِرتَها * فأوّلُ راضٍ سُنّةً من يسيرها

والسُّنّة : الإمام المتَّبَع المؤتَمّ به؛ يقال : سَنّ فلان سُنّةً حسنة وسيّئةً إذا عمِل عملا اقتدى به فيه من خيرٍ أو شر؛ قال لبيد :

مِن مَعشرٍ سَنّت لهم آباؤهم * ولكلّ قومٍ سُنّةٌ وإمامُها

والسُّنّة الأمّة، والسُّنَن الأُمَم؛ عن المفضّل . وأنشد :

ما عاين الناسُ من فضلٍ كفضلِهمُ * ولا رأوْا مِثلَهم فى سالِفِ السّنَنِ

قال الزجاج : والمعنى أهل سنن، فحذف المضاف . وقال أبو زيد : أمثال . عطاء : شرائع . مجاهد : المعنى « قد خلت مِن قبلِكم سنن » يعنى بالهلاك فيمن كَذّب قبلكم كعَادٍ وثمود . والعاقبة : آخر الأمر؛ وهذا فى يوم أُحُد . يقول فأنا أمهلهم وأُمْلِي لهم وأستدرجهم حتى يبلغ الكتاب أجله . يعنى بنصرة النبىّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين .

قوله تعالى : هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

يعنى القرآن؛ عن الحسن وغيره . وقيل : هذا إشارة إلى قوله : « قد خلت من قبلكم سنن » . والموعظة الوعظ . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

عَزّاهم وسَلّاهم بما نالهم يوم أُحُدمن القَتْل والجراح، وحثّهم على قتال عدوّهم ونهاهم عن العجز والفشل فقال « وَلَا تَهِنُوا » أى لا تضعُفوا ولا تجبُنوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لما

أصابكم . «ولا تحزنوا» على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة . «وأنتم الأعلون» أى لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر « إن كنتم مؤمِنِين » أى بصدق وَعْدِى . وقيل : « إن » بمعنى «إذ» . قال ابن عباس : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد فبيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين ، يريد أن يعلُوَ عليهم الجبل؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللَّهمّ لا يَعْلُنَّ علَيْنا اللّهمّ لا قُوَّةَ لَنَا إلَّا بِكَ اللَّهمّ ليس يعبدك بهذه البلدة غيرُ هؤلاء النّفر" . فأنزل الله هذه الآيات . وبات نفر من المسلمين رُماةً فصعِدوا الجَبل وَرَمَوا خيل المشركين حتى هزموهم ؛ فذلك قوله تعالى : « وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ » يعنى الغالبين على الأعداء بعد أُحُد . فلم يُخرِجوا بعد ذلك عسكرا إلا ظَفِروا فى كلّ عسكر كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى كلّ عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيه واحد من الصحابة كان الظَّفَر لهم، وهذه البُلدان كلها إنما افتُتِحَتْ على عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ثم بعد انقراضهم ما افتتِحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحُون فى ذلك الوقت . وفى هذه الآية بيانُ فضلِ هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه؛ لأنه قال لموسى : « إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ » وقال لهذه الأمة : « وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ». وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلى . وقال للمؤمنين : « وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ » .

قوله تعالى : إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ القرح الجرح . والضم والفتح فيه لغتان عن الكسائى والأخفش؛ مثل عَقْر وعُقْر[1] . الفراء : هو بالفتح الجُرح، وبالضم ألَمه . المعنى: إن يمسسكم يوم أُحدٍ قَرْحٌ فقد مسّ القومَ يومَ بَدْرٍ قَرْحٌ مثله . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع « قَرَح » بفتح

(١) فى الأصول : « قفر وقفر » وهو تحريف .

القاف والراء على المصدر . ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ قيل : هذا فى الحرب ، تكون مرّة للؤمنين لينصر الله دينه ، ومرّة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويمحّص ذنوبهم ؛ فأما إذا لم يعصوا فإنّ حزب الله هم الغالبون . وقيل : « نداولها بين الناس » من فرح وغمّ وصحة وسقم وغنًى وفقر . والدُّولة الكرّة ؛ قال الشاعر :

فيومٌ لنا ويومٌ علينا * ويوم نُساءُ ويوم نُسَرّ

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ معناه وإنما كانت هذه المُداولة لِيَرَى المؤمنَ من المنافق فيُميِّز بعضهم من بعض ؛ كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » . وقيل : لِيَعلم صبر المؤمنين ، العلمَ الذى يقع عليه الجزاء كما علمه غيبا قبل أن كلّفهم . وقد تقدّم فى «البقرة»(١) هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » أى يكرمكم بالشهادة ؛ أى لِيُقتل قوم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل لهذا : قيل شهيد . وقيل : سُمِّى شهيدا لأنه مشهود له بالجنة . وقيل : سُمِّى شهيدا لأن أرواحهم احتضرت دار السلام ، لأنهم أحياءٌ عند ربّهم ، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة ؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة . وهذا هو الصحيح على ما يأتى. والشهادة فضلها عظيم ، ويكفيك فى فضلها قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » الآية . وقولُه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » إلى قوله : « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . وفى صحيح البُسْتىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يجدُ الشهيدُ من القَتْل إلا كما يجد أحدُكُم من القَرْحة " . وروى النَّسائىّ عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يارسول الله ، مابال المؤمنين يُفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : " كفى ببارقة السيوف على رأسه فِتنة " . وفى البخارى : « مَن قُتل من المسلمين

(١) راجع ج ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية .

يوم أحُد» منهم حمزةُ واليَمَان والنضر[١] بن أنس ومُصعب بن عُمير، حدّثنى عمرو بن علىّ أن معاذ آبن هِشام قال حدّثنى أَبى عن قتادة قال : ما نعلم حَيًّا من أحياء العرب أكثرَ شَهيدا أعزّ يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتـل منهم يوم أُحُد سبعون ، ويومَ بِئر مَعُونةَ سبعون ، ويوم اليمامة سبعون . قال : وكان بئر معونة على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ويوم اليمامة على عهد أبى بكر يومَ مُسَيْلِمَة الكذاب . وقال أنس : أُتِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بعلىّ بن أبى طالب وبه نَيِّفٌ وسِتّون جِراحة من طعنةٍ وضربةٍ ورَميةٍ ، فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم يمسحها وهى تلتئم بإذن الله تعالى حتى كأن لم تكن .

الثانيــة — فى قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ دليل على أن الإرادة غيرُ الأمر كما يقوله أهل السنة ؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين حمزةَ وأصحابِه وأراد قتلهم ، ونهى آدمَ عن أكل الشجرة وأراده فواقعه آدم . وعكسه أنه أمر إبليسَ بالسجود ولم يُرِدْه فامتنع منه ؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحقّ : «وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» . وإن كان قد أمر جميعَهم بالجهاد ولكنه خلق الكسل والأسبابَ القاطعةَ عن المَسير فقعَدُوا .

الثالثــة — رُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر فقال له : "خيِّرْ أصحابَك فى الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفِداء على أن يُقتل منهم عام المقبِل مثلُهم فقالوا الفداء ويُقتل منّا" أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن . فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خيّرهم فاختاروا القتل . ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى المشركين ، أى وإن أنال الكفارَ من المؤمنين فهو لا يحبّهم ، وإن أحلّ ألمًا بالمؤمنين فإنه يحبّ المؤمنين .

قوله تعالى : وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾

---

(١) الذى فى شرح القسطلانى على صحيح البخارى : « وأنس بن النضر ، وهو عم أنس بن مالك كما ذكره أبو نعيم وابن عبد البر وغيرهما . ولأبى ذر «النضر بن أنس» وهو خطأ ، والصواب الأوّل » .

فيه ثلاثة أقوال : يُمحِّص يختبر. الثانى — يطهر؛ أى من ذنوبهم فهو على حذف مضاف. المعنى : وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا؛ قاله الفراء . الثالث — يمحِّص يخلص ؛ فهذا أغربها. قال الخليل يقال : مِحص الحبل يَمْحَص مَحْصًا إذا انقطع وَبَرُه؛ ومنه "اللّهمّ مَحِّصْ عنا ذنوبنا" أى خلصنا من عقوبتها . وقال أبو إسحاق الزجاج : قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل : التمحيص التخليص . يقال : مَحَّصَه مَحْصًا إذا خلّصـه ؛ فالمعنى عليـه ليبتلى المؤمنين ليُثيبهم ويخلّصهم من ذنوبهم . ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك .

قوله تعـالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

«أم» بمعنى بل. وقيل: الميم زائدة، والمعنى أحسبتم يامن انهزم يوم أُحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم لا؛ حتى ﴿يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أى علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء. والمعنى: ولم تجاهدوا فيعلم ذلك منكم ؛ فلما بمعنى لم . وفرَقَ سيبويه بين «لم» و «لما» ، فزعم أن «لم يفعل» نفى فعَل، وأن «لما يفعل» نفى قد فعَل . ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ منصوب بإضمار أن؛ عن الخليل. وقرأ الحسن ويحيى بن يَعْمَر « يعلمِ الصّابرين » بالجزم على النَّسَق . وقرئ بالرفع على القطع ، أى وهو يعلم . وروى هـذه القراءة عبدُ الوارث عن أبى عمرو . وقال الزّجاج : الواو هنا بمعنى حتى ، أى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلم صبرهم كما تقدم آنفا .

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

أى الشهادة من قبـل أن تَلْقَوه . وقرأ الأعمش « من قبـل أن تُلاقوه » أى من قبل القتل . وقيل : من قبل أن تلقوا أسـباب الموت ؛ وذلك أن كثيرا ممن لم يحضر بَدْرًا كانوا

يتمنون يوما يكون فيه قِتال ؛ فلما كان يوم أُحُد انهزموا ، وكان منهم من تجلّد حتى قتل ، ومنهم أنس بن النَّضر عَمُّ أنس بن مالك ؛ فإنه قال لما انكشف المسلمون : اللّهُمّ إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وباشر القتال وقال : إيها إنها ريح الجنة! إنى لأجدها، ومضى حتى ٱسْتُشْهِد . قال أنس : فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بِضْعا وثمانين جراحة. وفيه وفى أمثاله نزل «رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ». فالآية عِتاب فى حق من ٱنهزم، لاسِيّما وكان منهم حَمْلُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم على الخروج من المدينة،وسيأتى.وتمنّى الموت يرجع من المسلمين إلى تَمَنِّى الشهادة المبنِيّة على الثبات والصبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر ولا يجوز إرادة المعصية . وعلى هذا يُحمَل سؤالُ المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة ، فيسألون الصبر على الجهاد و إن أدّى إلى القتل .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ قال الأخفش : هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله : « فقد رأيتموه » مثل « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » . وقيل : معناه وأنتم بُصَراء ليس فى أعينكم عِلل؛ تقول : قد رأيت كذا وكذا وليس فى عينيك علّة، أى فقد رأيته رؤية حقيقيّة ؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد . وقال بعضهم : « وأنتم تنظرون » إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وفى الآية إضمار ، أى فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلِمَ ٱنهزمتم .

قوله تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — رُوى أنها نزلت بسبب ٱنهزام المسلمين يوم أُحُد حين صاح الشيطان: قد قُتل محمد . قال عطيّة العَوْفِى : فقال بعض الناس : قد أصيب محمدٌ فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم . وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ألَا تمضون على ما مضى عليه نبيُّكم حتى

تلحقوا به؛ فأنزل الله تعالى فى ذلك «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» إلى قوله: «فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا». وما نافية، وما بعدها ابتداء وخبر، وبطل عمل ما. وقرأ ابن عباس «قد خلت مِن قبلِهِ رُسُل» بغير أَلِف ولامٍ. فأعلم الله تعالى فى هذه الآية أن الرسل ليست بباقيةٍ فى قومها أبدا، وأنه يجب التمسّك بما أتت به الرسل وإن فُقِد الرسول بموتٍ أو قتلٍ. وأكرم نبيّه صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه: محمد وأحمد؛ تقول العرب: رجل محمود ومحمّد إذا كثُرت خِصالهُ المحمودة؛ قال الشاعر:

* إلى المَاجِد القَرْم الجَوَاد المُحَمَّدِ[(١)] *

وقد مضى هذا فى الفاتحة[(٢)]. وقال عباس بن مِرداس:

يا خاتِمَ النُّبَاءِ إنّك مُرْسَلٌ * بالخير كلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكَا
إن الإلٰه بَنَى عليك مَحَبَّةً * فى خَلْقِه ومحمّدًا سمّاكا

فهذه الآية من تتِمّة العِتاب مع المنهزِمين، أى لم يكن لهم الانهزام وإن قُتِل محمد، والنبوّة لا تَدْرأ الموت، والأديانُ لا تزول بموت الأنبياء. والله أعلم.

الثانيــة — هــذه الآية أدلّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته؛ فإن الشجاعة والجُرْأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظمُ من موت النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم بيانه فى «البقرة»[(٣)] فظهرت عنده شجاعته وعلمه. قال الناس: لم يَمُتْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؛ منهم عمر، وخرِس عثمانُ، واستخفى علىّ، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح[(٤)]، الحديث؛ كذا فى البخارى. وفى سنن ابن ماجه عن عائشة قالت: «لمّا قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عند امرأته ابنةِ خارجة بالعَوَالى؛ فجعلوا يقولون: لم يَمُت النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما هو بعض ما كان يأخذه عند

(١) هذا عجز بيت للأعشى، وصدره: * إليك أبيت اللعن كان كلالها *
(٢) راجع جـ ١ ص ١٣٣ طبعة ثانية أو ثالثة.
(٣) راجع المسئلة الثالثة جـ ٢ ص ١٧٦ طبعة ثانية.
(٤) السنح (بضم أوّله وسكون النون وقد تضم): موضع من أطراف المدينة، وهى منازل بنى الحارث ابن الخزرج بعوالى المدينة، و بينها و بين منزل النبىّ صلى الله عليه وسلم ميل.

الوَحْى . فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه وقال : أنت أكرمُ على الله أن يُميتك ! مرّتين . قد والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرُ فى ناحية المسجد يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يموت حتى يَقْطع أيدىَ أناس من المنافقين كثيرٍ وأرجلَهم. فقام أبو بكر فصعِد المنبرَ فقال: من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لم يمت، ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قدمات، «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» . قال عمر : فلكأنّى لم أقرأها إلا يومئذ» . ورجع عن مقالته التى قالها فيما ذكر الوائلى أبو نصر عبيد الله فى كتابه الإبانة .
عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بُويع أبو بكر فى مسجد رسـول الله صلى الله عليه وسلم وآستوى على مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهّد قبلَ أبى بكر فقال : أمّا بعـدُ فإنّى قلت لكم أمس مقالةً وإنهـا لم تكن كما قلتُ ، وإنى والله ما وجدت المقالةَ التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ولا فى عهد عَهِده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنّى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرَنا — يريد أن يقول حتى يكون آخرنا مَوْتًا — فآختار الله عز وجل لرسـوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تَهْتَدُوا لمـا هَدَى له رسول الله صلى الله عليـه وسلم . قال الوائلى أبو نصر : المقالةُ التى قالها ثم رجع عنها هى « أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يَمُت ولن يموت حتى يقطع أيدى رجال وأرجلَهم » وكان قال ذلك لعظيم ماورد عليه، وخَشِى الفتنة وظهورَ المنافقين ؛ فلمـا شاهد قوّةَ يقينِ الصدّيقِ الأكبرِ أبى بكر وتَفوّهـه بقول الله عز وجل : « كلُّ نفس ذائقـة الموت » وقوله : « إنك ميّت » وما قاله ذلك اليـوم تنبّه وتثبت وقال : كأنى لم أسمع بالآية إلا من أبى بكر . وخرج الناس يتلونها فى سِكك المدينة كأنها لم تنزل قطُّ إلا ذلك اليوم . ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا اختلاف، فى وقت دخوله المدينةَ فى هجرته حين اشتدّ الضَّحاء ، ودفن يوم الثلاثاء وقيل ليلة الأربعاء . وقالت صفيّة بنت عبد المطلب تَرثِى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم :

ألا يا رسولَ الله كنت رجاءنا * وكنتَ بنا برًّا ولم تكُ جافيا
وكنتَ رحيما هاديًا ومعلِّمًا * ليبْكِ عليك اليومَ مَن كان باكِيا
لعَمْرُكَ ما أبكِي النَّبيَّ لِفقده * ولكن لمَا أخْشَى من الهَرْج آتيا
كأنَّ على قلبي لِذِكرِ محمدٍ * وما خِفتُ من بعد النَّبِيِّ المكاوِيَا
أفاطم صلَّى الله ربُّ محمدٍ * على جَدَثٍ أمْسَى بيَثْرِبَ ثاوِيَا
فِدًى لرسول الله أُمِّي وخالتي * وعمِّي وآبائي ونَفْسي ومالِيَا
صَدقتَ وبلّغتَ الرسالةَ صادقًا * ومُتَّ صَلِيب العُودِ أبْلَجَ صافِيَا
فلو أنَّ رَبَّ الناس أبْقَى نبيَّنا * سَعِدْنا، ولكنْ أمرُه كان ماضِيَا
عليك من الله السلامُ تحيةً * وأُدخِلت جناتٍ من العَدْن راضيا
أرى حَسَنًا أيتمتَه وتركتَه يبكى ويدعو جدَّه اليومَ ناعِيَا

فإن قيل وهى :

الثالثة — فلِمَ أُخِّرَ دفنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال لأهل بيت أخَّروا دفن ميّتهم: "عَجِّلوا دفنَ جيفتكم ولا تؤخروها". فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول — ماذكرناه من عدم اتفاقهم على موته . الثانى — لأنهم لايعلمون حيث يدفنونه . قال قوم فى البَقِيع . وقال آخرون فى المسجد . وقال قوم : يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم . حتى قال العالِم الأكبر[1] سمعته يقول : "ما دُفن نبىّ إلا حيث يموت" ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما . الثالث — أنهم اشتغلوا بالخلاف الذى وقع بين المهاجرين والأنصار فى البيْعة ، فنظروا فيها حتى استتبّ الأمر وانتظم الشمل واستوت الحال ، واستقرّت الخلافة فى نصابها فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعةً أخرى عن مَلأ منهم ورِضاً ؛ فكشف الله به الكُرْبة من أهل الرِّدّة، وقام به الدّين، والحمد لله رب العالمين. ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فنظروا فى دفنه وغسّلوه وكفنوه . والله أعلم .

---

(١) يريد به أبا بكر رضى الله عنه .

الرابعة — واختُلف هل صُلِّيَ عليه أم لا؛ فمنهم من قال: لم يُصَلِّ عليه أحد، وإنما وقف كلّ أحد يدعو؛ لأنه كان أشرفَ من أن يُصَلَّى عليه. وقال ابن العربيّ: وهذا كلام ضعيف، لأن السُّنّة تقوم بالصلاة عليه فى الجنازة، كما تقوم بالصلاة عليه فى الدعاء؛ فيقول: اللّهمّ صل على محمد إلى يوم القيامة. وذلك منفعة لنا. وقيل: لم يُصَلّ عليه لأنه لم يكن هناك إمام. وهذا ضعيف؛ فإن الذى كان يقيم بهم الصلاة الفريضةَ هو الذى كان يَؤُمّ بهم فى الصلاة. وقيل: صلّى عليه الناس أفرادا؛ لأنه كان آخر العهد به، فأرادوا أن يأخذ كل أحدٍ بَرَكته مخصوصا دون أن يكون فيها تابعا لغيره. والله أعلم بصحة ذلك.

قلت: قد خرّج ابن ماجه بإسناد حَسَن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه: فلما فرغوا من جَهازه يوم الثلاثاء وُضع على سريره فى بيته، ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أَرْسالا[1] يُصلّون عليه، حتى إذا فرغوا أدْخلوا النساء، حتى إذا فرغوا أدخلوا الصبيان، ولم يَؤُمّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد. خرّجه عن نصر بن على الجَهْضَمِىّ أنبأنا وهب بن جرير حدّثنا أبى عن محمد بن إسحاق قال حدّثنى حسين بن عبد الله عن عِكرمة عن ابن عباس؛ الحديث بطوله.

الخامسة — فى تغيير الحال بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم عن أنس قال: لما كان اليومُ الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كلّ شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كلّ شىء، وما نَفَضْنا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا. أخرجه ابن ماجه وقال: حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا عبد الرحمن بن مهدىّ حدّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كنا نَتَّقِى الكلامَ والانبساط إلى نسائنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن ينزل فينا القرآن، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمنا. وأَسنَد عن أمّ سلمة بنت أبى أميّة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت: كان الناس فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المُصَلِّى [يصلى][2] لم يَعْدُ بصرُ أحدهم موضع قدميه،

(١) أرسالا: أفواجا وفرقا متقطعة بعضهم يتلو بعضا؛ واحدهم رسل، بفتح الراء والسين.
(٢) زيادة عن ابن ماجه.

فَتُوفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر، فكان الناس إذا قام أحدُهم يصلى لم يَعْدُ بصرُ أحدهم موضع جبينه، فتوفى أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع القِبْلة؛ فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فتلفّت الناس فى الصلاة يميناً وشمالا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ ﴾ شرط، « أو قتِـل » عطف عليه، والجواب «انقلبتم» . ودخل حرف الاستفهام على حرف الجزاء لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة وخبرا واحدا . والمعنى : أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتِل . وكذلك كل استفهام دخل على حرف الجزاء؛ فإنه فى غير موضعه، وموضعُه أن يكون قبـل جواب الشرط . وقوله : « انقلبتم على أعقابكم » تمثيل ، ومعناه آرتددتم كفّاراً بعد إيمانكم ؛ قاله قتادة وغيره . ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه : آنقلب على عَقِبَيه . ومنه نَكَص على عقبيه. وقيل : المراد بالانقلاب هنا الانهزام ؛ فهو حقيقة لا مجاز . وقيل : المعنى فعلتم فعل المرتدّين وإن لم يكن رِدّة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ بل يَضُرّ نفسه ويعرّضها للعقاب بسبب المخالفة، والله لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية لغناه . ﴿ وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى الذين صبروا وجاهدوا واستشهِدوا . وجاء « وسـيجزِى الله الشاكِرِين » بعد قوله : « فلن يضر الله شيئا » وهو اتصال وَعْدٍ بوعيد

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ هـذا حَضٌّ على الجهاد ، و إعلامٌ أن الموت لا بدّ منه، وأن كلّ إنسانٍ مقتولٍ أو غيرِ مقتولٍ ميّتٌ إذا بلغ أجله المكتوبَ له ؛ لأن معنى « مُؤَجَّلا » الى أجل . ومعنى « بإذن الله » بقضـاء الله وقَدَره .
« وكِتَابًا » نصب على المصدر ، أى كتب الله كتابا مؤجلا . وأجلُ الموت هو الوقت الذى

فى معلومه سبحانه ؛ لأن روح الحى تفارق جسده ، ومتى قُتل العبد علمنا أن ذلك أجله . ولا يصح أن يقال : لو لم يقتل لعاش . والدليل عليه قوله : « كِتَابًا مُؤَجَّلًا » « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » « إِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ » « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » . والمُعْتَزِلِىّ يقول : يتقدّم الأجل ويتأخر، وأن من قُتل فإنما يَهلك قبل أجله ، وكذلك كلما ذبح من الحيوان كان هلاكه قبل أجله ؛ لأنه يجب على القاتل الضّمانُ والدِّيَة . وقد بيّن الله تعالى فى هذه الآية أنه لا تَهلِك نفس قبل أجلها . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « الأعراف » إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على كَتْبِ العلم وتدوينه . وسيأتى بيانه فى « طه » عند قوله : «قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ»(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ يعنى الغنيمة . نزلت فى الذين تركوا المركز طلبا للغنيمة . وقيل : هى عامة فى كل من أراد الدنيا دون الآخرة؛ والمعنى نُؤْته مِنْهَا ما قُسم له . وفى التنزيل « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أى نؤته جزاء عمله ، على ماوصف الله تعالى من تضعيف الحسنات لمن يشاء . وقيل : المراد بهذا عبد الله بن جُبير ومن لزم المركز معه حتى قُتِلوا . ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّاكِرِينَ ﴾ أى نؤتيهم الثوابَ الأبدىّ جزاءً لهم على ترك الانهزام؛ فهو تأكيد لما تقدّم من إيتاء مريد الآخرة . وقيل : « وسنجزى الشاكرين » من الرزق فى الدنيا لئلا يُتوهّم أن الشاكر يُحرم مما قُسم له مما يناله الكافر .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(١) آية ٥٢

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قال الزُّهْرِيّ : صاح الشيطان يوم أُحُد : قُتِل محمد، فانهزم جماعة من المسلمين . قال كعب بن مالك : فكنتُ أوّل من عرف رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، رأيت عينيه من تحت المِغْفر تزهَران ، فناديت بأعلى صوتى : هـذا رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فأوْمأ إلىّ أن اسكت ، فأنزل الله عز وجل « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا » الآية .

« وكأين » بمعنى كم . قال الخليل وسيبويه : هى أى دخلت عليها كاف التشبيه وبُنِيت معها فصار فى الكلام معنى كم ، وصُوِّرت فى المصحف نونا لأنها كلمة نُقلت عن أصلها فغيِّر لفظها لتغيّر معناها ، ثم كثر استعمالها فلغت بها العرب وتصرّفت فيها بالقلب والحذف فحصل فيها لغات أربع قُرِئ بها . وقرأ ابن كَثير « وكَائِن » مثل وكاعن ، على وزن فاعل ، وأصله كَيْءٍ فقلبت الياء ألفا ، كما قلبت فى يَيْأَس[1] فقيل ياءَس ؛ قال الشاعر :

وكائِنْ بالأباطِح من صَديقٍ * يَرَانى لو أُصبتُ هو المصابا

وقال آخر :

وكائنْ رَدَدْنا عنكُم من مُدَجَّجٍ * يجىء أمام الرّكب يَرْدِى[2] مُقَنَّعَا

وقال آخر :

وكائِنْ فى المَعَـاشِرِ من أناسٍ * أخـوهم فوقهـم وهمُ كِرامُ

وقرأ ابن مُحَيْصِن « وكَئِن » مهموزا مقصورا مثل وكَعِنْ ، وهو من كائن حذفت ألفه . وعنه أيضا « وكَأَيِّن » مثل وكَعَيِّن وهو مقلوب كَيْءٍ المخفف . وقرأ الباقون « كأَيِّن » بالتشديد مثل كَعَيِّن وهو الأصل ؛ قال الشاعر :

وكأيِّن من أناسٍ لم يزالوا * أخـوهم فوقهـم وهُمُ كرامُ

---

(١) القلب فى ذلك على لغة من يقلب حرف العلة الساكن المفتوح ما قبله ألفا ، وهى لغة بلحارث بن كعب وخثعم وزبيد وقبائل من اليمن ، كما ذكره الواحدى فى وسيطه فى تفسير قوله تعالى « إن هذان لساحران » .

(٢) يردى : يمشى الرديان (بالتحريك) وهو ضرب من المشى فيه تبختر . والمقنع : الذى تقنع بالسلاح ؛ كالبيضة والمغفر .

وقال آخر :

كأيّن أبدنا من عدوّ بعزّنا * وكائن أجرنا من ضعيف وخائف

فجمع بين لغتين : كأين وكائن ، ولغة خامسة كيْئِن مثل كَيْعِن ، وكأنه مخفف من كىء مقلوبِ كأين . ولم يذكر الجوهرى غير لغتين : كَائِن مثل كاعِن ، وكأيّن مثل كعيّن ؛ تقول : كأيّن رجلاً لقيت ؛ بنصب ما بعد كأين على التمييز . وتقول أيضا : كأين من رجلٍ لقيت ؛ وإدخال مِن بعد كأين أكثر من النصب بها وأجود . وبكأين تبيع هذا الثوب ، أى بكم تبيع ؛ قال ذو الرُّمّة :

وكائنْ ذَعَرْنا من مَهاةٍ ورامح (١) * بلاد العِدا ليست له ببلادِ

قال النحاس : ووقف أبو عمرو « كأىْ » بغير نون ؛ لأنه تنوين . وروى ذلك سَوْرة ابن المبارك عن الكِسائىّ . ووقف الباقون بالنون اتباعا لخط المصحف . ومعنى الآية تشجيع المؤمنين ، والأمرُ بالاقتداء بمن تقدّم من خِيار أتباع الأنبياء ؛ أى كثير من الأنبياء قتل معه رِبِّيّون كثيرون ، أو كثير من الأنبياء قُتلوا فما آرتدّ أممهم ؛ قولان : الأول للحسن وسعيد بن جُبير . قال الحسن : ما قُتل نبىّ فى حرب قطّ . وقال ابن جبير : ما سمعنا أن نبيّا قتل فى القتال . والثانى عن قتادة وعِكرمة . والوقف على هذا القول على « قاتل » جائز ، وهى قراءة نافع وابن جبير وأبى عمرو ويعقوب . وهى قراءة ابن عباس وآختارها أبو حاتم . وفيه وجهان : أحدهما أن تكون « قاتل » واقعا على النبىّ وحده ، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله « قاتل » ويكون فى الكلام إضمار ، أى ومعه ربيون كثير ؛ كما يقال : قاتل الأمير ومعه جيش عظيم . وخرجت معى تجارة ؛ أى ومعى . الوجه الثانى أن يكون القتل نال النبىّ ومن معه من الرِّبِّيين ، ويكون وجه الكلام قتِل بعض من كان معه ؛ تقول العرب : قتلنا بنى تميم وبنى سُليم ، وإنما قتلوا بعضهم . ويكون قوله « فما وهنوا » راجعا إلى من بقى منهم .

قلت : وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب ، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يُقتل وقُتِل معه جماعة من أصحابه . وقرأ الكوفيون وابن عامر « قاتل » . وهى قراءة ابن مسعود ، واختارها

(١) المهاة : البقرة الوحشية . والرامح : الثور الوحشى ؛ لأن قرنه بمنزلة الرمح فهو رامح ، والمعنى : لا يقيم مع الإنس فى مكان . ويروى : « بلاد الورى ليست له ببلاد » .

أبو عبيد وقال : إن الله إذا حمِد من قاتل كان من قُتِل داخلا فيه ، و إذا حمِد من قتِل لم يدخل فيه غيرهم ؛ فقاتل أعمّ وأمدح . و « الرِّبِّيونَ » بكسر الراء قراءة الجمهور . وقراءة علىّ رضى الله عنـه بضمها . وابن عباس بفتحها ؛ ثلاث لغات . والرِّبِّيُّون الجمـاعة الكثيرة ؛ عن مجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة . واحدهم رِبِّى ورُبِّى بضم الراء وكسرها ، منسوب إلى الرُّبَّة بكسر الراء أيضا وضمها ، وهى الجماعة . وقال عبد الله بن مسعود : الرِّبِّيُّون الألوف الكثيرة . وقال ابن زيد : الربيون الأتباع . والأول أعرف فى اللغة ؛ ومنه يقال للخِرقة التى تُجمع فيها القِداح : رِبّة ورُبة. والرِّباب قبائل تجمّعت . وقال أبان بن ثعلب : الرِّبِّى عشرة آلاف . وقال الحسن : هم العلماء الصُّبَّر . ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسُّدِّى : الجمع الكثير ؛ قال حسان :

وإذا معشر تجافوا عن الحق ٭ حملنـا عليهـم رِبِّيـا

وقال الزجاج : هاهنا قراءتان «رُبِّيُّون» بضم الراء «ورِبِّيُّون» بكسر الراء؛ أما الربيون (بالضم): الجماعات الكثيرة . ويقال : عشرة آلاف .

قلت : وقد روى ابن عباس « رَبِّيُّون » بفتح الراء منسوب إلى الرَّب . قال الخليل : الرِّبِّى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء ، وهم الربّانيون نسبوا إلى التألّه والعبادة ومعرفة الرُبوبِية لِله تعالى . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ « وهنوا » أى ضعفوا ، وقد تقدم . والوَهْن : انكسار الحَدّ بالخوف . وقرأ الحسن وأبو السَّمّال « وهِنُوا » بكسر الهـاء وضمها ، لغتان عن أبى زيد . وهَنَ الشّىء يَهِن وَهْنًا . وأوهنته أنا ووهّنته ضعّفته . والواهِنة : أسفل الأضلاع وقِصارها . والوَهْن من الإبل الكثيف . والوَهْن ساعةٌ تمضى من الليل ، وكذلك المَوْهِن . وأَوْهَنّا صرنا فى تلك الساعة ؛ أى ما وهنوا لقتل نبيّهـم أو اقتل من قُتِل منهم ، أى ما وَهن باقيهم؛ فحذف المضاف . ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ أى عن عدوّهم . ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُوا ﴾ أى لِما أصابهم فى الجهاد . والاستكانة : الذلّة والخضوع ؛ وأصلها « استكنوا » على افتعلوا؛ فأشبِعت فتحة الكاف فتولّدت منها ألف . ومن جعلها من الكون فهى استفعلوا ؛

والأوّلُ أشبه بمعنى الآية . وقرئ « فَمَا وَهْنُوا وما ضَعْفُوا » بإسكان الهاء والعين . وحكى الكِسائى « ضعَفوا » بفتح العين . ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قُتِل منهم أو قتِل نبيّهم بأنهم صَبَروا ولم يفِرّوا ووطّنوا أنفسَهم على الموت ، واستغفَروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رُزِقوا الشهادة ، ودَعَوا فى الثبات حتى لا ينهزموا ، و بالنصر على أعدائهم . وخصّوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها . يقول : فهلّا فعلتم وقلتم مثل ذلك ياأصحابَ محمدٍ فأجاب دعاءهم وأعطاهم النّصر والظّفر والغنيمة فى الدنيا والمغفرةَ فى الاخرة إذا صاروا إليها . وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه ، الثابتين عند لقاء عدوّه بوعده الحق ، وقوله الصدق . ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ يعنى الصابرين على الجهاد . وقرأ بعضهم « وما كان قولُهُمْ » بالرفع ، جعل القول اسما لكان ؛ فيكون معناه وما كان قولهم إلا قولهم : « ربنا اغفِر لنا ذنوبنا » . ومن قرأ بالنصب جعل القول خبر كان . واسمها « إلّا أن قالوا » . ﴿ ذنوبنا ﴾ يعنى الصغائر ﴿ وإسرافنا ﴾ يعنى الكبائر . والإسراف : الإفراط فى الشيء ومجاوزة الحدّ . وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء " اللّهُمّ اغفرلى خطيئتى وجَهْلِي و إسرافى فى أمرى وما أنت أعلمُ به منى " وذكر الحديث . فعلى الإنسان أن يستعمل مافى كتاب الله وصحيح السُّنّة من الدعاء ويدَع ماسواه ، ولا يقول أختار كذا ؛ فإن الله تعالى قد اختار لنبيّه وأوليائه وعلّمهم كيف يدعون .

قوله تعالى : فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

أى أعطاهم ثواب الدنيا ، يعنى النّصرَ والظّفْرَ على عدوهم . ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرةِ ﴾ يعنى الجنة . وقرأ الجَحْدرى « فأثابهم الله » من الثواب . ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ (١٤٩) بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ (١٥٠) ﴾

لما أمر الله تعالى بالاقتداء بمن تقدّم من أنصار الأنبياء حذّر طاعة الكافرين ؛ يعنى مشركى العرب : أبا سفيان وأصحابه . وقيل : اليهود والنصارى . وقال علىّ رضى الله عنه : يعنى المنافقين فى قولهم للؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين آبائكم . ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ ﴾ أى إلى الكفر . ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى فترجعوا مغبونين . ثم قال : ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى مُتَوَلِّى نصركم وحفظكم إن أطعتموه . وقرئ « بَلِ اللّهَ » بالنصب ، على تقدير بل وأطيعوا الله مولاكم .

قوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٥١) ﴾

نظيره « وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » . وقرأ ابن عامر والكسائى « الرُّعُب » بضم العين ؛ وهما لغتان . والرُّعب الخوفُ ؛ يقال : رَعَبْتُه رُعْبًا ورُعُبًا ، فهو مَرْعُوب . ويجوز أن يكون الرُّعْب مصدرا ، والرُّعُب الاسم . وأصله من الملء ؛ يقال : سيل راعب يملأ الوادىَ . ورَعَبْت الحوضَ ملأته . والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفا وفزعا . وقرأ السِّختيانى « سيلقى » بالياء ، والباقون بنون العظمة . قال السُّدّى وغيره : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يومَ أُحُد متوجهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا ! قتلناهم حتى لم يبق منهم إلا الشّريد ترکناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرّعْب حتى رجعوا عما همّوا به . والإلقاء يستعمل حقيقة فى الأجسام ؛ قال الله تعالى : « وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ » « فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ » « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ » . وقال الشاعر :

* فألقت عصاها واستقرّ بها النّوَى *

ثم قد يستعمل مجازا كما فى هذه الآية . وقوله : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى » . وألقى عليك مسألة .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ تعليل ؛ أى كان سبب إلقاء الرعب فى قلوبهم إشراكهم ؛ فما للصدر . ويقال : أشرك به ، أى عَدَل به غَيره ليجعله شريكا .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ حجة وبيانا ، وعذرا وبُرهانا ؛ ومن هذا قيل للوالى سلطان ؛ لأنه حجة الله عز وجل فى الأرض . ويقال : إنه مأخوذ من السّليط وهو ما يضاء به السراج ، وهو دُهن السِّمسم ؛ قال آمرؤ القيس :

* أهان السليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ *

فالسلطان يستضاء به فى إظهار الحق وقمع الباطل . وقيل : السَّليط الحديد . والسَّلاطة الحِدّة . والسّلاطة من التّسليط وهو القهر؛ والسلطان من ذلك ، فالنون زائدة . فأصل السلطان القوة ، فإنه يُقهر بها كما يُقهر بالسلطان . والسَّليطة المرأة الصخّابة . والسّليط الرجلُ الفصيح اللسان . ومعنى هذا أنه لم تثبت عبادة الأوثان فى شىء من المِلل، ولم يدل عقل على جواز ذلك . ثم أخبر تعالى عن مصيرهم ومرجعهم فقال : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ ثم ذمّه فقال : ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ والمَثْوَى المكان الذى يُقام فيه؛ يقال : ثَوَى يَثْوِى ثَواء . والمأوى كلّ مكان يرجع إليه شىء ليلا أو نهارا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

قال محمد بن كعب القُرَظىّ : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أُحُد وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر! فنزلت هذه

الاية . وذلك أنهم قتلوا صاحبَ لِواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء، وكان الظفر ابتداء للسلمين غيرَ أنهم اشتغلوا بالغنيمة وترك بعضُ الرّماة أيضا مركَزَهم طلبا للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة . روى البخاريّ عن البَرَاء بن عازب قال : لما كان يوم أُحُد ولَقِينا المشركين أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أناسا من الرُّماة وأمَّر عليهم عبدَ الله بنَ جُبير وقال لهم : "لا تبرحوا من مكانكم [ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا][1] وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تُعينونا عليهم" قال : فلما التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يَشْتَدِدن[2] فى الجبل، وقد رفعن عن سُوقِهن قد بدت خَلاخِلُهنّ فجعلوا يقولون : الغنيمة الغنيمة . فقال لهم عبد الله : أمهِلوا ! أمَا عهِد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألّا تبرحوا، فانطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقُتل من المسلمين سبعون رجلا . ثم إن أبا سفيان بن حرب أشرف علينا وهو فى نَشَزٍ فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تجيبوه" حتى قالها ثلاثا . ثم قال : أفى القوم ابن أبى قحافة؟ ثلاثا . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تجيبوه" . ثم قال : أفى القوم عمر ؟ ثلاثا . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تجيبوه" . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قُتِلوا . فلم يَملِك عمر رضى الله عنه نفسه دون أن قال : كذبتَ يا عدوّ الله ! قد أبقى الله لك من يُخزيك به . فقال : أُعْلُ هُبَل[3] ؛ مرتين . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أجيبوه" قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : "قولوا الله أعْلَى وأجَلّ" . قال أبو سفيان : لنا العُزَّى[4] ولا عُزَّى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أجيبوه" . قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : "قولوا الله مولانا ولا مَوْلَى لكم" . قال أبو سفيان : يومٌ بيوم بدر، والحرب سِجال، أمَا إنكم ستجدون فى القوم مُثْلة لم آمر بها ولم تسؤنى . وفى البُخارىّ ومُسلم عن سعد بن أبى وقّاص قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شِماله يوم أُحُد رجلين عليهما ثياب بيض يُقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ القتال . وفى رواية عن سعد : عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبلُ

(١) زيادة عن صحيح البخارى . (٢) أى يسرعن المشى . (٣) أى أظهر دينك، أو زد علوا، أو ليرتفع أمرك ويعز دينك فقد غلبت . (٤) العزى : اسم صنم لقريش .

ولا بعدُ . يعنى جبريل وميكائيل . وفى رواية أخرى : يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعدَه . وعن مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة معهم يومئذ، ولا قبله ولا بعده إلا يومَ بدر. قال البيهقى : إنما أراد مجاهدٌ لم يقاتلوا يوم أُحُد عن القوم حين عَصَوا الرسول ولم يصبِروا على ما أمرهم به . وعن عُروة بن الزّبير قال : وكان الله عز وجل وعَدَهم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهم بخمسة آلافٍ من الملائكة مُسَوِّمين، وكان قد فعل؛ فلما عَصَوْا أمر الرسول وتركوا مَصافّهم وترك الرماةُ عهدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ألّا يبرحوا من منازلهم ، وأرادوا الدنيا ، رفع عنهم مَدَد الملائكة ، وأنزل الله « وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ » فصدق الله وعده وأراهم الفتح، فلما عصوا أعقبهم البلاء . وعن عُمَير بن إسحاق قال : لما كان يوم أُحُد ٱنكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعدٌ يَرْمِى بين يديه ، وفَتًى يُنَبِّل له ، كلما ذهبت نَبْلَةٌ أتاه بها. قال : ارْمِ أبا إسحاق . فلما فرغوا نظروا مَنِ الشّاب؛ فلم يَرَوه ولم يعرفوه . وقال محمد بن كعب : ولما قُتل صاحبُ لواءِ المشركين ، وسقط لِواؤهم رفعته عَمْرة بنتُ عَلقمةَ الحارثيّةُ؛ وفى ذلك يقول حسان :

فلولا لِواء الحارِثيّة أصبحوا * يُباعون فى الأسواق بيع الجلائب

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ معناه تقتلونهم وتستأصلونهم؛ قال الشاعر :

حَسَسْناهُم بالسّيف حَسًّا فأصبحتْ * بَقِيّتهم قد شُرِّدُوا وتَبَدَّدُوا

وقال جرير :

تَحُسُّهُمُ السيُوفُ كما تَسامَى * حَرِيقُ النارِ فى أَجَم الحصِيد

قال أبو عبيدة : الحَسُّ الاستئصال بالقتل؛ يقال : جراد مَحْسُوس إذا قتله البرد . والبَرْدُ مَحَسَّةٌ للنبت؛ أى مُحرِقةٌ له ذاهبة به . وسَنَةٌ حَسُوسٌ أى جَدبة تأكل كلّ شىء؛ قال رُؤبة :

إذا شَكَوْنا سنةً حَسُوسا * تأكل بعدَ الأخضر اليبيسا

وأصله من الحِس الذى هو الإدراك بالحاسة . فمعنى حَسّه أذهب حِسّه بالقتل . ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه أو بقضائه وأمره . ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أى جَبُنتم وضَعُفتم . يقال : فَشِلَ يفشَل فهو

فَشِل وفَشْل . وجواب «حتى» محذوف، أى حتى إذا فشِلتم امتُحِنتم . ومثلُ هذا جائز كقوله : « فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَاءِ » فافعل . وقال الفراء : جواب «حتى» «وتنازعتم» والواو مُقْحَمة زائدة؛ كقوله : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى ناديناه . وقال امرؤ القيس :

* فلما أجَزْنا ساحةَ الحَيِّ وٱنْتَحَى *

أى انتحى . وعند هؤلاء يجوز إقحام الواو من «وعصيتم» . أى حتى إذا فشِلتم وتنازعتم عصيتم . وعلى هـذا فيه تقديم وتأخير، أى حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشِلتم . وقال أبو علىّ : يجوز أن يكون الجواب «صرفكم عنهم» ، وثم زائدة، والتقدير حتى إذا فشِلتم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم . وقد أنشد بعض النحويين فى زيادتها قول الشـاعر :

أرانِى إذا ما بِتّ بِتّ على هَوًى * فثُمّ إذا أصبحتُ أصبحتُ عاديَا

وجوّز الأخفش أن تكون زائدة؛ كما فى قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » . وقيل : «حتى» بمعنى «إلى» وحينئذٍ لا جواب له ؛ أى صدقكم الله وعده إلى أن فشلتم ، أى كان ذلك الوعد بشرط الثبات . ومعنى ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾ اختلفتم ؛ يعنى الرُّماة حين قال بعضهم لبعض : نلحق الغنائم . وقال بعضهم : بل نثبت فى مكاننا الذى أمَرنا النبىُّ صلى الله عليه وسلم بالثبوت فيه . ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أى خالفتم أمر الرسول فى الثبوت . ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ يعنى من الغلبة التى كانت للسلمين يوم أُحُد أوّلَ أمرهم؛ وذلك حين صُرِع صاحبُ لواء المشركين على ما تقدم . وذلك أنه لما صُرِع انتشر النبىُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه وصاروا كتائبَ متفرّقةً فحاسُوا[1] العدوّ ضربا حتى أجْهَضوهم[2] عن أثقالهم . وحَمَلت خيلُ المشركين على المسلمين ثلاثَ مرّاتٍ كلّ ذلك تُنْضَح بالنَّبْل فترجع مغلوبةً، وحمل المسلمون فنهَكُوهم قتلا . فلما أبصر الرُّماة الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهم قالوا : والله ما نجلس ههنا لشىء ، قد أهلك الله العدوّ

(١) الحوس : شدّة الاختلاط ومداركة الضرب . أى بالغوا النكاية فيهم .

(٢) أى نحّوهم عنها وأزالوهم .

وإخواننا فى عسكر المشركين . وقال طوائف منهم : عَلَام نقف وقد هزم الله العدوّ؛ فتركوا منازلهم التى عهِد إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ألّا يتركوها ، وتنازعوا وفشِلوا وعَصَوُا الرسول فأوْجَفَت[1] الخيل فيهم قتلا . وألفاظ الآية تقتضى التّوبيخ لهم ، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر فى الثبات لا فى الانهزام . ثم بيّن سبب التنازع فقال : ﴿ مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعنى الغنيمة . قال ابن مسعود : مَا شَعَرْنا أن أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعَرَضها حتى كان يوم احد . ﴿ وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ وهم الذين ثَبَتُوا فى مركزهم ، ولم يخالفوا أمر نبيِّهم صلى الله عليه وسلم مع أميرهم عبدِ الله بن جُبير؛ فحمل خالد بن الوليد وعِكرمة بن أبى جهل عليه ، وكانا يومئذ كافرَيْن فقتلوه مع مَن بقِىَ ، رحمهم الله. والعِتاب مع من انهزم لا مع مَن ثبت ، فإن من ثبت فاز بالثواب ، وهذا كما أنه إذا حلّ بقوم عقوبةٌ عامة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون؛ ولكن لا يكون ما حلّ بهم عقوبةً ، بل هو سبب المَثُوبة . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ أى بعد أن استوليتم عليهم ردّكم عنهم بالانهزام. ودل هذا على أن المعصية مخلوقةٌ لله تعالى. وقالت المعتزلة: المعنى ثم انصرفتم؛ فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرّعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاء لهم. قال القُشيرى : هذا لا يُغنيهم ، لأن إخراج الرُّعب من قلوب الكافرين حتى يستخِفُّوا بالمسلمين قبيحٌ عندهم ، ولا يجوز أن يقع من الله قبيح ، فلا يبقى لقوله : « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » معنًى . وقيل : معنى « صرفكم عنهم » أى لم يكلفكم طلبَهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة . والخطاب قيل هو للجميع . وقيل : هو للرُّماة الذين خالفوا ما أُمروا به ؛ واختاره النحاس . وقال أكثر المفسرين : ونظير هذه الآية قوله : « ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ » . ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالعَفو والمغفرة . وعن ابن عباس قال : ما نُصر النبيّ صلى الله

---

(١) الايجاف : سرعة السير .

عليه وسلم فى موْطن كما نُصر يوم أُحد . وأُنكِر ذلك . فقال ابن عباس : بينى و بين من أنكر ذلك كتابُ الله عز وجل ، إن الله عز وجل يقول فى يوم أُحد : « وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ — يقول ابن عباس : والحَسُّ القتلُ — حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » و إنما عُنِى بهذه الرماة . وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أقامهم فى موضع ثم قال : "احْمُوا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا و إن رأيتمونا قد غَنِمنا فلا تَشْرَكونا" . فلما غَنِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين انكفأت الرُّماة جميعا فدخلوا فى العسكر يَنْتَهِبون ، وقد التقت صفوفُ أصحابِ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فهم هكذا — وشبّك أصابع يديه — وٱلتبسوا . فلما أَخَلَّ الرُّماة تلك الخَلَّة[1] التى كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضا والتبسوا ، وقُتِل من المسلمين ناسٌ كثير ، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه أوّلُ النهار حتى قُتِل من أصحاب لِواء المشركين سبعةٌ أو تسعة ، وجال المسلمون نحو الجبل ، ولم يبلغوا حيث يقول الناس : الغار[2] ، إنما كانوا تحت المِهراس[3] ، وصاح الشيطان : قتل محمد . فلم يُشَك فيه أنه حقٌّ ، فما زلنا كذلك ما نَشُكّ أنه قُتِل حتى طَلَع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السَّعدَيْن[4] ، نعرِفه بتَكَفّئِه[5] إذا مشى . قال : ففرِحنا حتى كأنّا لم يُصبنا ما أصابنا . قال : فرَقِى نحوَنا وهو يقول : "اشتدّ غضبُ الله على قوم دَموا وجهَ نَبِيِّهم" . قال كعب بن مالك : أنا كنتُ أوّلَ من عرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين ؛ عرَفته بعينيه من تحت المِغفَر تَزهَران فناديت بأعلى صوتى : يامَعْشَر المسلمين ! أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أَقبَل . فأشار إلىّ بأن اسكت .

---

(١) أخل بالمكان و بمركزه : غاب عنه وتركه . والخلة : الطريق . (٢) كذا فى الأصول . والذى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابورى : « ... ألغاب » بالباء بدل الراء .
(٣) المهراس : ماء بجبل أحد . (٤) السعدان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة .
(٥) التكفؤ : التمايل الى قدام كما تتكفأ السفينة فى جريها .

قوله تعالى : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

« إِذْ » متعلّق بقوله : «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» . وقراءة العامة « تُصْعِدُونَ » بضم التاء وكسر العين . وقرأ أبو رَجَاء العُطَارِدِىّ وأبو عبد الرحمن السُّلَمِى والحسن وقتادة بفتح التاء والعين، يعنى تصعدون الجبل . وقرأ ابن مُحَيْصن وشِبل « إذ يصعدون ولا يلوون » بالياء فيهما . وقرأ الحسن « تَلُون » بواو واحدة . وروى أبو بكر بن عيّاش عن عاصم « ولا تُلوون » بضم التاء ؛ وهى لغة شاذة ذكرها النحاس . وقال أبو حاتم : أصعدت إذا مضيتَ حيال وجهك ، وصعِدت إذا ارتقيت فى جبل أو غيره . فالإصعاد : السّير فى مُسْتوٍ من الأرض و بطون الأودية والشّعاب . والصّعود : الارتفاع على الجبال والسطوح والسّلالِيم والدَّرج . فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل بعد إصعادهم فى الوادى ؛ فيصح المعنى على قراءة « تُصعِدون » و « تَصعَدون » . قال قتادة والربيع : أصعدوا يوم أُحُد فى الوادى . وقراءة أُبَىّ « إذ تصعِدون فى الوادى » . قال ابن عباس : صَعِدوا فى أُحُد فِرارا . فكلتا القراءتين صواب ؛ كأن المنهزمين يومئذ مُصْعِد وصاعِد . والله أعلم . قال القُتَبِىّ والمبرّد : أصعد أبعَدَ فى الذهاب وأمعن فيه ؛ فكأن الإصعاد إبعاد فى الأرض كابعاد الارتفاع ؛ قال الشاعر[1] :

ألا أيّهذا السائلى أين أصعدت[2] * فإنّ لها من بطن يَثْرِبَ موعِدا

وقال الفراء . الإصعاد الابتداءُ فى السّفر، والانحدارُ الرجوعُ منه؛ يقال : أصعدنا من بغدادَ إلى مكةَ و إلى خُراسان وأشباه ذلك إذا خرجنا إليها وأخذنا فى السفر، وانحدرنا إذا رجعنا . وأنشد أبو عبيدة :

قد كنتِ تبكين على الإصعاد * فاليومَ سُرّحتِ وصاح الحادى

---

(١) هو أعشى قيس . (٢) الذى فى ديوان الأعشى وسيرة ابن هشام ص ٢٥٥ طبع أوربا : « أين يممت » . والبيت من قصيدة يمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم ، ومطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا * وعادك ما عاد السليم المسهدا

وقال المفضّل : صَعِد وأصعد وصعّد بمعنًى واحد . ومعنى «تَلْوُونَ» تعرِّجون وتقيمون، أى لا يلتفت بعضكم إلى بعض هَرَبًا؛ فإن المُعرِّج على الشيء يلوى إليه عُنقه أو عِنان دابته . ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم؛ قاله الكلبي . ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أى فى آخركم؛ يقال : جاء فلان فى آخر الناس وأخرة الناس وأخرى الناس وأخريات الناس . وفى البخارى « أخراكم » تأنيث آخركم : حدثنا عمرو بن خالد حدّثنا زهير حدّثنا أبو إسحاق قال سمعت البَرَاء بن عازِب قال : جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم على الرّجّالة يوم أُحُد عبدَ الله بن جبير وأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول فى أخراهم . ولم يبق مع النبيّ صلى الله عليه وسلم غير اثنى عشر رجلا . قال ابن عباس وغيره : كان دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم "أى عباد اللهِ ارجعوا". وكان دعاؤه تغييرا للمنكر، ومحال أن يرى عليه السلام المنكر وهو الانهزام ثم لا ينهى عنه .

قلت : هذا على أن يكون الانهزام معصية وليس كذلك، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ الغم فى اللغة التّغطية. غمّمت الشيء غطيته . ويوم غَمٌّ وليلة غَمّةٌ إذا كانا مظلمين . ومنه غُمّ الهلالُ إذا لم يُرَ وغَمّنى الأمر يغُمُّنِى . قال مجاهد وقتادة وغيرهما : الغَمُّ الأول القتل والجراح، والغم الثانى الإرجاف بقتل النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ إذ صاح به الشيطان . وقيل : الغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثانى ما أصابهم من القتل والهزيمة . وقيل : الأول الهزيمة ، والثانى إشراف أبى سفيان وخالدٍ عليهم فى الجبل؛ فلما نظر إليهم المسلمون غمّهم ذلك، وظنُّوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم؛ فعند ذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "اللّهُمّ لا يَعْلُنّ علينا" كما تقدّم . والباء فى « بِغَمّ » على هذا بمعنى على . وقيل : هى على بابها، والمعنى أنهم غَمُّوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم إياه، فأثابهم بذلك غمّهم بمن أصيب منهم . وقال الحسن : فأثابكم غمّا يوم أُحد بغَمّ يوم بدر للمشركين . وسُمّى الغمّ ثوابا كما سُمِّى جزاء الذنب ذنبا . وقيل : وقّفهم الله على ذنبهم فشغلوا بذلك عما أصابهم .

قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ اللام متعلقة بقوله : «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» وقيل : هى متعلقة بقوله : «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ» أى كان هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة، ولا ما أصابكم من الهزيمة . والأوّل أحسن . و « ما » فى قوله « وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » فى موضع خفض : وقيل : « لا » صلة . أى لكيلا تحزنوا على ما فاتكم، وما أصابكم عقوبةٌ لكم فى مخالفتكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو مثل قوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » أى أن تسجد . وقوله : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أى ليعلم ؛ وهذا قول المفضّل . وقيل : أراد بقوله « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ » أى توالَتْ عليكم الغموم، لئلا تشتغلوا بعد هذا بالغنائم . « وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » فيه معنى التحذير والوعيد .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا ﴾ الأمَنة والأمْن سواء . وقيل : الأَمَنة إنما تكون مع أسباب الخوف، والأمْن مع عدمه . وهى منصوبة بأنزل، و «نعاسا» بدل منها . وقيل : نصب على المفعول له ؛ كأنه قال : أنزلت عليكم الأَمْنة نعاسا . وقرأ ابن مُحَيصن « أمْنة » بسكون الميم . تفضّل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغموم فى يوم أُحُد بالنعاس حتى نام أكثرهم ؛ وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام . روى البخارىّ عن أنَس أن

أبا طلحة قال : غَشِيَنا النعاس ونحن فى مصافّنا يوم أُحُد ، قال : فجعل سيفى يسقط من يدى ، وآخذه و يسقط ، وآخذه . ﴿ يَغْشَى ﴾ قرئ بالياء والتاء . الياء للنعاس ، والتاء للأمنة . والطائفة يطلق على الواحد والجماعة . ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ يعنى المنافقين : مُعَتِّب بن قُشير وأصحابه ، وكانوا خرجوا طمعا فى الغنيمة وخوف المؤمنين فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتأسّفون على الحضور ، ويقولون الأقاويل . ومعنى « قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » حملتهم على الهمّ ، والهمّ ما هَمَمت به ؛ يقال : أهمّنى الشىء أى كان من همّى . وأمرٌ مُهِمٌّ شديد . وأهمّنى الأمر أقلقنى ، وهمّنى أذابنى (١) . والواو فى قوله « وطائفةٌ » واو الحال بمعنى إذ ، أى إذ طائفةٌ يَظُنُّون أن أمر محمد عليه السلام باطل ، وأنه لا يُنصر . ﴿ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ أى ظنّ أَهْلِ الْجَاهلية ، فحذف . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لفظة استفهام ومعناه الجحد ، أى ما لنا شىء من الأمر ، أى من أمر الخروج و إنما خرجنا كرها . يدلّ عليه قوله تعالى إخبارا عنهم : « لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هاهنا » . قال الزبير : أُرسل علينا النوم ذلك اليوم ، و إنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير والنعاسُ يغشانى : لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتلنا هاهنا . وقيل : المعنى يقولون ليس لنا من الظَّفَر الذى وَعَدنا به محمد شىء . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو و يعقوب « كلُّه » بالرفع على الابتداء ، وخبره « لِلَّهِ » ، والجملة خبر « إن » . وهو كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ » . والباقون بالنصب ؛ كما تقول : إن الأمر أجمعَ لله . فهو توكيد ، وهو بمعنى أجمع فى الإحاطة والعموم ، وأجمع لا يكون إلا توكيدا . وقيل : نعت للأمر . وقال الأخفش : بدل ؛ أى النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذُل من يشاء . وقال جُوَيبر عن الضحّاك عن ابن عباس فى قوله « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » يعنى التكذيب بالقَدَر . وذلك أنهم تكلّموا فيه ؛ فقال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » يعنى القَدَر خيره وشره من الله . ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى من الشّرك والكفر والتكذيب . ﴿ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾

---

(١) أى حزنه الأمر حتى أذابه .

يظهرون لك. ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ أى ماقتل عشائرنا . فقيل : إن المنافقين قالوا لو كان لنا عقل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة، ولما قتل رؤساؤنا . فردّ الله عليهم فقال : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ﴾ أى لخرج . ﴿ الَّذِينَ كُتِبَ ﴾ أى فرض . ﴿ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ . ﴿ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أى مصارعهم . وقيل : « كتب عليهم القتل » أى فرض عليهم القتال؛ فعبّر عنه بالقتل لأنه قد يؤول إليه . وقرأ أبو حَيْوة « لبُرِّز » بضم الباء وشدّ الراء، بمعنى يُجعل يَخرج . وقيل : لو تخلفتم أيها المنافقين لبرزتم إلى موطن آخر غيره تُصرعون فيه حتى يَبتلى الله ما فى الصدور ويُظهره للؤمنين . والواو فى قوله ﴿ وليبتلي ﴾ مقحمة كقوله : « وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » أى ليكون ، وحذف الفعل الذى مع لام كى. والتقدير ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أُحُد ليختبر صبركم وليُمحّص عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم . وقيل : معنى « لِيبتلِي » ليعاملكم معاملة المختبر . وقيل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غَيْباً . وقيل : هو على حذف مضاف، والتقدير ليبتلى أولياء الله تعالى . وقد تقدّم معنى التمحيص . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى ما فيها من خير وشر . وقيل : ذات الصدور هى الصدور؛ لأن ذات الشى نفسه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ هذه الجملة هى خبر « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا » . والمراد من تولّى عن المشركين يوم أُحُد؛ عن عمر رضى الله عنه وغيره . السُّدّى : يعنى من هرب إلى المدينة فى الهزيمة دون من صَعِد الجبل . وقيل : هى فى قوم بأعيانهم تخلّفوا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى وقت هزيمتهم ثلاثة أيام ثم انصرفوا . ومعنى « استزلهم الشيطان » استدعى زللهم بأن ذكّرهم خطايا سَلفت منهم ، فكرهوا الثبوت لئلا يُقتلوا .

وهو معنى «ببعضِ ما كسبوا» . وقيل : «استزلهم» حملهم على الزلل ؛ وهو استفعل من الزلّة وهى الخطيئة . وقيل : زَلّ وأزل بمعنًى واحد . ثم قيل : كرهوا القتال قبل إخلاص التوبة ؛ فإنما تولَّوْا لهذا ، وهذا على القول الأول . وعلى الثانى بمعصيتهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فى تركهم المركز ومَيْلهم إلى الغنيمة . وقال الحسن : «ما كسبوا» قَبُولهم من إبليس ما وسوس إليهم . وقال الكلبىّ : زيّن لهم الشيطان أعمالهم . وقيل : لم يكن الآنهزام معصية لأنهم أرادوا التحصُّن بالمدينة ، فيقطع العدوّ طمعه فيهم لمّا سمعوا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قُتِل . ويجوز أن يقال : لم يسمعوا دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم لِلهَوْل الذى كانوا فيه . ويجوز أن يقال : زاد عدد العدوّ على الضِّعف لأنهم كانوا سبعمائة والعدوّ ثلاثة آلاف . وعند هذا يجوز الآنهزام ولكن الآنهزام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم خطأ لا يجوز ، ولعلّهم توهّموا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم انحاز إلى الجبل أيضا . وأحسنها الأول . وعلى الجملة فإن حُمل الأمر على ذنب مُحَقَّق فقد عفا الله عنه ، وإن حمل على انهزام مُسَوّغ فالآية فيمن أبعد فى الهزيمة وزاد على القدر المسوّغ . وذكر أبو الليث السَّمْرَقندِىّ نصر بن محمد بن إبراهيم قال : حدّثنا الخليل ابن أحمد قال حدّثنا السرّاج قال حدّثنا قتيبة قال حدّثنا أبو بكر بن غَيْلان عن جرير : أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عَوْف كلام ؛ فقال له عبد الرحمن بن عوف : أَتَسُبُّنِى وقد شهدتُ بَدْرًا ولم تَشهَد ، وقد بايعتُ تحت الشجرة ولم تبايع ! وقد كنتَ تُوَلّى مع من تولّى يوم الجَمْع ، يعنى يوم أُحُد . فردّ عليه عثمان فقال : أما قولك : أنا شهدتُ بدرا ولم تشهد ؛ فإنى لم أَغِب عن شىء شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مريضةً وكنت معها أُمَرِّضها ، فضرب لى رسول الله صلى الله عليه وسلم سَهْماً فى سهام المسلمين . وأما بيعة الشّجرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى رَبِيئَةً على المشركين — الرَّبِيئَةُ هو الناظر — فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينه على شماله فقال : "هذه لعثمان" فيمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وشماله خير لى من يمينى وشمالى . وأما يوم الجَمْع فقال الله تعالى : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » فكنتُ فيمن عفا الله عنه . فحجّ عثمانُ عبدَ الرحمن .

قلت : وهذا المعنى صحيحٌ أيضا عن ابن عمر، كما فى صحيح البخارى قال : حدّثنا عَبْدان أخْبرَنا أبو حمزة عن عثمان بن مَوْهَب قال : جاء رجلٌ حجّ البيتَ فرأى قوما جلوسا فقال : مَن هؤلاء القعود ؟ قال : هؤلاء قريش . قال : مَنِ الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر ، فأتاه فقال : إنى سائلك عن شىء أتُحدّثُنِى ؟ قال : أَنْشُدكَ بحُرْمة هذا البيت ، أتعلم أن عثمانَ بنَ عفّان فَرَّ يوم أُحُد ؟ قال نعم . قال : فتعلَمُه تغيّب عن بَدْرٍ فلم يشهدها ؟ قال نعم . قال : فتعلم أنه تخلّف عن بيعة الرِّضوان فلم يشهدها ؟ قال نعم . قال : فكَبّر . قال ابن عمر : تعالَ لِأخبرك ولأبيّن لك عما سألتنى عنه ، أمّا فِراره يوم أُحُد فأشهَدُ أن الله عفا عنه . وأمّا تغيبُّه عن بَدْرٍ فإنه كان تحته بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضةً ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن لكَ أجرَ رجل ممن شَهِد بدْرًا وسهْمَه". وأمّا تغيبُّه عن بيعة الرِّضوان فإنه لو كان أحَدٌ أعزّ ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه ، فبعث عثمانَ وكانت بيعةُ الرضوان بعد ما ذهب عثمانُ إلى مكة ، فقال[1] النبىّ صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : " هذه يد عثمان " فضرب بها على يده فقال : " هذه لعثمان " . آذهب بها[2] الآن معك[3] .

قلت : ونظير هذه الآية توبةُ اللهِ على آدمَ عليه السلام . وقوله عليه السلام : "فحجّ آدمُ موسى" أى غلبه بالحُجّة ، وذلك أن موسى عليه السلام أراد توبيخ آدمَ ولومَه فى إخراج نفسه وذرّيّته من الجنة بسبب أكله من الشجرة ، فقال له آدم : " أفتلومُنى على أمر قدّره الله علىّ قبل ان أُخلَق بأربعين سنة تاب علىّ منه ومن تاب عليه فلا ذنب له ومن لا ذنب له لا يتوجّه عليه لوم" . وكذلك من عفا الله عنه . وإنما كان هذا لإخباره تعالى بذلك ، وخبره صِدْقٌ . وغيرهما من المذنبين التائبين يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فهم على وَجَل وخوف ألّا تُقبل توبتهم ، وإن قُبلت فالخوف أغلبُ عليهم إذ لا عِلْمَ لهم بذلك . فآعلم .

---

(١) قال : أشار . والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده أى أخذ ، وقال برجله أى مشى ، وقال بثوبه أى رفعه . وكل ذلك على الاتساع والمجاز . (عن نهاية ابن الأثير) .

(٢) أى اليسرى . (٣) فى رواية "بها" أى بالأجوبة التى أجبتك بها حتى يزول عنك ما كنت تعتقده من عيب عثمان . (عن القسطلانى) .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى المنافقين . ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ يعنى فى النفاق وفى النسب فى السرايا التى بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بئر مَعُونة . ﴿ لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ فنُهِى المسلمون أن يقولوا مثلَ قولهم . وقوله : ﴿ إِذَا ضَرَبُوا ﴾ هـو لِما مضى ، اى إذ ضربوا ؛ لأن فى الكلام معنى الشرط من حيث كان « الذين » مبهما غير موقّت ، فوقع « إذا » موقِـعَ « إذ » كما يقع الماضى فى الجزاء موضع المستقبل . ومعنى ﴿ ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ سافروا فيها وساروا لتجارة أو غيرها فماتوا . ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ غُزاة فقُتِلوا . والغُزَّى جمعُ منقوص لا يتغيّر لفظُها فى رفـع وخفض ، واحدهم غازٍ ، كراكع ورُكّع ، وصائم وصُوّم ، ونائم ونُوّم ، وشاهِد وشُهّد ، وغائِب وغُيّب[1] . ويجوز فى الجمع غُزاة مثل قُضاة ، وغُزّاء بالمد مثل ضُرّاب وصوّام . ويقال : غَزِىّ جمع الغَزاة . قال الشاعر[2] :

* قل للقوافلِ والغَزِىّ إذا غزَوْا *

ورُوى عن الزُّهرِىّ أنه قرأه « غُزًى » بالتخفيف . والمُغْزِيَةُ المرأة التى غزَا زوجُها . وأَتانٌ مُغْزِيةٌ متأخرةُ النِّتاج ثم تُنْتج . وأغْزَت الناقة إذا عسُر لِقاحُها . والغَزْو قصدُ الشىء . والمَغْزَى المَقْصِدُ . ويُقال فى النِّسبةِ إلى الغزوِ غَزَوِىٌّ .

---

(١) فى اللسان مادة «غزا» أنه جمع غاز مثل حاج وحجيج وقاطن وقطين وناد وندى وناج ونجى

(٢) هو زياد الأعجم . وقيل : هو الصليان العبدى ، وتمامه كما فى اللسان :

* والباكرين وللمجدّ الرائح *

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى ظنّهم وقولهم . واللّام متعلقة بقوله « قالوا » . أى ليجعل ظنهم أنهم لو لم يخرجو ما قُتلوا . « حسرة » أى ندامة فى قلوبهم . والحسرة الاهتمامُ على فائت لم يُقْدَر بلوغُه ؛ قال الشاعر :

فواحسرتى لم أقض منها لُبانتى * ولم أتمتّع بالجُوار و بالقرب

وقيل : هى متعلقة بمحذوف . والمعنى : لا تكونوا مثلَهم ليجعل الله ذلك القولَ حسرةً فى قلوبهم ؛ لأنهم ظهر نفاقهم . وقيل : المعنى لا تصدّقوهم ولا تلتفتوا إليهم ؛ فكان ذلك حسرة فى قلوبهم . وقيل : ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم يوم القيامة لِمَا هم فيه من الخِزْى والندامة ، ولِمَا فيه المسلمون من النعيم والكرامة .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى يقدر على أن يُحيِي من يخرج إلى القتال ، ويُميت من أقام فى أهله . ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ قرئ بالياء والتاء . ثم أخبر تعالى أن القتل فى سبيل الله والموت فيه خير من جميع الدنيا .

قوله تعالى : وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

جواب الجزاء محذوف ، استغنى عنه بجواب القسم فى قوله : ﴿ لمغفرة مِن اللهِ و رحمة ﴾ . وكان الاستغناء بجواب القَسَم أوْلى لأنّ له صَدْر الكلام ، ومعناه ليغفرنّ لكم . وأهل الحجاز يقولون : مِتم ، بكسر الميم مثل نِمتم ، من مات يمات مثل خِفت يخاف . وسُفْلَى مُضر يقولون : مُتم ، بضم الميم مثل صمتم ، من مات يموت . كقولك كان يكون ، وقال يقول . هذا قول الكوفيين وهو حسن . وقوله : ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وَعْظ . وعظهم الله بهذا القول ، أى لا تفِرّوا من القتال ومما أمركم به ، بل فِرّوا من عقابه وأليم عذابه ، فإن مَرَدّكم إليه لا يملك لكم أحد ضرّا ولا نفعا غيره . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

« ما » صلةٌ فيها معنى التأكيد، أى فبرحمة؛ كقوله : « عَمَّا قليلٍ » « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ » « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ » . وليست بزائدة على الإطلاق، و إنما أطلق عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زال عملها . ابن كَيْسان : « ما » نكرة فى موضع جر بالباء ﴿ وَرَحْمَةٍ ﴾ بدلٌ منها . ومعنى الآية : أنه عليه السلام لما رَفَق بمن تولَّى يوم أُحدٍ ولم يُعَنِّفْهُمْ بيّن الرَّبُّ تعالى أنه إنما فَعَل ذلك بتوفيق الله تعالى إيّاه . وقيل : «ما» استِفْهامٌ . والمعنى: فبأىّ رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُم؛ فهو تعجيب. وفيه بُعْد؛ لأنه لو كان كذلك لكان «فبم» بغير ألف . ﴿ لِنْتَ ﴾ مِن لَانَ يَلِينُ لِينًا وَلَيَانًا بالفتح . وَالفَظُّ الغَلِيظُ الجَافِي . فَظِظْتَ تَفَظُّ فَظَاظَةً وفظاظًا فأنت فَظٌّ. والأُنثى فَظَّةٌ والجمع أفْظَاظ . وفى صفة النبىّ عليه السلام ليس بفَظٍّ ولا غَلِيظٍ ولا صَخَّابٍ فى الأسواق؛ وأنشَدَ المُفَضَّل فى المذكَّر :

ليس بفَـــظٍّ فى الأَدَانِىَ والأُلى * يَؤُمُّونَ جَدْوَاهُ ولكنه سَهْلُ
وفَـــظٌّ على أعدائِه يَحْـــذَرُونَه * فَسَـــطْوَتُه حَتْفٌ ونائِلُه جَزْلُ

وقال آخرُ فى المُؤَنَّث :

أَموتُ مِنَ الضُّرِّ فى منزلى * وغـــيرى يموتُ من الكِظَّه
ودُنْيَـــا تَجُودُ على الجاهلين * وهى على ذِى النُّهَى فَظَّـــه

وغِلَظُ القلب عِبارةٌ عن تَجَهُّم الوجه، وقِلَّةِ الانفِعالِ فى الرَّغائِبِ، وقِلَّةِ الإشْفَاقِ والرَّحمةِ؛ ومن ذلك قولُ الشَّاعر :

يُبْكَى عَلَيْنَا ولا نَبْكِى على أَحَدٍ * لَنحنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا من الإبِلِ

ومعنى ﴿لَٱنفَضُّوا﴾ لتفرّقوا؛ فضضتهم فانفضّوا، أى فرّقتهم فتفرّقوا؛ ومن ذلك قول أبى النّجم يصف إبلا :

مستعجلات القيض(١) غير جُرْدِ(٢) * ينفضّ عنهنّ الحصى بالصَّمْدِ(٣)

وأصل الفض الكسر؛ ومنه قولهم: لا يَفْضُضِ الله فاكَ . والمعنى : يا محمد لولا رفقُك لمنعهم الاحتِشامُ والهيبةُ من القُربِ منك بعد ما كان من تولّيهم .

قوله تعالى : ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قال العلماء : أمر الله تعالى نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر التى هى بتدريج بليغ ؛ وذلك أنه أمره بأن يعفوَ عنهم ما له فى خاصّته عليهم من تبِعةٍ؛ فلما صاروا فى هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبِعة أيضا، فإذا صاروا فى هذه الدّرجة صاروا أهْلًا للاستشارة فى الأمور . قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول العرب : شُرْتُ الدابة وشوّرتُها إذا علمت خبرها بجرى أو غيره . ويقال للموضع الذى تركُضُ فيه : مِشْوَار . وقد يكون من قولهم : شُرْت العسلَ واشْتَرْتُه فهو مَشُور ومُشَار إذا أخذته من موضعه؛ قال عَدِىّ بن زَيد :

فى سَمَاع يأذَنُ الشَّيْخُ له * وحَديثٍ مثلِ ماذىٍّ مُشَار(٤)

الثانيـــة — قال ابنُ عَطية : والشُّورَى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ؛ من لا يَسْتَشِيرُ أهلَ العلم والدِّين فعزلُهُ واجبٌ . هذا ما لا خلاف فيه . وقد مدَح الله المؤمنين بقوله : « وأمرُهُم شُورَى بَيْنَهُمْ » . وقال أعرابىٌّ : ما غُبِنْتُ قَطُّ حتى يُغْبَنَ قومى . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا أفعل شيئا حتى أُشَاوِرَهُم . وقال ابنُ خُوَيْزِمَنْدَاد : واجب على

---

(١) كذا فى الأصول بالقاف والياء المثناة ، ولعله مصحف عن « القبض » بالقاف والباء الموحدة وهو السوق السريع ، وإنما سمى السوق السريع قبضا لأن السائق للإبل يقبضها أى يجمعها إذا أراد سوقها فاذا انتشرت عليه تعذر سوقها . (٢) كذا فى الأصول بالجيم المعجمة ، ولعله مصحف عن « حرد » بالحاء المهملة ، والحرد فى البعير أن تنقطع عصبة ذراعه فتسترخى يده فلا يزال يخفق بها أبدا . (٣) الصمد : المكان الغليظ المرتفع من الأرض لا يبلغ أن يكون جبلا . (٤) يأذن : يستمع . والماذى : العسل الأبيض . والمشار : المجتنى .

الوُلاةِ مُشاوَرَةُ العلماء فيما لا يَعْلمُون، وما أَشْكَل عليهم من أمور الدِّين، ووُجُوهِ الجَيش فيما يتعلّقُ بالحرب، ووجوهِ الناس فيما يَتعلّقُ بالمَصالح، ووُجُوهِ الكُتّابِ والوُزَرَاءِ والعُمّالِ فيما يتعلّقُ بمصالح البلاد وعِمارتها. وكان يقال: ما ندم من استشار. وكان يُقال: من أُعْجِبَ برأْيِه ضَلَّ.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾ يَدُلُّ على جواز الاجتهاد فى الأُمُورِ والأخذِ بالظُّنُونِ مع إمكان الوَحْى؛ فإن الله أَذِن لرسوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك. واختلَفَ أَهْلُ التأويلِ فى المعنى الذى أَمَرَ الله نبيَّهُ عليه السلام أن يُشَاوِرَ فيه أصحابَه؛ فقالت طائفة: ذلك فى مكائد الحُروب، وعند لِقاء العَدُوّ، وتطييبا لِنُفُوسِهِم، ورَفْعاً لأَقدارِهم، وتألُّفا على دينهم؛ وإنْ كان الله تعالى قد أَغْنَاهُ عن رأيهم بوحْيِه. رُوى هذا عن قتادة والربيع وابنِ إسحاق والشافعى. قال الشّافعىُّ: هو كقوله "والبِكرُ تُسْتَأْمَرُ" تطييبا لقلبها، لا أنّه واجبٌ. وقال مُقاتِلُ وقَتَادةُ والرّبيعُ: كانت سَاداتُ العرب إذا لم يُشَاوَرُوا فى الأَمْرِ شَقّ عليهم؛ فأمر الله تعالى نبيَّه عليه السلام أن يُشاوِرَهم فى الأمر؛ فإن ذلك أَعْطَفُ لهم وأَذْهَبُ لأضغانهم، وأَطيبُ لنفوسهم. فإذا شاورَهم عَرَفُوا إكرامَه لهم. وقال آخرون: ذلك فيما لم يأته فيه وَحْىٌ. رُوى ذلك عن الحسَنِ البصرى والضّحاك قالا: ما أَمَرَ الله تعالى نبيَّه بالمُشاوَرَة لحاجةٍ منه إلى رأيهم وإنما أرادَ ان يُعلِّمَهُم ما فى المُشَاوَرةِ من الفضلِ، ولتَقْتدىَ به أُمّتُه من بعدِه. وفى قراءة ابنِ عباسٍ «وشاوِرْهُمْ فى بعضِ الأَمْرِ». ولقد أَحْسَنَ القائلُ:

شَاوِرْ صديقَكَ فى الخَفِىِّ المُشْكِلِ * واقبَلْ نَصِيحَةَ ناصِحٍ مُتَفَضِّلِ

فاللهُ قد أَوْصَى بذاكَ نَبِيَّهُ * فى قَولِه شَاوِرْهُمُ وتَوكَّلِ

الرابعة — جاء فى مصنّف أبى داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ". قال العلماء: وصِفةُ المُستشَارِ إن كان فى الأَحْكامِ أن يكون عالِماً دَيِّنًا. وقلّ ما يكونُ ذلك إلّا فى عاقل. قال الحسنُ: ما كَمُلَ دِينُ آمرِئٍ مالم يَكْمُلْ

عقله . فإذا استُشيرَ مَنْ هذه صِفتُهُ واجتهدَ فى الصّلاح وبذَلَ جُهدَهُ فوقعت الإشارَةُ خطأً فلا غَرَامَةَ عليه ؛ قاله الخطّابىُّ وغيرُه .

الخامسة — وصفةُ المُستَشارِ فى أمورِ الدنيا أن يكون عاقِلًا مُجرّبًا وادًّا فى المسْتَشِير. قال :

* شاوِرْ صَديقَك فى الخفِىّ المُشْكِل *

وقد تقدّم . وقال آخر :

وإنْ بَابُ أمرٍ عليك الْتَوَى * فَشَاوِرْ لبيبًا ولا تَعْصِهِ

فى أبيات[1] . والشُّورَى بَرَكَةٌ . وقال عليه السلام : " مانَدِمَ مَن اسْتَشَار ولا خَابَ مِن اسْتَخَار " . وروى سهلُ بنُ سَعْد السّاعِدىّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم " ما شَقِىَ قَطُّ عبدٌ بمشورة وما سَعِد بآستغناء رأى " . وقال بعضُهم : شَاوِرْ من جرّبَ الأمورَ، فإنه يُعطيك من رأيه ما وقع عليه غالبا وأنت تأخذه مجّانًا . وقد جَعَل عمرُ بنُ الخطّاب رَضى الله عنه الخلافةَ — وهى أعظمُ النّوازِل — شُورَى . قال البُخَارىّ : وكانت الأئمة بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم يسْتَشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها . قال سفيان الثَّوْرِىّ : ليكن أهلُ مشورتك أهلَ التّقوى والأمانة ، ومن يخشى الله تعالى . وقال الحسن : واللهِ ما تشاورَ قومٌ بينهم إلا هداهم لِأفضل مايحضرهم . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما مِن قوم كانت لهم مشورةٌ فحضر معهم من آسْمُه أحمد أو محمد فأدخلوه فى مشورتهم إلا خِير لهم " .

السادسة — والشُّورَى مبنيّة على اختلاف الآراء ، والمستشير ينظر فى ذلك الخلاف ، وينظر أقربها قولا إلى الكتاب والسنة إن أمكنه ؛ فإذا أرشده الله تعالى إلى ماشاء منه عزم

---

(١) وقبل هذا البيت :

إذا كنت فى حاجة مرسلا * فأرسل حكيما ولا توصه

وبعده :

ونُصّ الحديثَ إلى أهله * فان الوثيقة فى نَصّه

إذا المرء أضمر خوف الإلـ * ـه تبيّن ذلك فى شخصه

عليه وأنفذه متوكّلا عليه ، إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب ؛ وبهذا أمر الله تعالى نبيّه في هذه الآية .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ قال قتادة : أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يَمضِيَ فيه ويتوكّل على الله، لا على مشاورتهم . والعزم هو الأمر المُرَوَّى المنقّح . وليس ركوب الرأى دون رَوِية عزما ، إلا على مقْطع المِشْيحين من فُتّاك العرب ؛ كما قال[1] :

إذا همّ ألقَى بين عينيه عزمَه * ونكّب عن ذِكر العواقب جانبًا
ولم يستشِر في رأيه غيرَ نفسه * ولم يرضَ إلا قائمَ السّيف صاحبًا

وقال النقّاش : العزم والحزم واحد، والحاء مبدلة من العين . قال ابن عطية : وهذا خطأ؛ فالحزم جودة النّظر في الأمر وتنقيحُه والحذرُ من الخطأ فيه . والعزمُ قصدُ الإمضاء؛ والله تعالى يقول : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ » . فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم . والعرب تقول : قد أَحْزُم لو أَعْزِم[2] . وقرأ جعفر الصّادق وجابر بن زيد « فإذا عَزَمْتُ » بضم التاء. نسب العزم إلى نفسه سبحانه إذ هو بهدايته وتوفيقه ؛ كما قال : «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» . ومعنى الكلام أى عزمتُ لك ووفّقتك وأرشدتك «فتوكل على اللهِ» . والباقون بفتح التاء . قال المُهَلَّب : وامتثل هذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم من أمر ربّه فقال : ”لا ينبغي لنبيّ يلبَس لأْمَتَه[3] أن يضعها حتى يحكم الله“ . أى ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقضٌ للتوكُّل الذى شرطه الله عز وجل مع العزيمة . فلُبْسه لأْمَتَه صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه بالخروج يوم أُحُد مَن أكرمه الله بالشهادة فيه، وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بدر : يا رسول الله أخرج بنا إلى عدوّنا ؛ دالّ على العزيمة . وكان

---

(١) هو سعد بن ناشب المازنى (عن الكامل للمبرد وخزانة الأدب للبغدادى) .

(٢) يقول : أعرف وجه الحزم ؛ فإن عزمت فأمضيت الرأى فأنا حازم ، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم ينفعنى حزمى . (عن الكامل للمبرد) .

(٣) اللأْمة : الدرع ، وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداته . وقد يترك الهمز تخفيفا .

صلى الله عليه وسلم أشار بالقعود ، وكذلك عبد الله بن أُبَىّ أشار بذلك وقال : أقم يارسول الله ولا تخرج إليهم بالناس ، فإنْ هم أقاموا أقاموا بشرّ مجلس ، وإن جاءونا إلى المدينة قاتلناهم فى الأفْنِية وأفواه السِّكك ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام[1] ؛ فوالله ما حاربنا قطُّ عدوٌّ فى هذه المدينة إلا غلبناه ، ولا خرجنا منها إلى عدوّ إلا غَلَبنا . وأبَى هذا الرأىَ من ذكرنا ، وشجّعوا الناس ودَعَوْا إلى الحرب . فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة ، ودخل إثر صلاته بيتَه ولبِس سلاحه . فندم أولئك القوم وقالوا : أكرهْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما خرج عليهم فى سلاحه قالوا : يارسول الله ، أقِم إن شئت فإنا لا نريد أن نُكرهَك . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغى لنبىّ إذا لبِس سلاحَه أن يضعها حتى يقاتل " .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ التوكّل الاعتماد على الله مع إظهار العجز ، والاسم التُّكْلان . يقال منه : اتّكلت عليه فى أمرى ، وأصله «اوْتَكَلْتُ» قلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها ، ثم أبدلت منها التاء وأدغمت فى تاء الافتعال . ويقال : وكّلته بأمرى توكيلا ، والاسم الوِكالة بكسر الواو وفتحها .

واختلف العلماء فى التوكل ؛ فقالت طائفة من المتصوفة : لايستحقه إلا من لم يخالط قلبَه خوفُ غير الله من سَبُع أو غيره ، حتى يترك السعى فى طلب الرزق لضمان الله تعالى . وقال عامّة الفقهاء : ما تقدم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . وهو الصحيح كما بيناه . وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما فى قوله « لا تخافا » . وقال : « فأوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ » . وأخبرعن إبراهيم بقوله : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ » . فإذا كان الخليل والكليم قد خافا — وحسبك بهما — فغيرهما أولى . وسيأتى بيان هذا المعنى .

قوله تعالى : إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

(١) الآطام (جمع أطم بضمتين) : الأبنية المرتفعة كالحصون . وقيل : حصون مبنية بحجارة .

قوله تعالى : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أى عليه توكّلوا فإنه إن يُعِنكم و يمنعكم من عدوّكم لن تُغلبوا . ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ يتركم من معونته . ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى لا ينصركم أحد من بعده ، أى من بعد خِذلانه إيّاكم ؛ لأنه قال : « وإن يخذلكم » والخِذلان ترك العَوْن . والمخذول : المتروك لا يُعْبأ به . وخَذَلت الوحشيّة أقامت على ولدها فى المرعى وتركت صواحباتها؛ فهى خذول . قال طَرَفة :

خَذُولٌ تُراعِى رَبْرَباً بِخَمِيلةٍ * تَناولُ أطرافَ البَرِيرِ وتَرْتَدِى (١)

وقال أيضا :

نظرتْ إليـك بعين جارية * خَذَلت صواحبها على طِفلِ

وقيل : هذا من المقلوب لأنها هى المخذولة إذا تُركت . وتخاذلت رجلاه إذا ضَعُفتا . قال :

* وخَذُولِ الرِّجْلِ مِن غيرِ كَسَحْ (٢) *

ورجل خُذَلة للذى لا يزال يَخْذُل . والله أعلم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — لما أخلّ الرُّماة يوم أُحُد بمراكزهم — على ما تقدّم — خوفًا من أن يستولى المسلمون على الغنيمة فلا يُصرف إليهم شىء بيّن الله سبحانه أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم لا يجور فى القسمة؛ فما كان من حقّكم أن تتهموه . وقال الضحاك : بل السبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع فى بعض غزواته ثم غَنم قبل مجيئهم؛ فقسم للناس ولم يقسم للطلائع ؛ فأنزل الله عليه عتابا « وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ » أى يقسم لبعض و يترك بعضا . ورُوى نحو هذا القول عن ابن عباس . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة وابن جُبير

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش والظباء وغير ذلك . الخميلة : الأرض السهلة اللينة ذات الشجر . البرير : ثمر الأراك . (٢) هذا عجز بيت للأعشى ، وصدره : * كل وضّاح كريم جدّه *

وغيرهم : نزلت بسبب قطيفة حمراء فُقدت فى المغانم يوم بدر؛ فقال بعض من كان مع النبىّ صلى الله عليه وسلم : لعلّ أن يكون النبىّ صلى الله عليه وسلم أخذها ؛ فنزلت الآية أخرجه أبو داود والتِّرمذىّ وقال : هذا حديث حسن غريب . قال ابن عطية : قيل كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنّوا أن ذلك جَرحا . وقيل : كانت من المنافقين . وقد رُوى أن المفقود كان سيفا . وهذه الأقوال تُخَرَّج على قراءة « يَغُل » بفتح الياء وضم الغين . وروى أبو صخر عن محمد بن كعب « ومَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » قال : تقول وما كان لِنبىّ أن يكتم شيئا من كتاب الله . وقيل : اللام منقولة، أى وما كان نبِىّ لِيَغُل ؛ كقوله : « مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ » . أى ما كان الله ليتخذ ولدا . وقرِئ « يُغَل » بضم الياء وفتح الغين . وقال ابن السِّكِّيت : [لم نسمع فى المَغْنَم إلا غَلّ غُلولا، وقرئ و](1) ما كان لنبىّ أن يَغُلّ ويُغَلّ . قال : فمعنى « يَغُل » يَخُون، ومعنى « يُغَلّ » يُخَوَّن، ويحتمل معنيين : أحدهما يُخان أى يؤخذ من غنيمته ، والآخر يُخَوَّن أن يُنسب إلى الغُلُول . ثم قيل : إن كل من غَلّ شيئا فى خفاء فقد غَلّ يَغُلّ غُلولا . قال ابن عرفة : سُمّيت غُلولا لأن الأيدىَ مغلولةٌ منها ، أى ممنوعة . وقال أبو عبيد : الغُلُول من المَغْنَم خاصّةً ، ولا نراه من الخيانة ولا من الحِقْد . ومما يُبَيِّن ذلك أنه يقال من الخيانة : أَغَلّ يغِل ، ومن الحِقْد : غَلّ يَغِلّ بالكسر ، ومن الغُلول : غَلّ يَغُلّ بالضم . وغَلّ البعيرُ أيضا [يَغَلّ غُلّة](2) إذا لم يَقْض رِيّه . وأَغَلّ الرجل خان؛ قال النَّمِر :

جزى الله عنّا حَمْزَةَ(3) ابنةَ نَوْفَلٍ * جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ

وفى الحديث : لا إغلالَ ولا إسْلال . أى لا خيانة ولا سرقة، ويقال : لا رِشْوة . وقال شُرَيح : ليس على المُسْتعير غير المُغِلّ ضَمان . وقال صلى الله عليه وسلم : "ثلاثٌ لا يُغِلّ عليهنّ قلبُ مؤمن" من رواه بالفتح(4) فهو من الضِّغن . وغَلّ [دخل](2) يتعدى ولا يتعدّى ؛ يقال :

(1) زيادة عن الصحاح واللسان . (2) زيادة عن كتب اللغة . (3) كذا فى الأصول واللسان، وفى الصحاح للجوهرى «جمرة» بالجيم المعجمة والراء . (4) أى بفتح الياء .

غَلّ فلان المفاوز ، أى دخلها وتوسّطها . وغَلّ من المغنم غلولا ، أى خان . وغَلّ الماءُ بين الأشجار إذا جرى فيها؛ يَغُلّ بالضم[1] فى جميع ذلك . وقيل : الغُلول فى اللغة أن يأخذ من المَغْنَم شيئا يستره عن أصحابه ؛ ومنه تَغَلْغل الماءُ فى الشجر إذا تخلّلها . والغَلَل : الماء الجارى فى أصول الشجر لأنه مستتر بالأشجار؛ كما قال[2] :

لَعِب السُّيُول به فأصبح ماؤه * غَلَلاً يُقطِّع فى أصول الخِرْوع

ومنه الغِلاَلة للثوب الذى يُلبس تحت الثياب . والغالّ : أرض مطمئنة ذات شجر . ومنابتُ السَّلْم والطَّلْح يقال لها : غالّ . والغالّ أيضا نَبْت ، والجمع غُلّان بالضم . وقال بعض الناس : إن معنى « يُغَلّ » يوجد غالّا ؛ كما تقول : أحمدت الرجل وجدته محمودا . فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى «يَغُل» بفتح الياء وضم الغين . ومعنى « يُغَلّ » عند جمهور أهل العلم أى ليس لأحد أن يَغُلّه ، أى يخونه فى الغنيمة . فالآية فى معنى نَهْى الناس عن الغلول فى الغنائم ، والتَّوَعُّد عليه . وكما لا يجوز أن يخان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يُخان غيرُه ، ولكن خصّه بالذكر لأن الخيانة معه أشدّ وقْعًا وأعظمُ وِزْرا ، لأن المعاصى تعظم بحضرته لتعيّن توقيره . والوُلاة إنما هم على أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم فلهم حظّهم من التّوقير . وقيل : معنى « يغل » أى ما غَلّ نبيٌّ قطُّ ، وليس الغرض النَّهْى .

الثانيــة قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته ، مُعذَّبا بحمله وثِقَله ، ومَرْعُوبا بصوته ، ومُوَبَّخًا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد ؛ على ما يأتى . هـذه الفضيحة التى يُوقعها الله تعالى بالغالّ نظيرُ الفضيحة التى توقع بالغادر ، فى أن يُنصب له لِواء عنـد آسْتِه بقدر غَدْرَتِه . وجعل الله تعـالى هذه المُعاقَبات حَسْبَما يعهَدُه البَشَر ويفْهَمُونه ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

أَسُمَيّ وَيْحَكِ هل سَمِـعتِ بِغَدْرَةٍ * رُفِـعَ اللواءُ لنا بها فى المَجْمَع

(١) أى بضم الغين . (٢) البيت للحويدرة ؛ كما فى اللسان .

وكانت العرب ترفع للغادر لواءً، وكذلك يُطاف بالجانى مع جنايته . وفى صحيح مُسلم عن أبى هُريرة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يوم فذكر الغُلُولَ فعظّمه وعظّم أمره ثم قال : " لا أُلْفِينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبتــه بَعِيرٌ له رُغاء يقول يارسول الله أغِثْنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتُك لا أُلْفِينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحَمة (١) فيقول يا رسولَ الله أغِثْنِى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتُك لا أُلْفِينّ أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغاء يقول يا رسول الله أغِثْنِى فأقول لا أملك لك شيئا قــد أبلغتُك لا أُلْفِينّ أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته نَفسٌ لها صِياح فيقول يارسول الله أغِثْنِى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتُك لا أُلْفِينّ أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته رِقاع (٢) تَخفِق فيقول يارسول الله أغِثْنِى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتُك لا أُلْفِينّ أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته صامِت (٣) فيقول يارسول الله أغِثْنِى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك " . وروى أبو داود عن سَمُرة (٤) بن جُنْدُب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصاب غَنِيمة أمر بِلالًا فنادى فى الناس فيجيئون بغنائمهم فيَخْمُسه ويَقسمه، فجاء رجل يومًا بعد النّداء بزمام من الشَّعْر فقال : يارسول الله هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة . فقال : " أسمعت بِلالًا يُنادِى ثلاثا " ؟ قال نعم . قال : " فما منعك أن تجىء به " ؟ فاعتذر إليه . فقال : " كلا أنت تجئ (٥) به يوم القيامة فلن أقْبلَه منك " . قال بعض العلماء : أراد يُوافَى بوزر ذلك يومَ القيامة، كما قال فى آية أخرى « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » . وقيل : الخبر محمول على شُهرة الأمر ؛ أى يأتى يومَ القيامةِ قد شَهّر الله أَمْرَه كما يُشْهّر لو حَمل بَعِيرا له رُغاء أو فَرسًا له حَمْحَمَةٌ .

قلت : وهذا عُدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز والتّشبيه، وإذا دَارَ الكلامُ بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل كما فى كُتُب الأصول . وقــد أَخْبر النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالحقيقة، ولا

---

(١) حمحمة الفرس : صوته دون الصهيل . (٢) الرقاع (بالكسر جمع رقعة بالضم) وهى التى تكتب وأراد بها ما عليها من الحقوق المكتوبة . وخفوقها : حركتها . (٣) الصامت : الذهب والفضة، خلاف الناطق وهو الحيوان . (٤) فى سنن أبى داود : «عن عبد الله بن عمرو»، وكذا فى مسند الإمام أحمد بن حنبل . (٥) فى سنن أبى داود « كن أنت تجىء به » .

عِطْرَ بعد عَرُوس . ويقال : إنّ مَن غَلّ شيئًا فى الدنيا يُمثّل له يومَ القيامة فى النار، ثم يُقالُ له : آنزِلْ إليه نَخُذْه، فيهبِطُ إليه، فإذا انْتَهى إليه حَمَلَه، حتى إذا انتهى إلى الباب سَقَط عنه إلى أسفل جَهَنّم، فيرجعُ إليه فيأخُذُه، لا يَزالُ هكذا إلى ماشاءَ الله. ويقال: «يأتِ بِمَا غَلّ» يعنى تَشْهدُ عليه يومَ القِيامَة تِلْك الخِيَانةُ والغُلولُ .

الثالثـة — قال العلماء: والغُلولُ كبيرةٌ من الكبائر بدليل هذه الآية وما ذَكَرْناهُ من حديث أبى هُرَيرة : أنّه يَحمِلُه عَلَى عُنقِه . وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مِدْعَم[1] : "والذى نفسى بيده إن الشَّمْلة التى أخذ يومَ خَيْبرَ من المغانم لم تُصبها المَقاسم لتشتعل عليه نارا" . قال : فلما سمع الناس ذلك جاء رجل بشِراك أو شِراكين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "شِراكٌ أو شِراكان من نار" . أخرجه الموطّأ . فقوله عليه السلام : "والذى نفسى بيده" وآمتناعُه من الصلاة على من غَلّ دليلٌ على تعظيم الغُلول وتعظيم الذنب فيه وأنه من الكبائر، وهو من حقوق الآدميّين ولا بدّ فيه من القصاص بالحسنات والسيئات، ثم صاحبه فى المشيئة . وقوله : "شِراكٌ أو شِراكان من نار" مثل قوله : "أدُّوا الخِياط[2] والمِخْيط" . وهذا يدل على أن القليل والكثير لا يحلّ أخذهُ فى الغزْوِ قبل المَقاسم . إلا ما أجمعوا عليه من أكل المطاعم فى أرض الغزْو ومن الآحتطاب والآصطياد . وقد رُوى عن الزُّهْرِىّ أنه قال : لا يؤخذ الطعام فى أرض العدو إلا بإذن الإمام . وهذا لا أصل له؛ لأن الآثار تخالفه، على ما يأتى . قال الحسن : كان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا آفتتحوا المدينةَ أو الحِصْن أكلوا من السَّوِيق والدقيق والسّمن والعسل . وقال إبراهيم : كانوا يأكلون من أرض العدوّ الطعامَ فى أرض الحرب ويعلِفون قبل أن يُخَمَّسُوا. وقال عطاء : فى الغـزاة يكونون فى السّرِيّة فيصيبون أَنْحاء[3] السمن والعسل والطعام فيأكلون، وما بَقِى ردّوه إلى إمامهم؛ وعلى هذا جماعة العلماء .

---

(١) مدعم : عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر . (٢) الخياط ههنا الخيط . والمخيط : الإبرة . (٣) أنحاء : جمع نحى بالكسر وهو زق السمن . وقيل مطلقا .

الرابعة — وفى هذا الحديث دليلٌ على أن الغالّ لا يُحرق متاعه ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُحرِق متاع الرجل الذى أخذ الشّمْلة، ولا أحْرَق متاعَ صاحبِ الخَرَزات الذى[1] ترك الصلاةَ عليه . ولوكان حرق متاعه واجبا لفعله صلى الله عليه وسلم ، ولو فعل لنقُل ذلك فى الحديث . وأما ما رُوى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا وجدتم الرجل قد غَلّ فآحرقوا متاعَه وآضربوه" . فرواه أبو داود والترمذىّ من حديث صالح آبن محمد بن زائدة، وهو ضعيف لا يُحتجّ به . قال التِّرمذىّ : سألت محمدا — يعنى البخارىّ — عن هذا الحديث فقال : إنما رَوى هذا صالح بن محمد وهو أبو واقد الليثى وهو منكَر الحديث . وروى أبو داود أيضا عنه قال : غزونا مع الوليد بن هِشام ومعنا سالم بن عبد الله بن عمر وعمر بن عبد العزيز، فغَلّ رجل متاعا فأمر الوليد بمتاعه فأحرق، وطِيف به ولم يُعطِه سهمه . قال أبو داود : وهذا أصح الحديثين . وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر حَرَقوا متاع الغالّ وضربوه . قال أبو داود : وزاد فيه علىّ بن بحر عن الوليد — ولم أَسْمعْهُ مِنْه — : ومَنَعُوه سهمه . قال أبو عمر : قال بعض رواة هذا الحديث : وآضربوا عنقه وأحرِقوا متاعه . وهذا الحديث يدور على صالح ابن محمد وليس ممن يُحتجّ به . وقد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يَحِلّ دَمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث" وهو ينْفِى القتل فى الغلول . وروى ابن جريج عن أبى الزبير عن جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليس على الخائن ولا على المُنْتَهِب ولا على المختلس قَطْعٌ" . وهذا يعارض حديثَ صالح بن محمد وهو أقوى من جهة الإسناد . الغالّ خائن فى اللغة والشريعة وإذا انتفى عنه القطع فأحرى القتل . وقال الطّحاوىّ : لو صحّ حديثُ صالح المذكور احتمل أن يكون حين كانت العقوبات فى الأموال؛ كما قال فى مانع

---

(١) صاحب الخرزات : رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم يسمه أبو داود فى سننه) توفى يوم خيبر ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "صلوا على صاحبكم" فتغيرت وجوه الناس لذلك ، فقال : "إن صاحبكم غل فى سبيل الله" ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز يهود لايساوى درهمين (عن سنن أبى داود) .

الزكاة : " إنا آخذوها وشَطْرَ ماله عَزْمةٌ من عَزَمات الله تعالى[1] . وكما قال أبو هريرة في ضالّة الإبل المكتومة : فيها غرامتُها ومِثلُها معها . وكما رَوى عبد الله بن عمرو بن العاص في التّمر المعلّق غَرامةُ مِثليْه وجَلدات نَكالٍ . وهذا كلّه منسوخ، والله أعلم .

الخامسة — فإذا غلّ الرجل في المَغْنَم ووُجد أخِذ منه ، وأُدّب وعُوقب بالتعزير . وعند مالك والشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابهم والليث : لا يُحرق متاعه . وقال الشافعيّ والليث وداود : إن كان عالما بالنّهى عُوقب . وقال الأوْزاعيّ : يحرق متاع الغالّ كلّه إلا سلاحه وثيابه التي عليه وسَرْجه، ولا تُنزع منه دابته، ولا يُحرق الشيء الذي غَلّ . وهذا قول أحمد وإسحاق، وقاله الحسن؛ إلا أن يكون حيوانا أو مصْحَفا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : ورُوى أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ضربا الغالّ وأحرقا متاعه . قال ابن عبد البر : وممن قال يُحرق رَحْل الغالّ ومتاعُه مَكْحُولٌ وسعيدُ بن عبد العزيز . وحجّة من ذهب إلى هذا حديثُ صالح المذكورُ . وهو عندنا حديث لا يجب به انتهاك حُرْمة ، ولا إنفاذ حُكْم ؛ لما يعارضه من الآثار التي هي أقوى منه . وما ذهب إليه مالك ومن تابعه في هذه المسألة أصحّ من جهة النظر وصحيح الأثر . والله أعلم .

السادسة — لم يختلف مذهب مالكٍ في العقوبة على البَدَن ، فأما في المال فقال في الذِّمّى يبيع الخمرَ من المسلم : تُراق الخمر على المسلم، ويُنزع الثمن من يد الذِّمّى عقوبةً له ؛ لئلا يبيع الخمر من المسلمين . فعلى هذا يجوز أن يقال : تجوز العقوبة في المال . وقد أراق عمرُ رضى الله عنه لَبَنًا شِيب بماء .

السابعة — أجمع العلماء على أن للغالّ أنْ يردّ جميع ما غَلّ إلى صاحب المقاسِم قبل أن يفترق الناس إن وجد السبيلَ إلى ذلك، وأنه إذا فعل ذلك فهى تَوْبةٌ له، وخرج عن ذنبه.

---

(١) في نهاية ابن الأثير : « قال الحربي غلط الراوى في لفظ الرواية، إنما هو وشطر ماله شطرين، أى يجعل ماله شطرين، ويخير عليه المصدق فيأخذ الصدقة من خير النصفين عقوبة لمنعه الزكاة فأما ما لا تلزمه فلا » . وعزمة : حق من حقوقه وواجب من واجباته .

واختلفوا فيما يفعل به إذا افترق أهل العسكر ولم يصل إليه؛ فقال جماعة من أهل العلم : يدفع إلى الإمام خُمُسه و يتصدق بالباقي . هذا مذهب الزُّهْرِي وَمالكٍ والأَوْزاعِي واللّيث والثّوْرى؛ ورُوى عن عُبادة بن الصّامت ومعاوية والحسنِ البصرى . وهو يُشْبه مذهبَ ابن مسعود وابن عباس؛ لأنهما كانا يَريَان أن يُتصدّق بالمال الذى لا يُعرف صاحبُه؛ وهو مذهب أحمد ابن حنبل . وقال الشافعى : ليس له الصدقة بمال غيره . قال أبو عمر : فهذا عندى فيما يمكن وجود صاحبه والوصولُ إليه أو إلى ورثته . وأما إن لم يكن شيء من ذلك فإن الشافعى لا يكره الصـدقة حينئذ إن شاء الله . وقد أجمعـوا فى اللُّقَطة على جواز الصّـدقة بها بعد التّعريف وانقطاع صاحبها ، وجعلوه إذا جاء مخيّراً بين الأجر والضمان ، وكذلك المغصوب . و بالله التوفيق . وفى تحريم الغُلُول دليل على آشتراك الغانمين فى الغنيمة ، فلا يحل لأحد أن يستأثر بشيء منها دون الآخر؛ فمن غَصَب شيئا منها أُدِّب آتفاقا، على ما تقدّم .

الثامنــة — وإن وَطِئ جارية أو سَرَق نِصابا فآختلف العلماء فى إقامة الحد عليه ؛ فرأى جماعةٍ أنه لا قطع عليه .

التاسعة — ومن الغُلُول هـدايا العمال ، وحُكْمه فى الفضيحة فى الآخرة حُكْمُ الغالّ . روى أبو داود فى سُننه ومُسْلمٌ فى صحيحه عن أبى حُميد الساعِدِى أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من الأَزْد يقال له ابن اللُّتْبِيَّة[1] على الصدقة، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أُهدى لى . فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المِنْبر فحمِد الله وأثنى عليه وقال : "ما بالُ العامل نبعَثُه فيجيء فيقول هذا لكم وهذا أُهْدِىَ لِي ألَا جَلس فى بيت أمّه أو أبيه فينظر أيُهْدَى له أم لا . لا يأتى أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بعيرا فرغاء أو بقرة فلها خُوار أو شاةً تَيْعَر[2] — ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرتَىْ[3] إبطيه ثم قال : — اللّهمّ هل بَلّغتُ اللّهمّ هل بلّغْتُ" .

(١) ابن اللتبية (بضم فسكون) هو عبد الله آبن اللتبيـة الصحابى، واللتبية أمه . ومنهم من يفتح اللام والمثناة، وفى بعض الروايات الألتبية بالهمزة، وفى بعض بضم ففتح كهمزية . (عن شرح القاموس وشرح المواهب) .

(٢) اليعار (بضم الياء) : صوت الغنم والمعزى . يعرت بفتح العين تيعر بالكسر والفتح يعارا بالضم .

(٣) العفرة (بضم فسكون) : بياض ليس بالناصع الشديد، ولكن كلون عفر الأرض وهو وجهها .

وروى أبو داود عن بُريدةَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من آستعملناه على عمل فرزقناه رِزْقا فما أخَذ بعد ذلك فهو غُلول". وروى أيضا عن أبى مسعود الأنصارى قال: بَعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعيًا ثم قال: "انطلق أبا مسعود ولا أُلْفِيَنَّك يوم القيامة تأتى على ظهرك بعيرٌ من إبل الصّدقة له رُغاءٌ قد غَلَلْتَه". قال: إذًا لا أنطلق . قال: "إذًا لا أكرهك". وقد قيّد هذه الأحاديث مارواه أبو داود أيضا عن المُسْتَوْرِد بن شداد قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان لنا عاملا فليَكْتَسِب زوجةً فإن لم يكن له خادم فليَكْتَسِب خادِما فإن لم يكن له مسكن فليكتسِب مسكنا" . قال قال أبو بكر : أُخبرت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "من آتّخذ غير ذلك فهو غَالٌّ أو سارق" . والله أعلم .

العاشـرة — ومن الغُلُول حبس الكتب عن أصحابها، و يدخل غيرها فى معناها . قال الزُّهرِىّ : إيّاك وغلولَ الكتب . فقيل له : وما غُلولُ الكتب؟ قال : حبسها عن أصحابها . وقد قيـل فى تأويل قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُـلَّ » أن يكتم شيئا من الوَحْى رَغْبةً أو رَهْبةً أو مداهنة . وذلك أنهم كانوا يكرهون ما فى القرآن من عَيْب دينهم وسَبّ آلهتهم ، فسألوه أن يطوِى ذلك؛ فأنزل الله هذه الآية؛ قاله محمد بن بشار. وما بدأنا به قول الجمهور.

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ تقدم القول فيه[1] .

قوله تعالى : أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللَّهِ ﴾ يُريد بترك الغُلُول والصّبر على الجهاد . ﴿ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ يُريد بكُفرٍ أو غُلولٍ أو تَولٍّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الحرب . ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أى مَثْواهُ النّار، أى إن لم يَتُب أو يَعْفُوَ الله عنهُ . ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أى المَرجِعُ . وقرئ

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥ طبعة أولى أو ثانية .

رُضوانُ بكسر الرّاء وضمّها كالعدوان . ثم قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ﴾ أى ليس من اتّبع رِضْوانَ الله كَمَن باء بسَخَطٍ منه . قيل : « هم دَرجاتٌ » مُتفاوِتةٌ، أى هم مُختلفوا المنازلِ عند الله، فلمن اتّبع رضوانه الكَرامةُ والثّوابُ العظيمُ، ولِمَن باءَ بِسَخَطٍ منه المَهانةُ والعذابُ الأليمُ. ومعنى «هُمْ دَرَجَاتٌ» أى ذَوُو دَرَجاتٍ . أو على دَرجات، أو فى دَرجاتٍ، أو لهم دَرَجاتٌ . وأهل النار أيضا ذوو درجات؛ كما قال: "وجدته فى غَمَرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح"(1).

فالمؤمن والكافر لا يستويان فى الدّرجة؛ ثم المؤمنون يختلفون أيضا، فبعضهم أرفع درجة من بعض، وكذلك الكفار. والدّرجةُ الرّتبةُ، ومنه الدَّرَج؛ لأنه يُطوَى رُتْبةً بعد رُتْبةٍ . والأشهر فى منازل جهنم دَرَكات؛ كما قال : « إنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ» فلمن لم يَغُلّ درجات فى الجنة، ولمن غَلّ دَرَكاتٌ فى النار . قال أبو عبيدة : جهنّمُ أدراكٌ، أى منازل؛ يقال لكل منزل منها : دَرَك ودَرْك . والدّرْكُ إلى أسفل، والدّرجُ إلى أعلى .

قوله تعالى : لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

بيّن الله تعالى عظيمَ مِنّته عليهم ببعثه محمدا صلى الله عليه وسلم . والمعنى فى المِنّة فيه أقوال: منها أن يكون معنى « مِنْ أَنْفُسِهِم » أى بشرٌ مِثلُهم . فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم عُلِم أن ذلك من عند الله . وقيل : « مِن أَنْفُسِهِم » منهم . فشَرُفوا به صلى الله عليه وسلم، فكانت تلك المِنّة . وقيل : « مِن أنْفُسِهِم » ليعرفوا حاله ولا يخفى عليهم طريقته . وإذا كان محله فيهم هذا كانوا أحقّ بأن يقاتلوا عنه ولا ينهزموا دونه . وقرِئَ فى الشّواذ « مِن أَنْفَسِهِم » (بفتح الفاء) يعنى من أشرفهم؛ لأنه من بنى هاشم، وبنو هاشم أفضلُ من قريش، وقريشٌ أفضل من العرب، والعربُ أفضل من غيرهم . ثم قيل : لفظ المؤمنين عام ومعناه خاص

(1) الضحضاح : ما رق من الماء على وجه الأرض ولا يبلغ الكعبين ؛ فاستعاره للنار .

فى العرب؛ لأنه ليس حىّ من أحياء العرب إلا وقد ولَده صلى الله عليه وسلم، ولهم فيه نسب؛ إلا بنى تَغْلِب فإنهم كانوا نصارى فطهّره الله من دَنَس النّصرانية . وبيان هـذا التأويل قولُه تعالى : « هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ » . وذكر أبو محمد عبد الغنى قال : حدّثنا أبو أحمد البصرىّ حدّثنا احمد بن علىّ بن سعيد القاضى أبو بكر المَرْوَزِى حَدّثنا يحيى بن مَعين حَدّثَنا هاشم بْن يوسف عن عبد الله بن سُـليمان النّوفَلِى عن الزُّهرىّ عن عُرْوَة عن عائشـة رضى الله عنها « لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بَعَثَ فِيهِم رسُـولًا مِن أَنْفُسِهِم » قالت : هذه للعرب خَاصّةً . وقال آخرون : أَرادَ به المُؤْمنين كلّهـم . ومعنى « مِنْ أَنْفُسِهِم » أنّه واحدٌ منهم وبَشَرٌ مِثْلُهم ، وإنما امْتازَ عنهـم بالوحْى؛ وهو معنى قَولِه « لَقَـدْ جاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وخَصّ المؤمنين بالذّكْر لأنهم المُنْتفِعُون به ، فالمِنّةُ عليهم أعْظَم . وقولُه تعـالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ « يتلو » فى مَوضِـع نَصْب نَعْتٌ لرسُول، ومعناه يَقْـرأُ . والتّلاوةُ القِراءَةُ . ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ تقدّم فى «البقرة»[1] . ومعنى ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى ولقد كانوا من قبـل ، أى من قبل محمد . وقيل : « إِنْ » بمعنى ما ، واللام فى الخـبر بمعنى إلا، أى وما كانوا من قبلُ إلا فى ضـلال مبين . ومثله « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ »[2] وما كنتم من قبله إلا من الضالين . وهـذا مذهب الكوفيين . وقد تقدّم فى «البقرة» معنى هذه الآية .

قوله تعـالى : أَوَلَمَّا أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

الألف للاستفهام ، والواو للعطف . ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ أى غلبة . ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾ يوم بدر بأن قَتلتم منهم سـبعين وأسرتم سبعين . والأسير فى حكم المقتـول ؛ لأن الاسر يقتـل أسـيره إن أراد . أى فهزمتموهم يوم بدر ويوم أحد أيضا فى الابتداء ، وقتلتم فيه قريبا من

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤٢٧ طبعة ثانية .

عشرين . قتلتم منهم فى يومين ، ونالوا منكم فى يوم واحد . قلتم : ﴿ أَنَّى هَٰذَا ﴾ أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل، ونحن نقاتل فى سبيل الله، ونحن مسلمون، وفينا النبىّ والوحى، وهم مشركون! . ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعنى مخالفة الرُّماة . وما من قوم أطاعوا نبيّهم فى حرب إلّا نُصِروا ؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون. وقال قتادة والرّبيع بن أنس: يعنى سؤالهم النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يخرج بعد ما أراد القيام بالمدينة. وتأوّلها فى الرؤيا التى رآها حِصْناً حصيناً . علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : هو اختيارهم الفِداء يوم بدر على القتل . وقد قيل لهم : إن فاديتم الأسارى قُتل منكم على عِدّتهم . روى البَيْهَقِىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الأسارى يوم بدر : " إن شئتم قتلتموهم و إن شئتم فاديتموهم وآستمتعتم بالفداء واستُشهد منكم بعدّتهم" . فكان آخرَ السبعين ثابتُ بن قيس قُتل يوم اليمامة . فمعنى « مِن عِندِ أنفُسِكم » على القولين الأوّلين بذنوبكم . وعلى القول الأخير باختياركم .

قوله تعالى : وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

يعنى يوم أُحد من القتل والجَرْح والهزيمة . ﴿ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ أى بعلمه . وقيل : بقضائه وقَدَره . قال القفّال : أى فبتَخْلِيته بينكم و بينهم ، لا أنه أراد ذلك . وهذا تأويل المعتزلة . ودخلت الفاء فى « فبإذن الله » لأن « ما » بمعنى الذى . أى والذى أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ؛ فأشبه الكلام معنى الشرط ، كما قال سيبويه : الذي قام فله درهم . ﴿ وَلِيَعْلَمَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ أى لِيُمَيِّز . وقيل ليرى . وقيل : ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم فى القتال ، وليظهر كفر المنافقين بإظهارهم الشّماتة فيعلمون ذلك . والإشارة بقوله : ﴿ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ هى إلى عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه الذين آنصرفوا معه عن نُصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ثلاثمائة ، ومشى فى أثرهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام الأنصارى ، أبو جابر ابن عبد الله ، فقال لهم : آتّقوا الله ولا تتركوا نبيّكم ، وقاتلوا فى سبيل الله أو آدفعوا ، ونحو هذا من القول . فقال له آبن أبىّ : ما أرى أن يكون قِتال ، ولو علمنا أن يكون قِتال لكنّا معكم . فلما يئس منهم عبد الله قال : إذهبوا أعداءَ الله فسيغْنِى اللهُ رسولَه عنكم . ومضى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم واستُشهد رحمه الله تعالى .

واختلف الناس فى معنى قوله : ﴿ أَوِ ٱدْفَعُوا ﴾ فقال السُّدِّى وابن جريج وغيرهما : كَثِّروا سَوادنا وإن لم تقاتلوا معنا ؛ فيكون ذلكَ دَفْعًا وقَمْعًا للعدوّ ؛ فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدوّ . وقال أنس بن مالك : رأيت يوم القادِسيّة عبدَ الله بن أمّ مَكْتُوم الأعمى وعليه دِرْع يجرّ أطرافها ، وبيده رايةٌ سوداء ؛ فقيل له : [أليس] قد أنزل الله عذرك ؟ قال : بلى ! ولكنى أكثِّر المسلمين بنفسى . ورُوى عنه أنه قال : فكيف بسوادى فى سبيل الله ! وقال أبو عَون الأنصارى : معنى « أو ادفعوا » رابطوا . وهذا قريب من الأول . ولا محالة أن المرابط مدافع ؛ لأنه لولا مكان المرابطين فى الثّغور لجاءها العدوّ . وذهب قوم من المفسرين إلى أنّ قولَ عبدِ الله بن عمرو « أو دفعوا » إنما هو آستدعاء إلى القتال فى سبيل الله ، وهى أن تكون كلمة الله هى العليا . فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك عرض عليهم الوجه الذى يَحْشِمهم ويبعث الأَنَفة . أى أو قاتلوا دِفاعًا عن الحَوْزة . ألا ترى أن قُزْمان[1] قال : والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى . وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم أُحد لما رأى

---

(١) هو قزمان بن الحارث العبسى المنافق الذى قال فيه رسول صلى الله عليه وسلم : "إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر" .

قريشا قد أرسلت الظَّهْر[1] فى زروع قَناة[2] ، أتُرْعَى زروع بنى قَيْلَة[3] ولما نضارِب؟ والمعنى إن لم تقاتلوا فى سبيل الله فقاتلوا دَفْعًا عن أنفسكم وحَرِيمكم .

قوله تعالى : ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أى بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشَفُوا عن نفاقِهم لمن كان يظُنّ أنهم مؤمنون؛ فصاروا أقربَ إلى الكفر فى ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق . وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى أَظهَروا الإيمان، وأَضمَرُوا الكفر . وذِكْرُ الأفواه تأكيدٌ؛ مثل قوله : «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ معناه لأجل إخوانهم، وهم الشهداء المقتولون من الخَزْرَج؛ وهم إخوة نسب ومجاورة ، لا إخوة الدِّين . أى قالوا لهؤلاء الشهداء : لو قعدوا، أى بالمدينة ما قتِلوا . وقيل : قال عبد الله بن أُبَىّ وأصحابُه لإخوانهم، أى لأشكالهم من المنافقين : لو أطاعونا هؤلاء الذين قُتِلوا لما قتِلوا . وقوله ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يريد فى ألّا يخرجوا إلى قريش . وقوله : ﴿وَقَعَدُوا﴾ أى قالوا هذا القول وقعدوا بأنفسهم عن القتال؛ فردّ الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أى قل لهم يا محمد : إن صدقتم فادفعوا الموت عن أنفسكم . والدَّرْء الدفعُ . بيَّن بهذا أن الحَذَر لا ينفع من القَدَر ، وأن المقتولُ يقتل بأجله ، وما عَلِم الله وأخبره به كائنٌ لامحالةَ . وقيل : مات يومَ قيل هذا سبعون منافقا . وقال أبو اللّيث السَّمَرْقَنْدىّ : سمعت بعض المفسّرين بسَمَرْقَنْد يقول : لما نزلت الاية « قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » مات يومئذ سبعون نفسا من المنافقين .

---

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال فى السفر؛ لحملها إياها على ظهورها . (٢) قناة : واد بالمدينة، وهى أحد أوديتها الثلاثة ، عليه حرث ومال . قال المدائنى : وقناة يأتى من الطائف و يصب فى الأرحضية وقرقرة الكدر ثم يأتى بئر معونة ، ثم يمر على طرف القدوم فى أصل قبور الشهداء بأحد . (عن معجم البلدان) .

(٣) قيلة : أم الأوس والخزرج ؛ وهى قيلة بنت كاهل بن عذرة ، قضاعية . و يقال : بنت جفنة ، غسانية . (عن شرح القاموس) .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)

فيه ثمان مسائل :

الأولى — لما بيّن تعالى أن ما كان يوم أُحد كان آمتحانًا يُميِّز المنافق من الصادق، بيّن أن من لم ينهزم فقُتل له الكرامةُ والحياةُ عنده . والآية فى شُهَداء أُحد . وقيل : نزلت فى شهداء بئر مَعُونة . وقيل : بل هى عامّة فى جميع الشهداء . وفى مصنف أبى داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لمّا أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم فى جَوْف طَير خضر تَرِد أنهار الجنة تأكلُ من ثمارها وتأوى إلى قناديلَ من ذهب معلّقةٍ فى ظِلّ العَرْش فلما وجدوا طِيب مأْكَلِهم ومَشْرَبهم ومَقِيلهم قالوا مَن يُبلغ إخواننا عنّا أنّا أحياءٌ فى الجنة نُرْزق لئلا يَزْهَدوا فى الجهاد ولا يَنْكُلوا عند الحرب فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم — قال — فأنزل الله "ولا تحسبنّ الذين قُتِلوا فى سبِيلِ الله أَمْواتًا..." إلى آخر الآيات . وروى بَقِىّ بن مَخْلَد عن جابر قال : لَقِيَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا جابر مالى أراك مُنكّسًا مُهْتمًّا"؟ قلت : يارسول الله، اُسْتُشْهِد أبى وترك عِيالًا وعليه دَيْنٌ؛ فقال : "ألَا أبَشِّرك بما لقى الله عزوجل به أباك"؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : "إن الله أحيا أباك وكلّمه كِفاحًا[1] وما كلّم أحدا قطّ إلا من وراء حِجاب فقال له ياعبدى تمنّ أُعطك قال يارب فرُدّنى إلى الدنيا فأُقتَل فيك ثانيةً فقال الربّ تبارك وتعالى إنه قد سبق منّى أنهم [إليها][2] لا يرجعون قال يارب فأبلغ مَن ورائى فأنزل الله عز وجل « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلوا فى سبيل الله » الآية . أخرجه ابن ماجه فى سُنَنه، والتِّرمِذىّ فى جامعه وقال : هذا حديث حسن غريب . وروى وَكِيع عن سالم بن الأفطس عن سعيد جُبير « ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سَبِيل

(١) كفاحا (بكسر الكاف) أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول .

(٢) زيادة عن سنن الترمذي وابن ماجه .

آللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ » قال : لما أصيب حمزة بن عبد المطّلب ومُصْعَب بن عُمير ورأوا ما رُزقوا من الخير قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كى يزدادوا فى الجهاد رَغْبَةً؛ فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا — إلى قوله : لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » . وقال أبو الضُّحى : نزلت هذه الآية فى أهل أُحُد خاصّةً . والحديثُ الأوّل يقتضى صحةَ هذا القول . وقال بعضهم : نزلت فى شهداء بَدْر وكانوا أربعة عشر رجلا ؛ ثمانيةٌ من الأنصار، وستة من المهاجرين . وقيل : نزلت فى شهداء بئر مَعُونة ، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن اسحاق(1) وغيره . وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسّروا وقالوا : نحن فى النعمة والسرور ، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا فى القبور . فأنزل الله تعالى هذه الآية تَنْفِيسًا عنهم وإخبارًا عن حال قتلاهم .

قلت : وبالجملة وإن كان يحتمل أن يكون النّزول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياءٌ فى الجنة يُرزقون، ولا مَحالةَ أنهم ماتوا وأن أجسادهم فى التراب، وأرواحهم حيّة كأرواح سائر المؤمنين ، وفُضّلوا بالرّزق فى الجنّة من وقت القَتْل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى . فالذى عليه المعظم ماذكرناه وأن حياة الشهداء محققة . ثم منهم من يقول: تُرَدّ إليهم الأرواح فى قبورهم فينعّمون، كما يحيا الكفار فى قبورهم فيُعذبون . وقال مجاهد : يرزقون من ثَمَر الجنة، أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وصار قوم إلى أن هذا مجاز ، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقّون للتنعُّم فى الجنة . وهو كما يقال: ما مات فلان، أى ذكْره حىّ؛ كما قيل :

مَوْتُ التّقِىّ حياةٌ لا فناءَ لها * قد مات قومٌ وهم فى الناس أحياءُ

---

(1) راجع سيرة ابن هشام ص ٦٤٨ طبع أوربا .

فالمعنى أنهم يرزقون الثّناءَ الجميـل . وقال آخرون : أرواحهم فى أجواف طَيْر خُضْر وأنهم يُرزقون فى الجنة و يأكلون و يتنعّمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال؛ لأن ماصحّ به النقل فهو الواقع . وحديثُ ابن عباس نصٌّ يرفع الخلاف. وكذلك حديث ابن مسعود خرّجه مسلم . وقد أتينا على هذا المعنى مبيَّنًا فى كتاب "التّذكِرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" . والحمد لله . وقد ذكرنا هناك كم الشهداء ، وأنهـم مختلفو الحال . وأما من تأوّل فى الشهداء أنهـم أحياء بمعنى أنهم سيحْيَوْن فبعيدٌ يرده القرآن والسنة؛ فإن قوله تعالى : « بَلْ أَحْيَاءٌ » دليل على حياتهم ، وأنّهم يرزقون ولا يُرزق إلا حىّ . وقد قيل : إنه يكتب لهم فى كل سَنَـة ثوابُ غزوة، ويُشركون فى ثواب كلّ جهاد كان بعدهم إلى يوم القيامة؛ لأنهم سَنّوا أمر الجهاد . نَظِيرُه قوله تعالى : «مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّه مَنْ قَتَل نَفْسًا» . على ما يأتى بيـانه هناك إن شاء الله تعالى . وقيـل : لأن أرواحَهم تركعَ وتسجُد تحت العرش إلى يوم القيامة، كأرواح الأحياء المؤمنين الذين باتُوا على وُضُوء . وقيل : لأن الشهيد لا يَبلى فى القبر ولا تأكُله الأرض . وقـد ذكرنا هـذا المعنى فى « التّذكِرة » وأن الأرض لا تأكل الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذّنين المحتَسبين وحملة القرآن .

الثانيـــة — إذا كان الشّهيد حيًّا حُكمًا فلا يُصلّى عليه ، كالحىّ حِسًّا . وقد اختلف العلمـاء فى غُسل الشهداء والصّلاة عليهم ؛ فذهب مالك والشافعىّ وأبو حنيفة والثّوْرى إلى غُسل جميع الشّهداء والصلاة عليهم؛ إلا قتيلَ المُعتَرك فى قتال العدوّ خاصة؛ لحديث جابر قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أدفنوهم بدمائهم" يعنى يوم أُحُد ولم يُغسِّلهم، رواه البخارىّ . وروى أبو داود عن ابن عباس قال: أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم بقتلى أُحُد أن يُنزَع عنهم الحديدُ والجلودُ وأن يُدفَنُوا بدِمائهم وثيابهم . و بهذا قال أحمدُ و إسحاقُ والأوزاعىّ وداودُ بنُ علىّ و جماعة فُقَهاء الأمصار وأهل الحديث وابنُ عُلَيّة . وقال سعيد بن المُسَيّب والحَسَن : يُغسّلون . قال أحدهما : إنما لم تُغسّل شهداء أُحُد لكثرتهم والشُّغل عن ذلك . قال أبو عُمَر : ولم يقل بقول سعيد والحسن هـذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عبيد الله بن الحسن العَنْبَرى ، وليس

ما ذكروا من الشُّغل عن غُسل شهداء أحد علّة؛ لأن كل واحد منهم كان له ولىٌّ يَشتغل به ويقوم بأمره . والعلة فى ذلك — والله أعلم — ما جاء فى الحديث من دِمائهم "أنّها تأتى يوم القيامة كريح المِسْك" فبَانَ أن العلّة ليست الشُّغل كما قال من قال فى ذلك وليس لهذه المسألة مدخل فى القياس والنظر، وإنما هى مسألة اتّباعٍ للأثر الذى نقله الكافّة فى قتلى أُحُد لم يغسَّلوا. وقد احتج بعض المتأخرين ممن ذهب مذهب الحسن بقوله عليه السلام فى شهداء أُحُد : "أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة". قال : وهذا يدل على خصوصهم وأنه لا يَشْرَكهم فى ذلك غيرهم . قال أبو عمر : وهذا يشبه الشذوذ ، والقول بترك غُسلهم أَوْلى ؛ لثبوت ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قتلى أُحد وغيرهم . ورَوى أبو داود عن جابر قال : رُمِىَ رجل بسهم فى صدره أو فى حلقه فمات فأُدرِج فى ثيابه كما هو . قال : ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة — وأما الصّلاةُ عليهم فاختلف العلماء فى ذلك أيضا ؛ فذَهب مالك واللّيث والشافعىّ وأحمد وداود إلى أنه لا يُصلّى عليهم؛ لحديث جابر قال: كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد فى ثوب واحد ثم يقول : " أيُّهما أكثر أخْذًا للقرآن " ؟ فإذا أشير له إلى أحدِهما قدّمه فى اللّحد وقال: "أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة" وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُغسّلوا ولم يُصلّ عليهم . وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام : يُصلّى عليهم . ورَوَوْا آثارًا كثيرة أكثرها مراسيل أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم صلى على حمزة وعلى سائر شهداء أُحُد.

الرابعة — وأجمع العلماء على أن الشّهيد إذا حُمل حَيًّا ولم يمت فى المُعْترك وعاش وأكَلَ فإنه يُصلّى عليه ؛ كما قد صُنع بعمر رضى الله عنه .

واختلفوا فيمن قُتل مظلوما كقتيل الخوارج وقُطّاع الطريق وشبه ذلك؛ فقال أبو حنيفة والثّورى : كل من قتل مظلوما لم يُغسّل، ولكن يُصلّى عليه وعلى كل شهيد ؛ وهو قول سائر أهلِ العِراق . ورَوَوْا من طُرق كثيرةٍ صحاح عن زيد بن صُوحان ، وكان قتل يوم الجمَل : لا تنزِعوا عنّى ثوبًا ولا تَغسِلوا عنى دَمًا . ورُوى عن عمار بن ياسر أنه قال مثلَ قول زيد

ابن صُوحان . وقُتِـل عمّار بن ياسِر بصفّين ولم يغسّله علىّ . وللشافعى قولان : أحدهما — يُغسّل بجميع الموتى إلا من قتله أهـل الحرب؛ وهـذا قول مالك . قال مالك : لا يُغسّل من قتله الكفار ومات فى المُعترَك . وكلُّ قتيل غيرِ قتيلِ المُعترَك — قتيل الكفار — فإنه يُغسّل ويُصلّى عليه . وهـذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنه . والقول الآخر للشافعىّ — لا يُغسّل قتيل البُغاة . وقول مالك أصحّ؛ فإنّ غُسل الموتى قد ثبت بالإجماع ونَقلِ الكافّة . فَواجبٌ غُسلُ كلِّ ميت إلا من أخرجه إجماعٌ أو سُنّةٌ ثابتة . وبالله التوفيق .

الخامسـة — العدوّ إذا صبّح قوما فى منزلهم ولم يَعلموا به فقتَل منهم فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترَك ، أو حكم سائر الموتى؛ وهذه مسألة نزلت عندنا بقُرطُبَة أعاذها الله : أغَارَ العدّو — قَصَمه الله — صَبيحَةَ الثّالثِ من رَمضانَ المُعظّم سنة سَبعٍ وعشرين وسِتّمائة والناس فى أجْرانهم على غَفلة ، فقتَل وأسَر، وكان من جُملة من قُتل والدى رحمه الله؛ فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبى حِجّة[1] فقال : غَسّله وصلّ عليه ، فان أباك لم يُقتَل فى المُعترَك بين الصّفين . ثم سألت شيخنا ربيعَ بن عبـد الرحمن بن أحمـد بن ربيع ابن أبىّ فقال : إن حكمه حكم القتلى فى المعترك . ثم سألت قاضى الجماعة أبا الحسن علىّ بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا : غسّله وكفّنه وصلّ عليه؛ ففعلت . ثم بعد ذلك وَقفتُ على المسألة فى «التّبصرة» لأبى الحسن اللّخمىّ وغيرها، ولوكان ذلك قبل ذلك ما غسّلته ، وكنت دفنته بدمه فى ثيابه .

السادسـة — هذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل فى سبيل الله والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "القتل فى سبيل الله يكفّر كل شىء إلا الدَّين كذلك قال لى جبريل عليه السلام آنفا" . قال علماؤنا : وذِكر الدَّين تنبيه على ما فى معناه من الحقوق المتعلقـة بالذمّة ، كالغصب وأخذ المـال بالباطل وقتـل العمد وجِراحه وغير ذلك من التَّبِعات ، فإن كل هـذا أَوْلى ألّا يُغفرَ بالجهاد من الدَّين فإنه أشد، والقصاص فى هذا

(١) فى بعض الأصول : « بأبن حجة » .

كله بالحسنات والسيئات حسبما وردت به السنة الثابتة . روى عبد الله بن أنيس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يَحشر الله العباد — أو قال الناس ، شكّ همّام[(١)] ، وأومأ بيده إلى الشام — عُراة غُرْلًا[(٢)] بُهْمًا . قلنا : ما بُهْـمٌ ؟ قال : ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه مَن قَرُب ومَن بَعُد أنا الملِك أنا الديّان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمَظْلِمة ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحدٌ من أهل الجنة يطلبه بمَظْلِمَة حتى اللّطْمة . قال قلنا : كيف وإنا نأتى الله حُفاة عُراةً غُرْلًا . قال : بالحسنات والسيئات " . أخرجه الحارث بن أبى أسامة . وفى صحيح مُسْلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما المُفْلِس . قالوا : المُفْلِس فينا من لا دِرهَم له ولا متاع . فقال : " إن المُفْلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شَتَم هذا وقَذَف هذا وأكَل مالَ هذا وسَفَك دَمَ هذا وضرب هذا فيُعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فَنِيت حسناتُه قبل أن يُقضَى ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار " . وقال صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لو أن رجلا قُتل فى سبيل الله ثم أُحْيِىَ ثم قتل ثم أحيي ثم قُتل وعليه دَين ما دخل الجنة حتى يُقضَى عنه " . وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نفس المؤمن معلّقة ما كان عليه دَين " . وقال أحمد بن زُهير : سئل يحيى بن مَعِين عن هذا الحديث فقال : هو صحيح . فإن قيل : فهذا يدلّ على أن بعض الشّهداء لا يَدخُلون الجنة من حين القتل ، ولا تكون أرواحهم فى جَوف طيرٍ كما ذكرتم ، ولا يكونون فى قبورهم ، فأين يكونون ؟ قلنا : قد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بارق يخرج عليهم رزقهم من الجنة بُكْرَة وعَشِيًّا " فلعلّهم هؤلاء . والله أعلم . ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية : وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنهم « يُرزَقُون » . وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القَزْوينى فى سننه عن

(١) هو همام بن يحيى ، أحد رجال سند هذا الحديث .
(٢) الغرل (بضم فسكون) : جمع الأغرل ، وهو الأقلف .

سليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة يقـول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "شهيد البحر مثل شهيدى البر والمائد[١] فى البحر كالمتشحط[٢] فى دمه فى البر وما بين الموجتين كقاطع الدنيا فى طاعة الله وأن الله عز وجل وكل ملك الموت بقبض الأرواح إلا شهيد البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم ويغفر لشهيد البر الذنوب كلها إلا الدين ولشهيد البحر الذنوب والدين" .

السابعـة — الدين الذى يحبس به صاحبه عن الجنة — والله أعلم — هو الذى قد ترك له وفاء ولم يوص به . أو قدر على الأداء فلم يؤده ، أو آدانه فى سرف أو فى سفه ومات ولم يوفه . وأما من آدان فى حق واجب لفاقة وعسر ومات ولم يترك وفاء فإن الله لا يحبسه عن الجنة إن شاء الله؛ لأن على السلطان فرضا أن يؤدى عنه دينه، إما من جملة الصدقات، أو من سهم الغارمين، أو من الفىء الراجع على المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : "من ترك دينا أو ضياعا[٣] فعلى الله ورسوله ومن ترك مالا فلورثته" . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التذكرة) والحمد لله .

الثامنـة — قوله تعالى : ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فيه حذف مضاف تقديره عند كرامة ربهم . و«عند» هنا تقتضى غاية القرب، فهى كلدى ولذلك لم تصغر فيقال : عنيد؛ قاله سيبويه . فهذه عندية الكرامة لا عندية المسافة والقرب . و«يرزقون» هو الرزق المعروف فى العادات . ومن قال هى حياة الذكر قال : يرزقون الثناء الجميل . والأول الحقيقة . وقد قيل : إن الأرواح تدرك فى تلك الحال التى يسرحون فيها من روائح الجنة وطيبها ونعيمها وسرورها ما يليق بالأرواح؛ مما ترتزق وتنتعش به . وأما الذات الجسمانية فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها آستوفت من النعيم جميع ما أعد الله لها . وهذا قول حسن وإن كان فيه نوع من المجاز فهو الموافق لما آخترناه . والموفق الإله . و﴿فَرِحِينَ﴾ نصب فى موضع الحال

(١) المائد : الذى يدار برأسه من ريح البحر، واضطراب السفينة بالأمواج .

(٢) تشحط المقتول فى دمه تخبط فيه واضطرب وتمرغ . (٣) الضياع : (بفتح أوله) : العيال .

من المضمر فى « يرزقون » . ويجوز فى الكلام « فَرِحُونَ » على النعت لأَحْيَاء . وهو من الفرح بمعنى السرور . والفضْل فى هذه الآية هو النّعيمُ المذكور . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «فَارِحِين» بالألف وهما لغتان كالفره والفاره، والحَذِر والحاذِر ، والطَّمع والطَّامِع ، والبخل والباخِل .
قال النحاس : ويجوز فى غير القرآن رَفعُه يكون نعتا لأحياء .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِـمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ المعنى لم يلحقوا بهم فى الفضل، وإن كان لهم فضل . وأصله من البِشارة؛ لأن الإنسان إذا فَرِح ظهرَ أثرالسّرور فى وجهه . وقال السُّدّى : يُؤتَى الشهيد بكِتابٍ فيه ذكرُ من يَقْدَمُ عليه من إخوانه، فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقُدومِه فى الدنيا . وقال قَتادةُ وابن جُريْج والرّبيعُ وغيرُهم : استبشارهم بأنهم يقولون: إخواننا الذين تركنا خلفنا فى الدنيا يقاتلون فى سبيل الله مع نبيّهم، فيستشهدون فينالون من الكرامة مثلَ ما نحن فيه؛ فيسرّون و يفرحون لهم بذلك. وقيل: إن الإشارة بالاستبشار للذين لم يَلحقوا بهم إلى جميع المؤمنين و إن لم يُقتَلوا، ولكنهم لما عاينوا ثواب الله وقع اليقين بأن دِين الإسلام هو الحق الذى يثيب الله عليه؛ فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، مستبشرون للؤمنين بأن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . ذهب إلى هذا المعنى الزّجاج وآبن فُـورَك :

قوله تعالى : يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْـلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِـيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

أى بجنة من الله . و يقال : بمغفرة من الله . ﴿ وَفَضلٍ ﴾ هذا لزيادة البيان . والفضل داخل فى النعمة ، وفيـه دليل على اتساعها، وأنها ليست كنعم الدنيا . وقيل : جاء الفضل بعد النعمة على وجه التأكيد . وروى التِّرمذىّ عن المِقْدام بن مَعْدِيكَرِب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للشّهيد عند الله ستُّ خِصال — كذا فى الترمذىّ وابن ماجه «سِتّ» ،

وفى العدد سبع — يغفر له فى أول دُفعة[1] ويرى مَقعده[2] من الجنة ويُجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاجُ الوَقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحُور العِين ويُشَفَّع فى سبعين من أقاربه" قال : هذا حديث حسن صحيح غريب . وهـذا تفسير النّعمة والفضل . والآثار فى هـذا المعنى كثيرة . ورُوى عن مجاهد أنه قال : السـيوف مفاتيح الجنة . وروى عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أنه قال : "أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات لم يُكرم بها أحدا من الأنبياء ولا أنا أحدها أن جميع الأنبيـاء قبض أرواحَهم مَلَكُ الموت وهو الذى سيقبض رُوحى وأما الشهداء فالله هو الذى يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء ولا يُسلّط على أرواحهم مَلَكُ الموت . والثانى أن جميع الأنبياء قد غُسِّلوا بعد الموت وأنا أُغَسَّل بعد الموت والشهداء لا يُغَسَّلون ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا . والثالث أن جميع الأنبياء قـد كُفِّنوا وأنا أُكَفّن والشهداء لا يُكَفَّنون بل يُدفنون فى ثيابهم . والرابع أن الأنبياء لما ماتوا سُمُّوا أمواتا وإذا مِت يقال مات والشهداء لا يُسَمَّون مَوْتَى . والخامس أن الأنبيـاء تُعطَى لهم الشفاعةُ يوم القيامة وشـفاعتى أيضا يوم القيامة وأما الشهداء فإنهم يشفعون كل يوم فيمن يشفعون" .

قوله تعـالى : ﴿ وأنّ الله ﴾ قرأه الكِسائى بكسر الألف ، والباقون بالنصب ؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه يستبشرون بنعمة من الله و يستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . ومن قرأ بالكسر فعلى الابتـداء . ودليله قراءة ابن مسعود « والله لا يضيع أجر المؤمنين » .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(١) فى حاشية السندى على سنن ابن ماجه : « قوله ست خصال المذكورات سبع إلا أن يجعل الإجارة والأمن من الفزع واحدة » .

(٢) دفعة : قال الدميرى ضبطناه فى جامع الترمذى بضم الدال ، وكذلك قال أهل اللغة : الدفعة بالضم ما دفع من إناء أو سقاء فانصب بمرة ؛ وكذلك الدفعة من المطر وغيره مثل الدفقة بالقاف . وأما الدفعة بالفتح فهى المرة الواحدة فلا يصلح ههنا » .

«الذين» فى موضع رفع على الابتداء، وخبره «من بعد ما أصابهم القرح». ويجوز أن يكون فى موضع خفض بدل من المؤمنين، أو من «الذين لم يلحقوا». ﴿استجابوا﴾ بمعنى أجابوا، والسين والتاء زائدتان. ومنه قوله:

* فلم يَسْتَجِبْه عند ذاك مُجيبُ (١) *

وفى الصحيحين عن عروة ابن الزبير قال قالت لى عائشة رضى الله عنها: كان أبواك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح. لفظ مسلم. وعنه عن عائشة: يا ابن أختى كان أبواك — تعنى الزبير وأبا بكر— من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرح. قالت: لما انصرف المشركون من أُحد وأصاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما أصابهم خاف أن يرجعوا فقال: "من يَنتدب لهؤلاء حتى يعلموا أن بنا قوة" فانتَدَب أبو بكر والزّبير فى سبعين؛ فخرجوا فى آثار القوم، فسمعوا بهم وانصرفوا بنعمة من الله وفضل. وأشارت عائشة رضى الله عنها إلى ماجرى فى غَزوة حَمْراء الأَسْد، وهى على نحو ثمانية أميال من المدينة؛ وذلك أنه لما كان يوم الأحد، وهو الثانى من يوم أُحُد، نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس بإتباع المشركين، وقال: "لا يخرج معنا إلا من شهدها بالأمس" فنهض معه مائتا رجل من المؤمنين. فى البخارىّ فقال: "من يذهب فى إثرهم" فانتدب منهم سبعون رجلا. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير على ما تقدّم، حتى بلغ حمراء الأَسَد، مُرْهِبًا للعدوّ؛ فرُبّما كان فيهم المُثْقَل بالجراح لا يستطيع المشى ولا يجد مركوبًا، فربّما يحمل على الأعناق؛ وكل ذلك امتثالٌ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبة فى الجهاد. وقيل: إن الآية نزلت فى رجلين من بنى عبد الأَشْهل كانا مُثْخَنَين بالجراح؛ يتوكّأ أحدهما على صاحبه، وخرجا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فلما وصلوا حمراءَ الأسد، لقيهم نُعيم بن مسعود فأخبرهم أن أبا سفيان ابن حرب ومن معه من قريش قد جَمَعُوا جُموعهم، وأجمعوا رأيهم على أن يأتوا إلى المدينة

(١) هذا عجز بيت لكعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار؛ وصدره:

* وداع دعا يا من يجيب الى الندى *

فيستأصلوا أهلها، فقالوا : ما أخبرنا الله عنهم « حسبنا الله ونعم الوكيل » . فبينا قريش قد أجمعوا على ذلك إذ جاءهم مَعْبَد الخُزَاعىّ، وكانت خُزاعةُ حلفاءَ النبىّ صلى الله عليه وسلم وعَيْبَةَ[(١)] نُصْحه، وكان قد رأى حال أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وما هم عليه؛ ولما رأى عزمَ قريش على الرجوع ليستأصلوا أهل المدينة احتمله خوفُ ذلك، وخالصُ نصحه للنبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أنْ خَوّف قريشا بأن قال لهم : قد تركت محمدا وأصحابه بحمراء الأسد فى جيش عظيم، قد اجتمع له من كان تخلّف عنه، وهم قد تحرّقوا عليكم؛ فالنَّجاءَ النّجاء! فإنى أنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملنى ما رأيتُ أن قلتُ فيه أبياتا من الشعر . قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحِلَتِى * إذ سالت الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ[(٢)]

تَرْدِى بأسْدٍ كرامٍ لا تَنابلةٍ * عند اللّقاء ولا مِيلٍ معَازيلِ[(٣)]

فظَلْتُ عَدْوًا أظنّ الأرضَ مائلةً * لما سَمَوْا برئيس غير مَخْذُولِ

فقلتُ وَيْلَ ابنَ حَرْبٍ من لقائِكُمُ * إذا تَغَطْمَطَتِ البَطْحَاء بالخيْلِ[(٤)]

إنى نذير لأهل البَسْل ضاحيةً * لكلّ ذى إرْبةٍ منهم ومعقولِ

من جيش أحْمَدَ لا وَخْشٌ قَنابِلُهُ * وليس يوصف ما أنذرتُ بالقِيلِ[(٥)]

قال : فثَنَى ذلك أبا سُفيان ومن معه، وقذَف الله فى قلوبهم الرُّعْب، ورجعوا إلى مكة خائفين مسرعين، ورجع النبىّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلى المدينة منصورا؛ كما قال الله تعالى : « فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » أى قتال ورُعْب . وٱستأذن

---

(١) عيبة الرجل : موضع سره . (٢) الجرد : خيل قصيرة شعر الجلد . والأبابيل : جماعة فى تفرقة؛ واحدها إبيل . (٣) ردت الخيل رديا ورديانا : رجمت الأرض بحوافرها فى سيرها وعدوها . والتنابلة : القصار؛ واحدهم تنبال . والأميل : الذى يميل على السرج فى جانب ولا يستوى عليه . وقيل : هو الكسل الذى لا يحسن الركوب والفروسية . والمعازيل : القوم ليس معهم سلاح؛ واحدهم معزال .

(٤) قال صاحب الروض الأنف : « تغطمطت البطحاء، لفظ مستعار عن الغطمطة، وهو صوت غليان القدر . قوله (الخيل) جعل الردف حرف لين، والأبيات كلها مردفة الروىّ بحرف مدّ ولين، وهذا هو السناد» .

(٥) الوخش : رذال الناس وسقاطتهم . والقنابل : الطائفة من الناس ومن الخيل، الواحد قنبل وقنبلة .

جابر بن عبد الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الخروج معه فأذن له . وأخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تحصّل لهم بهذه القَفلة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنها غَزْوة" .
هذا تفسير الجمهور لهذه الآية . وشذّ مجاهد وعِكرمة رحمهما الله تعالى فقالا : إن هذه الآية من قوله : «ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ — إلى قوله : — عظيمٍ» إنما نزلت فى خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بَدْرِ الصُّغرى . وذلك أنه خرج إلى ميعاد أبى سفيان فى أُحُد، إذ قال: مَوْعِدنا بَدْرٌ من العام المُقبِل. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قولوا نعم" فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل بَدْرٍ، وكان بها سُوق عظيم ، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه دراهم؛ وقَرُب من بدر فجاءه نُعيم بن مسعود الأشجَعِيّ، فأخبره أن قريشا قد ٱجتمعت وأقبلت لحربه هى ومن ٱنضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك، لكنهم قالوا: «حَسبنا الله ونِعْمَ الوَكِيل» فصَمَّموا[1] حتى أتوا بدرا فلم يجدوا أحدا، ووجدوا السُّوق فاشتروا بدراهمهم أُدْمًا وتجارة، وٱنقلبوا ولم يلقوا كَيْدًا ، ورَبِحوا فى تجارتهم ؛ فذلك قوله تعالى : « فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ » أى وفضل فى تلك التجارات . والله أعلم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

ٱختُلف فى قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ فقال مُجاهد ومُقاتِل وعِكرمة والكَلْبيّ: نُعيم بن مسعود الأشجعىّ . واللفظ عامّ ومعناه خاص ؛ كقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . السُّدِّى : هو أعرابىّ جُعِل له جُعْل على ذلك . وقال ٱبن إسحاق وجماعةٌ : يريد بالناس رَكْبَ عبدِ القيس، مَرُّوا بأبى سفيان فدسّهم إلى المسلمين ليثبّطوهم . وقيل : الناس هنا المنافقون . قال السُّدِّى : لما تجهز النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه للسير إلى بَدْرٍ الصغرى لميعاد أبى سفيان أتاهم المنافقون وقالوا : نحن أصحابكم الذين

---

(١) صمم فى السير وغيره : مضى .

نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا، وقد قاتلوكم فى دياركم وظَفِروا؛ فإن أتيتموهم فى ديارهم فلا يرجع منكم أحد . فقالوا : «حسبنا الله ونِعم الوكيل» . وقال أبو مَعْشر : دخل ناس من هُذيل من أهل تِهامة المدينة، فسألهم أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى سفيان فقالوا : «قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ» جموعا كثيرة «فَاخْشَوْهُمْ» أى فخافوهم وآحذروهم؛ فإنه لا طاقة لكم بهم . فالناس على هذه الأقوال على بابه من الجمع . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أى فزادهم قولُ الناس إيمانا، أى تصديقا ويقينا فى دينهم، وإقامةً على نُصرتهم، وقوّةً وجراءة واستعدادا . فزيادة الإيمـان على هـذا هى فى الأعمال . وقد اختلف العلماء فى زيادة الإيمـان ونقصانه على أقوال . والعقيدة فى هـذا على أن نفس الإيمـان الذى هو تاج واحد، وتصديق واحد بشىء مّا، إنمـا هو معنًى فَرْدٌ، لا يدخل معه زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شىء إذا زال؛ فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان فى متعلَّقاته دون ذاته . فذهب جمع من العلمـاء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمـال الصادرة عنه، لا سيما أن كثيرا من العلماء يوقعون آسم الإيمان على الطاعات؛ لقوله صلى الله عليه وسـلم : "الإيمـان بضع وسبعون بابًا فأعلاها قول لا إله إلا اللهُ وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" أخرجه الترمذىّ، وزاد مسلم "والحياء شُعْبَةٌ من الإيمـان" . وفى حديث علىّ رضى الله عنه : إن الإيمـان ليبدو لُمَظَةً بيضاء فى القلب، كلما آزداد الإيمان آزدادت اللُّمَظَة. وقوله «لمظة» قال الأصمعىّ : اللمظة مثل النُّكْتة ونحوها من البياض؛ ومنه قيل : فرس أَلْمَظ، إذا كان بجَحْفَلته شىء من بياض . والمحدّثون يقولون «لمظة» بالفتح . وأما كلام العرب فبالضم؛ مثل شُبهة ودهمة وحُمرة . وفيـه حُجّةٌ على من أنكر أن يكون الإيمـان يزيد وينقص . ألا تراه يقول : كلما ازداد الإيمان ازدادت اللُّمظـة حتى يبيضّ القلبُ كلّه . وكذلك النفاق يبـدو لُمَظَةً سوداءَ فى القلب كلما ازداد النفاق آسودّ القلب حتى يسودّ القلبُ كلّه . ومنهم من قال : إن الإيمـان عَرَض، وهو لا يَثْبُت زمانين؛ فهو للنبىّ صلى الله عليه وسـلم وللصُّلحاء متعاقب، فيزيد باعتبار توالِي أمثاله علي قلب المؤمن، وباعتبار دوام حضوره .

وينقص بتوالى الغَفَلات على قلب المؤمن . أشار إلى هذا أبو المعالى . وهذا المعنى موجود فى حديث الشفاعة ، حديثِ ابى سَعيد الخُدْرِىّ أخرجه مسلم . وفيـه : " فيقول المؤمنون يا ربّنا إخواننا كانوا يصومون ويُصلّون ويَحجّون فيُقال لهم أخرِجوا من عرفتم فتُحرّم صُوَرُهم على النار فيُخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نِصف ساقيْه وإلى رُكْبتيه ثم يقولون رَبّنـا ما بَقِىَ فيها أحدٌ ممن أمرتنا به فيقول ٱرْجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقالَ دِينار من خير فأخرجوه فيُخرِجون خلقًا كثيرا ثم يقولون رَبّنا لم نَذَرْ فيها أحدًا ممن أمرتنا ثم يقول ٱرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقال نِصف دِينار من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقًا كثيرا ثم يقولون رَبّنَا لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا أحدًا ثم يقول ٱرجعـوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقال ذَرّةٍ من خير فأخرجوه " وذكر الحديث . وقد قيل : إن المراد بالإيمان فى هذا الحديث أعمالُ القلوب ؛ كالنّية والإخلاص والخوف والنصيحة وشبه ذلك . وسمّاها إيمـانا لكونها فى محل الإيمان أو عن الإيمان ، على عادة العرب فى تسمية الشىء باسم الشىء إذا جاوره ، أو كان منه بسبب . دليل هذا التأويل قولُ الشافعين بعد إخراج من كان فى قلبه مِثقالُ ذَرّة من خير: "لم نَذَرْ فيها خيرا" مع أنه تعالى يُخرج بعـد ذلك جموعا كثيرة ممن يقول لا إله إلا الله ، وهم مؤمنون قطعـا ؛ ولو لم يكونوا مؤمنين لمـا أخرجهم . ثم إن عُدِم الوجود الأوّل الذى يُرَكَّب عليه المِثْل لم يكن زيادةٌ ولا نقصان . وقُدّر ذلك فى الحركة . فإن الله سبحانه إذا خَلق عِلْما فردًا وخَلق معه مِثْلَه أو أمثالَه معلومات فقد زاد علمه ؛ فإن أعدم الله الأمثال فقد نقص ، أى زالت الزيادة . وكذلك إذا خلق حركة وخلق معها مثلها أو أمثالها . وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصَه إنما هو من طريق الأدلة ، فتزيد الأدلّة عند واحد فيقال فى ذلك : إنها زيادة فى الإيمـان ؛ وبهذا المعنى — على أحد الأقوال — فُضّل الأنبياء على الخلق ، فإنهم عَلِموه من وجوه كثيرة ، أكثر من الوجوه التى علمـه الخلق بها . وهذا القول خارج عن مقتضى الآية ؛ إذ لا يُتصوّر أن تكون الزيادة فيهـا من جهـة الأدلة . وذهب قوم : إلى أن الزيادة فى الإيمـان إنمـا هى بنزول الفرائض والأخبار فى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وفى المعرفة بها بعد الجهل غابرَ الدهر .

وهذا إنما هو زيادة إيمان؛ فالقول فيه إنّ الايمان يزيد قول مجازيّ ، ولا يُتصوّر فيه النقص على هذا الحدّ، وإنما يتصوّر بالإضافة إلى من عَلِم . فاعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ أى كافينا الله . وحسب مأخوذ من الإحساب، وهو الكفاية . قال الشاعر :

فتمـلأ بيتنا إقْطًا(١) وسَمْنًا * وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ

روى البخاريّ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ — إلى قوله : — وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلْقِيَ فى النار . وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم . والله أعلم .

قوله تعالى : فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

قال علماؤنا : لما فوّضوا أمورهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه، أعطاهم من الجزاء أربعة معانٍ : النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضا . فرضّاهم عنه، ورضى عنهم .

قوله تعالى : إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

قال ابن عباس وغيره : المعنى يخوفكم أولياءه ؛ أى بأوليائه، أو من أوليائه؛ فحذف حرف الجر ووصل الفعل إلى الاسم فنصب . كما قال تعالى : «لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا» أى لينذركم ببأس شديد ؛ أى يخوّف المؤمن بالكافر . وقال الحسن والسُّدّى : المعنى يخوّف أولياءه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين . فأما أولياء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوّفهم . وقد

(١) الأقط : شىء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ و يترك حتى يمصل .

قيل: إن المراد هذا الذى يخوّفكم بجمع الكفار شيطانٌ من شياطين الإنس؛ إمّا نُعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف فى ذلك كما تقدّم . ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ أى لاتخافوا الكافرين المذكورين فى قوله : « إنّ النـاس قد جمعوا لكم » . أو يرجع إلى الأولياء إن قلت : إن المعنى يخوّف بأوليائه أى يخوّفكم أولياءه .

قوله تعالى : ﴿وَخَافُونِ﴾ أى خافون فى ترك أمرى إن كنتم مصدّقين بوعدى . والخوف فى كلام العرب الذُّعْر . وخاوَفَنى فلان فَخُفْتُه، أى كنتُ أشدّ خوفًا منه . والخَوْفاءُ[1] المَفَـازَة لا ماء بها . ويقال : ناقةٌ خَوْفَاء وهى الجَرْبَاء. والخافة كالخريطة من الأَدَم يُشْتَارُ فيها العَسَل . قال سَهلُ بنُ عبد الله : اجتمع بعض الصدّيقين إلى إبراهيمَ الخَلِيلِ فقال : ما الخوفُ؟ فقال: لا تأمن حتى تبلغ المأمن . قال سهل: وكان الربيع بن خيثم إذا مرّ بِكِيرٍ[2] يُغْشَى عليه؛ فقيل لعلىّ آبن أبى طالب ذلك؛ فقال : إذا أصابه ذلك فأعلمونى . فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده فى قميصه فوجد حركته عالية فقال : أشهد أنّ هذا أخوف زمانِكم . فالخائف من الله تعالى هو أن يَخافَ أن يُعاقِبَه إمّا فى الدنيا وإمّا فى الآخرة؛ ولهذا قيل : ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه ، بل الخائفُ الذى يترك ما يَخافُ أن يُعذَّب عليـه . ففرض الله تعـالى على العبـاد أن يخافوه فقال : « وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » وقال « وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » . ومدح المؤمنين بالخوف فقال : « يَخَافُونَ رَبَّهُـمْ مِن فَوْقِهِم » . ولأرباب الإشارات فى الخـوف عبارات مرجعها إلى ماذكرنا . قال الأستاذ أبو علىّ الدّقاق : دخلت على أبى بكر بن فُورَك رحمه الله عائدا، فلما رآنى دَمعتْ عيناه ، فقلت له : إنّ الله يعافيك ويَشفيك . فقال لى : أترانى أخاف من الموت؟ إنمـا أخاف مما وراء الموت . وفى سُنَن آبن ماجه عن أبى ذَرٍّ قال

---

(١) يقال مفازة خوقاء (بالقاف لا بالفاء) أى واسعة الجوف أو لا ماء بها؛ كما يقال ناقة خوقاء (بالقاف كذلك) أى جرباء (انظر اللسان مادة خوق) وليس فيه ولا فى كتاب آخر من كتب اللغة هذان المعنيان فى مادة «خوف» بالفاء

(٢) الكير : كير الحـدّاد ، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات؛ وهو المعروف الآن بالمنفاخ . وأما الكور فهو المبنى من الطين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنى أرى مالا تَرَوْن وأسمع مالا تسمعون أَطّت[١] السماء وحُقّ لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلّا ومَلَكٌ واضعٌ جبهته ساجدًا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضَحكتم قليلا ولبَكَيتم كثيرا وما تلذّذتم بالنساء على الفُرُشَات ولخرجتم إلى الصُّعُدات[٢] تَجْأَرُون[٣] إلى الله والله لوَدِدْت أنى كنت شجرة تُعْضَد[٤]". خرّجه التّرمذىّ وقال : حديث حسن غريب . ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال : " لوَدِدْت أنى كنت شجرة تُعْضَد ". والله أعلم .

قوله تعـالى : وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ هؤلاء قوم أسلموا ثم ٱرتدّوا خوفا من المشركين ؛ فاغتمّ النبىّ صلى الله عليـه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : « وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ » . وقال الكَلْبىّ : يعنى به المنافقين ورؤساءَ اليهود ؛ كَتَموا صفة النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى الكتاب فنزلت . ويقال : إن أهل الكتاب لمـا لم يؤمنوا شَقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الناس ينظرون إليهم و يقولون إنهم أهل كتاب ؛ فلو كان قولُه حقًّا لٱتبعوه ، فنزلت « وَلَا يَحْزُنك » . قراءة نافع بضم الياء وكسر الزاى حيث وقع إلا فى — الأنبياء — « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ »[٥] فإنه يفتح الياء ويضم الزاى . وضده أبو جعفر . وقرأ ابن مُحَيْصِن كلّها بضم الياء والزاى . والباقون كلّها بفتح اليـاء وضمّ الزاى .

---

(١) الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الابل : أصواتها وحنينها . أى إن كثرة ما فى السماء من الملائكة قـد أثقلها حتى أطت . وهذا مَثَل و إيذان بكثرة الملائكة و إن لم يكن ثمّ أطيط ، و إنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله عز وجل (عن ٱبن الأثير) . (٢) الصعدات : الطرق ، وهى جمع صعد ؛ كطرق وطرقات . وقيل : جمع صعدة ؛ كظلمة وهى فنـاء باب الدار ، وممر الناس بين يديه . (٣) جأر القوم جؤارا : رفعوا أصواتهم بالدعاء متضرعين . (٤) تعضد : تقطع بالمعضد ؛ والمعضد والمعضاد مثل المنجل يقطع به الشجر .

(٥) آية ١٠٣

وهما لغتان : حَزَنني الأمر يَحْزُنني، وأحْزَنني أيضا وهى قليلة ؛ والأولى أفصح اللغتين؛ قاله النحاس . وقال الشاعر فى « أحزن » :

* مضى صحبى وأحزننى الديار *

وقراءة العامة «يُسارِعون» . وقرأ طلحة « يُسْرِعون فى الكفر» . قال الضحّاك : هم كفار قريش . وقال غيره : هم المنافقون . وقيل : هو ما ذكرناه قبلُ . وقيل : هو عامّ فى جميع الكفار. ومُسارعتهم فى الكفر المظاهرةُ على محمد صلى الله عليه وسلم. قال القُشَيرى: والحُزْن على كُفرِ الكافر طاعة؛ ولكنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُفرِط فى الحزن على كفر قومه، فنُهِى عن ذلك؛ كما قال : «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ» وقال : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا» .

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى لا يُنقصون من مُلْك الله وسلطانه شيئا؛ يعنى لا ينقص بكفرهم . وكما رُوى عن أبى ذَرٍّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما رَوى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : "يا عبادِى إنى حرّمت الظُّلمَ على نفسى وجعلته بينكم مُحرَّماً فلا تَظالَموا . يا عبادِى كلُّكم ضالٌّ إلا من هَدَيْتُه فاستهدونى أَهْدِكم . يا عبادى كُلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعِمونى أُطْعِمكم . يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسَوْتُه فاسْتكْسُونى أَكْسُكم . يا عبادِى إنكم تُخطِئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تَبلغوا ضُرِّى فتضُرّونى ولن تَبْلغُوا نَفْعى فَتنفَعُونى . يا عبادى لو أن أوّلكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنّكم كانوا على أَتْقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئا . يا عبادى لو أن أوّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنّكم كانوا على أفْجَر قلبِ رجُلٍ واحدٍ ما نَقَص ذلك من مُلْكى شيئا . يا عبادى لو أن أوّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنّكم قاموا فى صَعيدٍ واحدٍ فسألُونى فأعطيتُ كُلَّ إنسان مَسْألَتَه ما نَقَص ذلك مما عندى إلا كما يَنْقُصُ المِخيَطُ إذا أُدخِلَ البحر . يا عبادى إنما هى أعمالُكم أُحْصِيها لكم ثم أُوَفِّيكم إياها فمن وَجَد خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وَجَد غيرَ ذلك فلا يلُومَنّ إلا نَفْسَه" . خرّجه مسلم فى صحيحه والترمذى وغيرهما، وهو حديث عظيم فيه طول

يكتب كله . وقيل : معنى ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ أى لن يَضُرُّوا أولياء الله حين تركوا نصرهم إذ كان الله عزّ وجلّ ناصِرَهم .

قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى نصيبا . والحظّ النصيب والجَدّ . يقال : فلان أحظّ من فلان، وهو محظوظ . وجمع الحَظ أحاظٍ على غير قياس (١) . قال أبو زيد : يقال رجل حَظِيظ، أى جديدٌ اذا كان ذا حظّ من الرزق . وحَظِظتُ فى الأمر أَحَظُّ . وربما جُمع الحظ أحظاء . أى لا يجعل لهم نصيبا فى الجنة . وهو نَصّ فى أن الخير والشر بإرادة الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ تقدم فى البقرة (٢) . ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ كرّر للتأكيد . وقيل : أى من سوء تدبيره استبدال الإيمان بالكفر وبيعه به؛ فلا يخاف جانبَه ولا تدبيره . وانتصب « شيئا » فى الموضعين لوقوعه موقع المصدر ؛ كأنه قال : لن يضروا الله ضررا قليلا ولا كثيرا . ويجوز انتصابه على تقدير حذف الباء ؛ كأنه قال : لن يضروا الله بشىء .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ج إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا ج وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ الإملاء طول العمر ورَغَد العيش . والمعنى : لا يحسبن هؤلاء الذين يُخَوِّفون المسلمين ؛ فإن الله قادر

(١) قال الجوهرى : كأنه جمع أحظ . قال ابن برى : وقوله «أحاظ على غير قياس» وهم منه ؛ بل أحاظ جمع أحظ ؛ وأصله أحظظ فقلبت الظاء الثانية ياء فصارت أحظ ، ثم جمعت على أحاظ . (عن اللسان) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

على إهلاكهم، وإنما يُطوِّل أعمارهم ليعملوا بالمعاصى، لا لأنه خير لهم . ويقال : « أنما نملِي لهم » بما أصابوا من الظّفر يومَ أُحُد لم يكن ذلك خيرا لأنفسهم ؛ وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : ما من أحد برٍّ ولا فاجر إلا والموتُ خير له ؛ لأنه إن كان بَرًّا فقد قال الله تعالى : « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وإن كان فاجرا فقد قال : « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » . وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ « لا يَحْسَبَنَّ » بالياء ونصب السين . وقرأ حمزة : بالتاء ونصب السين . والباقون : بالياء وكسر السين . فمن قرأ بالياء فالذين فاعلون . أى فلا يحسبن الكفار . و « أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ » تَسُدّ مَسَدّ المفعولين . و «ما» بمعنى الذى، والعائد محذوف، و«خير» خبر « أنّ » . ويجوز أن تقدّر «ما» والفعل مصدرا ؛ والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم . ومن قرأ بالتاء فالفاعل هو المخاطب، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . و«ا ين» نصب على المفعول الأوّل لتحسب . وأن وما بعدها بدل من الذين، وهى تسُدّ مَسَدّ المفعولين، كما تسد لو لم تكن بدلا . ولا يصلح أن تكون «أنّ» وما بعدها مفعولا ثانيا لتحسب ؛ لأن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الأوّل فى المعنى ؛ لأن حسِب وأخواتها داخلةٌ على المبتدأ والخبر ؛ فيكون التقدير: ولا تحسبن أنما نملى لهم خير . هذا قول الزجاج . وقال أبو علىّ : لو صحّ هذا لقال «خيرا» بالنصب ؛ لأن «أنّ» تصير بدلا من «الذين كفروا» ؛ فكأنه قال : لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيرا ؛ فقوله «خيرا» هو المفعول الثانى لحسِب . فإذًا لا يجوز أن يقرأ «لا تحسبن» بالتاء إلا أن تُكسر «إنّ» فى «أنما» وتنصب خيرا، ولم يُرْوَ ذلك عن حمزة، والقراءة عن حمزة بالتاء ؛ فلا تصح هذه القراءة إذًا . وقال الفرّاء والكسائىّ : قراءة حمزة جائزةٌ على التكرير ؛ تقديره ولا تحسبن الذين كفروا، ولا تحسبن أنّما نملى لهم خير ؛ فسدّت « أن » مَسَدّ المفعولين لتحسب الثانى، وهى وما عملت مفعول ثانٍ لتحسب الأوّل . قال القُشَيْرِىّ : وهذا قريب مما ذكره الزجاج فى دعوى البدل، والقراءة صحيحة . فإذاً غَرَضُ أبى علىّ تغليطُ الزجاج . قال النحاس : وزعم أبو حاتم أنّ قراءة حمزة بالتاء هنا، وقوله : « ولا يحسبن الذين يبخلون » لحن لا يجوز . وتبعه على ذلك جماعة .

قلت : وهذا ليس بشىء؛ لمَا تقدم بيانه من الإعراب، ولصحة القراءة وثبوتها نقلا .
وقرأ يحيي بن وَثّاب « إنما نملى لهم » بكسر إن فيهما جميعا . قال أبو جعفر : وقراءة يحيي حسنة . كما تقول : حسبت عمرا أبوه خالد . قال أبو حاتم : وسمعت الأخفش يذكر كسر «إن» يحتج به لأهل القَدَر؛ لأنه كان منهم . ويجعل على التقديم والتأخير «ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى ليزدادوا إثما إنما نملى لهم خير لأنفسهم» . قال: ورأيت فى مصحفٍ فى المسجد الجامع قد زادوا فيه حرفا فصار « إنما نملى لهم إيمانا » فنظر إليه يعقوب القارئ فتبين اللّحن فحكّه . والآية نَصٌّ فى بطلان مذهب القدرية؛ لأنه أخبر أنه يُطيل أعمارهم ليزدادوا الكفر بعمل المعاصى ، وتوالى أمثاله على القلب . كما تقدم بيانه فى ضده وهو الإيمان .
وعن ابن عباس قال: ما من برٍّ ولا فاجر إلا والموت خير له ثم تلَا « إنما نملى لهم لِيزدادوا إثما» وتَلا « وما عِند اللهِ خير لِلأبرار» أخرجه رزِين .

قوله تعالى : مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

قال أبو العالية: سأل المؤمنون أن يُعْطَوا علامةً يُفرقون بها بين المؤمن والمنافق؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الآية . واختلفوا من المخاطب بالآية على أقوال . فقال ابن عباس والضحّاك ومُقاتِل والكلْبىّ وأكثر المفسرين: الخطاب للكفار والمنافقين. أى ما كان الله ليَذَر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال الكلْبىّ : إن قريشا من أهل مكة قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم: الرجلُ منا تزعم أنه فى النار، وأنه إذا ترك دِيننا واتّبع دينك قلتَ هو من أهل الجنة! فأخبرنا عن هذا من أين هو ؟ وأخبرنا من يأتيك منا؟ ومَن لم يأتك؟ . فأنزل الله عز وجل « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» من الكفر والنفاق «حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» . وقيل : هو خطاب للمشركين . والمراد بالمؤمنين فى قوله : « لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ » مَن فى الأصلاب والأرحام ممن يؤمن . أى ما كان الله ليذر أولادكم الذين حُكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك ، حتى يفرّق بينكم و بينهم؛ وعلى هذا ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ ﴾ كلامٌ مستأنف . وهو قول ابنِ عباس وأكثرِ المفسرين . وقيـل : الخطاب للمؤمنين . أى وما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من آختلاط المؤمن بالمنافق ، حتى يميِّز بينكم بالمحْنة والتكليف؛ فتعرفوا المنافق الخبيث ، والمؤمن الطّيب ، وقد مُيِّز يوم أحد بين الفريقين . وهذا قول أكثرِ أهل المعانى . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ يامعشر المؤمنين . أى ما كان الله ليعيّن لكم المنافقين حتى تعرفوهم ،ولكن يُظْهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة ، وقد ظهر ذلك فى يوم أُحد؛ فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشماتة ، فمـا كنتم تعرفون هذا الغيب قبل هذا ، فالآن قد أطلع الله محمدا عليه السلام وصحبَه على ذلك . وقيل: معنى «ليُطْلِعَكم» أى وما كان ليُعلمكم ما يكون منهم . فقوله : « وما كان الله ليطلِعكم » على هـذا مُتّصل ، وعلى القولين الأوّلين منقطع . وذلك أن الكفار لمـا قالو: لِم لم يوح إلينا ؟ قال : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ »أى على من يستحقّ النُّبوّة ، حتى يكون الوحْى باختياركم . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي ﴾ أى يختار ﴿ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ لإطلاع غيبه ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يقال : طَلَعْتُ على كذا وآطّلعْتُ ، وأَطْلعت عليه غيرى؛ فهو لازمٌ ومُتعدٍّ . وقرئ «حتى يُمَيِّز» بالتشديد من مَيّز، وكذا «فى الأنفال»(١) وهى قراءة حمزة . والباقون « يَميز» بالتخفيف من ماز يَميز . يقال : مِزْت الشىء بعضه عن بعض أَميزه مَيْزًا، وميّزته تَمْييزًا . قال أبو معاذ: مِزْتُ الشىءَ أَمِيزه ميزًا إذا فَرّقت بين شيئين . فإذا كانت أشياء قلت: مَيّزتها تمييزا . ومثله إذا جعلت الواحد شيئين قلت: فَرَقت بينهما، مخففا؛ ومنه فَرْق الشّعر . و إن جعلته أشياء قلت : فرّقته تفريقا .

قلت : ومنه آمتاز القوم، تميّز بعضُهم عن بعض . وتكاد تَميَّز : تنقطع؛ و بهذا فُسِّر قوله تعالى : « تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ » وفى الخبر " مَنْ مَازَ أذًى عن الطريق فهو له صدقة " .

(١) آية ٣٧

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ يقال : إن الكفار لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم من يؤمن منهم ، فأنزل الله «فآمِنوا بِالله ورسلِهِ» يعنى لا تشتغلوا بما لا يَعنيكم ، وآشتغلوا بما يَعنيكم وهو الإيمان . ﴿ فآمِنُوا ﴾ أى صدقوا ، أى عليكم التصديق لا التشوّف إلى اطلاع الغيب . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى الجنة . ويُذكَر أن رجلا كان عند الحجّاج بن يوسف الثّقفِى مُنجِّمًا ، فأخذ الحجّاج حَصَياتٍ بيده قد عَرف عِدّتها فقال لِلْمُنَجِّم : كم فى يدى ؟ فحسَب فأصاب المنجِّم . فأغفله الحجاج وأخذ حَصَياتٍ لم يَعُدّهنّ فقال للمنجم : كم فى يدى ؟ فحسَب فأخطأ ، ثم حسَب أيضا فأخطأ ؛ فقال : أيها الأمير ، أظنّك لا تعرف عدد ما فى يدك ؟ قال لا . قال : فما الفرق بينهما ؟ فقال : إن ذاك أَحْصيتَه فخرج عن حدّ الغيب ، فحَسَبتُ فأصبتُ ، وإنّ هذا لم تَعرف عددَها فصار غَيْبًا ، ولا يعلم الغيبَ إلا آلله تعالى . وسياتى هذا البابُ فى « الأنعام » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ ﴾ فى موضع رفع ، والمفعول الأول محذوف . قال الخليل وسيبويه والفرّاء : المعنى البخل خيرا لهم ، أى لا يحسبنّ الباخلون البخلَ خيرا لهم . وإنما حذف لدلالة يبخلون على البخل ؛ وهو كقوله : من صدق كان خيرا له . أى كان الصدق خيرا له . ومن هذا قول الشاعر :

إذا نُهِىَ السّفيهُ جَرَى إليه * وخالَفَ والسّفيهُ إلى خِلافِ

فالمعنى : جَرَى إلى السَّفه ؛ فالسّفيه دلّ على السّفه . وأما قراءة حمزة بالتاء فبعيدة جدًّا ؛ قاله النحاس . وجوازها أن يكون التقدير : لا تحسبن بخلَ الذين يبخلون هو خيرا لهم .

قال الزجاج : وهى مثل « وآسأل القرية » . و « هو » فى قوله « هو خيرا لهم » فاصلة عند البصريين، وهى العماد عند الكوفيين . قال النحاس : ويجوز فى العربية « هو خير لهم » ابتداء وخبر .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر، أى البخل شرّ لهم . والسين فى « سَيُطَوَّقُونَ » سين الوعيد، أى سوف يُطوّقون؛ قاله المبرّد . وهذه الآية نزلت فى البخل بالمال والإنفاق فى سبيل الله، وأداء الزكاة المفروضة . وهـذا كقوله : « وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ » الآية . ذهب إلى هـذا جماعةٌ من المتأولين ، منهم ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل وأبو مالك والسُّدّى والشَّعْبِيّ قالوا : ومعنى ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ ﴾ هو الذى ورد فى الحديث عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من آتاه الله مالا فلم يُؤَدِّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شُجاعا[1] أقْرَع[2] له زَبِيبتان[3] يُطَوَّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلِهزِمتيه[4] ثم يقول أنا مالُك أنا كنزك — ثم تلا هـذه الآية — « ولا يحسبن الذين يبخلون » الآية . أخرجه النسائى[5] . وخرّجه ابن ماجه عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما مِن أحدٍ لا يُؤدِّى زكاةَ مالِه إلا مُثِّل له يومَ القيامة شُجاع أقْرَعُ حتى يُطَوَّق به فى عنقه" ثم قرأ علينا النبيّ صلى الله عليه وسلم مِصداقَه من كتاب الله تعالى « ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » الآية . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من ذى رَحِمٍ يأتى ذَا رَحِمِه فيسأله من فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا أخرج له يوم القيامة شُجاعٌ من النار يتلمّظ[6] حتى يُطوِّقه" . وقال ابن عباس أيضا : إنما نزلت فى أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علموه من أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ذلك مُجاهد وجماعة من أهل

---

(١) الشجاع (بالضم) : الحية الذكر؛ أو الذى يقوم على ذنبه ويواثب الراجل والفارس . (٢) الأقرع : هو الذى تمرط جلد رأسه ؛ لكثرة سمه وطول عمره . (٣) الزبيبتان : النكتتان السوداوان فوق عينيه ، وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه . وقيل : هما زَبَدَتان فى شدقى الحية . (٤) اللهزمتان : شدقاه . وقيل : هما عظمان ناتئان فى اللحيين تحت الأذنين . (٥) هـذا رواية البخارى عن أبى هريرة ولفظه . أما ما خرجه النسائى فبلفظ آخر عن ابن مسعود . راجع صحيح البخارى وسنن النسائى فى باب الزكاة . (٦) تلمظت الحية : أخرجت لسانها كتلمظ الآكل .

العـلم . ومعنى « سَيُطَوَّقون » على هذا التأويل سيحملون عقـاب ما بخلوا به ؛ فهـو من الطاقة كما قال تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ » وليس من التّطويق . وقال إبراهيم النّخَعِيّ : معنى «سَيُطَوَّقون» سيُجعل لهم يوم القيامة طَوْقٌ من النار . وهذا يجرى مع التأويل الأوّل ؛ [أى] قول السدى . وقيل : يُلزمون أعمالَهم كما يلزم الطّوق العنق ؛ يقال : طُوِّق فلان عملَه طَوْقَ الحمامة ، أى أُلزِم عمله . وقد قال تعالى : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » . ومن هذا المعنى قولُ عبد الله بن جَحْش لأبى سفيان :

أبلـغْ أبا سـفيان عن * أمْرٍ عواقبُـه ندامـهْ
دارَ ابن عمِّـك بعتَهـا[1] * تقضِى بها عنك الغرامهْ
وحَليفُكم بالله ر * بِّ النـاسِ مجتهِدُ القَسَامهْ
إذهب بها إذهب بهـا * طُوِّقتَها طـوقَ الحمـامهْ

وهذا يجرى مع التأويل الثانى . والبُخْل والبَخَل فى اللغة أن يَمنع الإنسانُ الحقَّ الواجبَ عليه . فأما من مَنع مالًا يجب عليه فليس ببخيل ؛ لأنه لا يُذَمّ بذلك . وأهل الحجاز يقولون : يَبْخُلون وقد بَخُلوا . وسائر العرب يقولون : بَخِلوا يَبْخَلون ؛ حكاه النحاس . وبَخِل يَبْخَل بُخْلًا وبَخَلًا ؛ عن ابن فارس .

الثالثـة — فى ثمرة البخل وفائدته . وهو ما رُوِى أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال للأنصار : "من سَيِّدكم" ؟ قالوا : الجَدّ بن قيس على بُخْلٍ فيه . فقال صلى الله عليه وسلم : "وأىُّ داء أَدْوَى[2] من البخل" . قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : "إن قوما نزلوا بساحل البحر فكرِهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا : ليبعد الرجال منّا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف ببُعْد النساء ، وتعتذر النساء ببُعْد الرجال ؛ ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء" . ذكره المـاوردى فى كتاب «أدب الدّنيا والدِّين» . والله أعلم .

---

(١) لما هاجر بنو جحش من مكة إلى المدينة تركوا دُورهم هجرة مغلقة ، ليس فيها ساكن ؛ فباعها أبو سفيان من عمرو بن علقمة . فقال عبد الله لأبى سفيان هذه الأبيات بعد فتح مكة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٣٣٩ طبع أوربا) .
(٢) أى أى عيب أقبح منه .

الرابعة — واختلف فى البُخْل والشُّحِّ ؛ هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين . فقيل : البخل الامتناع من إخراج ما حصل عندك . والشحُّ : الحِرصُ على تحصيل ما ليس عندك . وقيل : إن الشُّحّ هو البخل مع حِرص . وهو الصحيح لما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة وآتّقوا الشُّحّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم وآستحلُّوا محارمهم " . وهذا يردّ قول من قال : إن البخلَ منعُ الواجب ، والشحَّ منعُ المستحَبّ . إذ لو كان الشح منع المستحب لما دخل تحت هذا الوعيد العظيم ، والذم الشديد الذى فيه هلاك الدنيا والآخرة . ويؤيّد هذا المعنى ما رواه النسائى عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " لا يجتمع غُبارٌ فى سبيل الله ودخان جهنم فى مِنخرَىْ رجلٍ مسلمٍ أبدا ولا يجتمع شحٌّ وإيمانٌ فى قلب رجل مسلم أبدا " . وهذا يدلّ على أن الشُّحَّ أشدُّ فى الذم من البخل ؛ إلا أنه قد جاء ما يدلّ على مساواتهما وهو قوله — وقد سئل : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : " لا " . وذكر الماوردىّ فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : " مَن سيّدكم " قالوا : الجدّ بن قيس على بُخْل فيه ؛ الحديث . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أخبر تعالى ببقائه ودوام مُلْكه ، وأنه فى الأبد كهو فى الأزل غنيٌّ عن العالمين ، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم ، فتبقى الأملاك والأموال لا مُدَّعىً فيها . فجرى هذا مجرى الوراثة فى عادة الخلق ، وليس هذا بميراث فى الحقيقة ؛ لأن الوارث فى الحقيقة هو الذى يرث شيئا لم يكن ملَكه قبلُ ، والله سبحانه وتعالى مالكُ السمواتِ والأرض وما بينهما ، وكانت السموات وما فيها ، والأرض وما فيها له ، وأن الأموال كانت عارية عند أربابها ؛ فاذا ماتوا رُدَّت العارية إلى صاحبها الذى كانت له فى الأصل . ونظير هذه الاية قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » ، « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا » الآية . والمعنى فى الآيتين أن الله تعالى أمر عباده بأن يُنفقوا ولا يَبْخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثا لله تعالى ، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ذكر تعالى قبيحَ قولِ الكفار لا سِيّما اليهود. وقال أهل التفسير : لما أنزل الله « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال قوم من اليهود — منهم حُيَيّ بن أَخْطب ؛ فى قول الحسن . وقال عكرمة وغيره : هو فنحاص بن عازوراء — إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ يقترض منا . وإنما قالوا هذا تمويهًا على ضعفائهم ، لا أنهم يعتقدون هذا ؛ لأنهم أهل كتاب . ولكنهم كفروا بهذا القول ؛ لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين ، وتكذيبَ النبيّ صلى الله عليه وسلم . أى أنه فقير على قول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه اقترض منا . ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ سنجازيهم عليه . وقيل : سنكتبه فى صحائف أعمالهم ، أى نأمر الحَفَظة بإثبات قولهم حتى يقرءوه يوم القيامة فى كتبهم التى يؤتونها ؛ حتى يكون أوْكدَ للحجة عليهم . وهذا كقوله : « وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » . وقيل : مقصود الكتابة الحفظ ، أى سنحفظ ما قالوا لنجازيَهم . « وما » فى قوله « ما قالوا » فى موضع نصب بسنكتب . وقرأ الأعمش وحمزة « سيُكتب » بالياء ؛ فيكون « ما » اسم ما لم يُسمّ فاعله . واعتبر حمزة ذلك بقراءة ابن مسعود « ويقال ذوقوا عذاب الحريق » .

قوله تعالى : ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أى ونكتب قتلَهم الأنبياء ، أى رضاهم بالقتل . والمراد قتل أسلافهم الأنبياء ؛ لكن لما رَضُوا بذلك صحّت الإضافة إليهم . وحَسّن رجل عند الشعبيّ قتْل عثمانَ رضى الله عنه فقال له الشعبيّ : شَرِكتَ فى دمه . فجعل الرضا بالقتل قتلًا ؛ رضى الله عنه .

قلت : وهذه مسألة عُظمَى ، حيث يكون الرضا بالمعصية معصيةً . وقد روى أبو داود عن العُرْس بن عميرة الكِندِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا عُمِلت الخطيئة

فى الأرض كان من شهدها فكرهها — وقال مرة فأنكرها — كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها " . وهذا نص .

قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ تقدم معناه فى البقرة[1] . ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أى يقال لهم فى جهنم، أو عند الموت، أو عند الحساب هذا . ثم هذا القول من الله تعالى، أو من الملائكة ؛ قولان . وقراءة ابن مسعود « ويقال » . والحريق اسم للملتهبة من النار . والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة . ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى ذلك العذاب بما سلف من الذنوب . وخصّ الأيدى بالذّكر ليدلّ على تولّى الفعل ومباشرته ؛ إذ قد يضاف الفعل إلى الإنسان بمعنى أنه أمر به ؛ كقوله : « يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ » وأصل « أيديكم » أيديُكم فحذفت الضمة لثقلها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض بدلا من « الذين » فى قوله عزّ وجل « لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا » أونعت «للعبيد» ،أوخبر ابتداء،أى هم الذين قالوا . وقال الكلبيّ وغيره . نزلت فى كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصّيْف ، ووهب بن يهوذا ، وفِنحاص ابن عازورا وجماعةٍ أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا له : أتزعم أن الله أرسلك إلينا ، وأنه أنزل علينا كتابا عهِد إلينا فيه ألّا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقُرْبان تأكله النار؛ فإن جئتنا به صدقناك . فأنزل الله هذه الآية . فقيل : كان هذا فى التوراة، ولكن كان تمام الكلام : حتى يأتيكم المسيح ومحمد فاذا أتياكم فآمنوا بهما من غير قُرْبان . وقيل :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣١ طبعة ثانية أو ثالثة .

كان أمر القرابين ثابتا إلى أن نُسخت على لسان عيسى بن مريم . وكان النبيّ منهم يذبح ويدعو فتنزل نار بيضاء لها دويّ وحفيف لادخان لها، فتأكل القُرْبان . فكان هذا القول دعْوَى من اليهود ؛ إذ كان ثَمّ استثناء فأخفوه، أو نسخٌ، فكانوا فى تمسّكهم بذلك متعنّتين، ومعجزاتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم دليل قاطع فى إبطال دعواهم، وكذلك معجزات عيسى؛ ومن وجب صدقه وجب تصديقه. ثم قال تعالى: إقامة للحجة عليهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ من القربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنى زكريا ويحيى وشَعْيا، وسائر من قُتلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم . أراد بذلك أسلافهم . وهذه الآية هى التى تلاها عامر الشعبيّ رضى الله عنه، فاحتجّ بها على الذى حسّن قتلَ عثمانَ رضى الله عنه كما بيّناه . وأن الله تعالى سمّى اليهود قَتَلة لرضاهم بفعل أسلافهم، وإن كان بينهم نحوٌ من سبعمائة سنة . والقُرْبان ما يُتقرب به إلى الله تعالى من نُسُك وصدقة وعملٍ صالح؛ وهو فُعلان من القُرْبة . ويكون آسما ومصدرا؛ فمثال الاسم السّلطان والبُرْهان . والمصدر العُدْوان والخُسْران . وكان عيسى بن عمر يقرأ «بِقُرُبانٍ» بضم الراء آتباعا لضمة القاف؛ كما قيل فى جمع ظلمة: ظُلُمات، وفى حجرة حُجُرات. ثم قال تعالى مُعزِّيا لنبيّه ومُؤنسًا له: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالدلالات. ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أى الكتب المزبورة، يعنى المكتوبة . والزُّبُر جمع زَبور وهو الكتاب. وأصله من زَبَرت أى كتبت . وكل زبور فهو كتاب؛ قال آمرؤ القيس :

لِمَنْ طَلَلٌ أبصرتُه فشجانِى * كخط زبور فى عسيب يمانِى[1]

وأنا أعرف تَزْبِرَتى أى كتابتى . وقيل : الزّبُور من الزَّبْر بمعنى الزَّجْر. وزَبَرْت الرجل آنتهرته. وزَبَرْت البئر: طويتها بالحجارة . وقرأ ابن عامر «بِالزُّبُرِ وبِالكتابِ المُنير» بزيادة باء فى الكلمتين . وكذلك هو فى مصاحف أهل الشام . ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى الواضح المضيء؛ من قولك : أَنَرت الشىء أُنيره، أى أوضحته . يقال : نار الشىء وأناره ونوّره وآستناره بمعنًى،

(١) العسيب : سعف النخل الذي جرد عنه خوصه، وهي الجريدة .

وكل واحد منهما لازمٌ ومتعدٍّ . وجمَع بين الزبر والكتاب – وهما بمعنًى – لاختلاف لفظهما، وأصلهما كما ذكرنا .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى – لمّا أخبر جلّ وتعالى عن الباخلين وكُفرهم فى قولهم : « إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ » وأمر المؤمنين بالصبر على أذاهم فى قوله « لَتُبْلَوُنَّ » الآية – بيّن أن ذلك مما ينقضى ولا يدوم؛ فإن أمَد الدنيا قريب، ويومَ القيامة يوم الجزاء . و﴿ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ من الذّوق، وهذا مما لا مَحِيص عنه للإنسان، ولا مَحِيد عنه لحيوان . وقد قال أُمَيّة بن أبى الصّلْت :

من لم يَمت عَبْطَةً (١) يَمُت هَرَماً ＊ لِلموت كأسٌ والمرءُ ذائقُها

وقال آخر :

الموتُ بابٌ وكلُّ الناس داخلُه ＊ فليتَ شِعرِىَ بعدَ البابِ ما الدّارُ

الثانية – قراءة العامة «ذائقةُ الموتِ» بالإضافة . وقرأ الأعمش ويحيى وابن أبى إسحاق «ذائقةٌ الموتَ» بالتنوين ونصب الموت . قالوا : لأنها لم تذُق بعدُ . وذلك أن اسم الفاعل على ضربين : أحدهما أن يكون بمعنى المُضىّ . والثانى بمعنى الاستقبال ؛ فإن أردت الأوّل لم يكن فيه إلا الإضافة إلى ما بعده؛ كقولك : هذا ضاربُ زيدٍ أمسِ، وقاتلُ بكرٍ أمسِ ؛ لأنه يُجرى مجرى الاسم الجامد وهو العَلم ، نحو غلامُ زيدٍ، وصاحبُ بكرٍ . قال الشاعر :

الحافظُو عَوْرَةِ العشيرة لا يأ ＊ تيهمُ مِن وَرَائهمْ وَكَفُ (٢)

---

(١) مات عبطة : أى شابا، وقيل شابا صحيحا .

(٢) الوكف : العيب . والبيت لعمرو بن امرئ القيس، ويقال لقيس بن الخطيم . (عن اللسان) .

وإن أردت الثانى جاز الجر. والنّصب والتّنوين فيما هذا سبيله هو الأصل؛ لأنه يجرى مجرى الفعل المضارع. فإن كان الفعل غير متعدّ لم يتعدّ، نحو قائمٌ زيدٌ. وإن كان متعدّيا عدّيته ونصبت به، فتقول: زيدٌ ضاربٌ عمـروا بمعنى يضرب عمروا. ويجوز حـذف التنوين والإضافة تخفيفا، كما قال المرّار:

سَـلّ الهمومَ بكل مُعطِى رأسـه * ناجٍ مُخالِـطِ صُهْبـةٍ مُتَعيِّسِ (١)

مُغْتالِ أحْبُـلِهِ مبِيـنٍ عُنْقُـه * فى مَنْكِبٍ زَبَنَ المَطِىَّ عَرَنْدَسِ (٢)

الثالثـة — إعلم أن للموت أسبابًا وأماراتٍ؛ فمن علامات موت المؤمن عَرَقُ الجَبِين. أخرجه النَّسائى من حديث بُريدة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "المؤمن يموت بعرق الجَبِين". وقد بيّناه فى "التذكرة" فإذا احتُضِر لُقِّن الشهادة؛ لقوله عليه السلام: "لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله" لتكون آخر كلامه فيُختَمَ له بالشهادة؛ ولا يعاد عليه منها لئلا يضجَر. ويستحبّ «قراءة» يس ذلك الوقت؛ لقوله عليه السلام: "اقرءوا يس على مَوْتاكم". أخرجه أبو داود. وذكره الآجُرِّى فى كتاب النصيحة من حديث أم الدرداء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "ما من ميت يُقرأ عنده سورة يس إلا هُوِّن عليه". فإذا قُضى وتَبِع البصرُ الروح — كما أخبر صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم — وارتفعت العبادات، وزال التكليف، توجّهت على الأحياء أحكام؛ منها تغميضُه، وإعلامُ إخوانه الصُّلَحاء بموته؛ وكَرِهه قوم وقالوا: هو من النعى. والأول أصحّ، وقد بيّناه فى غير هذا الموضع. ومنها الأخذ فى تجهيزه بالغسل والدّفن لئلا يُسرع إليه التغيُّر؛ قال صلى الله عليـه وسلم لقوم أخّروا دفن ميتهم: "عجّلوا بدفن جيفتكم"؛ وقال: "أسرعوا بالجنازة" الحديثَ، وسيأتى. فأما غسله وهى

---

(١) قوله معطى رأسه، أى ذلول. وناج: سريع. والصهبة: أن يضرب بياضه إلى الحمرة. والمتعيس والأعيس: الأبيض، وهو أفضل ألوان الإبل. والمعنى: سل همومك اللازمة لفراق من تهوى ونأيه عنك بكل بعير ترتحله للسفر.

(٢) وصف بعيرا بعظم الجوف؛ فاذا شد رحله عليه اغتال أحبله (جمع حبل) واستوفاها لعظم جوفه. والاغتيال: الذهاب بالشىء. والمبين: البين الطول. وزبن: زاحم ودفع. والعرندس: الشـديد. ويروى: متين عنقه. (عن شرح الشواهد للشنتمرى).

— الثالثة — فهو سُنّة لجميع المسلمين حاشا الشّهيدَ على ما تقدم . وقيل : غسله واجب؛ قاله القاضى عبد الوهاب . والأول مذهب الكتّاب ، وعلى هذين القولين العلماءُ . وسبب الخلاف قوله عليه السلام لأمّ عطية فى غسلها ابنتـه زينب ، على ما فى كتاب مسلم . وقيل : هى أمّ كلثوم ، على ما فى كتاب أبى داود : "ٱغسِلنَها ثلاثا أو خمسا أو أكثر من ذلك إن رأيتُنّ ذلك" الحديث . وهو الأصل عند العلماء فى غسل الموتى . فقيل : المراد بهذا الأمر بيانُ حكم الغسل فيكون واجبا . وقيل : المقصود منه تعليم كيفية الغسل فلا يكون فيه ما يدل على الوجوب . قالوا ويدلّ عليه قوله : "إن رأيتُنّ ذلك" وهذا يقتضى إخراج ظاهر الأمر عن الوجوب؛ لأنه فوّضه إلى نظرهن . قيل لهم : هذا فيه بُعْدٌ ؛ لأن ردّك " إن رأيتن " الى الأمر ، ليس السابق إلى الفهم بل السابق رجوع هـذا الشرط إلى أقرب مذكور، وهو " أكثر من ذلك " أو إلى التخيير فى الأعداد . وعلى الجملة فلا خلاف فى أن غسـل الميت مشروع معمول به فى الشريعة لا يُترك . وصفته كصفة غسل الجنـابة على ما هو معروف . ولا يجاوز السبع غسلات فى غُسل الميت بإجماع؛ على ماحكاه أبو عمر . فإن خرج منه شىء بعد السبع غِسل الموضع وحده ، وحكمه حكم الجُنب إذا أحدث بعـد غسله . فإذا فرغ من غسله كفّنه فى ثيابه وهى :

الرابعـــة — والتكفين واجب عنـــد عامّة العلماء ، فإن كان له مال فمن رأس ماله عند عامّة العلمـاء ، إلا ماحكى عن طاوس أنه قال : من الثلث كان المـال قليلا أو كثيرا . فإن كان الميت ممن تلزم غيره نفقته فى حياته من سيّد — إن كان عبدا — أو أبٍ أو زوجٍ أو ٱبنٍ؛ فعلى السيد باتفاق، وعلى الزوج والأب والأبن باختلاف . ثم على بيت المـال او على جماعة المسلمين على الكفاية . والذى يتعيّن منه بتعيين الفرض سَترُ العورة؛ فإن كان فيه فضل غير أنه لا يعم جميع الجسد غطى رأســه ووجهه ؛ إكراما لوجهه وسترا لمـا يظهر من تغـيّر محاسنه . والأصل فى هذا قصّة مُصعب بن عُمير، فانه تَرك يوم أُحُد نَمِرة[1] كان إذا غُطِّىَ رأسه

---

(١) النمرة (بفتح فكسر) : شملة فيها خطوط بيض وسود، أو بردة من صوف تلبسها الأعراب .

خرجت رجلاه، وإذا غُطِّى رجلاه خرج رأسُه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضَعوها مما يلى رأسَه وآجعلوا على رجليه من الإذخِر" (١) أخرج الحديث مسلم. والوتر مستحبّ عند كافة العلماء فى الكَفن، وكلهم مجمِعون على أن ليس فيه حَدّ. والمستحبّ منه البياض؛ قال صلى الله عليه وسلم: "البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفّنوا فيها موتاكم" أخرجه أبو داود. وكُفّن صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية من كُرْسُف (٢). والكفن فى غير البياض جائز إلا أن يكون حريرا أو خَزًّا. فان تشاحّ الورثة فى الكفن قُضى عليهم فى مثل لباسه فى جُمعته وأعياده؛ قال صلى الله عليه وسلم: "إذا كَفّن أحدُكم أخاه فَلْيُحسِّن كفنه" أخرجه مسلم. إلا أن يوصى بأقلّ من ذلك. فإن أوصى بسَرَفٍ قيل: يبطل الزائد. وقيل: يكون فى الثلث. والأوّل أصح؛ لقوله تعالى: «وَلَا تُسْرِفُوا». وقال أبو بكر: إنه للمُهْلَة (٣). فإذا فُرغ من غسله وتكفينه ووُضع على سريره واحتمله الرجال على أعناقهم وهى:

الخامسة — فالحكم الإسراع فى المشى؛ لقوله عليه السلام: "أسرعوا بالجنازة فان تَكُ صالحةً فخيرٌ تُقدِّمونها إليه وإن تكن غير ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم". لا كما يفعله اليوم الجهّال فى المشى رُويدا، والوقوفِ بها المرّةَ بعد المرّة، وقراءةِ القرآن بالألحان إلى ما لا يحل ولا يجوز حسب مايفعله أهل الديار المصرية بموتاهم. روى النَّسائىّ أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال حدّثنا خالد قال أنبأنا عُيينة بن عبد الرحمن قال حدثنى أبى قال: شَهِدت جنازة عبد الرحمن بن سَمُرة وخرج زياد يمشى بين يدى السرير، فجعل رجال من أهل عبد الرحمن ومواليهم يستقبلون السرير ويمشون على أعقابهم ويقولون: رُويدًا رويدا، بارك الله فيكم! فكانوا يَدِبّون دَبيبا، حتى إذا كنا ببعض طريق المِرْبَد (٤) لحقنا أبو بكرة رضى الله عنه على بغلة فلما

---

(١) الإذخر (بكسر الهمزة): حشيشة طيبة الرائحة، يسقف بها البيوت فوق الخشب. (٢) قوله: سحولية، يروى بفتح السين وضمها؛ فالفتح منسوب الى السحول، وهو القصار لأنه يسحلها أى يغسلها، أو إلى سحول وهى قرية باليمن. وأما الضم فهو جمع سحل، وهو الثوب الأبيض النقى: ولا يكون إلا من قطن. والكرسف كعصفر: القطن. (٣) المهلة (مثلثة الميم): القيح والصديد الذى يذوب فيسيل من الجسد.

(٤) المربد كمنبر: موضع قرب المدينة.

رأى الذى يصنعون حمل عليهم ببغلته وأهوى اليهم بالسوط وقال : خلّوا! فوالذى أكرم وجه أبى القاسم صلى الله عليه وسلم لقد رأيتُنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم و إنا لنكاد نرمُلُ بها رَمَلًا، فانبسط القوم . وروى أبو ماجد عن ابن مسعود قال سألنا نبيّنا صلى الله عليه وسلم عن المشى مع الجنازة فقال : "دون الخَبَب إن يكن خيرا يُعجّل اليه و إن يكن غير ذلك فبُعدًا لأهل النار" الحديث . قال أبو عمر : والذى عليه جماعة العلماء فى ذلك الإسراع فوق السجيّة قليلا، والعجلة أحبّ إليهم من الإبطاء . ويكره الإسراع الذى يَشقّ على ضَعَفة الناس ممن يتبعها . وقال إبراهيم النَّخَعىّ : بَطِّئوا بها قليلا ولا تَدِبُّوا دَبيب اليهود والنصارى . وقد تأوّل قوم الإسراع فى حديث أبى هريرة تعجيل الدفن لا المشى، وليس بشىء لما ذكرنا . وبالله التوفيق .

السادسة — وأما الصلاة عليه فهى واجبة على الكفاية كالجهاد . هذا هو المشهور من مذاهب العلماء : مالك وغيره؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى النَّجاشىّ : "قوموا فصلّوا عليه" . وقال أَصْبغ : إنها سُنّة . ورُوى عن مالك . وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان فى « براءة »(١) .

السابعة — وأمّا دفنه فى التراب ودسه وسَتره فذلك واجب؛ لقوله تعالى : « فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ »(٢) . وهناك يُذكر حكم بنيان القبر وما يستحب منه، وكيفية جعل الميت فيه . ويأتى فى « الكهف »(٣) حكم بناء المسجد عليه، إن شاء الله تعالى .

فهذه جملة من أحكام الموتى وما يجب لهم على الأحياء . وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَسبّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا" أخرجه مسلم . وفى سُنن النَّسائى عنها أيضا قالت : ذُكر عند النبىّ صلى الله عليه وسلم هالكٌ بسوء فقال : "لا تذكروا هَلْكاكم إلا بخير" .

---

(١) فى المسألة السابعة فى قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم ... » آية ٨٤

(٢) فى سورة المائدة آية ٣١   (٣) عند قوله تعالى : « وكذلك أعثرنا عليهم ... » آية ٢١

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فأجرُ المؤمن ثواب ، وأجر الكافر عقاب ، ولم يعتدّ بالنعمة والبلية فى الدنيا أجرا وجزاء ؛ لأنها عَرْصة الفناء . ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ﴾ أى أبعد . ﴿ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ ظَفِر بما يرجو ، ونجا مما يخاف . وروى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من سَرّه أن يُزحزَح عن النار وأن يدخل الجنة فلتأته منيَّته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويأتى إلى الناس الذى يُحب أن يُؤتى إليه" . عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ »" .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى تغرّ المؤمنَ وتخدعه فيظُنّ طول البقاء وهى فانية . والمتاع ما يُتمتع به وينتفع ؛ كالفأس والقِدْر والقَصعة ثم يزول ولا يبقى ملكه ؛ قاله أكثر المفسرين . قال الحسن : كخُضرة النبات ، ولُعَب البنات لا حاصل له . وقال قَتادة : وهى متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها ؛ فينبغى للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع . ولقد أحسن من قال .

هى الدار دارُ الأذى والقَذَى * ودارُ الفناء ودارُ الغِيَرْ
فلو نلتَها بحذافيرها * لمُتّ ولم تَقْضِ منها الوَطَرْ
أيا مَن يؤمّل طولَ الخلود * وطولُ الخلود عليه ضَرَرْ
إذا أنت شِبْتَ وبان الشّباب * فلا خير فى العيش بعد الكِبَرْ

والغَرور (بفتح الغين) الشيطان ؛ يَغُر الناس بالتّمنية والمواعيد الكاذبة . قال ابن عرفة : الغرور ما رأيتَ له ظاهرا تحبّه ، وفيه باطن مكروه أو مجهول . والشيطان غَرور ؛ لأنه يحمل على محابّ النفس ، ووراء ذلك ما يسوء . قال : ومن هذا بيع الغَرَر ، وهو ما كان له ظاهرُ بيع يَغُرّ وباطنٌ مجهول .

قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٨٦)

هـذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته . والمعنى : لتُختبرنّ ولتُمتحنن فى أموالكم بالمصائب والأرزاء و بالإنفاق فى سبيل الله وسائر تكاليف الشرع . والابتلاء فى الأنفس بالموت والأمراض وفقـد الأحباب . و بدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بهـا . ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ ﴾ إن قيل : لِمَ ثبتت الواو فى «لتبلوُنّ» وحذفت من «وَلَتَسْمَعُنّ» ؛ فالجواب أن الواو فى «لتبلون» قبلها فتحة فحرّكت لالتقاء الساكنين ، وخُصّت بالضمة لأنها واو الجمع ، ولم يجز حذفها لأنه ليس قبلها ما يدل عليهـا ، وحذفت من « ولتسمعن » لأن قبلها ما يدل عليهـا . ولا يجوز همز الواو فى « لتبلوُنّ » لأن حركتها عارضة ؛ قاله النحاس وغيره . و يقال للواحد من المذكر : لَتُبْلَيَنّ يا رجل . وللاثنين : لتبليانّ يا رجلان . ولجماعة الرجال : لتبلوُنّ . ونزلت بسبب أن أبا بكر رضى الله عنه سمع يهوديا يقول : إن الله فقير ونحن أغنياء . ردًّا على القرآن واستخفافا به حين أنزل الله « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » فلطمه ؛ فشكاه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت . قيل : إن قائلها فِنحاص اليهودى ؛ عن عكرمة . الزُّهرِىّ : هو كعب بن الأشرف نزلت بسببه ؛ وكان شاعرا ، وكان يَهجُو النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ، ويُؤَلِّب عليه كفار قريش ، ويُشبِّب بنساء المؤمنين حتى بَعَث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم محمدَ بن مَسْلمة وأصحابَه فقتله القِتْلة المشهورة فى السِّيَر[1] وصحيح الخبر . وقيل غير هذا . وكان صلى الله عليه وسلم لمـا قدم المدينة كان بهـا اليهود والمشركون ، فكان هو وأصحابه يسمعون أذًى كثيرا . وفى الصحيحين أنه عليه السلام مرّ بآبن أُبَىّ وهو عليه السلام على حمار فدعاه إلى الله تعالى ؛ فقال ابن أُبَىّ : إن كان ما تقول حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ! ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليـه . وقبض على أنفـه لئلا يصيبه غبار الحمـار ، فقال ابن رَوَاحة : نعم يا رسـول الله ،

(١) راجع سيرة ابن هشام ص ٥٤٨ طبع أوربا .

فٱغْشَنا فى مجالسنا فإنا نحبّ ذلك . وٱستبّ المشركون الذين كانوا حول ابن أُبَىّ والمسلمون ، وما زال النبىّ صلى الله عليه وسلم يسكّنهم حتى سَكنوا . ثم دخل على سعد بن عُبادة يعوده وهو مريض، فقال : " ألم تسمع ما قال فلان " فقال سعد : أعف عنه وٱصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نَزَل ، وقد اصطلح أهل هـذه البُحَيْرة (١) على أن يتوّجوه ويعصبوه بالعصابة ؛ فلما ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شرِق به ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزلت هـذه الآية . قيل : هـذا كان قبـل نزول القتال ، ونَدَبَ الله عبادَه إلى الصبر والتقوى وأخبر أنه من عزم الأمور . وكذا فى البخارىّ فى سياق الحديث ، أن ذلك كان قبل نزول القتال . والأظهر أنه ليس بمنسوخ ؛ فإن الجدال بالأحسن والمداراة أبدا مندوب إليها ، وكان عليه السلام مع الأمر بالقتال يوادع اليهود ويُدارِيهم ، ويصـفح عن المنافقين ، وهـذا بين . ومعنى ﴿ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ شـدّها وصلابتها . وقد تقدّم (٢) .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

فيـه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ هذا متّصل بذكر اليهود ؛ فإنهم أُمِروا بالإيمان بمحمد عليه السلام وبيانِ أمره ، فكتموا نعته . فالآية توبيخ لهم ، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم . قال الحسن وقتادة : هى فى كل من أوتى عِلم شىء من الكتاب . فمن عَلم شيئا فليُعلّمه ، وإيّاكم وكتمانَ العلم فإنه هَلَكة . وقال محمد بن كعب : لا يحلّ لعالم أن يسكت على علمه ، ولا للجاهل أن يسكت على جهله ؛ قال الله تعالى «وَإِذْ أَخَذَ

(١) يريد المدينة .

(٢) راجع ج ٣ ص ١١٠ طبعة أولى أو ثانية .

اللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» الآية . وقال : « فَٱسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » . وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدّثتكم بشىء؛ ثم تلا هذه الآية « وإذ أخذ الله مِيثاق الذين أوتوا الكِتاب » . وقال الحسن بن عمارة : أتيت الزُّهرى بعد ما ترك الحديث، فألفيتُه على بابه فقلت : إنى رأيتُ أن تحدّثنى . فقال: أمَا علمتَ أنى تركتُ الحديث ؟ فقلت : إمّا أن تُحدّثنى وإمّا أن أحدّثك . قال حدّثنى . قلت : حدّثنى الحَكَم ابن عُتَيبة عن يحيى بن الجزار قال سمعت علىّ بن أبى طالب يقول : ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يُعلّموا . قال : فحدّثنى أربعين حديثا .

الثانيــة ــ الهاء فى قوله : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ ﴾ ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يَجْرِ له ذِكر . وقيل : ترجع إلى الكتاب؛ ويدخل فيه بيان أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنه فى الكتاب . وقال : ﴿ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ ولم يقل تَكْتُمُنَّهُ لأنه فى معنى الحال ، أى لتبيننه غير كاتمين . وقرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر وأهل مكة « لَتُبَيِّنُنَّه » بالتاء على حكاية الخطاب . والباقون بالياء لأنه غَيْب . وقرأ ابن عباس « وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّين لَيُبَيِّنُنَّه » . فيجىء قوله « فَنَبَذُوهُ » عائد على الناس الذين بيّن لهم الأنبياء . وفى قراءة ابن مسعود « لَيُبَيِّنُونَه » دون النون الثقيلة . والنَّبْذ الطّرح . وقد تقدّم بيانه فى « البقرة »[(١)] . ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ مبالغة فى الاطراح؛ ومنه « ٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » وقد تقدّم فى «البقرة»[(١)] بيانه أيضا . وتقدّم معنى قوله : ﴿ وَٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فى «البقرة»[(٢)] فلا معنى لإعادته . ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[(٣)] تقدّم أيضا . والحمد لله .

قوله تعالى : لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٠ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٣٤ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٧ طبعة ثانية .

أى بما فعلوا من القعود فى التخلّف عن الغزو وجاءوا به من العذر . ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخُدْرِى أن رجالا من المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلّفوا عنه وفرحوا بمَقْعدهم خِلافَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدِم النبىّ صلى الله عليه وسلم آعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبّوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ؛ فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الآية . وفى الصحيحين أن مَرْوان(1) قال لبوّابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل آمرئ منّا فرِح بما أُوتِىَ ، وأحبّ أن يُحمد بما لم يفعل معذَّباً ، لنعذَّبن أجمعون . فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية ! إنما أنزلت هذه الآية فى أهل الكتاب . ثم تلا ابن عباس « وإذ أخذَ اللهُ مِيثاقَ الذين أوتوا الكِتاب لتُبيِّنُنّه للناس ولا تكتمونه » و « لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » . وقال ابن عباس : سألهم النبىّ صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتَوْا من كتمانهم إياه ، وما سألهم عنه . وقال محمد بن كعب القُرظى : نزلت فى علماء بنى إسرائيل الذين كتموا الحق ، وأتَوْا ملوكهم من العلم ما يوافقهم فى باطلهم ، « وٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قليلا » أى بما أَعطاهم الملوك من الدنيا ؛ فقال الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . فأخبر أن لهم عذابا أليما بما أفسدوا من الدِّين على عباد الله . وقال الضحاك : إن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد فى كتابنا أن الله يبعث نبيًّا فى آخر الزمان يَخْتِم به النبوّة ؛ فلما بعثه الله سألهم الملوك أهو هذا الذى تجدونه فى كتابكم ؟ فقال اليهود طمعا فى أموال الملوك : هو غير هذا ، فأعطاهم الملوك الخزائن ؛ فقال الله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا » الملوكَ من الكذب حتى يأخذوا عَرَض الدنيا . والحديث الأوّل خلاف مقتضى الحديث الثانى . ويحتمل أن يكون نزولها على السببين

(1) هو مروان بن الحكم بن العاصى ، وكان يومئذ أميرا على المدينة من قبل معاوية . (عن شرح القسطلانى) .

لاجتماعهما فى زمن واحد، فكانت جوابا للفريقين . والله أعلم . وقوله : واستحمدوا بذلك إليه ، أى طلبوا أن يحمدوا . وقول مَرْوان : لئن كان كلّ امرئ منا الخ دليلٌ على أن للعموم صِيَغًا مخصوصة ، وأن « الذين » منها . وهذا مقطوع به من تفهّم ذلك من القرآن والسُّنّة . وقوله تعالى : « وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » إذًا كانت الآية فى أهل الكتاب لا فى المنافقين المتخلّفين ؛ لأنهم كانوا يقولون : نحن على دِين إبراهيمَ ولم يكونوا على دينه ، وكانوا يقولون : نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب؛ يريدون أن يُحمَدوا بذلك . و «الذين» فاعل بيحسبَنّ بالياء . وهى قراءة نافع وابن عامر وابن كَثير وأبى عمرو ؛ أى لا يحسبَنّ الفارحون فرحَهم مُنجيًا لهم من العذاب . وقيل : المفعول الأوّل محذوف ، وهو أنفسهم . والثانى « بمفازة » . وقرأ الكوفيون « تحسبَنّ » بالتاء على الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى لا تحسبن يا محمد الفارحين بمفازة من العذاب . وقوله « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ » بالتاء وفتح الباء ، إعادةُ تأكيد . ومفعوله الأوّل الهاء والميم . والمفعول الثانى محذوف؛ أى كذلك، والفاء عاطفة أو زائدة على بدل الفعل الثانى من الأوّل . وقرأ الضحّاك وعيسى بن عمر بالتاء وضم الباء « فلا تَحْسَبُنَّهم » أراد محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقرأ مجاهد وابن كَثير وأبو عمرو ويحيى بن يعمر بالياء وضم الباء خبرا عن الفارحين ؛ أى فلا يَحسبُنّ أنفسهم ؛ « بمفازة » المفعول الثانى . ويكون « فلا يحسبنهم » تأكيدا . وقيل : الذين فاعل بيحسبنّ ومفعولاها محذوفان لدلالة يحسبنهم عليه؛ كما قال الشاعر :

بأىّ كتاب أم بأيّة آيةٍ * ترى حبّهم عارًا علىّ وتحسَبُ

آستغنى بذكر مفعول الواحد عن ذكر مفعول الثانى، و «بمفازة» الثانى . وهو بدل من الفعل الأول فأغنى لإبداله منه عن ذكر مفعوليْه ، والفاء زائدة . وقيل : قد تجىء هذه الأفعال ملغاةً لا فى حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر :

وما خِلْت أبْقى بيننا من مودّة * عِراض المَذَاكى المُسْنِفاتِ القلائصا

المَذَاكِى : الخيل التى قد أتى عليها بعد قروحها سنةً أو سنتان؛ الواحد مُذَكٍّ، مثل المُخْلِف من الإبل؛ وفى المثل جَرْى المُذَكِّيات غِلاب[1] . والمسنفات اسم مفعول؛ يقال : سَنَفْت البعيرَ أسنِفه سَنْفًا إذا كففته بزمامه وأنت راكبه . وأسنف البعيرَ لغة فى سنفه . وأسنف البعيرُ بنفسه إذا رفع رأسه؛ يتعدّى ولا يتعدّى . وكانت العرب تركب الإبل وتَجْنُب الخيل؛ تقول : الحرب لا تُبقِى مودة . وقال كعب بن أبى سُلْمَى :

أرجو وآمل أن تدنو مَوَدّتُها * وما إخالُ لدنيا منكِ تَنوِيلُ

وقرأ جمهور القرّاء السبعة وغيرهم «أتوا» بقصر الألف، أى بما جاءوا به من الكذب والكتمان . وقرأ مَرْوان بن الحَكَم والأعمش و إبراهيم النخَعِىّ «آتوا» بالمد، بمعنى أعْطَوا . وقرأ سعيد ابن جُبير «أُوتوا» على ما لم يسم فاعله؛ أى أُعطوا . والمفازة المنجاة، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا؛ أى ليسوا بفائزين . وسُمِّى موضع المخاف مفازة على جهة التفاؤل؛ قاله الأصمعى . وقيل: لأنها موضع تفويز ومَظِنّة هلاك ؛ تقول العرب : فوّز الرجل إذا مات . قال ثَعلب : حكيت لابن الأعرابى قول الأصمعى فقال أخطأ ، قال لى أبو المكارم : إنما سُمِّيت مفازة ؛ لأن من قطعها فاز . وقال الأصمعىّ : سُمّى اللّدِيغ سليماً تفاؤلا . قال ابن الأعرابى : لأنه يستسلم لما أصابه . وقيل : لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب ؛ لأن الفوزَ التباعدُ عن المكروه . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩)

هذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، وتكذيب لهم . وقيل : المعنى لا تظُنّن الفرحين ينجون من العذاب؛ فإن لله كلّ شيء ، وهم فى قبضة القدير؛ فيكون معطوفا على الكلام الأوّل، أى أنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء . ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ﴾ أى مُمْكن ﴿قَدِيرٌ﴾ وقد مضى فى «البقرة»[2] .

(١) الغلاب : المغالبة . أى أن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوته .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

فيه خمس وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم معنى هذه الآية في «البقرة»[1] في غير موضع . فختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته ؛ إذ لا تصدر إلا عن حيّ قيّوم قدير قُدّوس سلامٍ غنيٍّ عن العالمين ؛ حتى يكون إيمانُهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليد . ﴿ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الذين يستعملون عقولهم في تأمّل الدلائل . ورُوِي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما نزلت هذه الآيةُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم قام يُصلّي ، فأتاه بِلالٌ يُؤْذِنُه بالصلاة فرآه يبكي فقال : يا رسول الله ، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ! فقال : " يا بلالُ أفلا أكون عبدا شكورا ولقد أنزل الله عليّ الليلة آية « إنّ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لِأولِي الألبابِ » — ثم قال : — وَيْلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها " .

الثانية — قال العلماء : يستحبّ لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه ، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر الآيات اقتداءً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما وسيأتي ؛ ثم يصلّي ما كُتب له ، فيجمع بين التفكّر والعمل ، وهو أفضل العمل على ما يأتي بيانه في هذه الآية بعد هذا . ورُوِي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة «آل عمران» كل ليلة ، خرّجه أبو نصر الوائلي السِّجِسْتانِيّ الحافظ في كتاب « الإبانة » من حديث سليمان بن موسى عن مُظاهر بن أسلم المخزوميّ عن المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة . وقد تقدّم أوّل السورة عن عثمان قال : من قرأ آخر آل عمران في ليلة كُتب له قيام ليلة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره ، فكأنها تحصر زَمانه . ومن هذا المعنى قولُ عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ طبعة ثانية .

أحيانه . أخرجه مسلم . فدخل فى ذلك كونه على الخلاء وغيرُ ذلك . وقد اختلف العلماء فى هذا ؛ فأجاز ذلك عبد الله بن عمرو وابن سِيرين والنَّخَعِيّ ، وكره ذلك ابن عباس وعطاء والشَّعْبِيّ . والأوّل أصح لعموم الآية والحديث . قال النَّخَعِيّ : لا بأس بذكر الله فى الخلاء فإنه يَصعد . المعنى : تَصعد به الملائكة مكتوبا فى صحفهم ؛ فحذف المضاف . دليله قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » . وقال : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ » . ولأن الله عز وجل أمر عباده بالذكر على كل حال ولم يستثن فقال : « وَاذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » وقال : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » وقال : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » فعمّ . فذاكر الله تعالى على كل حالاته مُثابٌ مأجور إن شاء الله تعالى . وذكر أبو نعيم قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدّثنى أبى قال حدّثنا وكِيع قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن أبى مَرْوان عن أبيه عن كَعب الأحبار قال قال موسى عليه السلام : " يا ربّ أقريبٌ أنت فأُناجيك أم بعيد فأُناديك قال ياموسى أنا جليسُ مَن ذكرنى قال يا ربّ فإنا نكون من الحال على حال نُجِلّك ونُعظّمك أن نذكُرك قال وما هى قال الجنابة والغائط قال يا موسى اذكرنى على كل حال " . وكراهية من كَرِه ذلك إمّا لتنزيه ذِكر الله تعالى فى المواضع المرغوب عن ذكره فيها ككراهية قراءة القرآن فى الحمّام ، وإما إبقاء على الكِرام الكاتبين على أن يحلّهم موضع الأقذار والأنجاس لكتابة ما يلفِظ به . والله أعلم .

و﴿ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ نُصب على الحال . ﴿ وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ فى موضع الحال؛ أى ومضطجعين . ومثله قوله تعالى : « دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا » على العكس ؛ أى دعانا مضطجعا على جَنبه . وذهب جماعة من المفسرين منهم الحسن وغيره إلى أن قوله « يَذْكُرُونَ اللهَ » إلى آخره ، إنما هو عبارة عن الصلاة؛ أى لا تضيعوها ، ففى حال العذر يصلونها قعودا وعلى جنوبهم . وهى مثل قوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ » فى قول ابن مسعود على ما يأتى بيانه . وإذا كانت الآية فى الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلّى قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فعلى جَنبه ؛ كما ثبت عن عِمران

ابن حُصين قال : كان بى البَواسِير فسألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال : "صلّ قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جَنْب" رواه الأئمة . وقد كان صلى الله عليه وسلم يصلى قاعدا قبل موته بعام فى النافلة ؛ على ما فى صحيح مسلم . وروى النَّسائىّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى متربّعا . قال أبو عبد الرحمن[1] : لا أعلم أحدا روى هذا الحديث غير أبى داود الحَفَرِىّ[2] وهو ثقة ، ولا أحسب هذا الحديث إلا خطأ . والله أعلم .

الرابعة — واختلف العلماء فى كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك أنه يتربع فى قيامه ، وقاله البُوَيطىّ عن الشافعىّ . فإذا أراد السجود تهيّأ للسجود على قدر ما يطيق ، قال : وكذلك المتنفل ونحوه . قال الثَّورىّ : وكذلك قال اللّيث وأحمد وإسحاق وأبو يوسف ومحمد . وقال الشافعىّ فى رواية المُزَنى : يجلس فى صلاته كلها كجلوس التشهد . ورُوى هذا عن مالك وأصحابِه ؛ والأوّل المشهور وهو ظاهر المُدَوّنة . وقال أبو حنيفة وزُفَر : يجلس كجلوس التشهد ، وكذلك يركع ويسجد .

الخامسة — فإن لم يستطع القعود صلّى على جنبه أو ظهره على التّخيير ؛ هذا مذهب المُدَوّنة . وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم يصلّى على ظهره ، فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن ثم على جنبه الأيسر . وفى كتاب ابن المواز عكسُه ، يصلّى على جنبه الأيمن ، وإلا فعلى الأيسر ، وإلا فعلى الظهر . وقال سُحنون : يصلّى على الأيمن كما يُجعل فى لحده ، وإلا على ظهره وإلا فعلى الأيسر . وقال مالك وأبو حنيفة : إذا صلّى مضطجعا تكون رجلاه مما يلى القِبلة . والشافعىّ والثورىّ : يصلى على جنبه ووجهُه الى القبلة .

السادسة — فإن قَوِى لخفّة المرض وهو فى الصلاة ؛ قال ابن القاسم : إنه يقوم فيما بقِى من صلاته ويَبْنِى على ما مضى ؛ وهو قول الشافعىّ وزُفَر والطّبرى . وقال أبو حنيفة

(١) أبو عبد الرحمن : كنية النسائى .

(٢) الحفرى (بفتح المهملة والفاء نسبة الى موضع بالكوفة) واسمه عمر بن سعد بن عبيد .

وصاحباه — يعقوب ومحمد — فيمن صلّى مضطجعا ركعة ثم صحّ : إنه يستقبل الصلاة من أولها. ولو كان قاعدا يركع ويسجد ثم صحّ بنى فى قول أبى حنيفة ولم يبْنِ فى قول محمد . وقال ابو حنيفة وأصحابه : اذا آفتتح الصلاة قائما ثم صار إلى حدّ الإيماء فليَبْن ؛ ورُوى عن أبى يوسف . وقال مالك فى المريض الذى لا يستطيع الركوع ولا السجود وهو يستطيع القيام والجلوس : إنه يصلى قائما ويُومئ إلى الركوع ، فإذا أراد السجود جلس وأومأ إلى السجود؛ وهو قول أبى يوسف وقياس قول الشافعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يصلى قاعدا .

السابعة — وأما صلاة الراقد الصحيح فرُوِى من حديث عِمران بن حُصين زيادة ليست موجودة فى غيره ، وهى «صلاة الراقد مثلُ نصف صلاة القاعد» . قال أبو عمر : وجمهور أهل العلم لا يجيزون النافلة مضطجعا ؛ وهو حديث لم يروه إلا حُسين المعلم وهو حسين ابن ذَكْوان عن عبد الله بن بريدة عن عِمران بن حُصين ، وقد اختُلف على حسين فى إسناده ومَتْنه آختلافا يوجب التوقّف عنه ، وإن صحّ فلا أدرى ما وجهه ؛ فإن كان أحدٌ من أهل العلم قد أجاز النافلة مضطجعا لمن قدَر على القعود أو على القيام فوجهه هذه الزيادة فى هذا الخبر، وهى حُجّة لمن ذهب إلى ذلك . وإن أجمعوا على كراهة النافلة راقدا لمن قدَر على القعود أو القيام فحديث حُسين هذا إمّا غلط وإما منسوخ . وقيل : المراد بالاية الذين يستدلّون بخلق السموات والأرض على أن المتغيّر لا بدّ له من مغيِّر، وذلك المغيّر يجب أن يكون قادرا على الكمال ، وله أن يبعث الرسل ، فإن بعث رسولا ودلّ على صدقه بمعجزة واحدة لم يبق لأحد عذر ؛ فهؤلاء هم الذين يذكرون الله على كل حال . والله أعلم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد بيّنا أن معنى « يذكرون » وهو إمّا ذِكْرٌ باللسان وإمّا الصلاةُ فرضُها ونفلُها ؛ فعطف تعالى عبادةً أخرى على إحداهما بعبادة أخرى ، وهى الفكر فى قدرة الله تعالى ومخلوقاته والعبر الذى نبّه به ليكون ذلك أزيد فى بصائرهم ، فى كل شىء له آية تدلّ على أنه واحد . وقيل : « يتفكرون » عطف على الحال . وقيل : يكون منقطعا ؛ والأوّل أشبه . والفكرة : تردّد القلب فى الشىء ؛

يقال : تفكَّر . ورجل فِكّير كثير الفكر . ومرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون فى الله فقال : "تفكّروا فى الخلق ولا تَفكّروا فى الخالق فإنكم لا تَقْدُرون قَدْره" و إنما التفكّر والاعتبار وآنبساط الذهن فى المخلوقات كما قال : « وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وحُكى أن سفيان الثَّورِىّ رضى الله عنه صلّى خلف المقام ركعتين، ثم رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء، فلما رأى الكواكب غُشى عليه، وكان يبول الدّم من طول حزنه وفكرته . ورُوى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بينما رجلٌ مُستَلْقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال أشهد أن لك ربًّا وخالقًا اللّهُمّ اغفر لى فنظر الله إليه فغفر له" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لا عبادة كتفكُّر" . ورُوى عنه عليه السلام قال : "تفكّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سَنة" . وروى ابن القاسم عن مالك قال قيل لأم الدَّرْداء : ما كان أكثرُ شأن أبى الدّرْداء ؟ قالت : كان أكثرُ شأنه التّفكر . قيل له : أفترى التفكر عمل من الأعمال ؟ قال نعم، هو اليقين . وقيل لابن المُسَيِّب فى الصلاة بين الظهر والعصر . قال : ليست هذه عبادة، إنما العبادة الوَرَع عمّا حرم الله والتفكُّر فى أمر الله . وقال الحسن : تَفَكُّرُ ساعة خير من قيام ليلة؛ وقاله ابن عباس وأبو الدرداء . وقال الحسن : الفكرة مرآة المؤمن ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته . ومما يتفكّر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنَّشْر والجنة ونعيمها والنار وعذابها . ويروى أن أبا سليمان الدّارانِىّ رضى الله عنه أخذ قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف، فرآه لما أدخل أصبعه فى أُذُن القَدَح أقام لذلك متفكرًا حتى طلع الفجر؛ فقال له : ما هذا يا أبا سليمان؟ قال : إنى لما طرحت أصبعى فى أُذُن القدح تفكّرت فى قول الله « إِذِ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ » تفكّرتُ فى حالى وكيف أتلقّى الغُلّ إن طُرح فى عنق يوم القيامة، فما زلت فى ذلك حتى أصبحت . قال ابن عطية : « وهذا نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها . وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج . وقراءة علم كتاب الله تعالى ومعانى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن تفهّم ويُرجى نفعه أفضل من هذا» . قال ابن العربىّ : اختلف الناس أى

العملين أفضل : التفكر أم الصلاة ؛ فذهب الصوفية إلى أن التفكّر أفضل؛ فإنه يثمر المعرفة وهو أفضل المقامات الشرعية . وذهب الفقهاء الى أن الصلاة أفضل؛ لما ورد فى الحديث من الحثّ عليها والدعاء لها والترغيب فيها . وفى الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خالته ميمونة ، وفيه : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران ، وقام إلى شَنٍّ (١) مُعلّق فتوضأ وضوءاً خفيفا ثم صلى ثلاث عشرة ركعة ؛ الحديث . فآنظر رحمك الله إلى جَمْعه بين التفكّر فى المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده ؛ وهذه السُّنّة التى يُعتمد عليها . فأما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يومَه وليلَه وشهرَه مفكّرا لا يفتر؛ فطريقةٌ بعيدة عن الصواب غيرُ لائقة فى البشر، ولا مستمرّة على السُّنن . قال ابن عطية : وحدّثنى أبى عن بعض علماء المشرق قال : كنت بائتا فى مسجد الأقدام (٢) بمصر فصلّيت العتَمَة فرأيت رجلا قد اضطجع فى كساء له مُسَجًّى بكسائه حتى أصبح ، وصلينا نحن تلك الليلة ؛ فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فآستقبل القبلة وصلّى مع الناس، فآستعظمت جراءته فى الصلاة بغير وضوء ؛ فلما فرغت الصلاة خرج فتبِعتُه لأعِظَه ؛ فلما دنوت منه سمعته يُنشد شعرا :

مُسَجَّى الجسمِ غائبُ حاضر ✽ مُنْتَبِه القلبِ صامتٌ ذاكِر
منقبض فى الغيوب منبسطٌ ✽ كذاك من كان عارفاً ذاكر
يَبيتُ فى ليله أخا فِكَرٍ ✽ فهو مَدَى الليلِ نائمٌ ساهر

قال : فعلمت أنه ممن يتعبّد بالتّفكُّر فانصرفت عنه .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا ﴾ أى يقولون : ما خلقت عَبَثًا وهزلا ، بل خلقت دليلا على قدرتك وحكمتك . والباطل : الزائل الذاهب ؛ ومنه قول لبِيد :

✽ ألَا كُلُّ شىء ما خلا الله باطِلُ ✽

(١) الشن : القربة . (٢) مسجد الأقدام : مسجد كان بجهة مصر العتيقة قريبا من سقاية ابن طولون . راجع المقريزى ج ٢ ص ٤٤٥ طبع بلاق .

أى زائل . و « باطـلا » نصب لأنه نعت مصـدرٍ محذوف ؛ أى خلقًا باطلا . وقيـل : انتصب على نزع الخافض ، أى ما خلقتها للباطل . وقيل : على المفعول الثانى ، ويكون خلق بمعنى جعل . ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أسند النحاس عن موسى بنِ طلحة قال : سئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى « سـبحان الله » فقال : "تنزيه الله عن السوء" وقد تقـدّم فى «البقرة»[1] معناه مستوفًى . ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أجِرْنا من عذابها، وقد تقدّم[2] .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ أى أذللته وأهنته . وقال المفضّل : أهلكته ، وأنشد :

أخزى الإلٰهُ من الصَّليب عَبِيدَه * واللّابِسين قلانِسَ الرُّهبانِ

وقيل : أفضحته وأبعدته ؛ يقال : أخزاه الله أبعده ومَقَته . والاسم الخِزْى . قال ابن السِّكّيت : خَزِىَ يَخْزَى خِزْيًا إذا وقع فى بَلِيّة . وقد تمسّك بهذه الآية أصحابُ الوعيد وقالوا : من أُدْخِل النار ينبغى ألّا يكون مؤمنا ؛ لقوله تعـالى : « فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ » ؛ فإن الله يقول : « يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَـهُ » . وما قالوه مردود ؛ لقيام الأدلة على أن من ارتكب كبيرةً لا يزول عنه اسم الإيمان، كما تقدّم ويأتى . والمراد من قوله : « مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ » من تخلّد فى النـار ؛ قاله أنس بن مالك . وقال قتادة : تُدخِل مقلوب تُخَلِّد ، ولا يقول كما قال أهل حَرُوراء . وقال سـعيد بن المُسَيّب : الآية خاصّة فى قوم لا يخرجون من النـار ؛ ولهذا قال : « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » أى الكفار . وقال أهل المعانى : الخِزى يحتمل أن يكون بمعنى الحياء ؛ يقال : خَزِىَ يَخْزَى خَزايةً إذا استحيا ، فهو خَزْيان . قال ذو الرُّمّة :

خَزايةً أدركتْه عنـد جَوْلَتِـه * من جانب الحَبْلِ مَخْلوطًا بها الغَضَب

فخِـزىُ المؤمنين يومئذٍ استحياؤهم فى دخول النـار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا منها . والخِزىُ للكافرين هو إهلاكُهم فيها من غير موت ؛ والمؤمنون يموتون فافترقوا . كذا ثبت فى صحيح السُّنة من حديث أبى سعيد الخُدرِىّ ، أخرجه مسلم وقد تقدّم .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣٣ طبعة ثانية .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾ أي محمدا صلى الله عليه وسلم؛ قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين . وقال قتادة ومحمد بن كعب القُرَظيّ : هو القرآن، وليس كلّهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . دليلُ هذا القولِ ما أخبر الله تعالى عن مؤمني الجنّ إذ قالوا : « سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » . وأجاب الأولون فقالوا : من سمع القرآن فكأنما لَقِيَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم؛ وهذا صحيح معنًى . و« أَنْ آمِنوا » في موضع نصب على حذف حرف الخفض ، أي بأن آمنوا . وفي الكلام تقديم وتأخير ، أي سمعنا مُناديًا للإيمان ينادي ؛ عن أبي عبيدة . وقيل : اللام بمعنى إلى، أي إلى الإيمان ؛ كقوله : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ » . وقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » وقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا » أي الى هذا ، ومثله كثير . وقيل : هي لام أجل ، أي لأجل الإيمان .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ تأكيد ومبالغة في الدعاء . ومعنى اللفظين واحد؛ فإن الغَفْر والكَفْر السّتْر . ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ أي أبرارا مع الأنبياء ، أي في جملتهم . واحدهم بَرٌّ وبارٌّ وأصله من الاتساع؛ فكأن البَرَّ متّسِعٌ في طاعة الله وسَعةِ رحمة الله .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ أي على ألْسِنة رسلك؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . وقرأ الأعمش والزُّهريّ « رُسْلك » بالتخفيف، وهو ما ذُكر من استغفار الأنبياء والملائكة للمؤمنين ؛ والملائكةُ يستغفرون لمن في الأرض . وما ذكر من دعاء نوح للمؤمنين ودعاءِ إبراهيم واستِغفارِ النبيّ صلى الله عليه وسلم لأمته .﴿ وَلَا تُخْزِنَا ﴾ أي لا تعذبنا ولا تهلِكنا ولا تَفْضَحنا ، ولا تهِنا ولا تُبعدنا ولا تَمْقُتنا يوم القيامة ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ . إن قيل : ما وجه قولهم « ربنا وآتِنا ما وعدتنا على رسلِك » وقد علموا أنه لا يخلف الميعاد؛ فالجواب من ثلاثة أوجه :

الأول — أن الله سبحانه وَعد من آمن بالجنة ، فسألوا أن يكونوا ممن وُعِد بذلك دون الخزى والعِقاب .

الثانى — أنهم دَعَوا بهذا الدعاء على جهة العبادة والخضوع ؛ والدُّعاء مُخُّ العبادة . وهذا كقوله : « قُلْ رَبِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ » وإن كان هو لا يقضى إلا بالحق .

الثالث — سألوا أن يُعْطوا ما وُعِدُوا به من النصر على عدوّهم معجَّلا ؛ لأنها حكاية عن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فسألوه ذلك إعْزازًا للدّين . والله أعلم . وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من وعده الله عز وجل على عمل ثوابًا فهو مُنْجِزُه له رحمةً ومن وعده على عمل عقابًا فهو فيه بالخيار" . والعرب تذمّ بالمخالفة فى الوعد وتمدح بذلك فى الوعيد ؛ حتى قال قائلهم[1] :

ولا يَرْهَبُ ٱبْنُ العَمّ ما عِشْتُ صَوْلَتِى * ولا أختتِى من خشية المتهَدِّدِ
وإنّى إنْ أوعدتُه أو وعدتُه * لَمُخْلِفُ إيعادِى ومُنْجِزُ مَوْعِدِى

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى أجابهم . قال الحسن : ما زالوا يقولون رَبَّنا ربّنا حتى ٱستجاب لهم . وقال جعفر الصادق : من حَزَبه[2] أمر فقال خمس مرات ربّنا أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : إقرءوا إن شئتم « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ — إلى قوله : إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » .

الخامسة عشرة — قوله ﴿أَنِّى﴾ أى بأنّى . وقرأ عيسى بن عمر « إِنّى » بكسر الهمزة ، أى فقال إنى . وروى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه عن أم سلمة أنها قالت : يارسول الله ، ألا أسمع الله ذكَر النساء فى الهجرة بشىء ؟ فأنزل الله تعالى « فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » الآية . وأخرجه الترّمذىّ . ودخلت « من » للتأكيد لأنها حرف نَفْى . وقال الكوفيون : هى للتفسير ولا يجوز حذفها ؛ لأنها دخلت لمعنًى لا يصلح الكلامُ إلا به ، وإنما تحذف إذا كانت تأكيدا للجَحْد . ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ابتداء وخبر ،

(١) هو عامر بن الطفيل ؛ كما فى اللسان .
(٢) حزبه الأمر : إذا نزل به مهمّ أو أصابه غم .

أى دينكم واحد . وقيل: بعضكم من بعض فى الثواب والأحكام والنّصرة وشِبْه ذلك . وقال الضحاك : رجالكم شكل نسائكم فى الطاعة، ونساؤكم شكل رجالكم فى الطاعة؛ نظيرها قوله عز وجل : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » . ويقال : فلانٌ مِنّى ، أى على مَذْهبى وخُلُقى .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إبتداء وخبر، أى هجروا أوطانهم وساروا الى المدينة . ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ فى طاعة الله عز وجل . ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ أى وقاتلوا أعدائى . ﴿ وَقُتِلُوا ﴾ أى فى سبيلى . وقرأ آبن كثير وآبن عامر : « وقاتلوا وقُتِّلوا » على التكثير . وقرأ الأعمش « وَقُتِلوا وَقَاتَلوا » لأن الواو لا تدلّ على أن الثانى بعد الأوّل . وقيل : فى الكلام إضمار قد، أى قتلوا وقد قاتلوا؛ ومنه قول الشاعر :

* تَصابَى وَأمسَى علاهُ الكِبَرْ *

أى قد علاه الكبر . وقيل : أى وقاتل من بَقِىَ منهم؛ تقول العرب : قتلنا بنى تميم ، وإنما قتل بعضهم . وقال آمرؤ القيس :

* فإنْ تقتلُونا نُقتِّلكُم *

وقرأ عمر بن عبد العزيز : « وقَتَلوا وقُتِلوا » خفيفة بغير ألف . ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى لأسترنّها عليهم فى الآخرة ، فلا أُوَبّخهم بها ولا أعاقبهم عليها . ﴿ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ مَصْدَرٌ مؤكّد عند البصريين؛ لأن معنى « لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » لأثيبنّهم ثوابا . الكسائى : آنتصب على القطع . الفرّاء : على التفسير . ﴿ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ أى حسن الجزاء، وهو ما يرجع على العامل من جرّاء عمله؛ من ثاب يثوب .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلَادِ ﴾ قيل : الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد الأمّة . وقيل : للجميع . وذلك أن المسلمين قالوا : هؤلاء الكفار لهم تجائرُ وأموالٌ واضطرابٌ فى البلاد ، وقد هلكنا نحن من الجوع؛ فنزلت

هـذه الآية . أى ﴿ لا يغرنّكم ﴾ سلامتهم بتقلبهم فى أسفارهم . ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى تقلبهم متاع قليل . وقرأ يعقوب « يغرنْك » ساكنة النّون؛ وأنشد :

لَا يَغُرَّنْكَ عِشَاءٌ سَاكِنٌ * قد يُوافى بالمنيّاتِ السَّحَر

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ » . والمتاع : ما يُعجَّل الانتفاع به؛ وسمّاه قليلا لأنه فانٍ ، وكلُّ فانٍ وإن كان كثيرا فهو قليل . وفى صحيح الترمذىّ عن المُسْتَوْرِد الفِهْرى قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليمّ فلْينظر بمَ يرجع" . قيل : "يرجع" بالياء والتاء . ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى بئس ما مهّدُوا لأنفسهم بكفرهم، وما مهّد الله لهم من النار .

الثامنة عشرة — فى هذه الآية وأمثالها كقوله : « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرًا » الآية . « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » . « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ » . « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » دليلٌ على أن الكفار غير مُنعَم عليهم فى الدنيـا ؛ لأن حقيقة النِّعمة الخلوصُ من شوائب الضّرر العاجلة والآجلة، ونِعَمُ الكفار مَشُوبةٌ بالآلام والعقوبة، فصار كمن قدّم بين يدىْ غيرِه حلاوةً من عسل فيها السّم، فهو وإن استلذّ آكله لا يقال أُنعِم عليه؛ لأن فيه هلاكَ روحه . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء، وهو قول الشيخ أبى الحسن الأشعرىّ . وذهب جماعة منهم سيف السُّنة ولِسان الأمة القـاضى أبو بكر : إلى أن الله أنعم عليهم فى الدنيـا . قالوا : وأصل النِّعمة من النَّعمة بفتح النون ، وهى لين العيش ؛ ومنه قوله تعالى : « وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ » . يقال : دقيق ناعم، إذا بُولِـغ فى طحنه وأُجيد سَحقه . وهـذا هو الصحيح، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلفين فقـال : « فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ » . « وَاشْكُرُوا اللَّهَ » والشُّكْر لا يكون إلا على نعمة . وقال : « وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » وهـذا خطاب لقارُون . وقال : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً » الآية . فنبّه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نِعمةً دُنياوِيّةً فجحدوها. وقال : « يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا » وقال : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » . وهذا عامّ

فى الكفار وغيرهم . فأما إذا قدّم لغيره طعاما فيه سم فقد رفق به فى الحال؛ إذ لم يجرعه السم بحبائل دسّه فى الحلاوة، فلا يستبعد أن يقال قد أنعم عليه . و إذا ثبت هذا فالنعم ضربان : نِعَم نَفْع ونِعَم دَفْع؛ فنِعم النّفع ما وصل إليهم من فنون اللذات . ونِعم الدَّفْع ما صُرف عنهم من أنواع الآفات . فعلى هذا قد أنعم على الكافر نِعَم الدَّفع قولا واحدا؛ وهو ما زُوى عنهم من الالام والأسقام، ولا خلاف بينهم فى أنه لم يُنعم عليهم نِعمة دِينية . والحمد لله .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ إستدراك بعد كلام تقدّم فيه معنى النّفى ؛ لأن معنى ما تقدّم ليس لهم فى تقلّبهم فى البلاد كثير الانتفاع ، لكن المتّقون لهم الانتفاع الكثير والخُلْد الدائم . فموضع « لكِنْ » رفعٌ بالابتداء . وقرأ يزيد بن القعقاع « لكِنَّ » بتشديد النون .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ نُزُلا مثل ثوابا عند البصريين، وعند الكسائى يكون مصدرا . الفراء : هو مفسِّر . وقرأ الحسن والنَّخَعِى بتخفيف الزاى استثقالا لِضمتين، وثقّله الباقون . والنُّزُل : ما يُهيأ للنزيل والنَّزِيل الضيف . قال الشاعر:

نَزِيلُ القوم أعظمُهم حقوقًا ＊ وحقُّ اللهِ فى حقّ النزيلِ

فالجمع الأنزال . وحَظٌّ نزيل: مُجتَمِع . والنُّزْل[1]: أيضا الرَّيْع؛ يقال؛ طعامٌ كثير النُّزْل والنزل.

الحادية والعشرون — قلت : ولعل النُّزل — والله أعلم — ما جاء فى صحيح مسلم من حديث ثَوْبانَ مولَى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من حديث الحَبْر الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تُبدّل الأرض غيرَ الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هم فى الظّلمة دون الجِسْر " قال : فمَن أوّلُ الناس إجازةً؟ قال : " فُقَراء المهاجِرين " قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال " زيادة كَبِد النُّون " قال : فما غذاؤُهم على إثْرها ؟ فقال : " يُنحرُ لهم ثورُ الجنّة الذى كان يأكل من أطرافها " قال : فما شَرابُهم عليه ؟ قال : " من عينٍ فيها تُسَمّى سَلْسَبِيلًا " وذكر الحديث . قال أهل

(١) النزل . بضم فسكون و بالتحريك .

اللغة : والتُّحفة ما يُتْحَفُ به الإنسان من الفواكه . والطُّرف محاسنُه وملاطِفُه، وهذا مطابقٌ لما ذكرناه فى النزل، والله أعلم . وزِيادة الكبِد : قطعة منه كالأصبع . قال الهَرَوِىّ : « نُزُلًا مِن عِندِ اللهِ » أى ثوابا . وقيل رِزقًا . ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ أى مما يتقلّب به الكفار فى الدنيا . والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ الآية . قال جابرُ بنُ عبدِ الله وأنسٌ وابنُ عبّاسٍ وقتادةُ والحسنُ : نزلت فى النَّجاشىّ، وذلك أنه لما مات نَعَاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "قوموا فصلّوا على أخيكم النجاشى"؛ فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نُصلّى على عِلج من عُلُوج الحبشة؛ فأنزل الله تعالى « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ » . قال الضحاك : « وما أُنزِل إليكم » القرآن . « وما أُنزِل إليهم » التوراة والإنجيل . وفى التنزيل : « أولَئِكَ يُؤتَونَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ » . وفى صحيح مسلم : ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجرهم مرتين — فذكر — رجلٌ من أهل الكتاب آمن بِنبيّه ثم أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلم فآمن به واتّبعه وصدّقه فله أجْرَان " وذكر الحديث . وقد تقدم فى «البقرة»[1] الصلاةُ عليه وما للعلماء فى الصلاة على الميت الغائب، فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد وابن جُريج وابن زيد : نزلت فى مؤمِنِي أهل الكتاب، وهذا عام والنجاشىّ واحد منهم . واسمه أَصْحَمَة، وهو بالعربية عَطِيّة . و«خَاشِعِينَ» أذلة، ونصب على الحال من المضمر الذى فى « يُؤْمِن » . وقيل : من الضمير فى «إليهم» أو فى «إليكم» . وما فى الآية بيّن، وقد تقدّم .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ﴾ الاية . ختم تعالى السورة بما تضمنته هذه الآية العاشرةُ من الوَصَاة التى جمعت الظهورَ فى الدنيا على الأعداء والفوز بنعيم الآخرة؛ فحضّ على الصبر بالطاعات وعن الشهوات . والصبر الحبس، وقد تقدم فى « البقرة » بيانه[2] . وأمر بالمصابرة فقيل : معناه مصابرة الأعداء؛ قاله زيد بن أسلم .

(١) راجع ج ٢ ص ٨١ طبعة ثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ١٧٤ طبعة ثانية .

وقال الحسن : على الصلوات الخمس . وقيل : إدامة مخالفة النفس على شهواتها فهى تدعو وهو يَنزع . وقال عطاء والقُرَظى : صابروا الوعد الذى وُعدتم . أى لا تيأسوا وانتظروا الفرج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "انتظار الفرج بالصبر عبادة" . واختار هذا القول عمر رضى الله عنه . والأوّل قول الجمهور ؛ ومنه قول عنترة :

فلم أرَ حيًّا صابَروا مثلَ صَبرِنا ＊ ولا كافَحُوا مثلَ الذين نكافِحُ

فقوله « صابروا مثل صبرنا » أى صابروا العدوّ فى الحرب ولم يَبْدُ منهم جُبْنٌ ولا خَوَر . والمكافحة : المواجهة والمقابلة فى الحرب ؛ ولذلك اختلفوا فى معنى قوله « ورَابِطُوا » فقال جمهور الأمة : رابطوا أعداءكم بالخيل ، أى ارتبطوها كما يرتبطها أعداؤكم ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » . وفى الموطّأ عن مالك عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح الى عمر بن الخطاب يذكر له جُموعا من الرُّوم وما يتخوّف منهم ؛ فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدّةٍ يجعل الله له بعدها فرَجًا ، وإنه لن يغلِب عُسْرٌ يُسْرَين ، وإنّ الله تعالى يقول فى كتابه « يأيُّها الذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ » . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : هذه الآية فى انتظار الصلاة بعد الصلاة ، ولم يكن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غَزْوٌ يُرابَط فيه ؛ رواه الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه . واحتج أبو سلمة بقوله عليه السلام : "ألا أدُلّكم على مايمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطَا إلى المساجد وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرِّباط" ثلاثا ؛ قاله مالك . قال ابن عطية : والقول الصحيح هو أن الرِّباط الملازمة فى سبيل الله . أصلها من ربط الخيل ، ثم سُمِّىَ كلّ ملازم لثَغْر من ثُغور الإسلام مُرابِطا ، فارِسًا كان أو راجلا . واللفظ مأخوذ من الرَّبْط . وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم "فذلكم الرباط" إنما هو تشبيه بالرباط فى سبيل الله . والرباط اللُّغوىّ هو الأول ؛ وهذا كقوله : "ليس الشديد بالصُّرَعة" وقوله "ليس المسكين بهذا الطواف" إلى غير ذلك .

قلت : قوله « والرباط اللغوى هو الأوّل » ليس بمسلّم ، فإن الخليل بن أحمد أحد أئمة اللغة وثقاتها قد قال: الرِّباط ملازمة الثُّغور ، ومواظبة الصلاة أيضا ، فقد حصل أن ٱنتظار الصلاة رِباط لغوىّ حقيقة ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . وأكثر من هذا ما قاله الشّيبانى أنه يقال : مرابِطٌ دائمٌ لايبرح؛ حكاه ٱبن فارس، وهو يقتضى تعدية الرباط لغة إلى غير ما ذكرناه . فإن المرابطة عند العرب : العقد على الشىء حتى لا ينحل فيعود إلى ما كان صبر عنه فيحبس القلب على النية الحسنة والجسم على فعل الطاعة . ومن أعظمها وأهمها ٱرتباط الخيل فى سبيل الله كما نُصّ عليه فى التنزيل فى قوله : « وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ » على ما يأتى . وٱرتباط النفس على الصلوات كما قاله النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ رواه أبو هريرة وجابر وعلىّ، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس .

الرابعة والعشرون — المرابط فى سبيل الله عند الفقهاء هو الذى يَشْخَص إلى ثَغْر من الثُّغور ليرابط فيه مدةً مّا ؛ قاله محمد بن المَوّاز وداود . وأما سُكّان الثُّغور دائما بأهليهم الذين يعمرون ويكتسبون هنالك فهم وإن كانوا حُماةً فليسوا بمرابطين؛ قاله ٱبن عطية . وقال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : وللرباط حالتان : حالة يكون الثّغر مأمونا مَنيعا يجوز سكناه بالأهل والولد . وإن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال ، ولا ينقل إليه الأهلَ والولَد لئلا يظهر العدوّ فيَسبِي ويسترِق . والله أعلم .

الخامسة والعشرون — جاء فى فضل الرِّباط أحاديث كثيرة ، منها مارواه البخارىّ عن سَهل بن سَعد السّاعِدىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رِباطُ يوم فى سبيل الله خيرٌ عند الله مِن الدنيا وما فيها" . وفى صحيح مُسلم عن سَلمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهر وقيامه وإن مات جَرَى عليه عملُه الذى كان يعمله وأُجْرِى عليه رزقه وأَمِنَ الفُتّان"(١) . وروى أبو داود فى سُننه عن فضالة

(١) الفتان : الشيطان . ويروى بفتح الفاء وضمها . فمن رواه بالفتح فهو واحد، لأنه يفتن الناس عن الدين . ومن رواه بالضم فهو جمع فاتن ؛ أى يعاون أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق و يفتنونهم .

ابن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كلّ الميّت يُختم على عمله إلا المرابط فإنه يَنمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتّان القبر" . وفى هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التى يبقى ثوابها بعد الموت ؛ كما جاء فى حديث العَلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا مات العبد انقطع عملهُ إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له" وهو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم ؛ فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح الذى يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهابِ العلم وموتِ الولد . والرباط يُضاعف أجرُه إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنّماء إلا المضاعفة ، وهى غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه ، بل هى فضلٌ دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة . وهذا لأن أعمال البِرّ كلّها لا يُتمكّن منها إلا بالسلامة من العدوّ والتحرُّز منه بحراسة بَيضة الدِّين وإقامة شعائر الإسلام . وهذا العمل الذى يجرى عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة . خرّجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من مات مرابطا فى سبيل الله أَجْرى الله عليه أجرَ عملِه الصالح الذى كان يعمله وأَجْرَى عليه رزقه وأمن من الفُتّان وبعثه الله يوم القيامة آمنًا من الفزع" . وفى هذا الحديث قيدٌ ثانٍ وهو الموت حالة الرّباط . والله أعلم .

ورُوى عن عثمان بن عفّان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من رابط ليلة فى سبيل الله كانت له كألف ليلة صيامِها وقيامها" . ورُوى عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَرباط يوم فى سبيل الله من وراء عَورة المسلمين مُحتسبًا من غير شهر رمضان أعظمُ أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباطُ يومٍ فى سبيل الله من وراء عورة المسلمين مُحتَسبًا من شهر رمضان أفضلُ عند الله وأعظم أجرا — أراه قال : — من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فإن ردّه الله إلى أهله سالما لم تكتب عليه سيئة ألف سنة ويكتب له من الحسنات ويُجرَى عليه أجرُ الرّباط إلى يوم القيامة" .

ودلّ هذا الحديث على ان رِباط يوم فى شهر رمضان يحصل له من الثواب الدّائم وإن لم يمت مرابطا . والله أعلم . وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول : "حَرْس ليلة فى سبيل الله أفضلُ من صيام رجل وقيامه فى أهله ألفَ سنةٍ السّنةُ ثلاثمائة يوم واليوم كالف سنة".

قلت : وجاء فى آنتظار الصلاة بعد الصلاة أنه رِباط ؛ فقد يحصل المنتظِرُ الصلواتِ ذلك الفضل إن شاء الله تعالى . وقد روى أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا سليمان بن أحمد قال حدّثنا على بن عبد العزيز قال حدثنا حَجّاج بن المِنْهال ح (١) وحدّثنا أبو بكر بن مالك قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدّثنى أبى قال حدّثنى الحسن بن موسى قال حدّثنا حماد بن سلمه عن ثابت البُنَانِيّ عن أبى أيوب الأزدى عن نَوْف البِكَالِيّ عن عبد الله بن عمرَ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى ذاتَ ليلةٍ المغربَ فصلّينا معه فعَكَف مَن عكف ورَجع مَن رَجع ، وجاء رسول الله صلى الله عايه وسلم قبل أن يتوجّه الناس لصلاة العشاء، فجاء وقد حضره الناسُ رافعًا أصبعَه وقد عقد تِسعًا وعشرين يُشير بالسّبّابة إلى السماء فحَسَر ثوبه عن رُكبتيه وهو يقول: "أبْشِرُوا معشرَ المسلمين هذا ربُّكم قد فتح بابا من أبواب السماء يُباهِي بكم الملائكةَ يقول يا ملائكتى آنظروا إلى عبادى هؤلاء قضَوْا فريضةً وهم ينتظرون أخرى". رواه حماد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن مُطَرِّف بن عبد الله أن نَوْفًا وعبد الله ابن عمر اجتمعا فحدث نَوْفٌ عن التوراة وحدّث عبد الله بن عمر بهذا الحديث عن النبيّ صلى

---

(١) جرت عادة المحدثين أنه اذا كان للحديث إسنادان أو أكثر ، كتبوا عند الانتقال من إسناد إلى إسناد «مدح» وهى حاء مهملة مفردة . والمختار أنها مأخوذة من التحول لتحوّله من إسناد الى إسناد ، وأنه يقول القارئ اذا انتهى اليها : «ح» ويستمر فى قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا حجز ؛ لكونها حالت بين الإسنادين ، وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ، وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : الحديث . وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصلوا اليها : الحديث . ثم هذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا وهى كثيرة فى صحيح مسلم قليلة فى صحيح البخاري . (راجع مقدّمة النووىّ على صحيح مسلم) .

الله عليه وسلم . ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أى لم تُؤمروا بالجهاد من غير تَقْوَى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لتكونوا على رجاء من الفلاح . وقيل : لعلّ بمعنى لِكَىْ . والفلاح البقاء ، وقد مضى هذا كله فى « البقرة » مستوفى(١) ، والحمد لله .

نُجِّز تفسيرُ سورة آل عمران من جامع أحكام القرآن والمبَيِّن لما تضمّن من معانى السنّة وآى القرآن بحمد ٱلله وعونه .

---

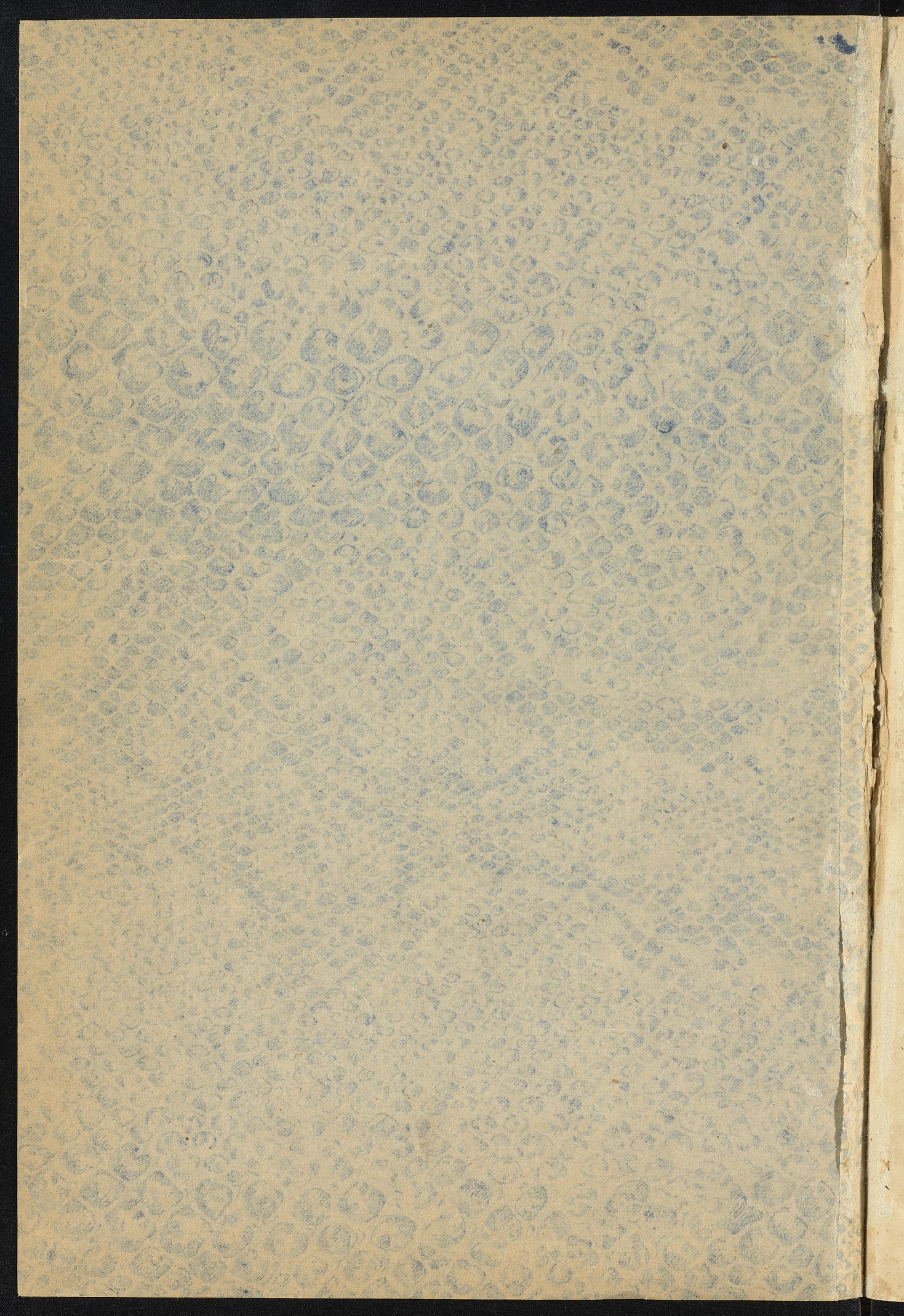
(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ ، ١٨٢ ، ٢٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

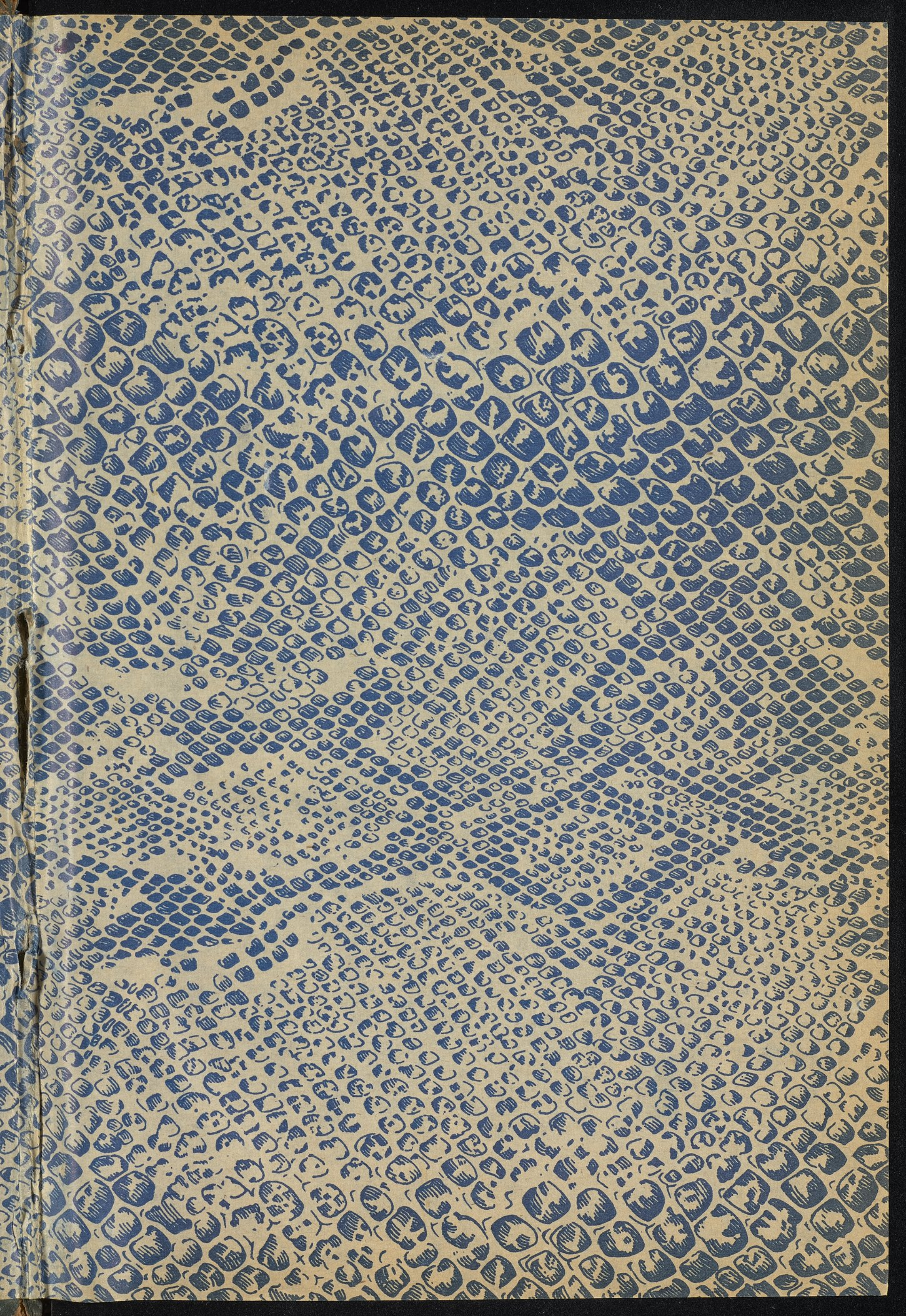
* * *

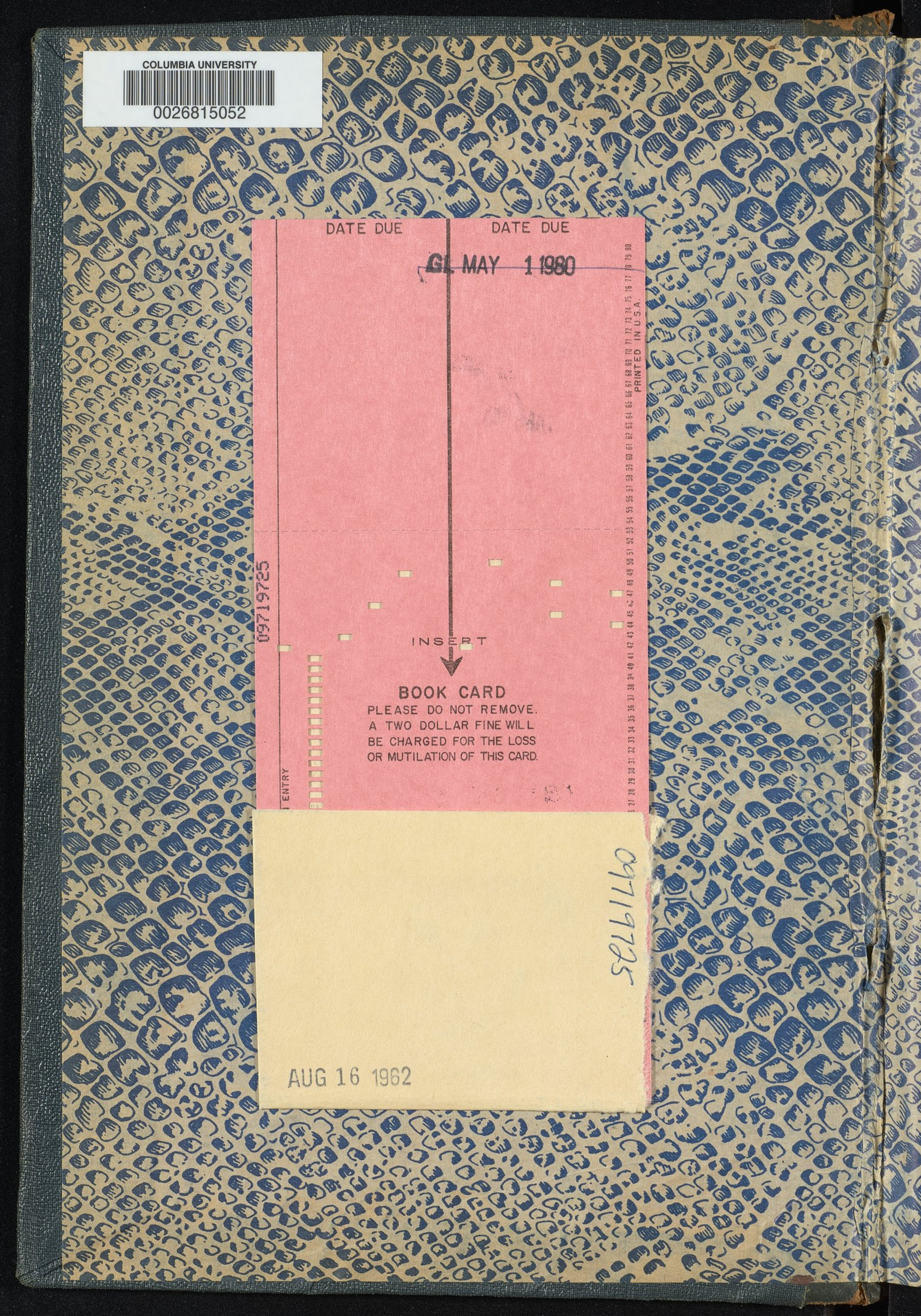
تمّ الجزء الرابع من تفسير القرطبي

يتلوه ان شاء الله تعالى الجزء الخامس ، وأوّله : سورة النساء

(مطبعة الدار ١٩٣٦/٨/٥٠٠٠)







COLUMBIA UNIVERSITY
0026815052
DATE DUE
DATE DUE
GL MAY 1 1980
PRINTED IN U.S.A.
09719725
INSERT
BOOK CARD
PLEASE DO NOT REMOVE.
A TWO DOLLAR FINE WILL
BE CHARGED FOR THE LOSS
OR MUTILATION OF THIS CARD.
ENTRY
09719725
AUG 16 1962

